جامعة آكلي محند أولحاج
-البويرة -

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة أكلي محند أو لحاج بالبويرة
قسم خاص بالعلوم الاجتماعية والإنسانية

معارف

المقاربة الجديدة للهوية الثقافية والدينية لدى المفكر الجزائري الدكتور حمزة بن عيسى
فرنسا الكولونيالية وسؤال الهوية في منطقة القبائل-
التصور الخصوصي للهوية الثقافية الجزائرية
النشاط التجاري التونسي خلال العهد الحسيني 1117 - 1246هـ/ -1705 1830م
الإسهامات السياسية والثقافية للنخب الجزائرية في أوروبا والمشرق العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين
الشعب الإذاعية المتخصصة وسيلة للهيمنة بين المثالية والواقع
طفوحات فشل السياسات التنموية بالمغرب على المحيط التعليمي: "العنف المدرسي أنموذجا
تدبير المسئول لكيفية تسيير مايقاء ظاهرة صحية أم مرضية؟
الحديث إلى النفس حسب نظرية فيجوتسكي لعلاج قصور الانتباه وتنشيط البناء المعرفي لدى متعلمي
مساهمة البنية العاملية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إكلينيكيا (دراسة حالة
تعدد الزوجات بين الخمر البرباري والواقع الاجتماعي
إسلامية المعرفة عند اسماعيل راجي الفاروقي

Depot 136 9 _ 2006 الإيداع القانوني
ISSN 1112 - 7007 ر.د.م.ك

العدد 18 / جوان 2015 (السنة العاشرة)

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة أكلي محند أو لحاج بالبويرة العدد 18 / جوان 2015 (السنة العاشرة)

Université Akli Mohand Oulhadj
-BOUIRA-

Revue académique editée par l'Université Akli Mohand Oulhadj -BOUIRA
Partie des Sciences Sociales et Humaines

MÂAREF

Revue académique

Les dispositifs numériques au soin des entreprises de presse en Algérie : Emergence de nouvelles formes de médiation.
Ardjouni Samir.

معارف

مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة آكلي محند أو الحاج بالبويرة

قسم خاص بالعلوم الإجتماعية والإنسانية

العدد 18 / جوان 2015 (السنة العاشرة)

معارف

مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة آكلي محند أو الحاج بالبويرة

قسم خاص بالعلوم الإجتماعية والإنسانية

العدد 18 / **جوان** 2015 **(السنة العاشرة)**

-المدير الشرفي: أ.د. موسى زيرق

مدير النشر: د.وهيبة بلعالية

- رئيس هيئة التحرير:

-مصطفى سعداوي

- أعضاء هيئة التحرير:

- زوينة حلوان
- سامية فرفار
- ياسين بودريعة
- صابر راشدي
- عفيفة جديدي
- أحمد سليماني
- علجية دوداح

Tele:+21326936968 **مكتب** Fax : :+21326936968

موقع الجامعة على الانترنت http://www.univ-bouira.dz/ar/

البريد الإليكتروني لرئيس التحرير salisada@gmail.com

صفحة المجلة على الفيس بوك facebook.com/revue.maaref

الإيداع القانوني : **Depot 1369 _ 2006**

ر.د.م.ك: **ISSN 1112 – 7007**

جامعة آكلي محند أو الحاج بالبويرة

البويرة – الجزائر

الهيئة الاستشارية (الدولية والوطنية)

الهيئة الاستشارية الدولية:

أ.د. عبد الله بلحاج (تونس)

أ.د. أحمد بن ناعوم (فرنسا)

أ.د عبد الرحمان عزي (الامارات)

أ.د كمال شاشوة (فرنسا)

أ.د احمد بوحسن (المغرب)

أ.د. محمد الحيدروسي (الاردن)

أ.د. محمد الزحيلي (سوريا)

أ.د. محمد ايت المكي (المغرب)

أ.د. إبراهيم حمداوي (المغرب)

أ.د. فريد الماسيوي (فرنسا)

الهيئة الاستشارية الوطنية:

أ.د. موسى زيرق (البويرة)

ا.د.عمار بن اخروف (البويرة)

أ.د. محمود بوسنة (الجزائر)

أ.د كمال بوزيدي (الجزائر)

أ.د. عمر بوساحة (الجزائر)

أ.د. محمد الأمين بلغيث (الجزائر)

أ.د. الطيب بلعربي (الجزائر)

ا.د.احمد دوقة (الجزائر)

ا.د . علي عزوز (الجزائر)

ا.د. علي براجل (باتنة)

أ.د محمد بومخلوف (الجزائر)

أ.د. زوبيدة بلعربي (البليدة)

أ.د. ارزقي شويتام (الجزائر)

د. عبد الباقي بدوي (البويرة)

د. كمال الدين قاري (البويرة)

د محمد برو (المسيلة)

د. عبد النور ارزقي (البويرة)

د.كريم مكيري (البويره)

د..صليحة بوماجن (البويرة)

لجنــة قراءة العــدد

أ.د نور الدين بوحمزة (جامعة الجزائر1)

أ.د (ة) فلة موساوي القشاعي (جامعة الجزائر2)

أ.د كمال شاشوة (إكس-مارسيليا، CNRS)

أ.د. زهير بغول (جامعة سطيف 2)

أ.د. ابراهيم حمداوي (جامعة القنيطرة، المغرب)

د. صليحة بوماجن (جامعة البويرة)

د الهادي بووشمة (جامعة سيدي بلعباس)

د. أحمد فلاق ((جامعة الجزائر3)

د. أعمر ناصر باي (جامعة المسيلة)

د. منيرة كواش (جامعة البويرة).

د. رضا بن مقلة (جامعة البويرة)

د. سعدية سي محمد (جامعة البويرة).

قواعد النشر في المجلة:

يشترط في البحوث والمقالات التي تنشر في مجلة معارف ما يأتي:

1- أن يكون البحث مبتكرا أو أصيلا، ويشكل إضافة نوعية في اختصاصه.
2- أن تتوفر فيه الأصالة والعمق وصحة الأسلوب.
3- ألا يكون قد سبق نشره.
4- أن يلتزم بالقيم الإنسانية وبمعايير البحث العلمي وبخاصة ما يلي:
   أ- الابتعاد عن التجريح والإسفاف في القول، والتعريض بالآخرين.
   ب- مراعاة البنية المنهجية.
   ج- ترقيم الهوامش والإحالات تكون إما أسفل النص في نفس الصفحة، أو في آخر المقال، مستقلة عن قائمة المصادر والمراجع.
   د- وضع قائمة بمصادر البحث ومراجعه.
5- أن تكون مكملات البحث من خرائط أو جداول في صورتها الأصلية.
6- أن يكون البحث المترجم مصحوباً بأصله المترجم عنه.
7- أن يقدم لإدارة المجلة مطبوعاً على الورق ومخزناً في قرص مدمج **CD** أو في وسيلة من وسائل استقباله في جهاز الحاسوب.
8- أن تقدم سيرة ذاتية للباحث في ورقة مستقلة عن البحث.
9- عدد كلمات البحوث النظرية بين 3000 و5000 كلمة حسب المقاييس الدولية، أي (بين20.10 صفحة بمعدل300 كلمة /صفحة) والكتابة تكون بخط: **traditionnel arabic-14**للغة العربية، وبخط: 12-**times new roman** بالنسبة للغة الاجنبية.
10- ترفق بالبحث ملخصات باللغات الثلاث (العربية والفرنسية والانجليزية) بما لا يتجاوز الصفحة الواحدة لكل لغة.

مع ملاحظة أن البحوث والمقالات:

. تخضع للتقويم العلمي واللغوي ويعلم الباحث بالنتيجة، كما أنها تخزن في أرشيف المجلة، ولا ترجع لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

. وهي تعبر عن آراء كتابها وحدهم ، فهم المسؤولون عن صحة المعلومات وأصالتها، ولا تتحمل الإدارة أي مسؤولية في ذلك.

كلمة التحرير العدد 18

عِماد العدد 18 من مجلة "**معارف**" ثلاثة عشر مقالا، لباحثين من عشرة جامعات من داخل الوطن وخارجه، ما يؤشّر على مدى الانتشار الذي حققته المجلة، ويعكس حرصها على فسح المجال أمام مختلف الكفاءات العلمية.

وتغطي موضوعات هذا العدد -بما ينسجم مع الخط الافتتاحي للمجلة- حقولا معرفية متنوعة؛ من دينية، ونفسية، واجتماعية، وتاريخية، وفلسفية، وإعلامية، ولعل الهاجس المحوري الذي ينتظمها جميعا، هو انخراطها في تبني انشغالات الراهن، في تماسٍ والتطلعِ المأمول، في أن تكون النخبة الجامعية سندا لتغيير منشود، ونهضة مستأنفة.

وفيما عنت بعض المقالات بموضوع الهوية من منظورات متباينة لكن متكاملة؛ إذ سلطت احداها أضواءً كاشفة على المقاربة الجديدة التي يطرحها المفكر الجزائري حمزة بن عيسى بهذا الخصوص، قادتنا أخرى في جولة سوسيولوجية الى سراديب التاريخ الكولونيالي بحثا عن جذور الاشكالات الراهنة التي تثيرها ذات المسألة، وانصب اهتمام ثالثة على الخصوصية الثقافية للهوية الجزائرية بنظرة اعلامية متوسمة.

وفي استطالة لأحد أبعاد هذه الهوية (البعد الاسلامي)، وضمن حدوده، عالج مقالان متميزان موضوعيْن متمايزيْن؛ إذ بينما آثر أحداهما الالتصاق بالواقع الاجتماعي معالجا إحدى ظواهره المثيرة للجدل؛ ألا وهي ظاهرة تعدد الزوجات، فضل الآخر التحليق في الأبراج العاجية لنظرية المعرفة بمعية أحد أساطين الفكر الاسلامي المعاصر.

أما قطاع آخر من مقالات العدد، فقد قاربت قضايا نفسية واجتماعية واعلامية، من منطلق معطيات دراسات ميدانية، ونتائج استبيانات علمية، تراوحت وجهتها بين العائلة والمدرسة والإدارة والصحافة، بما يعكس رهانات جريئة على تحقيق جودة التعليم، وكفاءة التسيير واستيعاب التكنولوجيات الحديثة، مع تجاوز شتى العوائق

القائمة؛ من عنف مدرسي، وقصور انتباه لدى بطيئي التعلم، وحالات حداد عند المتقاعدين حديثا.

ولم يغب التاريخ بحقوله المتشعبة ومقارباته المتنوعة عن فحوى الدراسات المنشورة؛ فترجل البعض على أرض الاقتصاد متمعنا التجارة في تونس الحسينية، ومخر البعض الآخر عباب السياسة مستكشفا "سياسة التهدئة (الاستعمارية)" في الجزائر الثائرة، وحلق من حلق في سماء الثقافة مستطلعا اسهام الانتلجنسيا الجزائرية شرقا وغربا.

ولا يفوتنا بهذا الصدد التنويه بجهود لجنة قراءة العدد، التي ضحّت من وقتها وجهدها، ما تهيّأ معه التئام هذه الدراسات الرائقة، وإخراجها في سياق مطمح إثراء معرفة، ومشغل ممارسة استفزاز.

فهرس المقالات	الصفحة
1- "المقاربة الجديدة للهوية الثقافية والدينية لدى المفكر الجزائري الدكتور حمزة بن عيسى"، أ.د. رشيد ميموني جامعة الجزائر 2، ترجمة/ عبد السلام عزيزي.	09 | 35
2- " فرنسا الكولونيالية و سؤال الهوية في منطقة القبائل " ب: حمدي عيسى و د: بلخير بومحراث ، جامعة– مستغانم.	36 | 57
3- التصور الخصوصي للهوية الثقافية الجزائرية، أ.حفيظة محلب: بجامعة الجزائر3	58 | 75
4- النشاط التجاري التونسي خلال العهد الحسيني 1117 - 1246هـ/ 1705- 1830م، أ. بوتوقوماس حفيظة، جامعة المدية.	76 | 98
5- الإسهامات السياسية والثقافية للنخب الجزائرية في أوروبا والمشرق العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، أ.د.خير الدين شترة، قسم التاريخ- جامعة المسيلة.	99 | 135
6- الشعب الإدارية المتخصصة وسيلة للتهدئة بين المثالية والواقع، هاشمي كوثر، جامعة قالمة.	136 | 153
7- طفوحات فشل السياسات التنموية بالمغرب على المحيط التعليمي: "العنف المدرسي أنموذجا" أ. أنس الصنهاجي ، جامعة – فاس- المغرب .	154 | 175
8- تغيير المسئول لكيفيّة تسيير سابقه: ظاهرة صحّية أم مرضية ؟ د. عبد النور أرزقـي، جامعـة البويرة.	176 | 208
9- الحديث الى النفس حسب نظرية فيغوتسكي لعلاج قصور الانتباه و تنشيط البناء المعرفي لدى بطيئي التعلم، ب . فلاح أحمد ب بجامعة مستغانم.	209 | 223
10- مساهمة البنية العائلية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا (دراسة حالة) أ. عمارة خيذر (جامعة بسكرة)	224 | 244
11- تعدد الزوجات بين الأمر الرباني والواقع الاجتماعي، أ جلول سعودي - جامعة قسنطينة2	245 | 271
12- إسلامية المعرفة عند اسماعيل راجي الفاروقي، أ.فطوم موقاري، جامعة الجزائر	272 | 286
-13Les dispositifs numériques au sein des entreprises de presse en Algérie : Emergence de nouvelles formes de médiation. Ardjouni Samir.	287 | 286

المقاربة الجديدة للهوية الثقافية والدينية

لدى المفكر الجزائري الدكتور حمزة بن عيسى أ.د. رشيد ميموني جامعة الجزائر2

ترجمة/ عبد السلام عزيزي

الملخص

"المقاربة الجديدة للهوية الثقافية والدينية لدى المفكر الجزائري الدكتور حمزة بن عيسى"

يستقطب موضوع الهوية اهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية عامة و علم الاجتماع بفروعه بالخصوص. اقتحمت مسألة الهوية الفضاءات السياسية و الاجتماعية و الدينية في الجزائر و تمثّل رهانا هاما عند وضع السياسات على المستوى المحلي و الوطني للحفاظ على الوحدة الوطنية ، التناغم الثقافي و التماسك الاجتماعي.

يقدم د.حمزة بن عيسى طرحا جديدا للهوية الثقافية و الدينية يعتمد على مقاربة نظرية شاملة مستمدة من تصور يدمج فيه التحليل النقدي للعلوم الاجتماعية و التاريخ وفلسفة التاريخ و التصوّف و منظور "التقليد" لدى René Guénon و آراء مالك بن نبي فضلا عن عطاءات البيولوجيا .

بعد إظهار محدودية النظرة الاختزالية للعقلانية التطورية للعلوم الاجتماعية الغربية وقصورها في الإلمام بأبعاد الإنسان المختلفة والمجتمع و الثقافة ، اقترح منظورا بديلا يهدف إلى تحقيق توازن متناغم بين المستويات الثلاث للهوية : التشريحي الفيزيولوجي ، الأثنولغوي و الروحي ، مع مبدأ "الإدماج الإرتقائي" انطلاقا من المستوى الروحي. ثم يعرّج على العناصر المكوّنة للهوية الثقافية الجزائرية ، فيدعو إلى إعادة الاعتبار للحقبة التاريخية المسمّاة "البربرية الإسلامية" في إطار " المجال التاريخي لشمال إفريقيا" و يحثّ على إعادة القراءة و تثمين التراث الأمازيغي المادي و اللّامادي (آداب، فنون، زخرفة، رموز، معالم أثرية...) وفق منظور روحي و ليس فقط حسب مقتضيات البقاء البيولوجي.

قدّم دراسة تحليلية لأحد أقطاب الصوفية في منطقة القبائل: "الشيخ محند أولحوسين" لتقييم مدى مساهمة كل من التراث الأمازيغي و التكوين الصوفي في اصطباغ شخصيته.

يصيغ حمزة بن عيسى مفهوم الهوية الثقافية و الدينية بمنظورمتكامل و متوازن للأبعاد و بكيفية تساهم في امتصاص الأزمة النابعة من حصر الهوية في الدائرة الأثنولغوية ، الأمر الذي يساعد في مواجهة العولمة الزاحفة.

Résumé :

« L'approche nouvelle de l'identité culturelle et religieuse chez le penseur algérien Dr Hamza Benaïssa ».

Le thème de l'identité suscite l'intérêt des chercheurs dans les différentes disciplines des sciences sociales en général et en sociologie en particulier ; la problématique de l'identité a investi les espaces politiques, sociaux et religieux. En Algérie elle représente un enjeu important dans la définition des politiques (au niveau local et national) afin de préserver l'unité nationale, l'harmonie culturelle et la cohésion sociale.

Dr Hamza Benaïssa présente une nouvelle approche de l'identité culturelle et religieuse reposant sur une démarche théorique globale incluant l'analyse critique des sciences sociales, l'histoire, la philosophie de l'histoire, le Taççawwouf, la notion de Tradition chez René Guénon, la conception de Malek Bennabi ainsi que les apports de la biologie ; après avoir relevé les limites de la vision réductrice du rationalisme des sciences sociales occidentales et son incapacité à appréhender les différentes dimensions de l'Homme, de la Société et de la Culture , il propose une nouvelle conception (alternative) visant à réaliser un équilibre harmonieux entre les trois niveau de l'identité : anatomo-physiologique, ethnolinguistique et spirituel, prônant une démarche « d'intégration ascendante » de ces dimensions à partir de l'axe spirituel.

Hamza Benaissa aborde ensuite les composantes de l'identité culturelle algérienne et nous invite à réhabiliter la phase historique de la « berbérité islamique » dans le cadre du « champ historique de l'Afrique du Nord » et de reconsidérer le patrimoine matériel et immatériel Amazigh (littérature, arts, décoration, symboles, monuments historiques…) selon une conception spirituelle et non selon les exigences de survie biologique. Un de ses ouvrages est consacré à un des pôles de la spiritualité Soufie en Kabylie : Cheikh M'hand Oulhocine afin d'évaluer la synthèse des apports du patrimoine amazigh et de sa formation soufie dans le façonnement de sa personnalité. Cette conception harmonieuse et équilibrée entre les dimensions de l'identité chez Benaïssa est susceptible de désamorcer la crise identitaire qui s'aggrave lorsque l'identité est réduite à la seule dimension ethnolinguistique.

Abstract :

"The new approach of the cultural and religious identity by the Algerian thinker Dr Hamza Benaissa."

Pr Rachid Mimouni

The theme of identity is of great interest to researchers in the various disciplines of the social sciences in general and in sociology in particular; the issue of identity has invested political, social and religious spaces. In Algeria it is an important issue in the delineating of policies (at local and national level) in order to preserve national unity, cultural harmony and social cohesion.

Dr Hamza Benaissa presents a new approach to cultural and religious identity based on a comprehensive theoretical approach including critical assessment of the social sciences, history, philosophy of history, the Taççawwouf, the concept of Tradition in Rene Guénon, Malek Bennabi's conception and the contribution of biology. After noting the limitations of the reductionist rationalist approach of western social sciences and its inability to understand the different dimensions of Man, Society and Culture, he proposes a new (alternative) design to achieve a harmonious balance between the three levels of identity: anatomic physiological, ethno-linguistic and spiritual, advocating an "ascendant integration" approach of these dimensions from the spiritual axis.

Hamza Benaissa then analyses the components of the Algerian cultural identity and invites us to rehabilitate the historical phase of "Islamic Berberity" within the "historical field of North Africa" and to reconsider and value the material and immaterial Amazigh Heritage (literature, arts, decoration, symbols, historical monuments ...) according to a spiritual conception and not by reducing it to the biological requirements of survival. One of his books is dedicated to one pole of Sufi spirituality in Kabylie: Cheikh M'hand Oulhocine to assess the synthesis of the Amazigh heritage and the Sufi training in shaping his personality. This harmonious and balanced design between the dimensions of identity in Benaissa's work is likely to defuse the identity crisis that worsens when the identity is reduced to the single ethnolinguistic dimension.

مقدمة

يشكّل ظهورُ مفهوم الهُويَّة في المجال الثقافي والديني واللغوي والإيديولوجي والسياسي تحديًّا كبيرًا لوضع سياسات مناسبة على المستوى المحلي والجهوي والوطني من أجل الحفاظ على وحدة الدولة-الأمة والتماسك الاجتماعي، ورهانًا أساسيا في سياق العولمة وظهور أشكال جديدة للهيمنة.

وقد حظي تعريف ومعالجة مفهوم الهويّة بأبعادها المختلفة المتفاعلة باهتمام كبير في العلوم الإنسانية والاجتماعية: علم النفس، علم الاجتماع، العلوم السياسية، الفلسفة..، فبالنسبة لتخصص علم الاجتماع مثلا يشكل هذا المفهوم موضوع دراسة في علم الاجتماع الثقافية والدينية والصناعية أين تتم دراسة مختلف أنماط وكيفيات كسب الهُويّة وتفعيل مكوّناتها المتعددة ودرجة تراكب وتداخل مختلف مستوياتها: الفردي، الجماعي، الوطني، اللغوي، الديني، المهني، الإثني أو العرقي، إلخ.

إن تطور العالم بعامة والمجتمع الجزائري بخاصة، والأزمات التي تظهر تباعا، وضعف دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية: الأسرة، المدرسة، المهنة، الانقسام اللغوي للنّخب، انتشار تكنولوجيات الإعلام والاتصال والثقافة، كل ذلك خلق تعاظلًا أو تناقضًا وجدانيًّا ثقافيًّا زاد من حدّة أزمات الهويّة.

يمكننا إجمالاً إبراز أربعة توجّهات واسعة حول تصور الهويّة الثقافية:

1. التوجّه القائم على تحديد الهويّة ضمن الإطار الديني وفضاء اللغة العربية ؛
2. التوجه الذي ينادي بالانفتاح على الغرب ويناشد الهويّة المتوسّطيّة ؛
3. التوجه الذي يرتكز ويتشبّث بخصوصية اللغات المحلية (تمازيغ) بتبنّي اللغة الفرنسية كلغة علم وتواصل ؛
4. التوجه الذي ينادي إلى المثاقفة التي ترتكز على تركيبة أصيلة بين العناصر الثقافية "العالمية" وقيمنا الثقافية والدينية بهدف الاستفادة من محاسن العولمة من دون الوقوع في الاغتراب الثقافي.

ففي هذا السياق المعقّد ثقافيا والحسّاس سياسيا والمفعم بالرهانات الإستراتيجية لإعادة تعريف وتحديد أسس مشروعنا الاجتماعي في بعديْه الهويَّاتي والثقافي، أعرض بين يدي القارئ معالجة المقاربة الأصيلة لمفكّر جزائري يطرح فيها الإشكالية في منظور تحليلي قويم وكفيل بالمساهمة برفع الكثير من الغموض، وإعداد تصور "سليم من

الاضطراب" لعلاقتنا بالهويّة والتاريخ، وتحمُّل كامل مسؤوليتنا إزاء تحديّات المستقبل: إنه الدكتور حمزة بن عيسى ذو المسار العلمي النوعي والمتميّز والذي صدر له ما يفوق العشرين كتابا منها جزءٌ كبير يعالج أبعاد الهويّة ولكن يبقى مع ذلك غير معروف في الجزائر إلا قليلاً.

حمزة بن عيسى: مسار فكري متميّز وإنتاج علمي وفير

قبل تناول مقاربة بن عيسى حول موضوع الهويّة، يجب أولا التطرق إلى إنتاجه الفكري. يخرج الدارسُ المتمعنُ لعمل بن عيسى بملاحظتين اثنتين: أما الأولى فتخصّ القيمة العلمية الكبيرة التي يكتسيها عملُه وتنوّع المواضيع المتناولة: الثقافة، التاريخ، الدين، التصوّف، علوم الاجتماع ؛ والثانية مرتبطة بأصالة أطروحته وصعوبة فهم بعض من مؤلَّفاته التي تقوم مرجعيّتُها على مفاهيم مأخوذة من مجموع الاصطلاحات المستعملة في العلوم الاجتماعية، والفكر الصوفي وبخاصة من عند العارف رينيه غينو René Guénon.

يتبيّن إذًا من الضروري وضع مكانة المؤلف في سياق تكوينه وتحديد التأثيرات الفكرية التي شكّلت شخصيّته. يعطينا ملخصُ سيرته الذاتية المدرجُ على ظهر كتبه معلوماتٍ وافيةً حول مختلف مراحل تكوينه: "وُلد حمزة بن عيسى سنة 1947 بولاية تيزي وزو، يحمل شهادة دكتورا في الطب وجرّاح أعصاب. يصبح بداية 1966 أحد المشاركين الأوفياء في الملتقى الأسبوعي الذي كان ينظّمه مالك بن نبي لدراسة مشكلة دورة الحضارة للمجتمع الإسلامي، حيث تعلّم الصرامة في صياغة الأطروحات. كما اهتم بالفلسفة والتاريخ و علم الاجتماع وعلم النفس والبنيويّة. بدأ في سنوات السبعينيات يدرك شيئا فشيئا محدوديّة العلوم الاجتماعية التي أصبحت مشبعة بمذهب الثّنويّة الديكارتي القائم على الثنائية (روح/مادة) الذي أثّر فيها وجعلها لا تمنح للإنسان أية غاية وجودية أخرى من غير غايته الحيوانية القائمة على مفهوم الصراع من أجل البقاء. وتعزّزت تحفظاتُه في هذا الاتجاه بفشل المجتمع الاستهلاكي الذي بات في حاجة إلى توازن يجب إحقاقُه على مستوى أفراده ولن يتم ذلك إلا بـ "التطور العلمي والتقني". يقرأ حمزة بن عيسى سنة 1974 مؤلفات رينيه غينو (عبد الواحد يحيى) التي فتحت له الأبواب على الفكر التقليدي المأثور، أي تلك النظرة إلى العالم التي لا تقصي أيّ معطى من المعطيات وإنما تمنح الأولوية للقيم الروحية السامية من أجل الوصول إلى الفهم

السليم للإنسان ووضعه في هذا الكون ومعنى وجوده الأخير ؛ هكذا اكتشف عالم التصوف وقضاياه الفكرية المعالَجة من قبل كبار ممثّليه مثل أبي حامد الغزالي وبن عربيّ والأمير عبد القادر الجزائري".

يمكننا أن نستخلص من هذه اللمحة الوجيزة للسيرة الذاتية أن حمزة بن عيسى هو مثقّف متنبّهٌ يقظٌ اهتم بكل الإشكاليات والتيارات النظرية التي كانت شائعة سنوات السّتينيات والسّبعينيات. فهو متميّز لكونه يتناول مواضيعَه على ضوء مسعى ذي نظرة نقدية متمحورة حول مقاربة رينيه غينو وفكر مالك بن نبي ومفكّرين آخرين استلهم منهم أفكاره مثل توانبي Toynbee وسبلنجر Spengler وبن خلدون في ميدان فلسفة التاريخ.

احتفظ حمزة بن عيسى بمخطوطاته ولم يقم بنشرها إلا في سنوات 2000 نظرا للظروف التي كانت تمرّ بها الجزائر في تلك الفترة وما شهدته من اللاَّستقرار أمني، مما يفسّر سبب تأليفه ثم نشره في وقت وجيز (لا يتعدى ثلاث عشرة سنة) ما يفوق عشرين كتابا. يعدّ كتابه [*Les fondements idéologiques de l'anthropologie moderne*] "الأسس الإيديولوجية للأنتروبولوجيا المعاصرة" الذي نُشر في 2007 من بين أهم مؤلفاته، والذي يتضمّن تحليلاً إبستيمولوجيّا نقديّا لبعض كبريات النظريات في علم الاجتماع من بينها التّطوريّة والبنيويّة والماركسيّة والتحليل النفسي، وكذا التصورات التي تحملها كل هذه المذاهب عن الطبيعة والدولة والدين.

أسعى في هذا المقال إلى معالجة تصور الهويّة لدى بن عيسى، فبعد قراءتي الشاملة لأعماله استوقفتني ثلاثة من كتبه تتناول مواضيع في الهويّة والدين والتاريخ. أما الأول فعنوانه [*Tradition et identité*] "التنزيل والهويّة"، يتعرّض فيه بالتحليل إلى أبعاد الهويّة وتداخلها عبر التاريخ ومختلف التصورات المعاصرة (علوم الاجتماع) والتقليدية للهويّة. وجاء الكتاب الثاني في عنوان [*Quelques remarques sur l'histoire de l'Afrique du Nord*] "بعض الملاحظات حول تاريخ إفريقيا الشمالية"، الذي أراده تكملة للكتابه السابق حيث يحاول أن يعيّن ويحدّد ويعلّم فيه أهمَ وأكبرَ ما طبع ووسم ودمغ الهويّةَ عبر مختلف مراحل التاريخ التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا. ويتناول في كتابه الثالث تحت عنوان [*Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*] "الشيخ مُحند أولحسين: شاهدٌ على الإسلام"، سيرة أحد المشايخ الصوفيّة للقرن التاسع عشر

والنقاش الفكري الذي أثاره مولود معمري حول سبقيّة العامل الثقافي القديم (تمازيغ) أو التعليم الديني الصوفي لدى الشيخ.

التصور النظري والمسعى المنهجي: تحليل نقدي للعوم الاجتماعية وتبني المنظور التقليدي المأثور

انطلاقا من تشبّعه بفكر بن نبي ورينيه غينو يرفض حمزة بن عيسى وينتقد المقاربة الديكارتيّة الإقصائية، ثم يتناول بالنقد المفصّل العلوم الاجتماعية. ويعيب على العلوم الإنسانية والاجتماعية كونها تتناول مواضيعَ ومسائلَ ليس في مقدور تخصّصاتها التحكم فيها، وتطبّق نظرياتٍ غير مناسبة مثل نظرية التطوّريّة، وتسير وفق مسعى منهجي غير ملائم، فهي مثقلة بالأحكام الإيديولوجية المسبقة التي تعيقها على امتلاك تصور شامل عن الإنسان والمجتمع لأنه يحرّكها نزعةٌ عقلانيّةٌ إقصائيةٌ ترفض كل حقيقة لا يُمكن للعقل أن يدركها. "تحاول العلوم الإنسانية والاجتماعية أن تحدد ضمن مجالها معطيات ذات ماهيّة تتجاوز هذا المجال ذاته كالدين مثلا"[1] ؛ فبتجاوزها اختصاصات ميدانها الإبستيمولوجي، ترتكب العلوم الاجتماعية لا محالة أخطاء في التحليل مما يُبطل نتائجها آليا: "إما أنها تخلط ميادينها الخاصة مع الحقيقة بحد ذاتها مثل مفهوم المجتمع، أو تفضل الاعتماد على أحد العوامل الموجودة مثل الاقتصاد، أو تخلط بين ماهيّة الإنسان وشعوره الباطن. لا تمثّل هذه العلوم سوى ميدان واحد من المعرفة حيث يتوسع العقلُ الاستدلالي المقالي-التحليلي، ولا يتجاوز مداها الحقيقيُّ حدودَ المجال الإبستيمولوجي المحصور ضمن الأصناف العشرة لأرسطو، أي الفرد وما يحمله من عموميات وخصوصيات. كما ترفض قبول فكرة أن الطبيعة هي انعكاسٌ رمزيٌّ لمبدئها المتعالي، فالعقلانيّة تنكر كلّ بعد ميتافيزيقي وتخلط بين الدين و"الإسقاط المثالي" للذاكرة الجمعية، وتمثّل الدين لدى الفرد الراشد على أنه تعبيرًا عن حاجته الطفولية للأمن لما يدرك حقيقة ضعفه وعجزه"[2].

يضع بن عيسى في خضم تحليله حدودا لـ "الذكاء الحداثي" المشدود إلى العقلانية: "فنتيجة لإقصاء هذه الأخيرة للدّين لما يواجهها رمزٌ من رموز الميتافيزيقية مثلما هي

[1] Benaissa, Hamza, *Le Maghreb dans le discours des sciences humaines et sociales : les enjeux idéologiques*, Alger, Edt. El-Maarifa, 2009, p. 2.

[2] Benaissa, Hamza, Idem, p. 2.

طبيعة كل وحيّ، فإنها تنزله من مقامه المتعالي اللاّزمني إلى مرتبة البشر الدنيا ليُحمل بوصفه مجرد "إسقاط مثالي" للخيال الخصب، بالشكل الذي يتمّ فيه إخضاع البحث عن معنى الوحيّ النهائي للتحليل النفسي و علم الاجتماع "[3]. وهذا يعدّ انحرافا لأن الدين يأتي عن مصدر ميتافيزيقي لهداية الإنسان وتنويره طبقا لوضعه الروحي. هذا وحسب "المقاربة التحليلية-النفسيّة التي لا تخص إلا الشعور الباطني للإنسان، فإن الدين ينشأ ويتولّد عن غرائزَ وعن الحضارة البربريّة"[4].

تتعسّف العلوم الاجتماعية في اعتمادها مرجعيا على مفهوم "المخيال الديني" الذي يعدّ لفظا-حشوّا وخلطا يُستخدم لوضع الدين ذي الطابع المتعالي في نفس المكانة مع التعبيرات المنحرفة (والشيطانية) الصادرة عن التقليد المتوارث والمتّصلة بالشعور الباطني مثل السحر والشعوذة والوثنيّة وعبادة الحيوانات، لأن "الباحث الغربي مزوّد ومتشبّع بتصورات ومخططات تأويليّة صُنّعت على النار التي نزعت القدسية عن الوجود"[5].

إن هذا التصور العقلاني الإقصائي نجده أيضا ممتدا إلى ميادين أخرى كالفكر وطبيعة الإنسان والهويّة: "أصبح الفكر متحرّرا..، يعتبر التفسيرُ الحداثي الفكرَ كتتويج لسيرورة مذهب التطوريّة، ويبقى هذا الفكر القوة المفضّلة التي تثيرها التحدّيات الخارجية من أجل إخضاع النظام البيئوي لغرائز الإنسان لا لهدف سوى البقاء البيولوجي"[6]. يفصّل بن عيسى النتائج الوخيمة للتّبني غير الحكيم للثّنويّة الديكارتية على مختلف المستويات: "فكل مرة يأتي فيها معطى من المعطيات مرتبطا بهويّة روحيّة، إلا ويتم إبعادُه أو على الأقل يُفسّر بطريقة منحرفة بحجة أن الرُّوحَ ليست سوى تجريد نظري، فنتج عن ذلك تصورٌ متشبعٌ بالنزعة التّطوّريّة التي تعتبر الإنسان نتاجًا وسنادًا لمستقبل غير مقدّر ولا تمنحه سوى غاية واحدة ذات الطابع البيولوجي والطبيعي، هذا مما أعطى أهمية كبرى

[3] Benaissa, Hamza, *Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*, Alger, Edt. El-Maarifa, 1997, p. 6.

[4] Benaissa, Hamza, Idem, p. 6.

[5] Benaissa, Hamza, *Le Maghreb dans le discours des sciences humaines et sociales : les enjeux idéologiques*, Op cit, p. 12-13.

[6] Benaissa, Hamza, *Tradition et identité*, Alger, Edt. El-Maarifa, 1996, p. 29.

ومفرطة للعوامل المتصلة بالجماعات القديمة[77] في نشوء الحضارات والحفاظ على المجتمعات الإنسانية الصغيرة.

حسب حمزة بن عيسى فإن العقلانيّة والفكر الحداثي اللذين "يأخذان الميدان السيكولوجي والثنائية "مكان/زمن" على أنهما يمثلان الحدود النهائية للذات، قد سدّا الطريق أمامها المؤدي إلى ما لا نهاية[8]. أما علم الاجتماع فهو "تحركها الخرافة الماركسيّة القائمة على الماديّة التاريخيّة: فظهور أو انتشار دين من الأديان ليس هو إلا تعبيرًا عن بنيّة فوقيّة إيديولوجية للهيمنة"[9]. بعدما عرض بالشرح حدودَ العلوم الإنسانية والاجتماعية لدراسة الإنسان بالنظر إلى الدغمائيّة التي تتميّز بها المقاربة العقلانيّة والتطوّريّة، يقترح بن عيسى مسعى بديلاً مأخوذًا عن العلوم القديمة المأثورة التي تضع تصورًا تراتبيّا وتسلسليا لحالات العالم يقوم أساسا على المكانة المركزية للإنسان ووحدته الأونْطولوجيّة وعلى أسبقيّة الجانب الروحي منه من البُعدين الاثنين الآخرين. مثل هذه المقاربة حساسة للغاية لأنها تقوم على معرفة باطنيّة مبهمة لا يدركها إلا الخاصّة مما يجعلها صعبة الفهم الأمر الذي جعل المثقّفين المشبعين بالنزعة العقلانيّة يرفضونها.

سنتطرق إجمالا إلى هذه المقاربة لتناول المسألة الخاصة بمستويات الهويّة. تقوم مجمل المعارف المأثورة حسب رينيه غينو على البُعد الباطني الخفيّ للأديان وعلى ممارسات رمزيّة تسمح للإنسان بأن يطوّر علاقته مع العالم الميتافيزيقي والحقيقة النهائية للإله الأوحد. نقصد بالمأثور ما ورثه الخلفُ عن السلف من بين الحقائق المتصلة بالإيمان التي لم يأتِ ذكرُها مباشرة عن طريق الوحي لكن تأسست عن طريق التعليم والتلقين المتواصلين والمؤسسات التابعة لهذا الدين أو ذاك. والمأثور واحدٌ لكن غالبا ما يكتسي أشكالاً شتى عبر التاريخ حسب الظروف التي تمرّ بها الشعوب والثقافات. تتعرّض المنظومات العقائدية المأثورة إلى تقلبات وصروف الدهر فتضمحل وتنفك، لكن الخلاص بالنسبة لها يكمن في تمسّكها بمأثور حيّ مثل الديانة الإسلامية.

[7] Benaissa, Hamza, Idem, p. 106.

[8] Benaissa, Hamza, Idem, p. 12.

[9] Benaissa, Hamza, *Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*, Op cit, p. 6.

يأخذ حمزة بن عيسى كمثل الشعب البربري-الأمازيغي الذي يُحتمل انتماؤه إلى الثقافة الأطلانْطسيّة نسبة إلى جزيرة أطلانْطس Atlantis التي اندثرت منذ آلاف السنين، واعتنق تدريجيا الديانة اليهوديّة ثم المسيحيّة ثم الإسلام. "ما من تصور كوزمولوجي تقليدي خاص بالكون.. لدى كل الشعوب وفي كل العصور والأزمنة من عالمنا هذا الذي نشأ عن "الأمر الإلهي: كُنْ"، إلا وتجد فيه ترتيبا غير محدد للعوالم يتخلله ترتيبٌ آخر فرعيٌّ ضمن كل قسم. وإذا اقتصرنا على أبعاد عالمنا نحن، فإنّا نجد تقسيمه التراتبي يشتمل من الأعلى إلى الأسفل على العالمَ الرّوحي، والعالمَ الوسيط أو النفسي، والعالمَ المادي المجسّد"[10]. في المأثور الإسلامي يتطابق هذا التقسيم الثلاثي مع عالم الأرواح، وعالم البرزخ، وعالم الأجسام ؛ أما في المأثور الهيليني-الإغريقي فذلك يتطابق مع الروح pneuma، والنفس psyché، والجسم soma. "والحقيقة أن ترتيب الحالات (الثلاث) وتسلسلها يفترض أن كل حالة متعالية نسبيا تلعب دور العلّة بالنسبة للحالة الخاضعة لها، وعلى العكس تلعب الحالة الخاضعةُ نسبيا دورَ التعبير الرّمزي للحالة التي تهيمن عليها نسبيا، هذا بالشكل الذي يلعب فيه عالمُ الرّوح دور العلّة بالنسبة لعالميْ النفس والجسد وأن هذين نفسيْهما يمثّلان فيه التعبيرَ الرّمزيَّ"[11].

يقوم التكامل في إطار "الحالة البشرية" على ثلاثة مستويات:

1- المستوى المنطقي والنفسي الذي يتطابق مع مستوى العقل الاستدلالي.
2- المستوى الديني واللاّهوتي الذي يتطابق مع المجال الكوزمولوجي أي مع تجليّات صفات الله تعالى، من حيث هي تمثّل عوالمَ متعددة تتحرك في تفاعل متبادل مع النواتج الضرورية للخير والشر، للأسمى والأدنى، للتعاقب ضمن سيرورة المكان والزمان.
3- المستوى الأونطولوجي الذي يتطابق مع الدمج السامي أو التكامل المستوعِب لحالات الذات المتعددة، ويُطلق على هذا في المأثور الإسلامي بـ "التوحيد" ؛ أما المستوى الميتافيزيقي فيتطابق مع المطلق غير المشروط، فالمعرفة الوحيدة التي لدينا إذًا هي أننا لا نعرفه"[12].

[10] Benaissa, Hamza, *Tradition et identité*, Op cit, p. 10.
[11] Benaissa, Hamza, Idem, p. 11.
[12] Benaissa, Hamza, Idem, Op cit, p. 46.

يؤكد بن عيسى في الأخير بخصوص مكانة الدين في هذا الترتيب على أن "العقيدة والشعائر التعبّديّة والأحكام.. أي كل ما هو يميّز أي دين من الأديان، ليس هو إلا انعكاسات تتجلّى في عالمنا ذي الأساس اللاَّزمني الثابت الوجود. كذلك تلعب هذه التدابير والتعاليم بالنسبة للإنسان دورَ المحور المرجعي الضروري للتحكّم في مصير اغترابه وتغيير وجهة قدره عن طريق الخلاص"[13].

أي طريق سينتهجه مثل هذا التصوّر للعلوم المأثورة لمعالجة مسألة الهويّة ؟ يتم الإجراء بتعزيز معطيات علم الإحاثة التجريبي والمعطيات الكوزمولوجيّة على أساس وحدة الإنسان وبدمج تكاملا مختلف مستويات الهويّة على أساس أولويّة وأفضليّة المستوى الروحي.

الدمج التكاملي لمستويات الهويّة الثلاثة: التشريحي-الفيزيولوجي، العرقي-اللساني، الروحي

يقوم بن عيسى بتحليل مفهوم الهويّة المعقّد ومختلف مستوياتها في العديد من كتبه وعلى وجه الخصوص في كتابه [T*radition et identité*] "التنزيل والهويّة". فهو يؤمن بالوحدة العضوية والنفسية والروحيّة للكائن البشري بعيدا عن الاختلافات العرقيّة والثقافيّة واللغويّة. لنفحصْ طريقته في العرض التي تذكّرنا بطريقة المفكّر مالك بن نبي، بحيث يبدأ بتقديم تعريف خاصّ بالموضوع المتناوَل متبوع بعرض لمختلف التصورات يرفقه تذكيرٌ تاريخي عند الاقتضاء، ويدرج مؤلفاته ضمن سلسلة "آفاق حضارية" التي كان ينشّطها بنُ نبي.

يعتمد إذًا بن عيسى في مرجعيته الفكرية على مختصين مثل عالم البيولوجيا بيير غراس Pierre Grassé في كتابه [E*ssai sur l'histoire naturelle de l'homme*] "دراسة حول تاريخ الإنسان الطبيعي"[14] للتأكيد على هذه الوحدة الأساسية للإنسان: "لا تخرج الخاصيّاتُ العرقيّةُ مهما كانت أهميتُها عن إطار النوع (البشري) الذي منه تقوم دراسةُ الإنسان المعاصر وإنسان الحفريَّات القديم بإبراز الوحدة والتأكيد عليها.. إن بني البشر أشقاءُ وليس أبناءَ عمّ أو خال"[15]. وإنّ الخاصية الجوهرية التي تؤسس الوحدة النفسية

[13] Benaissa, Hamza, *Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*, Op cit, p. 37.

[14] Grassé Pierre, *Essai sur l'histoire naturelle de l'homme*, 1971, Paris, Ed. Albin-Michel, p. 129.

[15] Benaissa, Hamza, *Tradition et identité*, Op cit, p. 28.

للإنسان هي قدرة هذا الأخير على التفكير الذي نجده موزّعا أيضا بين جميع الأعراق والملل، بالإضافة إلى أن تصور الوحدة النفسيّة في نظر المأثور يجد قوّته في الطبقات الكوزمولوجية: سماء/أرض، مذكر/مؤنث..".

ثم اعتمادا على هذه المعطيات العلمية التي يتعذّر دحضُها، يعزّز بن عيسى أطروحته المؤسسة على سيرورة التكامل المرتقية لمختلف أبعاد الإنسان الأسمى بتحقيق البعد الروحي فيه: "فبتطبيق قوانين هذه السيرورة المرتقيّة للتكامل، يمكننا القول أنه يوجد علاقة هويّة بين الإنسان والكون الذي يعيش فيه لأن التركيبة المادية للأول تتضمن مجموع العناصر المعدنيّة التي نحصيها في الثاني ؛ ونضيف أيضا أنه من وجهة نظر النشاطات البيولوجية والفيزيولوجية، يتماثل الإنسان شبهًا مع مملكة النباتات ومملكة الحيوانات، وأنه من خلال الوحدة التشريحية-الفيزيولوجية التي يتميّز بها جميعُ الناس - أي الكائنات البشرية- فهؤلاء متساوون ومتشابهون بغض النظر عن اختلافاتهم العرقية وخصوصياتهم النفسية. نلاحظ في الأخير أنه من خلال مكانته المركزية والمحورية بالنسبة إلى العالم، فإن الإنسان يقوم شبهًا بالروح (سورة الحجر، الآية 29 ؛ سورة ص، الآية 72)[16]".

أما الهويّة الروحية فتشمل ثلاثة مستويات:

- يتمثل المستوى الأول (الخارجي) في "الالتحاق بمنظومة عقائدية معينة ليضمن الإنسان لنفسه العقيدة والشعائر التعبدية والأحكام ؛ إنه الجانب النفسي والاجتماعي والتاريخي الوحيد الذي يتيح الطريق نحو البحث الواقعي..".
- يكمن المستوى الثاني (الأعلى) "في الكيفية الإجرائية لمعرفة الإنسان مداخل ومخارج التسلسل السببيّ لوجوده هو والكون. تشمل هذه المعرفة عالمَه المباشرَ وتمتدُّ عند البداية إلى الحالة التي سبقت نشأته البشرية الأولى، وإلى وضعه بعد الممات عند النهاية ؛ فبمجرد تقبّله والتزامه بالأحكام العقائدية والتعبّديّة والشرعية للدين إلا ويصاحبه انفتاحًا عقليًّا وفكريًّا كبيرًا. يتجسّد هذا الانفتاح في التصوّر الرمزي للحقائق في مرتبة أعلى من تلك التي يصطنعها العقل الاستدلالي، ويترجَم على أقصى تقدير إلى حالة يقين أعلى من تلك

[16] Benaissa, Hamza, Idem, p. 28.

المعهودة لدى المؤمنين والفلاسفة، وفي الوقت نفسه إلى استقرار كبير على مستوى النفس.

- يتمثّل المستوى الثالث (الأكثر علوّا) الذي يرتبط بالهدف الأسمى لكل وجود في تحقيق الهويّة الأسمى أو التوحيد، أي ليعلم الإنسان أنه لا إله إلاّ الله"[17]. لا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة إلاّ في إطار تلقين مبادئ وتعاليم التصوّف.

فالهويّة هي إذًا حسب حمزة بن عيسى من الناحية التصوّرية "تتمثّل في سيرورة التكامل المرتقية حيث يلتقي ما هو أمثلُ وأفضلُ فيها بحالة الكمال الإنساني، وحيث يبلغ أوجُها التحرّرَ من كل حالة مشروطة"[18]. يعي بن عيسى جيدا أن التّفاعل القائم بين مختلف العوامل الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية ضمن السيرورة التاريخية، قد أدّى إلى تمثّل الهوّيات وانبعاث هويّات ثقافية قديمة وتفاوت السلالات اللغوية والصراعات بسبب الهويّة. يشرح المؤلف كل هذه المسائل من الناحية التاريخية ويأخذ منطقة المغرب الكبير والجزائر على وجه التحديد مبحثا تطبيقيا لها.

يعرّف بن عيسى بروز الهويّة في أوروبا عهد النهضة -التي يصفها أحيانا بالهويّة النفسية- على أنها عاملٌ فعّالٌ في التاريخ وغايةٌ في ذاتها بعد انفصالها عن العامل الديني: "تشهد أوروبا ظهور الهويّة النفسيّة كغاية بذاتها نهايةَ القرون الوسطى تحت ضغط غريزة الربح والدافع المادي"[19]. يقوم فكر الأنْسنَة للنهضة الأوروبية بصبِّ الدافع الروحي في "مجراه البيولوجي المحمول بصفته الضرورةَ الوحيدةَ لضمان البقاء بعد نفي الجانب الميتافيزيقي للوجود الإنساني". أدى هذا الموقف إلى نوعين اثنين من النتائج:

1- **الدافع المادي** الذي يقوم على فكرة أن "الاقتصاد هو أول وآخر ما يحتاجه الوجود الإنساني". يأتي هذا التوجّه لتغذية المذاهب والتجارب المسماة باللّبراليّة والاشتراكيّة والشّيوعيّة.

2- **انبعاث هويّة الجماعات القديمة** في شكلها غير المضبوط: تُعتبر النزعة الدينية إلى اتّباع الأسلاف الأقدمين في عباداتهم (a*ncestralisme*) أساس المذهب الوطني-الاشتراكي والعنصري. هنا حيث تجد النشاط الاقتصادي والفكري

[17] Benaissa, Hamza, Idem, p. 52-53.
[18] Benaissa, Hamza, Idem, Op cit, p. 52.
[19] Benaissa, Hamza, Idem, Op cit, p. 63.

تابعا لإرادة القوة الحربية ؛ "وسواء كانت محفّزة بالدافع المادي أو بالتمييز العنصري، فإن الهويّة النفسيّة البالغةَ أوجَّ نرجسيّتها بقيت تحدد منذ 1789 الحمياتِ الوطنية شديدة الحماس التي بلغت أقصاها باندلاع الحربين العالميتين"[20].

يقوم بن عيسى مواصلا تحليله لتاريخ مفهوم الهويّة بشرح كيف تمت عملية انتقال تلك التصورات الغربية إلى بلاد العالم الثالث. ومفهوم الهويّة هذا يتمّ نقلُه إلى البلدان المستعمَرة ومن بينها الجزائر بطرق ثلاث:

أ- تتمثل الطريقة الأولى في استغلال حالة المسلم المتدهورة في مجال الفكر لعرض عليه القوة الغربية كنموذج يُقتدى به والتخلّي عن الإسلام. يرتبط هذا النهج بعملية تغريب العالم الإسلامي من الداخل عبر الجماعات الضاغطة أين يتم السعيّ إلى تحقيق الهدف الأسمى المتمثل في الجمهورية اللاّئكيّة لأتاتورك.

ب- تقوم الطريقة الثانية بالنسبة للقوى الغربية على تشجيع ومساعدة كل الانشقاقات وإضفاء الشرعية عليها من أجل الإسراع بالتقسيم السياسي للدولة العثمانية آخر المظاهر الرمزية للمذهب الروحي "أين يقوم نظامُ الحماية بتلفيق خطاب لمن هو تحت غطائه يوهمه فيه أنه مستقلّ سياسيا بل وأنه يستعيد هويّته التي ضاعت منه ويجدها ثانية بفضل مساعدة الغرب".

ج- وتتجلّى الطريقة الثالثة للتحدي الإيديولوجي الغربي في الاستعمار الاستيطاني للجزائر من قبل فرنسا"[21].

ردّ الاعتبار لأبعاد الهويّة الأمازيغية ونقد المقاربة المحبطة للعلوم الاجتماعية

يقوم بن عيسى بتحليل المكوّنين العرقيين اللذين يشكّلان الهويّة الجزائرية والمتمثّلان في العروبة والأمازيغيّة. يتناول بالإيجاز موضوع العروبة متطرّقا إلى مختلف تجلّيّاتها عبر التاريخ وفضائها الجغرافي والسّكاني وإسهامها في انتشار الإسلام منذ سيّدنا إسماعيل عليه السلام. كما يعالج موضوع القوميّة العربية كتوجّه للحماس الوطني، هذا الذي

[20] Benaissa, Hamza, Idem, p. 64-65.

[21] Benaissa, Hamza, Idem, p. 81-82.

يتطابق مع الطريقة الثانية التي ذكرنا لنقل الإيديولوجيا الوطنية من قبل القوى الغربية لغرض "التشجيع على الانشقاقات والانقسامات.. بحيث يحدث ذلك بالنسبة للبلدان العربية عن طريق الأقليات المسيحية العربية بهدف تفكيك الإمبراطورية العثمانية والانفصال عن الإسلام كمصدر إلهام".

إلا أن بن عيسى يخصّص أهمّ ما يشكل تحليله لموضوع البربريّة، إذْ يعود إلى فترة الاستعمار الفرنسي الذي وجد على أرض الجزائر سكانا ذوي ثقافة إسلامية وأصول عرقية بربرية. أُشركت العلومُ الإنسانية لخدمة الأنتروبولوجيا والعلوم الاجتماعية من أجل الإنقاص من قيمة الثقافة البربرية وفصلها عن روحانيتها. تعتبر الأنتروبولوجيا أن كيان الثقافة البربريّة يتحدد ضمن مجال ما بعد الحيوانيّة حيث يتم الصراعُ من أجل البقاء البيولوجي. يتميّز الخطاب الأنتروبولوجي حينما يتكلّم عن الأمازيغية بـ "نظرة غير موضوعيّة تفتقد إلى النزاهة، ويشيع بتعجرف بأن الأمازيغية بقيّةٌ لإنسانية لا يزال يكتنفها الطابعُ الحيواني أو شبيهة بإنسانية العصر الزراعي الأول".

يُشاع على المستوى التاريخي أن الشعب الأمازيغي ليس هو صانع تاريخه بنفسه وإنما تعرّض بسلبية للتأثيرات الخارجية ومنها الغزوات المتتالية على سبيل المثال. يحاول بن عيسى إذًا من خلال عمل متكامل تقديم مقاربة كفيلة بتصحيح الأخطاء حول الهويّة البربريّة وإسهاماتها في التاريخ وفي الرّوحانيّات وفي خدمة الإسلام عموما. يسعى المؤلف عبر هذا النهج إلى "المساهمة في الكشف عن أسباب حالة التمزّق لكل أولئك المنقسمين حيارى بين الوجود الفعلي للهويّة البربريّة والضرورة أو الحتمية الأخرويّة لرفع صورتها (transfiguration)عن طريق روحانيّة الإسلام"[22].

يبدأ بن عيسى بطرح التساؤل التالي: ما هي البربريّة ؟ ومن أجل الإجابة عن ذلك يتناول المعطيات الأنتروبولوجية الخاصة بمختلف مراحل الاستيطان التي شهدتها منطقة شمال إفريقيا منذ ما يقارب 40.000 سنة، ثم يدرس اشتقاق وأصل الكلمتيْن "بربر" و"أمازيغ". يصل بعد البحث إلى النتيجة الأولى التي تقول أنَّ "البربريّة تتمظهر خارجيا مثل تشكيلة أنتروبولوجية واسعة حيث يمتزج فيها النوع الشمالي مع النوع الزنجي

[22] Benaissa, Hamza, *Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*, Op. cit, p. 4.

الإفريقي مرورا بنوع آخر وسيط ذي أغلبيّة، أما مدلولها فيعود إلى التصور الوجودي الشائع لهذه المجموعة الإنسانية ؛ يعود أصل البربريّة في جوهرها إلى إرث روحي غربي، ويبدو هذا التقارب اللغوي الجزئي على الأقل بين الإرث البربريّ والإرث السّامي (من السّاميّة) معزّزا حاليا على مستوى التحليل اللغوي ومتبنى من قبل الأوساط اللغوية البربرية. يعرض سالم شاكر في إحدى دراساته الفكرة التي تقول بأن البربرية ذاتُ انتساب حامي-ساميّ (c*hamito-sémitiqu*e) ثم يختم قائلا: "أخذت البربرية مخزونها من نفس المخزون البدائي لمجموع المورفيم (الكليْمات أو الوحدات المعنويّة الصغيرة) مثلها مثل الفروع الغوية الأخرى".

يشير بن عيسى بالرجوع إلى تأثير التصور الديكارتي للحداثة الذي يشجّع على انبعاث الهويّات الثقافية الجهويّة، إلى أنه "يجب الاعتراف أولا أن هذا التوجّه يحمل بعض المصداقية لأن الوعي بتواصل مع الماضي يمكنه أن يكون ذا علاقة بسيرورة إعادة الإدماج، غير أن هذه الإرادة في استعادة الأصل تبقى مشروطة بالحجج الاستئصالية للحداثة". أما الرمزيّة الميتافيزيقيّة فاختُزلت على أنها لا تتعدّى "كونها نتيجة لمصادفات التجربة من أجل البقاء أو الإسقاط المثالي لتعاقب الفصول. وهذا يعطي في أفضل الحالات شكلا من أشكال التعويض النفسي بمجرد الشعور بهذا التواصل الممتد نحو الماضي الذي يتم الاحتفال به في التظاهرات الفولكلورية أو ليُمجّد كأصالة يُبالغ في تعظيمها إلى غاية النّرجسيّة ويُعتقد ضمانُ استمراريتها بمجرد ترسيم اللغة الأم شرعا طالما أن البحث عن الأصل، المشروع في البداية، الذي تمّ انحرافُه نحو الأصالة النفسية عن طريق الحداثة يفسّر عدم قدرة الهويّة المصغّرة إلى هذا الحد على مقاومة عمليات الاستئصال واستعادة التوازن في ذات الإنسان"[23].

كما يحلل بن عيسى مسألة "المطالبة بالهويّة البربريّة من قِبل تيّار علماني، وقد بدأ هذا الأمرُ بتمثيل الهويّة المسندة إلى مذهب روحي والهويّة المسندة إلى نفسيّة معينة أو لغة تُحمل على أنها معارِضة في المطلق: ومنه تفريغ المنطقة من الإسلام. ثم وفي مرحلة ثانية يأتي منظور الحداثة القائم على الهروب نحو الأمام ليفرض نفسه من أجل دفع الهويّة البربرية لتقطع اتصالها مع الماضي بالتأكيد على الطابع الفلاحي والجبلي لرمزيتها

[23] Benaissa, Hamza, *Tradition et identité*, Op. cit, p. 74.

التقليدية"[24]. ومواصلة لعمله الخاص بـ "تقويض" التصور القائل بأن نمط الحياة والثقافة البربرية ليسا سوى استجابة للتحديات البيولوجية من أجل البقاء ونكران للبعد الروحي، يقوم المؤلف بإحصاء الموروث المادي وغير المادي البربري ليستخرج منه المعاني الأصيلة. "يمكننا بعدما أثبتنا القاعدة الروحية للهوية الأمازيغيّة شرحها أيضا عن طريق الرمزية الميتافيزيقية التي يحملها الحكيّ والفن البربريان"[25]. وحتى يسهل استيعاب هذه المقاربة الأصيلة يجب وضعها بموازاة مع موقف الأنتروبولوجيا الغربية المتبنى بالمحاكاة ومن دون تحليل نقدي من قبل المختصّين في البربرية الذين لا يرون في الحكايات والقصص والأسطورة والآثار القديمة والرمزية الميتافيزيقية سوى نتيجة لمصادفات التجربة من أجل البقاء أو الإسقاط المثالي لتعاقب الفصول"[26].

يتطرق بن عيسى إلى سرد حكايتين اثنتين الأولى [*La chèvre et ses deux chevreaux* "العنزة وجديها الصغيران"، والثانية [*L'oiseau céleste*] "الطائر السماويّ": "يختفي تحت المظاهر الطفوليّة رمزيةٌ ميتافيزيقيةٌ عميقةٌ، بل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعل هذه "الحكايات تسمى شعبية". أما الجماعات الشعبية فلا تتدخل هنا إلا من حيث كونها تؤدي وظيفة المحافظة على حقائق خفية أُدخلت في ذاكرتها من قبل النخبة الروحيّة لما كان المأثور على وشك الاندثار"[27].

إن المواضيع التي ذكرها بن عيسى كمثال عن الحكيّ البربري عالميةٌ ومنها "الغول" الذي ليس خاصًّا بالحكاية البربرية، ثم يختم قائلا: "تعبّر الحكاية عن تركيبة لكونٍ يتألف من عالم محسوس، ومن بين تعاليمها أن كل كائن بشري خاضعٌ إلى امتحان الموت، إلا أنه ينتصر في النهاية بفضل التنزيل أي الوحيّ"[28]. كما يعالج بن عيسى أيضا الهندسة المعماريّة أي البنايات المغليثيّة (السابقة للتاريخ والمبنية على الحجارة الضخمة) مثل صريح إمدْغاسن بالأوراس وقبر الرّومية (الضريح الملكي الموريتاني) بتيبازة وجدّار جبل لخصر بتيارت..، فكل هذه البنايات والأضرحة ذات الشكل الأسطواني-المخروطي والهرمي ترمي مرجعيا إلى الرموز التقليدية للجبل المقدّس أو إلى مركز العالم بصفته مكانا

[24] Benaissa, Hamza, Idem, p. 74.
[25] Benaissa, Hamza, Idem, p. 126.
[26] Benaissa, Hamza, Idem, p. 74.
[27] Benaissa, Hamza, Idem, p. 126.
[28] Benaissa, Hamza, Idem, p. 130.

للاستقرار والقوة والسموّ الرّوحي"[29]. ثم يذكر في الأخير الفن التصويري أو التشكيلي في كل أشكاله المختلفة: الخزافة، الأثاث، الألبسة، الوشم ؛ و"يرفض التفسيرات الصادرة عن نظرية النزعة الطبيعية (القائلة بأن الطبيعة هي المبدأ الأول في الوجود) والتي تحصر كل شيء ضمن الحاجات البيولوجية التي يجب أن تُلبّى من دون شك، لكن يجب تجاوز الدلالات والمعاني الثانوية التي تتشبّث بها حاليا المؤلفاتُ والكتبُ للارتقاء بها إلى معناها الأسمى. يتقاسم الفنّ البربري مع بقيّة الإنسانية رموزا قاعديّة أساسية لأنه ذو أصل لاَبَشريّ وصوريٌّ وليس نتاجًا مزعومًا للاّشعور أو الاقتباس، ذلك أن كل إنسان من حيث كونه خليفة الله في الكون يحمل ضمنيا هذه الرمزيّة مهما كان عرقه أو جنسه"[30].

تعبّر النقطةُ (.) عن رمز المبدإِ العلّةِ، والخطُّ القصيرُ أو المطّةُ (- /) عن محور العالم.

أما بخصوص الزّخارف التي تزين الأواني الخزفيّة والألبسة والزرابي فلها رمزيةٌ معدنيةٌ ونباتيّةٌ..، ويشير المؤلف إلى أن هذه الزخارف ذاتُ طابع إنساني نجدها تتشابه مع كثير مما نجده لدى أغلب شعوب العالم التي يتقاسم معها الشعبُ البربري الرموز القاعديّة ؛ ينتمي هذا الشعب إلى "موروث ثقافي وروحي تقليدي بدأت معانيه تضمحل بل وتتعرض لانقلاب حاد في القطبية أثناء سيرورة الانحطاط الدوري إلى درجة أن الفرد البربري أصبح يشعر بالحاجة المشروعة إلى العودة إلى أصوله والبحث عنها في المأثور الذي كان لا يزال سليما وحيا، وعليه راح يتمسّك من بين ما تمسّك به بالعبرانيّة ثم بالمسيحيّة ثم بالإسلام أخيرا"[31].

المجال التاريخي لشمال إفريقيا

يتمثّل الفرق الموجود بين المثقّف والمفكّر في كون أن المثقّف يعالج مواضيع الساعة في إطار الفضاء السياسي والسوسيو-اقتصادي والثقافي والديني ويعبّر عن وجهة نظره، في حين أن المفكّر يذهب إلى أبعد من ذلك لأنه سيسعى اعتمادا على المعارف المتراكمة لديه (وأحيانا بمساعدة الظروف) لخلق تدريجيا منظومة فكرية مناسبة تقريبا حيث يكون عمقُ التحليل ودرجةُ التأثير فيها متوقفين على أصالة وصرامة مفاهيمه وعلى تماسك

[29] Benaissa, Hamza, Idem, p. 132.
[30] Benaissa, Hamza, Idem, p. 132-133.
[31] Benaissa, Hamza, Idem, p. 133.

أطروحته وتماشيها مع الواقع، مما يسمح له بمعالجة نفس المواضيع (المشار إليها سابقا) لكن باعتماد مقاربة مختلفة.

لا يكتفي بن عيسى بتقديم تحليل حول الهوية الثقافية فحسب بل يعزز أطروحته بتحليل وجيز عن تاريخ شمال إفريقيا اعتمادا على تطبيق مفهوم أساسي أخذه عن مؤرخ الحضارات أرنولد توينبي "مجال الدراسات التاريخية"، وعلى أسئلته الثلاث الرئيسية التي يمكن تطبيقها على تاريخ أي نطاق حضاري بلدا كان أو منطقة:

1- من بين الأحداث التاريخية الكبيرة، ما هي الأكثر أهمية ؟
2- هل هذه الأحداث التاريخية هي محدّدة ضمن علاقة داخلية أم خارجية ؟
3- ما هي قيمة كل حدث بالنسبة للإنسانية ولمجمل التاريخ العام المتراكم إلى اليوم ؟

يعرض علينا بن عيسى خمس مراحل تاريخية (تلك التي يعتمدها المؤرخون) بالنسبة لمنطقة شمال إفريقيا (والجزائر على وجه الخصوص). فما هو الهدف الذي يسعى إليه المؤلف ؟ فقد رأينا فيما سبق أن العلوم الإنسانية الأوروبية تُنقص من قيمة الثقافة وتشوّه التاريخ، وعليه يريد بن عيسى أن يقدم مساهمته في تحرير التاريخ من الاستعمار مثلما قام به محمد شريف ساحلي وزهير إحدّادن من قبلُ، ولكن بطريقته هو بالكشف عن الأطروحات المنحرفة لعمل المؤرخين الكولونياليين التي أنتجت وأفرزت شعورا بالدوّنيّة لدى العديد من المثقّفين، وإثبات الحقيقة التي تخصّ ما أسماه بـ "الفترة البربرية".

يقول بن عيسى في هذا الصدد: "لقد أنتجت لنا العقلانية الفلسفية التي أُسست على أنها القياس الوحيد للحقيقة منذ قرنين، هذه الخرافةَ التي تقول بأن التاريخ هو الخصوصية الوحيدة للإنسانية والغاية الأوحد للوجود الإنساني. وفي كل مرة تطبّق شبكة القراءة العقلانيّة هذه على العالم إلا ويتولّد عنها أحكامٌ مخزيّة ؛ وهذا هيجل يقول: "إن هذه المنطقة هي بلدٌ لا يقوم إلا باتّباع قدر كل ما يحدث خارجا عن حدوده" ؛ أما جوليان فيؤكّد هو بدوره على أنه: "بقدر ما نغوص بعيدا في تاريخ شمال إفريقيا، بقدر ما نلاحظ أن كل شيء يحدث كما لو أن هذه المنطقة قد عُوقِبت فطريا بعدم قدرتها على الاستقلال، ولقد كان هذا البلد مخضعًا على الدّوام لتأثير وقدر الحضارات التي كانت خارجة عنه"، ومهما يكن فإن الصّدى الذي تحدثه البربرية هنا سواء أكان

بالإيجاب أو السلب، هو صادرٌ عن عملية إثبات وقائع أقل منه تفسيرًا لها عبر المنظار المشوّه لوثنيّة التاريخ"[32]. يخرج بن عيسى من كل هذا بنتائج معرفية هامّة: "لما يحاول الإنسانُ البربريّ تحقيق استيعابه لهويّته، يجد نفسه في مواجهة خيارين اثنين كلاهما غير مجدي ولا يؤدي إلى أي مخرج: الأول -لما يقبل بالثّنويّة الديكارتيّة فإن نتيجة ذلك أنه يجد نفسه في وضعية فقدان الأمل مثلما بيّنها جون عمروش، حيث يشعر بألم "اللعنة" و"القصور الأونطولوجي" ؛ الثاني -ولما يقبل الباحث أو يعمل بإسقاط نظرته على الواقع العصري الحداثي بالمقابل، فإن موقفه يتأرجح بين قطبين: من جهة يقبل طوعا بماضيه المتجاوزِ للتاريخ لكن فقط في بُعده النفسي السلفي (أي المتعلق بالأسلاف والأجداد الأقدمين) بالشكل الذي يقرّه التحليلُ النفسي ؛ ومن جهة أخرى يرفض حكم "السلبيّة التاريخيّة التي تقول بها فلسفة التاريخ" لتبرير وتأكيد "المقاومة المتواصلة عبر القرون للغزو الخارجي" كما لو كان العرق البربريّ يشكّل إنسانية مختلفة قائمة بذاتها تعيش مغلقا عنها بمعزل على بقية البشر"[33].

إن البديل الذي يقترحه بن عيسى هو إعادة النظر في تاريخ شمال إفريقيا لدحض وتفنيد أطروحة "هيجل-جوليان" القائلة بأن شعوب منطقة إفريقيا لم تصنع تاريخها بنفسها وإنما فُرض عليها من الخارج، وردِّ الاعتبار لفترة البربريّة الإسلامية. يعتمد المؤلف تقسيم التاريخ إلى خمسة عهود:

1- **العهد القرطاجي**، الذي يشكّل "فضاءً للإرث الجماعي القديم الذي تبقى تمظهراتُه وتمثّلاتُه في حالتها الخفية في الذاكرة الجمعيّة"[34].

2- **العهد الرّوماني**، "الفترة التي تمّ فيها توحيد تحت التشريع القانوني والسياسي للإمبراطورية الرومانية عامة البلدان المتوسطيّة، لكن إسهام الرومان في ميدان الفكر كان شبه معدوم إلا أنهم تركوا من ورائهم صروحا وبنايات ضخمة وبعض الكلمات

---

[32] Benaissa, Hamza, Idem, p. 115.
[33] Benaissa, Hamza, Idem, p. 116.
[34] Benaissa, Hamza, *Quelques remarques sur l'histoire de l'Afrique du Nord*, Alger, Ed. El-Maarifa, 1996, p. 9.

والمصطلحات اللاّتينية"[35]. وأنتجت المسيحيّة في هذه الفترة شخصيات دينية تعارضت فيما بينها من حيث الرؤى: سانت-أوغسطين / دونات ترتوليان.

3- **العهد الإسلامي**، الذي يحمل تفنيدًا قاطعا لأطروحة التاريخ الكولونيالي-الاستعماري التي تنكر البربريّةَ الإسلامية: "وإن كان البربرُ رفضوا الهيمنة الوحشيّة لدولة الأغالبة التي حرّكها التعصُّبُ إلى الدولة الأموية، إلا أنهم لم يرتدّوا عن الإسلام، بل بالعكس فقد حملوه ودافعوا عنه بحماس وأقاموه دولةً"[36]. ومع "سيرورة حمل الإسلام من قبل سكان المنطقة البربرية من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي في حكم دول الرّستميين والأدارسة والفاطميين والمرابطين والموحّدين لأول مرة منذ الأزمة التاريخية، يتبنى البربرُ مبادئ وقيم الإسلام ويترجمونها سياسيا بتأسيس دولة وتجسيد النموذج الاجتماعي الذي يتلاءم مع تعاليم هذا الدين"[37]. يتبنى بن عيسى مفهوم "العصبيَّة" الذي أخذه عن بن خلدون لشرح الانسجام لكل دولة من تلك الدول، ليس غاية في ذاتها عبر قيام الدولة السياسية لكن كوسيلة وسند تنظيمي ونفسي واجتماعي للحفاظ على الدولة. ثم يضيف قائلاً: "بعيدا عن الفترة الأولى والفترة الأخيرة التي كانت بالأساس تركيّة، فإن كل الفترات الوسيطة الأخرى للعهد الإسلامي خلّدت روحيّا وسياسيّا واجتماعيا لمدة سبعة قرون التاريخيّة البربريّة"[38].

4- **العهد التركي**، الذي تميّز بدفاع الدولة العثمانية عن المغرب الكبير (*Le Maghreb*) ضد هجومات الغزو الأوروبي (الإسبانية على وجه الخصوص) بعد سقوط دولة الموحّدين. يشير بن عيسى إلى وضوح دراسات وتحاليل بعض المؤلفين مثل غرانغيوم Grandguillaume الذي يقول: "ظهر الإسلام في المغرب الكبير كمصدر أساسي لكل شرعيّة، كذلك تساءل مؤرّخ المدرسة الكولونيالية غوتيه Gauthier حول الأسباب التي أدّت بالبربر إلى اعتناق الإسلام بهذه السرعة"[39]. ليست هذه السيْرورة حسب بن عيسى خاصّة بالبربر وإنما هي خاصيّة يتميّز بها التاريخ السياسي للإسلام: "لعبت الهويّاتُ

[35] Benaissa, Hamza, Idem, p. 24-25.
[36] Benaissa, Hamza, Idem, p. 18.
[37] Benaissa, Hamza, Idem, p. 7.
[38] Benaissa, Hamza, Idem, p. 20.
[39] Benaissa, Hamza, *Vision du monde et état politique : pour réhabiliter l'équation personnelle du musulman*, Alger, Edt. El-Maarifa, 2009, p. 208.

النفسيّة العربية والفارسيّة والبربريّة والتركيّة-المغوليّة والزنجيّة الإفريقية في أغلب الظروف التاريخية المختلفة دورَ السند التنظيمي للديناميكيّة التاريخيّة للإسلام عبر نشأة وظهور الدول التابعة لهذه الأعراق، وانتشر هذا القانونُ ساريًا على مستوى العالم الإسلامي ونتج عن ذلك عقيدةُ أولويّةِ القيم الرّوحية على الانتماءات الهويّاتيّة النفسية المختلفة"[40].

يفنّد بن عيسى في سياق تحليله الأطروحةَ المشهورة لجورج لاَبيكا Georges Labica تلك التي تقول أن "ظهور الإسلام يتطابق مع ظهور بِنيّة فوقية إيديولوجية لهيمنة اقتصادية طبقية فُرضت على المجتمعات الأخرى"[41]. كما يعتبر هذا الفيلسوف الفرنسي معتمدا على مقاربة اقتصادية ماركسيّة أن العربَ يستخدمون الإسلامَ لصالحهم من أجل استغلال الشعوب الأخرى اقتصاديا. يطرح بن عيسى سلسلة من الأسئلة بحكمة في هذا الصّدد: "إذا افترضنا أن القيم الإسلامية ليست سوى بِنيّة فوقيّة لهيمنة اللاَّشعور العربيّ لاستعباد الشعوب الأخرى، فلماذا هي تنمّي وتحفّز الحسَّ الوجودي للهوّيّات النفسية الأخرى عبر اللغات البربريّة والفارسيّة والتركيّة-المغوليّة ؟ لماذا في تاريخ الإسلام نجد التأثيرَ السياسي لكل هذه الهوّيّات الأخرى ذا علاقة بالمطالبة الأساسية بالقيم الإسلامية وليس بظهور العديد من البِنيات الفوقيّة لإعادة توجيه معنى الدولة نحو تعظيم وتمجيد الهويّة النفسية التي تحملها ؟"[42].

في الختام وبخصوص التأثير الكبير الذي يمكن أن يحمله تعريف الهويّة الثقافية لشعوب منطقة شمال إفريقيا، يؤكد بن عيسى على أنه "من بين كل الفترات التاريخية، تعدّ الفترة الإسلامية الأكثر طولاً من حيث المدة، والأكثر عمقا من حيث أن الإسلام الذي يغذّيها بقي يحافظ على حيويّة قوتها الفكرية الذاتيّة رافعًا كل التحدّيات بالشكل الذي يجعله اليوم يواصل تأثيره على سيكولوجيا وسوسيولوجيا وإرادة الرّسكلة التاريخيّة للجماعات إذ هي اعتنقتْه منذ 14 قرنا"[43].

---

[40] Benaissa, Hamza, *Le Maghreb dans le discours des sciences humaines et sociales : les enjeux idéologiques*, p. 10.

[41] Benaissa, Hamza, *Le Maghreb dans le discours des sciences humaines et sociales : les enjeux idéologiques*, Op. cit, p. 9.

[42] Benaissa, Hamza, Idem, p. 9.

[43] Benaissa, Hamza, *Quelques remarques sur l'histoire de l'Afrique du Nord*, Op cit, p. 28.

الشيخ محنْد أولحسين: نموذج الشخصية الدينية البربريّة الصّوفيّة

يخصّ الموضوعُ الأخير الذي اخترته من بين كتابات بن عيسى دراسة روحية بعنوان [*Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*] "الشيخ محنْد أولحُسين: شاهدٌ للإسلام". تتطرّق هذه الدراسة إلى النظر في جملة من الشهادات المختارة لمولود معمري (الأنتروبولوجي والمختص المشهور في الدراسات البربريّة) جمعها عن تلاميذ الشيخ الصوفي محنْد أولحُسين الذي توفي بداية القرن الأخير. يعلّق معمري عن هذه الشهادات معتمدا على مقاربة أنتروبولوجية.

تقوم أطروحة معمري الأساسية على هذا الشكل: "كان محنْد أولحُسين "يعبّر أكثر عن معاودة وإحياء القوة البربرية القديمة للأسلاف والأجداد إلى درجة أن علاقته بالموروث الإسلامي تبدو شبه معدومة، إن لمْ نقل مجرد واجهة مثلما يفعله أيٌّ من المنافقين"؛ يبرّر معمري هذا التفسير بادّعاء محنْد أولحُسين النبوّةَ وتعدّيه على الشرعية الدينية والضجة التي أحدثها إعلانُه أن الحقيقة أعلى من الصلاة"[44].

يعبّر بن عيسى أولا عن امتنانه وإقراره بالفضل لمعمري كونه حفظ هذه الشهادات عن الشيخ وأنقذها من الاندثار، ثم يقوم بالاعتراض على كلامه هو الذي يجهل الفكر الصوفي ويضع "جوهر الإنسان في اللاّشعور الذاتي واللاّشعور الجمعي ثمّة حيث يتعيّن عليه أن يحدّده طبيعيا ضمن المبدإ المتعالي أو الميتافيزيقي بدمج كل النماذج السيكولوجية والأنتروبولوجية. هذا هو الوهم ذو النزعة الثنويّة الذي جعل معمري يصدّق بسذاجة أن محنْد أولحُسين وأمثالَه هم نتاجُ القوة الجمعية الممتدة إلى الأسلاف والأجداد وليس نتاجَ القوة الروحية ؛ وهو السبب نفسه الذي أدّى به إلى الوقوع في الخطإ المتمثل في أن ولاية الشيخ محنْد أولحُسين (كونه وليّا من أولياء الله) ليست تتويجا لسلوك روحي معرفي وإنما مجرد نتيجة لقوة جمعيّة فرضت نفسها عليه"[45].

من جانب آخر فكونه لا يعترف لـ "آڤورام" مجمعِ وموضعِ المقدّس لدى البربر "إلا القوى السحرية أكثر منها دينية"، يبيّن أن نظرة معمري متأثرة بالنظرية التطوريّة، مما يعني

---

[44] Benaissa, Hamza, *Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*, Op cit, p. 2.

[45] Benaissa, Hamza, Idem, p. 7.

حسب تصوّره وضع مكان عقيدة التوحيد للإنسانية الأصلية صنائعَ ونواتجَ انحطاطها الثانوي مثل عبادة الحيوانات والوثنيّة والإيمان بالخرافات والسحر والشعوذة.

نشير أيضا إلى أنه لما يتكلم عن "الصلابة" و"التطبيق الجاف" في حديثه عن العقيدة والشعائر التعبدية وشريعة الإسلام، فإنه لا يقوم إلا بعكس "التوجه نحو نزع القداسة عن الوجود" على منطق العصرنة والحداثة. وليست العقيدة والشريعة والشعائر الأخرى التي تميّز كل دين من الأديان في الحقيقة سوى انعكاسات تتمظهر في عالمنا اللاّزمني واللاّمتغير"[46]. ومشيرا إلى أهمية التاريخيّة البربريّة بالمغرب الكبير، يصحح بن عيسى الفوارق الموجودة بين مختلف مذاهب الزّوايا والصوفيّة مثلما جاء ذكرُها في كتابات معمري، ثم يشرح الحالات الثلاث لبِدع الشيخ محنْد أولحُسين التي أثارها معمري، ومن ذلك مثلاً ادّعاء الشيخ النّبوة كان في الحقيقة "إعلانا عن كشف عن نزعة (متعاليّة) خارجة عن المألوف.. باتّباع طرق الممارسة الأخوية-المذهبيّة"[47]. كما يخصّص بن عيسى فصلاً كاملاً لتعريف من هو الرسول ومن هو النبيّ ومن هو الوليّ بذكر صفاتهم، ويقول في هذا الصدد: "إن الشيخ وكل الأولياء الصالحين الآخرين اضطلعوا بأداء المهمة الكوزمولوجية المحمّدية، وقد فتح عليهم التّصوّفُ وأنار لهم سبيلَ الإرشاد الرّباني الذي يميّزه الاستبصارُ والحدسُ الفكريّان"[48].

يفنّد بن عيسى بمنهجيّة حجةَ معمري التي ذهبت به إلى غاية "المبالغة في تقديره تأثير المحيط والبيئة الجبليّة ذات الطابع الانضمامي الحرّ في قلب البربرية على شخصية الشيخ محنْد أولحُسين الذي لم يغادر أبدا منطقة القبائل زيادة على ذلك"[49]. إن الحجّة التي يقدمها بن عيسى هي أن البيئة الجبلية -الكثيرة أمثلتُها عبر العالم في هذا السياق- ليست عائقًا لنشر الصوفيّة، ولنا في ذلك مثال عن ديرة الرّهبان البوذيين بجبال الهيمالايا، بالإضافة إلى أنه معروف عن منطقة القبائل أنها "مشهورة بكثرة دور المعابد والزّوايا في ربوعها"[50]، بل إن هذا التسامي الروحي مغروس في نفسيّة الشيخ: "يلتزم

[46] Benaissa, Hamza, Idem, p. 7.

[47] Benaissa, Hamza, Idem, p. 20.

[48] Benaissa, Hamza, Idem, p. 25.

[49] Benaissa, Hamza, Idem, p. 11.

[50] Benaissa, Hamza, Idem, p. 19.

الإنسان البربري الأصيل بمبادئ حضارة لا تستوعب فيها الذّاتُ عالَمَنا كغاية بذاتها، وإنما مجرد وسيلة لتغيير إلى ما هو أحسن قدر الإنسان في هذا الكون"[51].

في الختام فإن "الشيخ محنْد أولحُسين مزوّدٌ بقوة الإسلام الذاتية التي جاء الموروثُ الثقافي والروحي البربري القديم ليخدمها وليقوم لصالح هذا الدين مقامَ الواسطة والركيزة للتعبير الخارجي لقيمه وتعاليمه"[52].

الخاتمة

إن تصور حمزة بن عيسى عن الهويّة الثقافية والدينية جديدٌ مجدّدٌ إذْ هو يرتكز على مقاربة نظرية شاملة تقوم على تحليل نقدي للرؤى والتصورات عن الثقافة والدين التي تعتمد على تبنّي موقف ساذج غير مخضع للنقد للمقاربة العقلانيّة الإقصائية التطوّريّة للعلوم الاجتماعية ولأطروحات التاريخ الكولونيالية-الاستعمارية حول منطقة شمال إفريقيا.

يقترح بن عيسى باعتماده على مقاربة فكرية تركيبية لم نعهدها لدى الكثير من المفكرين بجمعه بين معارفه المتمكّنة في العلوم الاجتماعية وبين تصوره للكوزمولوجية التقليدية والتصوف، بالإضافة إلى رجوعه إلى المعطيات التاريخية والإحائيّة والبيولوجيّة، يقترح تصوّرًا للهويّة يقوم على الدمج المنسجم لأبعاد الإنسان الثلاثة: التشريحي-الفيزيولوجي، والعرقي-اللساني، والروحي على أن يأتي البُعد الروحي كمبدإ وعلّة للدمج التكاملي. ويوصي في الأخير بإعادة تقييم وتقدير التاريخ البربري وإعطائه قيمته التي يستحقها بخاصة ما تعلق منه بالعهد الإسلامي وتصويب ما كُتب عنه في جانبه الروحي وتراثه الثقافي المادي منه وغير المادي.

يأتي الدكتور حمزة بن عيسى بعناصر في التحليل أصيلة لإعادة التفكير في مشكل الهويّة، وتجنب "التّململات والتّشنّجات الهويّاتيّة" المركّزة على البُعد العرقي واللغوي، وتجاوز الأزمات المرتبطة بالهويّة التي تحمل خطورة تعقّدها مع التدفق الفاحش لمنتوج الصناعة الثقافية المعولَمة.

أدعو في الختام الباحثين إلى تناول جوانب أخرى لعمل حمزة بن عيسى، وأقترح على من ينوي بذل في سبيل ذلك جهدا فكريا معالجة موضوع ذي أهمية كبرى وهو:

[51] Benaissa, Hamza, Idem, p. 18.

[52] Benaissa, Hamza, Idem, p. 19.

"الإسلامولوجيا التطبيقيّة" لدى محمد أركون حيث يقوم بتحليل الأسس الإبستيمولوجية في كتابين اثنين يحمل أحدهما عنوان " التنزيل والحداثة" (Modernité et (Tradition كما تعرض المؤلف لرهان الهيمنة السياسية و الاقتصادية و الإعلامية في ظلّ شمولية الدولة التجارية المعولمة في كتابه: " النظرة الكونية للعالم و الدولة السياسية: من أجل إعادة الاعتبار للمعادلة الشخصية للمسلم في السياسة" ((Vision du monde et état politique : pour réhabiliter l'équation personnelle du musulman en politique,).

قائمة أهم المصادر والمراجع:

- Hamza Benaissa, *Le Maghreb dans le discours des sciences humaines et sociales : les enjeux idéologiques*, Alger, Edt. El-Maarifa, 2009.

- Hamza Benaissa, *Vision du monde et état politique : pour réhabiliter l'équation personnelle du musulman*, Alger, Edt. El-Maarifa, 2009.

- Hamza Benaissa, *Quelques remarques sur l'histoire de l'Afrique du Nord*, Alger, Ed. El-Maarifa, 1996.

- Hamza Benaissa, *Tradition et identité*, Alger, Edt. El-Maarifa, 1996.

- Hamza Benaissa, *Cheikh Mohand Oulhocine : témoin de l'Islam*, Alger, Edt. El-Maarifa, 1997.

- Grassé Pierre, *Essai sur l'histoire naturelle de l'homme*, 1971, Paris, Ed. Albin-Michel.

" فرنسا الكولونيالية و سؤال الهوية في منطقة القبائل "

الباحث: حمدي عيسى الدكتور: بلخير بومحراث

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

ملخص:

يمثل سؤال الهوية في منطقة القبائل إحدى تجليات صراع النخب السياسية والثقافية في مجتمع "ما بعد الكولونيالية" ، وإحدى تمظهرات التباين القائم بين ما هو (سياسي –ايديلوجي) وما هو (ثقافي-اجتماعي) في المجتمع الذي تنشده الدولة – الأمة التي جاءت مع الحداثة الغربية.

على مر العصور حافظت " منطقة القبائل " إلى حد ما على استقلاليتها و خصوصيتها الثقافية و الاجتماعية والسياسية مما دفع بالدخلاء إلى التعامل معها بحذر ، إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي الذي استطاع أن يتوغل لأول مرة في هذه المنطقة ويستقر فيها ويستغل خصوصيتها ويستثمر فيها ضمن ما عُرف "بالسياسة القبائلية" فما هي أبعاد هذه السياسة إن وُجدت وما هي عوائدها على هذه المنطقة ؟

الكلمات المفتاحية: الكولونيالية – الهوية – منطقة القبائل– السياسة القبائلية

Abstract :

France's colonial and the identity issue in the Kabylian region

The issue of identity in the " Kabylian region " represents one of the manifestations of political and cultural conflict elites in the " post-colonial " society , and one of the manifestations of the discrepancy between what is political-ideological and what is - social – cultural in society desired by the state - Nation that came with Western modernity .

Over the centuries, " Kabylian region " maintained to some extent on its autonomy and cultural social and political specificity , what constraint outsiders to be handled with care , until French colonialism , which was able to cut deep for the first time in this region and settles in and exploits in its specificity and invest in within what is known as " Kabylian policy " , what are the dimensions of this policy , if it exists , and what are its repercussions on this region ?

key words : colonialism – identity – Kabylian region – Kabylian policy

résumé :

la quête identitaire en Kabylie, représente l'une des manifestations du conflit des élites politiques et culturelles de la société « postcoloniale », et l'une des affirmations de la disparité entre ce qui est « politiquo-idéologique » et ce qui est « socio-culturel » , dans la société envisagée par l'Etat-nation qu'a engendré la modernité occidentale.

Au fil des temps « la Kabylie » a conservé son autonomie et sa spécificité culturelle, sociale et politique, ce qui a contraint les intrus à s'entreprendre avec elle avec méfiance, jusqu'à l'avènement du colonialisme Français qui a pu la franchir et s'y installer, tout en s' y investissant dans le cadre de ce qui est appelée communément « politique Kabyle » , quels sont donc les dimensions de cette politique si elle existe , et quelles sont ses répercutions sur cette région ?

Mots clés : colonialisme, identité, Kabylie, politique Kabyle

تحديد المفاهيم:

الاستعمارية أو الكولونيالية: تطلق على السيطرة والتأثير الذي تفرضه الدولة المستعمرة على الكيان التابع لها، والنظام أو السياسة التي تنتهجها للحفاظ على تلك السيطرة. كما تعرّف (الكولونياليّة) بمعنى (الهيمنة والسّيطرة) لدولةٍ ما على أراضي دولٍ أخرى وشعوبها، وقد درجتْ التّرجمات العربيّة على توصيفها (بالاستعمار والاستعماريّة). وقد نشأ المصطلح بالتوازي مع ازدهار الرّأسماليّة كقوّة عملاقة صاعدة في العالم الغربي، والغزو الأوربي لآسيا وإفريقيا، ثمّ بلوغه المرحلة الأعلى، مع القطب الأمريكي المتعاظم، والمسمّاة ب (الإمبرياليّة) إذ وجد البعض فيها رديفاً له. وثمّة من ربط المفهوم ربطاً وثيقاً مع حركة التّنوير والاستكشاف والعقل، المرافقة لتطوّر العلوم في القرن الثّامن عشر. والسّياقات الثّقافيّة المرافقة لها، وما يرتبط منها مع قضايا جوهريّة تتعلّق بالهويّة والبنية الاجتماعيّة[1].

الهوية : يرى المفكر الفرنسي " أليكس ميكشللي " أن الهوية عبارة عن " منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية و المعنوية و الاجتماعية ، تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي ، و تتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها ، فالهوية هي وحدة المشاعر الداخلية، التي تتمثل في وحدة العناصر المادية، والتمايز، والديمومة، و الجهد المركزي .وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة، التي تجعل الشخص يتمايز عمن سواه، ويشعر بوحدته الذاتية "[2]

منطقة القبائل : في القديم و حسب بعض الكتابات التاريخية ، كانت تمتد منطقة القبائل من وادي الشلف غربا إلى عنابة شرقا ، ثم تقلصت بفعل التثاقف و الاحتكاك مع الوافدين لتنحصر في الرباعي المشمول بين دلس وعومال (البويرة) و سطيف إلى القل ، أما منطقة القبائل التي نعنيها نحن بالتعبير الحديث فهي الولايات الثلاث المعروفة والمشكلة لمنطقة القبائل الحالية و هي تيزي وزو وبجاية والبويرة.

[1] . https://ar.wikipedia.org
[2] www.hwc-pal.org

السياسة القبائلية : نقصد بها تلك الآليات و الميكانيزمات التي خصت بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية منطقة القبائل على الصعيد العسكري ، الإداري ، القانوني ، الثقافي و التعليمي ، ضمن السياسة الكولونيالية العامة الموجهة للشعب الجزائري، وذلك بغرض تحقيق الإدماج الكلي للقبائل في الحظيرة الثقافية الفرنسية .

فرنسا الكولونيالية و سؤال الهوية في منطقة القبائل

إن مطارحة موضوع علاقة فرنسا بسؤال الهوية في منطقة القبائل، يسوقنا حتما إلى إثارة قضايا خلافية، غالبا ما يطبعها التعصب الإيديولوجي و القفز على الحقائق السوسيو- ثقافية للمجتمع الجزائري ، فنجد أن الاصطفاف حول هذه القضية قد أفضى إلى تَشَكُّل معسكرين ، الأول يعتقد بوجود سياسة فرنسية بربرية (قبائلية) إبان الاستعمار ، فضَّلت ساكنة منطقة القبائل عن باقي "**الأهالي**" آنذاك و عاملتهم بنوع من التمييز ووظفتهم لإحكام السيطرة على البلاد، أما الثاني فهو معسكر يرى أنه لم تكن هنالك أية سياسة فرنسية بربرية إبان الاستعمار ، بل بالعكس من ذلك، أن فرنسا قد عمدت إلى تشتيت "**الأمازيغ**" "**القبائل**" و إضعاف هويتهم بتكسير بُنَاهُم الاجتماعية واقتلاعهم من أرضهم و إرغامهم على الهجرة و الاغتراب و ما ينجرُّ عنه من سلخ لهويتهم.

من هنا سنحاول مناولة هذا الموضوع الشائك و الملغم بقدر من الموضوعية. وستتمحور إشكالية دراستنا حول الأسئلة التالية:

ما هو الدور الذي لعبته فرنسا في إبراز أو تأجيج المسألة الهوياتية في منطقة القبائل إن وُجدت أصلا؟ هل حقا كانت لفرنسا "**سياسة مميزة**" تجاه ساكنة منطقة القبائل ؟

و للإجابة عن هذه الأسئلة ، تبنينا مقاربة آنتروبولوجية –تاريخية ، بمحاولة مساءلة التاريخ واستقراء الوقائع السوسيولوجية وإعادة بناء المشهد الاجتماعي محاولة منا لفهم حيثياته وتفسيرها والوقوف ولو على جزء بسيط من الحقيقة.

منطقة القبائل قبل الغزو الفرنسي:

يجمع علماء الاجتماع والإناسة ، أن أهم ما جاءت به الحداثة الغربية هو مفهوم الدولة التي تقوم على مبدأ التوحيد والتأحيد، و ذلك بتوحيد الجهود و المساعي لبناء الدولة بتأحيد النظم الفكرية ، القانونية ، الثقافية ، الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية.

هذه الدولة التي غيَّرت بنية المجتمعات التقليدية الغربية من مجتمعات زراعية وإقطاعية لمجتمعات صناعية ليبرالية قامت على **مركزية الإنسان الغربي**، الذي أعطى لنفسه الحق في التصرف في مصير المجتمعات غير الغربية و"**الوحشية**" في نظره بدعوى "**مهمة التمدين**"« **Mission Civilisatrice** »، فكانت الجزائر من أولى هذه الدول التي تعرَّضَتْ لصدمة الاستعمار الاستيطاني.

و أمام هذا الوضع الجديد، وجد المستعمِر الغربي المتفوق ثقافيا وحضاريا، نفسه أمام مجتمعات مجهولة المعالم، مما يستدعي دراسة مُعَمَّقة و شاملة لبناه الفكرية ، الاجتماعية ، السياسية و الدينية، بغرض إحكام السيطرة عليه . ومنه نجد أن الاستعمار الفرنسي قد شكَّل لجانا للاستكشاف العلمي للجزائر و لساكنتها. و لكن قبل ذلك وجدنا أن أولى الدراسات أو بالأحرى التقارير التي قُدّمت حول الجزائر و بالخصوص حول منطقة القبائل هي التي قام بها الرحَّالة الفرنسيون خلال القرن الثامن عشر و ذلك لاستكشاف البلاد والعباد.

ففي تقرير للرحَّالة "**Peysonnel**" قدَّمه في 19 جوان1725 يقول :" مررنا عبر ثلاث قرى عصرية يسكنها "عرب" يُسَمَّون (قبايل) ، ليس لها لا زعيم ... و لا قائد عسكري ، كل واحد منهم سيِّد و حُرٌّ في اختياراته، و هم في غالب الأحيان " لصوص" أو بالأحرى حيوانات ضارية (bêtes féroces) تسكن تلك الجبال ... و الزواوة ليسوا إلا (قبايل)، أو هذا الصنف (espèce) المتوحش و هم رجال لا يُروَّضون"[1] ، ويضيف بعيدا في تقريره:" كل "عرب" هذه البلاد (و هو يقصد القبائل) يسكنون في أكواخ"[2].

أما الرحَّالة (**Desfontaines**) فيصف أحوال جبال جرجرة وحالة اللاأمن التي تسود فيها في تقرير بعثه في 18 سبتمبر1785 بقوله:" لكي لا نعرض أحدا من قافلتنا للسرقة من طرف قبائل جرجرة الذين لا يُرَوَّضون ... و للعرب (و هو يقصد القبائل) هنا عدد كبير من القرى....و هم يقاتلون بشجاعة ولا يدفعون شيئا للأتراك ويسلبون القوافل"[3]..

من خلال هذين التقريرين المعروضين على سبيل المثال لا الحصر ، نستخلص أن نظرة الفرنسيين للمجتمع الجزائري قبل احتلال الجزائر كانت شمولية و تجهل المكونات

[1] A Berbrugger, **voyage au camp d'Abdelkader**, bibliothèque royale, Paris, 1839, p 65
[2] A Berbrugger , OP.CIT, P 75
[3] A Berbrugger , OP.CIT, p 76

السوسيو- ثقافية للشعب الجزائري، إذ كانت تنطلق من عقدة الموروث التاريخي الغربي الذي يضع العرب المسلمين برسالتهم الحضارية الغالبة آنذاك، في وجه الغرب الصليبي المغلوب، فكان الغرب ينظر إلى العالم الإسلامي كوحدة **حضارية** مُوَحَّدة دينيا و لغويا و سياسيا و لا يُفَرِّق بين مختلف العناصر الإثنية التي اندمجت لتشكل فسيفساء الأمة الإسلامية .

كما أن نظرتهم "**للقبائل**" بالخصوص يشوبها الضيم، و أقل ما يمكن قوله هو كونها أحكام قيمية تعميمية تفتقر إلى أدوات المنهج العلمي، إذ كيف يمكن تعميم صفة "التوحُّش" وخاصة"اللُّصوصية" التي يقول عنها "**آجيرون**" :" كانت لِلُصوصيةِ "القبائل"شهرة كبيرة"[1] - على كافة " **القبائل**" ، دون القيام بدراسات مسحية تشمل كافة سكان هذه البطون، و ذلك عِلمًا أن الكثافة السُكَّانية كانت عالية في هذه المناطق ما يعطي عددا كبيرا من القرى و المداشر، وثانيا تَوزُّعها على مساحات جبلية وعرة و شاسعة تتطلب إمكانات مادية و إطارا زمنيا كبيرا.

منطقة القبائل في الفترة الأولى من الغزو(الحكم الإمبراطوري – العسكري):

لقد أفرز الغزو الفرنسي للجزائر حالة من التشنج و الاضطراب لدى ساكنة الجزائر، التي انتفضت غيرَ ما مرة في وجه "**الرومي** " الذي شرع في ابتلاع البلاد شيئا فشيئا. ولقد كانت إستراتيجية الاحتلال الفرنسي تندرج ضمن مشروع "**نابليون الثالث**" الذي يقضي بإنشاء المملكة العربية في الجزائر، و يظهر هذا جليا في العديد من كتاباته وخطاباته لجنرالاته ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، خطابه الذي أرسله لأحد جنرالاته و هو " **ماكماهون**" يقول فيه :" إن الجزائر مملكة عربية ، مستعمرة أوروبية و معسكر فرنسي " و في رسالة أخرى موجهة لنفس الجنرال بعنوان " سياسة فرنسا بالجزائر" زَكَّى فيها "**نابليون**" نظام المملكة العربية و هذا ما يؤكِّده "**Tournier** " بقوله :" إن الفكرة الاستعمارية الوحيدة المطبقة ميدانيا ، تمثَّلت في تأسيس المملكة العربية في الإمبراطورية الفرنسية (le royaume arabe dans l'empire Français)، لقد تركنا في نفس الأرض التي نحيا فيها فريقا من المستوطنين أغلبهم فرنسيون دون اندماج من جهة

[1] Ageron Ch R, les **Algériens musulmans et la France (1871-1904)**,T1,PUF,2005 ,p 885

، و من جهة أخرى فريقا من العرب بأخلاقهم و عاداتهم و إسلامهم و أفكارهم المسبقة عنا "[1] .

و في هذه المرحلة التي امتدَّت من الغزو إلى غاية سقوط الإمبراطورية ، تولى العسكر تسيير شؤون الجزائر ، و أمام رغبتهم في إحكام السيطرة على كافة التراب الجزائري و ترويض شعبه، تَحَتَّم عليهم دراسة البُنى الفكرية ، الاجتماعية والسياسية لهذا المجتمع " **الأهلي**" مما استدعى استنفار الباحثين الأكاديميين منهم و العسكريين لكشف اللثام عن هذا المجتمع " **المتوحش**" و الوقوف على نقاط ضعفه لاستغلالها و تضخيمها ، و على نقاط قوته لإطفائها أو للحدِّ من فاعليتها .

فتوالت الدراسات حول الشعب الجزائري عامة و منطقة القبائل خاصة، إذ نجد العديد من الباحثين قد اِستَهوَتهم هذه المنطقة لما تحمله من خصوصيات ثقافية و اجتماعية، و من أهم الدراسات التي أُجريت على **منطقة القبائل** نجد كلا من:

1. Daumas : la grande **Kabylie** étude historique 1847
2. Carette : étude sur la **Kabylie** proprement dite 1848.
3. Devaux : les **Kbails** du Djurdjura 1859
4. Warnier : l'Algérie devant l'empereur 1865
5. Duval : la politique de **Napoléon** en Algérie 1866
6. Chatelin : en Algérie، en **Kabylie** et les oasis 1886
7. Charveriat : huit jours en **Kabylie** 1889
8. Hanoteau et letourneux : la **Kabylie** et les coutumes kabyles 1893

هذا بالإضافة إلى الدراسات التي قام بها، "**ماسكوري**" ، "**روني باسي**"**و** " **غابريال غامبس**" و آخرون فيما بعد. وهي دراسات قامت على الإثنولوجيا و الاثنوغرافيا لسكان الجزائر عامة و ساكنة **منطقة القبائل** خاصة . و كانت تهدف هذه الدراسات إلى التعمق في فهم المعاش القبائلي بهدف إدماجها في الكيان الفرنسي، وفي هذا يقول أحد المنظرين

[1] Tournier (CH), **« le cardinal Lavigerie, documents inédits sur le conflit entre le cardinal et Mac mahon »**, R.H.M, 2eme année ،N°1, Mars, 1925، p 428

الاستعماريين "لكي تخضع لنا منطقة القبائل معنويا، علينا أن نعرف تاريخها، عاداتها، أعرافها للتمكن من الحكم عليها و فهم طباع من يجب علينا ربطهم بفرنسا بشدة " (1) .
و لقد تأخر غزو هذه المنطقة لعدة أسباب استراتيجية ، لعل أهمها هو التضاريس الوعرة ، الكثافة السكانية الكبيرة في هذه المناطق و "الطابع العدائي لساكنة هذه المناطق للغرباء المَقرُونِ بالكره الديني الذي يكنونه للمسيحيين الذين يجهلون لغتهم ، قوانينهم و عاداتهم" (2) .
ومنه بدأ التفكير جِدِّيًا باحتلالها، ففي هذا الشأن يقول **Liorel**:" من 1830 لغاية 1857 لم نحتل فعليا منطقة القبائل، و بقي القبائل في استقلالية مثيرة للقلق، هذه الاستقلالية هي التي يجب تحطيمها إن كنا نريد الغزو الكلي للجزائر(3). رغم أن هذا الإداري محسوب على التيار القبائلوفيلي Kabylophile ، إلا أن ذلك لم يمنعه من إبداء رغبته الصريحة في تدمير منطقة القبائل لإرساء دعائم الحكم الاستعماري في الجزائر.
و في هذه المرحلة بدأ الترويج لما سمي " بالوهم القبائلي " ، رغم أن هذه الفكرة قد سبق إليها الراهب " راينال " سنة 1826 ، حيث ركز على الخصوصية البربرية ،كاللغة الأصيلة و الفقيرة جدا ، و الاستقرار على الأرض لهؤلاء السكان الجبليين ،و الحب الشديد للحرية ، كما أسس للمواضيع الرئيسية التي سيرتكز عليها الوهم القبائلي لاحقا " الأصل النوردي Nordique للبربر ، باعتبارهم ينحدرون مباشرة من الوندال ، وسيمو الملامح ، بعيون زرقاء و شعر أشقر والتدين الفاتر المزعوم المستبدل بإجلالهم للمرابطين ، واستقلاليتهم المطلقة التي طالما تنعموا بها "(4) .
وبدأ التركيز على إظهار التمايز بين العربي و البربري القبائلي بالخصوص، و ذلك بمحاولة التأسيس لفكرة أن الشعب القبائلي أوروبي الأصل و هو بذلك أقرب إلى الحضارة من ذاك العربي الذي ، في نظرهم يصعب جلبه إلى حظيرة التقدم و الرقي بسبب تدينه المتطرف ، وفي هذا يقول العسكريان "فابار" و "دوما": "الشعب القبائلي في جزء كبير منه، جرماني الأصل، بعد ما عرف المسيحية، لم يتغير كثيرا مع ديانته الجديدة"(5) ".

---

1 Liorel (jules) : **Kabylie du Djurdjura**, paris, Ernest Leroux éditeur, 1898 , p 26
2 Tocqueville A**, lettre sur l'Algerie**,http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca ,p 5
3 Liorel (jules) : **Kabylie du Djurdjura**,OP.CIT , p 526
4 Ageron Ch R : OP.CIT , P 268
5 Ageron Ch R : OP.CIT, P 269

ولقد تقاربت الرؤى والتقارير حول سمات ساكنة هذه المنطقة إذ أجمعت أغلب الدراسات على وصف القبائلي بسمات خاصة فيقول " لادي هربرت " : " عِوض "العربي" الملفوف في برنوسه و القابع على باب مقهى أو على مدخل خيمته و الخامل دائما، وجدنا أنفسنا عند جنس عامل (يقصد القبائل) ، صبور ، مثابر ، يمارس الزراعة ، قنوع ، يكره حياة البداوة ، يحب منزله ، متعود على الأعمال الشاقة و يُظهر إتقانا مذهلا للفنون الصناعية ،... لا تثبط عزيمته العراقيل التي يواجهها، يحب جباله بشغف ، مضياف و حريص على الغرباء، و لكنه لا يقبل بمن يشتمه أو يسيء معاملته ... و هو عادة لا يتزوج إلا بامرأة واحدة و يحب أولاده كثيرا، و مكانة المرأة عنده متدنية... و هو شديد الغيرة على زوجته و الويل لها إن كلَّمت رجلا أو نظرت إليه ... و استقبال غريب بين أفراد العائلة في البيت يمثل علامة صداقة و ثقة يقدمها رب العائلة للضيف...و القبائلي يبدي احتراما كبيرا للقانون وللسلطة وخاصة القانون العرفي"([1]).

و في وصف آخر لباحث آخر :" إذا كان "العربي" رحَّالا ، فإن "القبائلي" على العكس ، مقيم (مستقر) و يبني مساكنَ ثابتةً تجتمع في قرًى على قمم الجبال كأنها أعشاش النسور و ذلك للاحتماء بها ضد الأعداء "([2]) .

من خلال هذه الدراسات و غيرها، حاول هؤلاء البحاثة أن يتحرَّوا الصدق في تقاريرهم قدر الإمكان و ذلك نظرا لما تُمليه الضرورة العسكرية التي تقتضي وصف أدق التفاصيل عن هذا المجتمع "**العدو**" الذي يجب ترويضه لابتلاعه ثقافيا و حضاريا و عسكريا.

و لقد تعمَّقت الدراسات لتشمل الأصول العرقية و الصفات الفيزيولوجية للقبائل. و في هذا الشأن، عادة ما يوصف "القبائلي" بكون " لون بشرته فاتحا يميل إلى الأحمر أو الأشقر أو الأصهب ، له أطراف قوية و هو في ذلك يشبه الأوروبيين ...بينما المقارنة مع "العربي" فلا مجال للشك "([3]). بمعنى أنه يوجد شبه كبير بين القبائل و الأوربيين من حيث الخِلقة بينما مع العرب فلا يوجد أي شبه بنظره.

من خلال هذه الدراسات، نلاحظ أن التقارير قد ركَّزت على الخصائص الثقافية التي تتميز بها منطقة القبائل مقارنة بالمناطق الأخرى، و ذلك من حيث اللغة و العادات و

[1] Herbert lady, **Algérie contemporaine illustrée**, Victor calmé, rue des saints pères, 76 Paris, 1881, PP 178-184

[2] A pomel, **des races indigènes de l'Algérie, arabes kabyles maures et juifs**, Oran, typographie et lithographie veuve dagorn, Rue trobriand 28,1871 ,P 51

[3] A pomel : OP.CIT , P 48

التنظيم السياسي و الاجتماعي و لعل أهم ما يمكن استخلاصه هو عقدهم الدائم للمقارنة بين **"القبائلي"** المستقر على الأرض « **sédentaire** » و **"العربي"**البدوي الرحَّال« **nomade** » و ذلك دون التفريق عند**"العرب"** بين **"حضرهم" و "بدوهم"** و هذا ما يثير بعض التساؤلات حول هذه الدراسات و ما يعتبر خطأً منهجيا جسيما.

أما من حيث تعامل الإدارة العسكرية مع **"القبائل"** فكان عبر ما سُمِّي **"بالمكاتب العربية"« bureaux arabes »**و لم يكن يختلف في شيء عن تعاملها مع بقية الشعب الجزائري، إذ مارست معه مختلف أساليب القمع و التقتيل و التجويع و الترويع و سلب الأراضي و إفقار السكان و اضطرارهم إلى النزوح من قراهم لطلب لقمة العيش أو الهجرة إلى فرنسا أو النفي إلى مستعمرات فرنسا النائية و خاصة بعد انتفاضة 1871 التي قادها شيخ الطريقة الرحمانية " **المقراني**".

إذن في هذه المرحلة من الاحتلال الفرنسي و التي تميَّزت بمحاولة إرساء دعائم النظام الكولنيالي و بسط سيطرته على كافة مناطق البلاد ، نلاحظ أن الدراسات الاثنولوجية و الاثنوغرافية قد ركَّزت على التمايز الذي يطبع المشهد الثقافي الجزائري بين **"عرب"** و **"قبائل"** من حيث الواقع و المعاش السوسيولوجي دون أن يكون ذلك حافزا للإدارة العسكرية آنذاك لانتهاج سياسة خاصة إزاء **"القبائل"**، إذ كانت يد القمع و التقتيل لا تستثني أحدا من " **الأهالي المسلمين** " كما تسميهم أدبيات الإدارة العسكرية آنذاك، رغم تلك المحاولات بإقامة مدارس لاستقطاب أطفال **"القبائل"** ،وجعل المدرسة أداة طيعة في يد الادارة الاستعمارية لتطبيق سياستها الكولونيالية و ذلك نظرا للدور الخطير الذي تلعبه المدرسة في نمذجة البنى الفكرية للناشئة و ترويض عقولهم ليسهل إدماجهم فيما بعد و في هذا يقول أحد منظري الاستعمار: "عندما يرى القبائلي أنه في المدرسة نتعلم حرفة تُدر أرباحا طائلة، و أننا نُكوّن مزارعين مُؤَهلين لممارسة كل أنواع زراعتنا ، سيكون الأول من يبعث إبنه عند المدرس الفرنسي ... بإمكان القبائلي أن يخدمنا كثيرا ، باعتبار مصلحته في تنمية وسائل عيشه الحسن ، و سيندمج بقوة و بصفة حميمية مع حياتنا ، سيتبنى عاداتنا ، و سيفكر مع مرور الوقت مثلنا ، و سيصبح متسامحا تجاهنا ، هكذا فقط يمكن أن تكون مهمة إدماجه منتهية "([1]) . و لقد ركزت هذه المدارس على تعميق الهوة بين مكونات الشعب الجزائري بالتأسيس الممنهج

[1] Liorel (jules) : OP.CIT ,P 526

لسياسة تفريقية بين العرب والبربر وذلك بصياغة مناهج مكيفة لغرض الإدماج وفي هذا يقول جول ليورال: "بكلمة واحدة، يجب أن نعلمهم حوليات بلادهم التاريخية، منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، كي يتفطنوا لكون العرب هم من اضطهدهم، وأننا الأكرم والأقوى من غزاتهم ... هذا ما يجب أن يكون قاعدة للتعليم التاريخي... تلك هي الطريقة المثلى الواجب اتباعها بصفة عامة لتقريبهم منا، بفصلهم عن العرب وذلك باستغلال كرههم واحتقارهم للبدو الرحل"([1]) ، ولكن هذه المدارس لم تنجح لكونها كانت موجهة لأبناء من كان مواليا للإدارة الفرنسية من "**قياد**" و"**باشاغات**" أما السواد الأعظم من الشعب فلم يتحمَّسوا لتدريس أبنائهم في تلك المدارس وذلك نظرا: أوَّلا "لكون العربية ما زالت تفرض نفسها لدى القبائل لِشرف المنزلة التي تحتلها كلغة للوحي ، ونظرا لكون التَكلُّم بها يرفع من الاعتبار لدى القوم ، و هذا ما يفسر دوام و استمرار وجود المدارس القرآنية شبه السرية في العائلات و القرى المسماة " مرابطية" في منطقة القبائل"([2]) ، وثانيا مَخَافَةَ التعرض للمسخ الهوياتي ، وثالثا لحاجتهم لكل يدٍ عاملةٍ تساهم بقسطها في أداء عملها في البنية الكلية لخلية النحل (العائلة الممتدة).

منطقة القبائل في الفترة الثانية من الغزو(الحكم المدني –التبشيري):

مباشرة عقب الحرب البروسية- الفرنسية 1870 و سقوط النظام الإمبراطوري، تولى المدنيون مقاليد الحكم .و بدأت الانتقادات تتوالى على الإدارة العسكرية السابقة وما اقترفته من أخطاء جسيمة و"**قاتلة**" في تسييرها لشؤون المستعمرة وبخاصة في منطقة القبائل، التي انتفضت في وجه الاستعمار عدة مرات وكادت أن تُقَوِّض أركانه سنة **1871**. و في هذا الشأن يقول **(Liorel jules)** وهو من عشاق منطقة القبائل (**kabylophile**): "إن الخطأ يرجع في المقام الأول إلى الإدارة (يقصد العسكر) التي لم تميز في تعاملها بين "القبائل" و "العرب"([3]) , و يَخْتِم تحامله على العسكر بنصيحة وجَّهَها

[1] Liorel (jules) : OP.CIT , P 566
[2] Ageron charles R : OP.CIT , P 884
[3] Liorel (jules) : IBID

للإدارة المدنية الجديدة: "يجب ألا نخلط بين "العربي" و "القبائلي"، و يجب ألا نعاملهم بنفس الطريقة "[1] .

ويذهب أبعد من ذلك ، ثلاثين عاما بعد انتفاضة **1871** ، بالقول أن" القبائلي ذلك القنوع، النزيه، المثابر، المقتصد، والذي عَبْر كل الأزمنة عرف كيف ينتج فوق هذه الصخور، وسط هذه الأدغال و الأشواك ، محاصيل انتزعها لطبيعة شِحِّيحة ، سيصبح العنصر الأمثل للاستيطان... وسيصبح "القبائل" العنصر الاستيطاني بامتياز، و الذي ينبغي استغلاله لنجعل من الجزائر فرنسا حقيقية"[2].

و من هنا نلاحظ أن منظري الإدارة المدنية قد وضعوا إستراتيجية بعيدة المدى لإحكام السيطرة على الجزائر بالتركيز على العنصر "**القبائلي**" الذي يمثل في نظرهم العنصر الأمثل للنهوض بالزراعة والصناعة التي تحتاج إلى اليد العاملة الخبيرة التي يفتقدها المعمِّرون « **les colons** » وحتى المزارع والمصانع في فرنسا الوطن الأم، "فلقد أوصى رئيس البعثة المالية القبائلية "آيت مهدي" منذ 1899 بهجرة العمَّال المزارعين "القبائل"...فنجد أن المئات من القبائل قد وصلوا إلى فرنسا بين 1906-1907 و ذلك لكسر إضراب العمَّال الإيطاليين الذين يشتغلون في معاصر الزيتون ومعامل التكرير في مرسيليا"[3])، وهذا استنادا إلى عدة دراسات أنثربولجية أُجريت على سكان منطقة القبائل والتي ترى أن "القبائلي لا يخشى الذهاب خارج مواطنه طلبا للعمل لسد حاجيات عائلته "[4].

و هو بذلك يُقدِّم العنصر الأمثل لاستيطان هذه الأراضي الشاسعة بالمزارعين الأكفاء بدل "**العرب**" الذين لا يتقنون فن الزراعة، و بدل **الآسيويين** أو **المارونيين اللبنانيين** أو **اليهود** الذين تعرضوا للمضايقات في روسيا و الذين تمَّ اقتراحهم لاستجلابهم إلى الجزائر لتوفير اليد العاملة ولكن تمَّ الاستغناء عنهم مخافة إثارة القلاقل مع السكان الأصليين.

من هنا بدأت تطفو على السطح ملامح إستراتيجية جديدة ذات وجهين تُجاه **"القبائل"** وذلك لأغراض اقتصادية بحتة، ورغبة في تحقيق إدماجهم في النسيج الحضاري الفرنسي **بالمثاقفة** والتعليم والتعامل التجاري والاقتصادي ، الذي مع الوقت سيُخَفِّف

[1] Liorel (jules) : OP.CIT , P 536
[2] Ibid , PP 530-543
[3] Ageron Ch.R : OP.CIT , P 865
[4] A pomel : OP.CIT , P 56

من حدة العدائية التي يُكِنُّونها للفرنسيين و للمسيحيين .و لقد شرعت الإدارة الاستعمارية في سَنِّ ترسانة من القوانين لنزع الملكية و مصادرة الأراضي، خاصة بعد انتفاضة 1871، هذا بالإضافة إلى محاولة **تفكيك العائلات الممتدة** بفرض سجل الحالة المدنية على كافة الجزائريين، وذلك نظرا لكون النظام الاجتماعي يرتكز أساسا على العائلة ، ثم **لتسهيل نقل الملكية من القبيلة إلى العائلة ثم إلى الفرد** لتسهيل عملية البيع أو المصادرة و ذلك بغرض اقتلاع **"القبائلي"** من أرضه و قطع كل الجذور التي تربطه بها.

و في هذه المرحلة ، تمكنت الكنيسة من افتكاك الترخيص بالنشاط الحرّ في الجزائر عامة و في منطقة القبائل خاصة بعد أن كان نشاطها حكرا على بعض الأعمال الخيرية .و هنا نسجل تحالفًا بين الإدارة و الكنيسة و الإعلام ، فيقول الصحفي **André Servier** وهو من الماسونيين :" يجب علينا في كل مرة نستطيع ذلك ، أن نقسِّم الكتلة الأهلية bloc indigène، أن نُفَكِّكَها و أن نَعزِل كلَ عنصرٍ على حِدَة ،علينا أن نقوم بالإدماج الفردي بانتزاع أحسن العناصر من الكتلة البربرية (يقصد القبائل) ...والمدرسة اللائكية لم تُوفَّق في ذلك ، فلنَدَع "الآباء البيض " يَتَوَلَّوْنَ ذلك"[1].

و بذلك أُطلِقَ العنان للمبشرين للتنظير **لمنطقة القبائل** و محاولة بناء صورة نمطية عنها لخدمة مشروعهم التنصيري . و في هذا الشأن يقول القسّ **Baunard** في وصف منطقة القبائل:" إنها منطقة رباعية الأضلاع، تمتدُّ على مساحة 900 ألف هكتار في الضِفَّة اليمنى لوادي " يِسَّر Isser" قبل " دَلَّس Dellys " حتى "بجاية" على امتداد ساحل البحر المتوسِّط ، إلى "سور الغزلان Aumale " و"سطيف" جنوبا... إنَّه عِرْقٌ مُدهش له اسمه، تاريخه و مميزاته. لم يتغير منذ 15 قرنا. عِرْقٌ مختلف تمام الاختلاف عن العرق العربي الإسلامي من حيث اللغة، العادات، الحياة المدنية والدينية. هذه الفئة أعرضت عن مقاتلة العربي و لكنها لم تنقطع عن كرهه ، إنه عرق كان سَلَفًا مسيحيا جعل من هذه الجبال حصنا لعقيدته و التي يرى فيها "لافيجري" مبعثا للكنيسة الإفريقية " [2].

ومن الجدير بالذكر أن فرنسا المسيحية أرادت بعث أسطورة القبائل المسيحية و إبراز هذه المنطقة ككيان متميِّز عن المناطق العربية بالجزائر. فنجد أن الكاردينال

[1] Ageron Ch R : OP.CIT, P 887

[2] Baunard(M), **le cardinal lavigerie**, T1, librairie poussielgues, Paris, 1898, PP 399-400

"لافيجري" يرى في "ساكنة منطقة القبائل مجتمعا قابلا للتَنَصُّر كون أصولِه مسيحيةً و يتمسك بعاداتٍ و تقاليدَ مسيحية بارزة كرَّستها الدراسات الأنثروبولوجية "[1] .

ويضيف في موضع آخر قائلا: "يوجد في الجزائر شعبان، بالأحرى عرقان، من جهة هناك البربر أو القبائل وهم السكَّان الأصليون ، و من جهة أخرى العرب وهم الشعب الغازي . فمنذ حلولنا بالجزائر لاحظنا أن القبائل يكرهون العرب الذين سيطروا عليهم بالقوة. و لقد فرض العرب عليهم القرآن و تعاليمه ، و هم في الحقيقة لاتينيون و مسيحيون قدامى. وحتى إن لم يكن مستحيلا إيجاد بعض الآثار المسيحية في ثنايا عاداتهم ، فإننا نؤكد أنهم كانوا أبناءًا للذين درَّسهم القديس "أوغسطين" "[2] ، و هو بذلك يحاول أن يؤسِّس لفكرة الكيان القبائلي المنفصل عن باقي المناطق الجزائرية، لقد كان من أشد المنتقدين للنظام العسكري الذي بنظره لم يُفَرِّق بين **"القبائل"** و**"العرب"** حيث يقول: "و عِوَض ذلك (ويقصد عِوَضَ نشر المسيحية)، فإننا لم نُميز بين " العرب" و "البربر" (يقصد القبائل) ، و ضربنا الإثنين معا، و بالتالي وحَّدنا صفوفهم لمواجهة عدوٍّ واحد هو نحن، و هذا ما تمثل جليا في ثورة الإخوان الرحمانيين سنة 1871 "[3] و هو يقصد ثورة المقراني.

ولقد حاول هؤلاء المبشرون أن يُروَّجوا لمجموعة من الأوصاف الخاصة **بالقبائل**، وذلك محاولة منهم تعميق الهوة بينهم و بين إخوانهم في الوطن **"العرب"** بوصفهم غزاة ومعتدين ومحاولة تقريبهم من الجنس الأوروبي المتحضر انطلاقا من المركزية الإثنية الغربية. فلقد وصفوا **القبائل** بالتسامح الديني، وحب العمل، والتفتُّح الفكري، وهم بذلك أقرب إلى الفرنسيين وفي ذلك يقول الجنرال «**Daumas**»: " كلما حفرنا هذا الجذع القديم، وجدنا تحت القشرة الإسلامية الأصول المسيحية. وعند ذلك ندرك أن القبائلي القديم كان مسيحيًا و لم يتحوَّل كُلِّيةً إلى دينه الجديد"[4] بمعنى الدين الإسلامي.

ولقد حاولوا توظيف التاريخ لاستنهاض الروح المسيحية لدى **"القبائل"** باعتبارهم كانوا مسيحيين قبل مجيء **"العرب"**.و لقد تكثَّفت الإرساليات التبشيرية إلى هذه المنطقة لإعادتها إلى الحظيرة المسيحية. فنجد مثلا الدكتور « **Warnier** » من الذين "نادوا

---

[1] Baunard(M) : OP.CIT , P 553

[2] Renard(edmond), **le cardinal Lavigerie**, Ed spes, Paris,1926 , PP 129-130

[3] Lavigerie (CH) , **œuvres choisies**, T2, librairie poussielgues, Paris, 1884 , P 404

[4] Goyau G , un grand missionnaire : le cardinal lavigerie , librairie plan, Paris,1925 , P 268

بتنصير "القبائل" و من المشجعين لخلق كيان قبائلي مستقل ، بحيث اعتبر البربر (القبائل) هم السكان الأصليين للبلاد ، و رغم كونهم تقبَّلوا الدين الإسلامي، إلا أنهم يبدون استعدادا كبيرا للرجوع إلى المسيحية"(1) ..

كما حاولوا في كل كتاباتهم التركيز على العامل العرقي، بالتأكيد على تمايز الجنسين "**العربي**" و"**البربري**"، لكنهم اختلفوا فيما يخص أصل الجنس البربري، فنجد مثلا « **George Elie**و هو إداري سابق يرى أن "**البربر**"ينحدرون من الشعوب الشمالية « **Nordiques** لكون الكثير منهم شقر و عيونهم زرقاء. و هم لا يختلفون بذلك عن القرويين الفرنسيين من حيث حب العمل و الدقَّة فيه و حب الأرض و اكتسابهم لمفهوم الاقتصاد و الصراحة والذكاء. ويذهب أبعد من ذلك حين يقول :" خذوا أية جماعة بربرية (و هو يقصد القبائل) و انزعوا من أعضائها البرانس و ألبسوهم اللباس الأوروبية فإنكم ستجدون أمامكم مجلسا بلديا يتكوَّن من فرنسيين"(2) .

في حين أن الكاردينال "لافيجري"صرّح أن "القبائل" والفرنسيين ينحدرون من سلالة واحدة و هي سلالة الرومان "(3). وهنا نلاحظ تضاربا في دراساتهم و رؤاهم حول أصل "**القبائل**" .أما أستاذ الحقوق بجامعة الجزائر « **Charveriat** » فيرى: "أن القبائل خليط من أجناس اندثرت تحت وابل الأحداث. هذه الأجناس امتزجت لتشكِّل مزيجا في غاية التماسك مثل صخور الغرانيت "(4) ، و هذا الخليط في نظره متكوِّن من إنجليز وباسك ونورمانديين (نرويج) ومصريين . و في نفس السياق يقول "**ماسكوري** " : "ولكن وجوههم (و هو يقصد القبائل) مختلفة إلى درجة يصعب التكهُّن بمن كانوا آباءهم ، فالجرماني يصطدم بالروماني و الكنعاني بالهندي والعربي" "(5) ، انطلاقا من هذه التوصيفات نستنتج أن "**القبائل**" في نظر هؤلاء الفرنسيين ، جنس هجين و ليس جنسا صافيا و هنا نلمس هذا التناقض الصارخ مع دراسات سابقة ترى أن " **القبائل**" هم أكثر القبائل البربرية التي حافظت على نقائها العرقي نظرا لكونها لم تتعرض لأي غزو

---

[1]Ageron Ch-R.: **« l'Algérie algérienne , de napoléon lll à de gaulle** » ,sindbad , 1980 - P 270

[2] Elie G : **la Kabylie du Djurdjura et les pères blancs**, ED Louis de Soye, Paris, 1923 , P 23

[3] وعلي م ، **التعليم التبشيري في الجزائر[1830-1904]، دراسة تاريخية تحليلية** ، منشورات دحلب، الجزائر،1997 ، ص 58

[4] Charveriat (François) : **à travers la Kabylie et les questions kabyles**, paris, librairie plon. 1889 , P 130

[5] Liorel (jules) : OP.CIT , P 2

عسكري مباشر منذ الرومان حتى الفتح العربي ، إذ بالرغم من كونهم مسلمين إلا أنهم بقوا أحرارا ، و حافظوا على بناهم الفكرية ، الاجتماعية و السياسية و بخاصة على لغتهم الأصلية التي تمثل علامة لتميُّزهم واستقلاليتهم.

الاستنتاجات و الخلاصات:

1- إن أولى الملاحظات التي يمكن استخلاصها هي إن تعامل فرنسا مع منطقة القبائل قد تَدَرَّج عبر ثلاث مراحل ، مرحلة الاستكشاف (مرحلة ما قبل الغزو) ، مرحلة الاكتشاف (مرحلة الحكم العسكري)، ثم مرحلة تسخير البحوث العلمية لتحقيق الإستراتيجية الكولونيالية (مرحلة الحكم المدني).

2- لم يكتف الاستعمار الفرنسي بالغزو العسكري لتكريس تواجده وفرض هيمنته على الجزائر،بل وظف استراتيجيات شتى و منها استراتيجية توظيف الصراع الدائم بين مختلف القبائل المكونة لمنطقة القبائل و ذلك لتفتيتها و تفكيك بنيتها الاجتماعية التي تعتبر "أكثر المؤسسات البشرية صلابة "([1])

3- لقد حاولت الإدارة الاستعمارية أن تبقي على المؤسسات الاجتماعية في منطقة القبائل وذلك لتفادي الصدام مع القبائل ونظرا لكون هذا النظام يمثل آلية تنظيمية صارمة تتحكم في جميع سكان القرى، و بالتالي التحكم فيها سيسمح بالسيطرة على المنطقة بأكملها ، فتدخلت السلطات في إحداث بعض التغييرات، وذلك بتعيين "خوجة" لكل "ثاجماعث" يتولى جمع الضرائب. و لكي تحافظ على التوازنات الهشة بين مختلف العائلات والصفوف في القرية ، فإنها استحدثت منصب "لوكيل" من الصف الخصم المعادي للصف الذي ينبثق منه " لمين ثاجماعث " ، كما اشترطت أن يعين على رأس كل " خروبة " ما يسمى " بالطامن " من طرف " لمين " الجماعة، و"عاقل" من طرف "لوكيل" ، ليحضروا مداولات الجمعية العامة ، لتتحول بذلك مؤسسة " ثاجماعث" العريقة إلى مؤسسة إدارية بحتة ، مع التركيز على العائلات الكبيرة و العريقة .داخل بنية القبيلة أو العرش حاول الاستعمار أن يوظِّف الصراع الدائم بين **"الصف العلوي"** و **"الصف السفلي"** الذين يُكوِّنان البنية التقليدية لجميع قرى منطقة القبائل و كثيرا ما تمَّ الاستثمار في استقطاب قادة القبائل الموالين لفرنسا لاستغلال وضعهم للتأثير على القبائل التي لم تخضع بعد للاحتلال الفرنسي.

[1] Tocqueville A : OP.CIT , P 11

4- داخل القرى القبائلية حاول الاستعمار أن يوظّف كذلك التركيبة البشرية المتكونة غالبا من طائفة " المرابطين " و باقي ساكنة منطقة القبائل و ذلك بتوظيف فئة "المرابطين" إذ أن" غالبية القيادات التي تم تعيينها في الفترة الممتدة ما بين 1840 و 1895 كانوا من فئة "المرابطية" ، ربما الاستثناءات الوحيدة كانت تفرض نفسها بقوة السلاح ، و هذا ما دفع جنرالات الجيش إلى توخي الحذر من اندلاع الانتفاضات و المرونة في التعامل مع الأوضاع ... و غالبا ما ينتظرون الموت الطبيعي لقيادات العائلات الكبيرة " اللائكية" ليتم استبدالها بشخصيات " مرابطية""[1]. وفي هذه النقطة بالتحديد لاحظنا أنَّ وصف القبائل "**باللائكيين**" ناتج عن هذا التقسيم المنهجي بين فئة " المرابطية " وباقي العائلات القبائلية غير "المرابطية" دون أن يكون لهذه التسمية أية علاقة بمفهوم اللائكية المتداول في الحضارة الغربية.

5 - إنشاء ما سُمِّي "**بالمكاتب العربية**" و التي انتهج ضباطها سياسة " القبائل و العروش" و ذلك بالاعتماد على طائفة " المرابطية" التي تعرف المنطقة حق المعرفة و وضعهم في وجه العائلات القبائلية الكبرى غير "المرابطية" و التي وُصفت باللائكية . و نظرا لكون هذه الطائفة تتقن العربية قراءة وكتابة، فهذا ما يُفسِّر لماذا تمَّ تعريب معظم أسماء العائلات و القرى و الأماكن و الوديان و الجبال و البنى الاجتماعية و حتى أسماء القيم التي تفتخر بها هذه المنطقة. (آث أصبح بني ، أذرار أصبح جبل ، إغزر أو ثاسيفث أصبح وادي ، قيم النيف و الحرمة إلخ) و هذا ما عزّز السلطة المعنوية لهذه الفئة بامتلاكها و تدوينها لتاريخ المنطقة و العائلات "و سمح لها باستعادة وجودها السياسي الذي فقدته"[2] و" لقد ساهمت المكاتب العربية بقوة في المهمة الكارثية ، المتمثلة في السلخ الهوياتي (débérbérisation) للقرى القبائلية ..... لقد كان على رأسها ضباط فرنسيون حافظوا على تحّكُمهم المحكم بواسطة التأسيس لنظام السطو المُمَنهج وإثارة الانتفاضات المدبَّرة و ذلك لتبرير مصادرة الأراضي والقتل و الجباية لدى القبائل المنتفضة"[3]، و بالمقابل نجد أن" التعريب قد خطى في هذه المنطقة (منطقة القبائل)

[1] Ageron CH R : OP.CIT , P 39

[2] Tocqueville A : OP.CIT , P 6

[3] Violard (e), **les villages algériens,1870-1890**, 2 tome, imprimerie administrative victor heintz, Alger, 1926 , P 10

خطوات جبارة و ذلك بإقحام نظام إدارة بالعربية « administration à l'arabe » "[1]، إذ كان ضباط (هذه المكاتب) يعتبرون أنه يتعيَّن التحدُّث بالعربية دون تمييز في كامل شمال إفريقيا ، حتى أن بعض العقول التي تشربت بالمقاربة الاستشراقية القديمة، "يتحدثون عن التعريب كمرحلة أوَّلية لحملة التمدين و التحضير المتبناة حيال الشعوب البدائية ... و لا يجب تعليم الفرنسية لهذه الجماعات البربرية (القبائل) إلا بعد مرحلة تعريبهم[2].

6 – لقد تم التأسيس لسياسة (السياسة القبائلية) تقوم على الاحتفاظ بالأشكال الجمهورية للقبيلة، و ذلك بتفويض السلطة لأمناء القبائل و الاستغلال المحكم لِمُعْطَى " **الصَّف**" في كل قبيلة علما أن في كل قرية نجد صَفَّين "**صف علوي** " و " **صف سفلي**" ، و كذا استغلال نفوذ العائلات الكبيرة ، و احترام القوانين العرفية القديمة للمنطقة و التي باعتقاد الفرنسيين ، أنها لا تتعارض في أي حال من الأحوال مع روح قانونهم العام. ففي أمرية 3 ديسمبر 1859 أمر الماريشال " **راندون**" بالحفاظ على القوانين العرفية القبائلية مع تنقيتها من بعض البنود البربرية في إشارة إلى أحكام الشريعة ، و لكن بالمقابل هنالك من كان يرى أحكام الشريعة الإسلامية أكثر إنسانية من هذه القوانين العرفية منهم "مدير الشؤون الأهلية « **Luciani**»و هو من المستعربين الذي يعترف سنة 1916 أنه لا يُكِنُّ لعادات القبائل المليئة بالخرافات و البربرية سوى الاحتقار وأنه مقارنة بهذه العادات، فإن الإسلام يمثل مرحلة أرقى من التحضر"[3]

7 - لقد قامت الإدارة الاستعمارية بتقسيم المنطقة إداريا و ذلك لتسهل عملية التحكم في الأهالي و لتفتيت منطقة القبائل وزرع الفرقة بين هذه الكيانات الإدارية و في هذا يقول حسين **آيت أحمد** :" نعلم يقينا أن تسمية "القبائل الصغرى" و " القبائل الكبرى" ما هي إلا تسميات جزافية و ضعتها الإدارة الاستعمارية سعيا منها لتقسيم سكان واجهتي جبال جرجرة "الشمالية والجنوبية"، هذا التقسيم قد ألحق منطقة الصومام بمقاطعة قسنطينة"[4] ، و ذلك ما يؤكده « **Morizot** » في قوله : إن جبال جرجرة تشق منطقة

[1] Liorel (jules) : OP.CIT , P 223

[2] Le glay,**l'école française et la question berbère** , direction générale de l'instruction publique , des beaux arts et des antiquités , rabat, 1921, P 11

[3] Ageron , CH R : OP.CIT , P879

[4] H.Ait Ahmed, **mémoires d'un combattant ,l'esprit d'indépendance 1942-1952**, sylvie messinger editeur, paris, 1983, P 71

القبائل المتجانسة اجتماعيا و لغويا و تقسمها إلى منطقتين في غالبية الأحيان متعاديتين، الأولى تصد واجهتها للجزائر و الثانية لقسنطينة. و نحن من سمَّينا الأولى "القبائل الكبرى" و الثانية" القبائل الصغرى" ، و نظرا لكون هذه البلاد معروفة بجبالها المتشابكة اضطررنا للتمييز في " القبائل الكبرى" بين " القبائل العليا " و " القبائل السفلى" و في " القبائل الصغرى" بين قطاع " الصومام " و قطاع " ڤرڤور"[1] و لقد زرعت الفتنة بين المنطقتين بغرس فكرة أن القبائل الصغرى أكثر تدينا و تعربا و كذا التسويق لفكرة أن القبائل هم الفرع الأسمى من على باقي الفروع الأمازيغية من شاوية و توارق و مزابية الخ .

8 - لقد أوغل البحَّاثة والكتَّاب ، في الوصف الأسطوري لهذه المنطقة بمحاولة التأسيس لعلاقة تضاد بين الجنس القبائلي المقيم في الجبال ، و بين الجنس العربي المنتشر عبر السهول و الهضاب. و ادعوا أنهم قد وجدوا أو اكتشفوا في الشعب القبائلي الذي يعتبرونه من أصل جرماني ، آثار تَشَرُّبِ هذا المجتمع بالقيم المسيحية ، كحب العمل و تقديسه ، و تقدير المرأة ، و الشغف بالمساواة و الأخوة و التضامن الآلي الخ.....و هذا الشغف بالمساواة يمنعهم من القبول بفكرة الزعيم أو القائد المطلق، و هذا ما استغلَّته الإدارة الاستعمارية بدهاء و حنكة. ونظرا لكون إدارة القرى القبائلية ديمقراطية ، فالحكمة تقتضي المحافظة على نفس نمط الإدارة و ذلك لتجنُّب إثارة القلاقل والثورات ضد الإدارة الاستعمارية و ثانيا لكون هذا النمط أثبت نجاعته في الحفاظ على الأمن و السلم الاجتماعيين في هذه المناطق ربما أكثر مما توفِّره القوانين الوضعية الفرنسية ذاتها. إذن فالنظام القبائلي يستجيب لسياسة واقعية براغماتية وليس لسياسة عاطفية قبائلية « politique Kabylophile »، ولقد سمحت بتفتيت البنى القبلية والقضاء على القيادات الروحية لكل قبيلة.

9 - إنه من المسلَّمات أن مباشرة أية عملية استعمارية تقتضي وضع سياسة ممنهجة تخص الشعب الذي يراد استعماره. والاستعمار الفرنسي لا يشذ عن القاعدة . ولقد لجأ لتوظيف المدرسة لمحاولة صياغة مشروع بعيد المدى ، متعدد الأبعاد ، أولها تغيير البنيات الذهنية للمجتمع القبائلي لإبعاده عن دينه ، ثانيا ليسهل إدماجه في الامة

[1] Morizot (j) : **l'Algérie kabylisée**, cahiers de l'Afrique et l'Asie, éditions j.peyronnet et cie, paris. 1962, PP 34-35

الفرنسية و ابتلاعه ثقافيا وحضاريا . وفي هذا يقول ليورال جول: "لقد بدأت تظهر الأعراض الملائمة و المشجعة، على الأقل مدارسنا أكثر من مساجد الإسلام، ما يسمح لنا بصياغة طموحات جميلة " [11] **(Liorel jules :1898 ,16).** ولقد عملت على تشكيل نخبة قبائلية تولت مهمة التدريس، وشكلوا وقودا للحركة الوطنية والحركة النقابية والطلابية ، و انخرط معظمهم في الحركات اليسارية العمالية ، حتى ظهرت الأحزاب الوطنية التي تبنت أطروحة استقلال الجزائر وظهرت معها ضرورة وضع تصور للدولة الجزائرية المستقلة ، لتظهر أول تجليات التباين الهوياتي للدولة الجزائرية، وهو ما عرف بالأزمة البربرية، التي كان على رأسها مجموعة من الشباب المتعلم القبائلي، و الذي طرح لأول مرة فكرة "الجزائر الجزائرية ، في مقابل "الجزائر الفرنسية" التي أرادها الاستعمار، و"الجزائر العربية المسلمة" التي أرادها التيار الوطني آنذاك. رغم كل هذا، يمكننا القول في النهاية، أن الاستعمار الفرنسي قد حاول أن يستثمر في الاختلافات العرقية والثقافية للمجتمع الجزائري ، وذلك بمحاولة تقريب القبائل إليه وتفضيلهم بالمدارس ولكن ليس لغرض آخر سوى السيطرة على كامل التراب الجزائري ، و تكريس مبدأ فرق تسد ، و لكن منطقة القبائل لم تساير هذا المشروع. فالسؤال الذي ينبغي أن يُطرح: هل يمكن القول أن منطقة القبائل قد تواطأت مع الاحتلال الفرنسي أم أنها بالعكس كانت شوكة في وجه مخططاته؟ هل عرفت هذه المنطقة نوعا من الامتيازات على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي واللغوي من طرف هذه الإدارة الاستعمارية التي يفُترض أنها تمارس هذه السياسة القبائلية أم العكس؟ هل كانت هذه المنطقة بمنأى عن آلة التقتيل والإبادة الجماعية للعائلات وتدمير القرى والمداشر وحرق المحاصيل والغابات ومصادرتها ؟ بالعكس لقد عرفت المنطقة مصادرة الأراضي التي أدَّت إلى انتشار المجاعات و هلاك الآلاف. وتعرضت للمضايقات الجبائية الممنهجة والتعسفية من قبل المكاتب العربية وذلك لدفع ساكنتها للانتفاض لتبرير عمليات القمع والتقتيل أو النفي ثم مصادرة أراضي القبائل المنتفضة. وساهمت في تكريس التضاد بين الثنائيتين (عربية-إسلام) و(فرنسية- مسيحية) وأهملت كلية الأمازيغية ومكوناتها رغم الدراسات التي أقيمت هنا و هناك .

[1] Liorel Jules : OP.CIT , P 16

المراجع بالعربية :

1- وعلي م ، التعليم التبشيري في الجزائر[1830-1904]، دراسة تاريخية تحليلية ، منشورات دحلب، الجزائر،1997

المراجع الأجنبية :

1- A Berbrugger,voyage au camp d'abdelkader,bibliotheque royale, Paris,1839

2- A pomel, des races indigenes de l'Algerie, arabes kabyles maures et juifs, Oran, typographie et lithographie veuve dagorn, Rue trobriand 28,1871

3- Ageron Ch R, les Algériens musulmans et la France (1871-1904),T1,PUF,2005

4- Baunard(M), le cardinal lavigerie,T1, librairie poussielgues, Paris, 1898

5- Charveriat (francois) :1889-huit jours en kabylie.a travers la kabylie et les questions kabyles,paris,librairie plon.

6- Ch-r .ageron : 1980- « l'Algérie algérienne »de napoleon lll à de gaulle ,sindbad, ,

7- Elie G , la Kabylie du Djurdjura et les peres blancs, ED Louis de Soye, Paris, 1923

8- Goyau G , un grand missionnaire : le cardinal lavigerie , librairie plan, Paris,1925

9- h.ait ahmed, memoires d'un combattant ,l'esprit d'independance 1942-1952, sylvie messinger editeur, paris, 1983,

10- Herbert lady, Algerie contemporaine illustrée,Victor calmé,rue des saints peres,76 Paris,1881

11- Lavigerie (CH) , œuvres choisies, T2, librairie poussielgues, Paris, 1884

12- Le glay,l'école française et la question berbere , direction générale de l'instruction publique , des beaux arts et des antiquités , rabat, 1921

13- Liorel (jules) : Kabylie du Djurdjura,paris, Ernest Leroux éditeur, 1898

14- morizot(j) : l'Algérie kabylisée, cahiers de l'afrique et l'asie, editions j.peyronnet et cie, paris. 1962

15- Renard(edmond),le cardinal lavigerie, Ed spes, Paris,1926

16- Tocqueville A, lettre sur l'Algerie,http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm

17- Tournier(CH), « le cardinal Lavigerie, documents innedits sur le conflit entre le cardinal et Mac mahon », R.H.M,2eme année,N°1,Mars,1925

18- Violard (e), les villages algeriens,1870-1890, 2 tome, imprimerie administrative victor heintz, alger, 1926

التصور الخصوصي للهوية الثقافية الجزائرية

حفيظة محلب جامعة الجزائر3

الملخص:

تسلط الدراسة الضوء على خصوصية الهوية الثقافية في الشخصية الجزائرية، إذ لا يمكن الحديث عن الهوية الثقافية في المجتمع الجزائري دون الإشارة إلى جملة من القضايا المحورية والمصيرية في تاريخه وحاضره، لاسيما في ما يرتبط بعلاقته بقيم الدين الإسلامي في ظل الانتماء الإثني والجغرافي المقرر تاريخا، إضافة للبعد الاستعماري الفرنسي على وجه الخصوص وما خلفه من خدوش عميقة تطرح عدة إشكالات معرفية وسياسية في مجال التفكير في رسم العلاقة معه على المستوى الأيديولوجي أو اللغوي أو التاريخي، دون أن ننسى ملامح هويته الثقافية المعاصرة التي تتجسد في مختلف المجالات: التراث الثقافي، المسرح، السينما والفنون الموسيقية.

الكلمات المفتاحية: خصوصية الهوية الثقافية، الشخصية الجزائرية، الدين الإسلامي، التراث الثقافي.

Abstract:

the study sheds light on the privacy cultural identity of the Algerian personality; that it Can not talk about cultural identity in Algerian society without reference to a number of pivotal and Fateful issues in its history and present; Particularly in what is related with its relationship to the values of the Islamic religion Under the ethnic and geographic affiliation scheduled In addition the French colonial dimension, in particular, and his successor, deep scratches raises several epistemological and political problematic and in the field of thinking in shaping the relationship with him on ideological or linguistic or historical level ; Without forgetting the features of contemporary cultural identity in which they embodied the various fields: cultural heritage, theater, cinema and the arts.

Key words: the privacy of cultural identity, the Algerian personality, the Islamic religion, cultural heritage.

مقدمة:

إن الحديث عن الخصوصية الثقافية وإقرانها بالخصوصية الحضارية إنما هو في الحقيقة حديث عن وجودنا التاريخي والجغرافي، هذا الوجود الذي يحدد خصوصيتنا الثقافية ويشكل هويتنا وانتماءنا أمام الآخر، فالخصوصية هذه ترافق الشعوب والأمم والجماعات البشرية على الرغم ما بلغته الإنسانية من تفاعل وتشابك في المصالح والعلاقات[1].

وتعني خصوصية الثقافة حميمية الإنسان والمجتمع المنتج والقيمة الذاتية للإنتاج الفكري والاجتماعي ونوعية الحياة المعاشة، وبالخصوصية الثقافية يكتسب كل مجتمع إنساني حقه المشروع في أن يكون مختلفا[2]، فمصطلح الخصوصية الثقافية لمجتمع ما يشير إلى الاختلاف عن الآخر، ويشير إلى سيادة ثقافية لهذا المجتمع وكل مجتمع له حقه المشروع في ممارسة وأداء وتأكيد هذه الخصوصية، وهذا ما يندرج بالضرورة في التعددية الثقافية.

وبالعودة إلى الخصوصية الثقافية الجزائرية فيعرفها الأستاذ الدكتور **عبد الله بوجلال** إجرائيا على أنها : "العناصر الثقافية المادية الروحية والقيمية والحياتية الموروثة والمكتسبة والتي تقوم بوظائف إيجابية في حفظ التماسك الاجتماعي والأسري وضبط وتوجيه سلوك الأفراد والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية وتحدد تصورات وأهداف أبناء الشعب الجزائري الحضارية والتنموية حاضرا مستقبلا"[3]، فمجتمعنا الذي نحيا فيه يملك إنفرادا لهويته الثقافية، بل يكاد الأمر يكون أبعد من ذلك في المجتمع الواحد، إذ يشتمل كل مجتمع على تقسيمات فرعية داخله، وتزداد تلك التقسيمات كلما تقدمت وزادت درجة التخصص بين أعضائه، وتتميز كل جماعة بنظم وعناصر ثقافية خاصة بها ولا توجد في كثير من الأحيان عند غيرها.

---

[1] - عدنان السيد حسين، متطلبات الأمن الثقافي العربي، دراسة في الاستراتيجيات والسياسات، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، الثقافة العربية أسئلة التطور والمستقبل، ع29، بيروت، ديسمبر 2003، ص 303.

[2] - عبدالله بوجلال، العولمة وأثرها على الخصوصية الثقافية، الجزائر نموذجا، أعمال الملتقى الدولي الأول لكلية العلوم السياسية والإعلام حول: الدولة الوطنية والتحولات الراهنة، دار هومة، الجزائر، 2004، ص ص 210 209.

[3] - المرجع نفسه، ص 266.

فلا يمكن لمجتمع ما أن يحدد مكانة له في التاريخ إن لم يكون صورة واضحة المعالم عن كيانه الاجتماعي والثقافي، إذ يشير المفكر العربي **برهان غليون** في نفس السياق إلى أنه لا تستطيع الجماعة أو الفرد إنجاز مشروع مهما كان نوعه أو حجمه، دون أن تعرف نفسها وتحدد مكانها ودورها وشرعية وجودها كجماعة متميزة، فقبل أن تنهض لا بد لها أن تكون ذاتا.

وعلى ضوء ما سبق تتحدد مشكلة دراستنا في بحث موقع الهوية الثقافية في التراث المعرفي، لنتعمق أكثر في خصوصية الهوية الثقافية الجزائرية لأهمية الدور الذي تلعبه الجوانب الثقافية المتأصلة في عمق التاريخ السياسي والاجتماعي لبلدنا.

أولا: ماهية الهوية الثقافية

1-مفهوم الثقافة:

أ-لغة: لم يتفق العلماء في تحديد مفهوم الثقافة، ويزداد لفظ الثقافة اتساعا وتعدادا فمن الناحية الدلالية اللغوية تعني كلمة أو مصطلح "ثقّف" في اللغة العربية قوّم الشيء، أي قومه عندما كان معوجا وغير سوي، فقال العرب "ثقفت الرمح" أي قومته[1]، أي جعلته على أحسن صورة، وأيضا يأخذ المصطلح معنى الإصلاح وإعادة الشيء على حاله وأيضا التصحيح.

ب-اصطلاحا: إذا كانت الثقافة تعبيرا عن أوجه النشاط الإنساني منذ كانت الحياة فإن مفهومها الحديث جاء من أوروبا مع عصر النهضة وتعددت مدلولاتها وتعاريفها حتى بلغت في المائة سنة الأخيرة على الأقل مائة وستين تعريفا[2]، والثقافة كما عرفها **تايلور** بأنها "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، والعقائد، والفن والأخلاق، والقانون والعرف، وكل المقدسات، والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع"[3].

2- مفهوم الهوية:

أ-لغة: يعتبر موضوع الهوية من المواضيع التي لاقت اهتمام العلماء والباحثين وقد تم تعريفها في مختلف العلوم والمجالات،حيث تدل في معناها العام على ماهية الشيء أو الشخص الذي يحمل سمات خاصة تختلف عن الأشخاص أو الأشياء الأخرى، إذ أن

[1] - أسعد السحمراني، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، ط1، دار النفائس، 2002 ، ص 82.

[2] - الطاهر لبيب، سوسيولوجية الثقافة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978، ص 6.

[3] - تهاني الكيال، الثقافة والثقافات الفرعية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1997، ص 30.

الهوية هي كلمة مركبة من ضمير الغائب "هو" مضاف إليه ياء النسبة التي تتعلق بوجود الشيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها[1].

ب- اصطلاحا: تعرف "الهوية" على أنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب[2]، أي تلك الصفة الثابتة والذات التي لا تتبدل ولا تتأثر ولا تسمح لغيرها من الهويات أن تصبح مكانها أو تكون نقيضا لها، فالهوية تبقى قائمة ما دامت الذات قائمة وعلى قيد الحياة، وهذه الميزات هي التي تميز الأمم عن بعضها البعض وتعبر عن شخصيتها وحضارتها و وجودها.

وعلى هذا المستوى تقسم الهوية إلى نوعين:

أ- هوية فردية: هي التي تمثل المميزات والخصائص الجسدية التي تميز الإنسان، من حيث كونه فردا، عن بقية الأفراد سواء داخل مجتمعه أو خارجه لعل أبرز مثال على ذلك بصمات أصابع اليد.

ب- **هوية وطنية أو قومية:** وهي جملة الصفات والخصائص التي تطبع أمة من الأمم، يشترك فيها مجموع الأفراد المكونون لها، فيتعرفون على بعضهم البعض من خلال هذه الصفات، و يتميزون بها كذلك عن غيرهم من أفراد الأمم الأخرى[3].

3- مفهوم الهوية الثقافية:

فيما يخص **الهوية الثقافية والحضارية** لأمة من الأمم فهي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى،[4] ومنه فإن الهوية الثقافية تتحقق وتتجسد في المجتمع عندما يتكلم أفراده نفس اللغة، ويتبعون نفس الدين والمعتقدات ويقومون بنفس الانشطة الاجتماعية.

4- خصائص الهوية الثقافية:

يمكن التعبير عن خصائص الهوية الثقافية في النقاط الآتية:

---

[1] - أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، دار الأمة، الجزائر، 1995، ص 21.

[2] - الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص 257.

[3] - أحمد بن نعمان، مرجع سبق ذكره، ص ص 21 22.

[4] - عبد العزيز بن عثمان التويجري وآخرون، العولمة والهوية، الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي في ضوء فلسفة حوار الأديان والحضارات، الدورة الأولى، الرباط، المملكة المغربية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997، ص 166.

- أنها هوية مكتسبة موروثة يصنعها تاريخ الأمة، وثقافتها، وما تمر به من تجارب وخبرات، وهي المعبرة عن ذاتها الجماعية، أو الرمز الذي يجتمع عليه كل أفرادها ،انتماء واعتزازا، تعلقا وانتسابا، حيث يشكل المساس بها مساسا بكيان الماضي للأمة كلها، لأنه يعد تشكيكا في ماضيها وطعنا في حاضرها، ويأسا من مستقبلها، فهي وإن كانت من صنع الماضي إلا أنها موجودة في حاضرها، مما يجعل منها دافعا وحافزا للبحث عن المستقبل الأفضل.

- الهوية موجودة في الضمير الجمعي للأمة وملك لها، إلا أنها قابلة للتطور والتفاعل مع الهويات الأخرى.

- الهوية عملية اعتقاد وإرادة، ذلك أن الاعتقاد والإرادة وليس الإلزام هما ما يميز الهوية، فالهوية ليست القانون، ولا يجب أن تكون مساوية له، فالإسلام مثلا وهو أحد المركبات الأساسية للهوية في كل الأقطار العربية قد يتعارض مع القانون جزئيا أو كليا، فالالتزام بتعاليم الإسلام لا تنبع هنا من إلزامية القانون، بل من اعتقاد الشعوب[1].

- الهوية عملية أيديولوجية، حيث تصطفى وتؤدلج من قبل نخبة سياسية معينة، وذلك بانتقاء عناصر معينة لتثبيتها، ثم تحدد الهوية الأصلية من خلالها وتضفى عليها هالة من القداسة والسمو[2].

-الهوية تقوم على مبدأ الوحدة والتنوع الذي يشكل عامل إثراء وإخصاب لها، ويمكن تصنيف الأفراد بحسب ما اكتسبوه من ثقافات إلى قوالب متعددة، تتميز عن بعضها البعض من خلال خصائص مشتركة لكل قالب ثقافي معين، بحيث تشكل هذه الخصائص المميزة هوية هذا القالب وعلى مستوى المجتمعات.

- الهوية عملية تميز واختلاف كونها تنفرد بجملة خصائص تجعل صاحبها مغايرا لغيره، فمهما تشابه الناس، واشتركوا في الخصائص الحضارية والثقافية التي تميز الإنسان نوعيا عن غيره من الكائنات، فإنهم لا يعبرون عن أنفسهم إلا من خلال أشكال فردية شديدة الخصوصية.

- الهوية عملية تفاعل وتكامل، حيث أنها تتشكل عبر تفاعل وتكامل مجموعة من الرقائق التي تتراكم عبر الزمن، وهذا التفاعل والتكامل بين المكونات هو ما من شأنه خلق التوازن

---

[1] محمد صالح الهرماسي، مقاربة في إشكالية الهوية، ط2، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2002، ص 26.

[2] - نور الدين بومهرة، الجزائر والعولمة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2001، ص 212.

داخل الهوية، وتغييب أسباب الصراع والنفي، الأمر الذي يسهم في الاتفاق العام حولها، سواء من طرف الجماعة أو الأفراد المكونين لهذه الجماعة.

- الهوية عملية ديناميكية، كونها تتكون من مجموعة من العناصر، فهي بالضرورة متغيرة، في ذات الوقت الذي تتميز فيه بالثبات، فهي كالكائن البشري الذي يولد ويشب ويشيخ، ومع المراحل العمرية المختلفة تتغير ملامحه وتصرفاته وذوقه وكل عناصر شخصيته، لكنه يبقى هو نفسه[1].

ثانيا: أبعاد الهوية الثقافية في الشخصية الجزائرية

تتكون الهوية الثقافية الجزائرية من أبعاد ومقومات ترتكز عليها، سنبينها كالآتي:

أ- البعد الزمكاني: تحتل الجزائر مركزا جغرافيا هاما وموقعا استراتيجيا بين قارات العالم القديم والمتمثلة في إفريقيا وأوروبا وآسيا، والجزائر بلد إفريقي وجزء من إقليم حوض البحر المتوسط، حيث انبعثت على ضفاف هذا الحوض عدة حضارات كالفينيقية، اليونانية والرومانية، وهي ليست بعيدة عن أوروبا، فسواحلها قريبة من سواحل أوروبا، ومن جهة أخرى تعد الجزائر جزءا من الوطن العربي، ومهد الحضارات الإنسانية، أهمها الحضارة العربية الإسلامية، ومهبط الوحي ومكان الديانات السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلامية)، وموطن مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الجزيرة العربية ونزول القرآن، وانتشار الإسلام وقيام العرب بفتحات"[2].

إن الحدود السياسية للجزائر في القرن 20 لم تكن ثابتة، ولم تكن تطلق كلمة الجزائر إلا على مدينة ساحلية صغيرة ولم تكن تعني القطر الجزائري المعروف الآن، فهذا المفهوم لكلمة الجزائر لم يعرف إلا منذ القرن العاشر ، بل إن عبارة المغرب الأوسط لم تكن تعني بالضبط حدود الجزائر الحالية، لأن هذه العبارة وأمثالها (المغرب الأدنى- المغرب الأقصى)، كانت كلها غامضة[3].

ولكن ظهور الخطر الأوروبي حمل حكام الولايات العثمانية لشمال إفريقيا على التضامن مع بعضهم وتجاوز الخلافات الظرفية، وبعد احتلال الجزائر سنة 1830 فصلت الحدود

---

[1] - المرجع نفسه، ص 212.

[2] - محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 73.

[3] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري(20-16م)، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 28.

مع تونس وأصبحت الجزائر ساحة حرب، وأصبحت السلطة الفرنسية تراقب منطقة الحدود وتمنع دخول القبائل، ومنعت كل تبادل تجاري بين تونس والجزائر[1]، ومن هنا يكون المستعمر الفرنسي قد لعب دورا أساسيا في رسم ملامح الهوية الزمكانية للهوية الجزائرية، بل وجوده كان سببا في ظهور الهويات العرفية، الدينية والوطنية والحدود المكانية، والخريطة السياسية.

ب- البعد الإثني: ونعني به الأصل الذي ينتمي إليه الجزائريون الذين يعودون إلى الجذور البربرية والعربية الإسلامية، حيث يقسم علماء الإثنوغرافيا الكولونيالية سكان الجزائر إلى قسمين أو عنصرين متميزين، العنصر الأمازيغي (بربر)، والعنصر العربي(البدو)، وبالرغم من كونهما مسلمين من أربعة عشر قرنا، إلا أن عاداتهما وتكوين مجتمعهما وأصلهما ولغتهما قد يشكل كل ذلك قسمين كبيرين مختلفين، ولكن البربر والبدو يتشابهان في النظام الاجتماعي الذي تشكله القبيلة القائمة على العصبية[2].

ج- البعد اللغوي: إن اللغة من أهم محددات الهوية الثقافية التي تعبر عن الثقافة الوطنية من أفكار ومعتقدات للأفراد، واللغة هي التي تجعل وجود الثقافة وتناقلها من فرد لآخر ومن جيل لآخر أمرا ممكن الحدوث، فاللغة هي المكون الرئيس في الهوية الثقافية، فهي حياة الأمة وهي بدايتها ونهايتها، لأن اللغة في أي مجتمع ليست مجرد كلمات وألفاظ للتفاهم بين أفراد المجتمع، ولكنها وعاء يحوي مكونات عقلية ووجدانية ومعتقدات وخصوصيات هذا المجتمع، وبالتالي فالحفاظ على اللغة يعني ضمان بقاء واستمرارية أي مجتمع.

وما يلفت الانتباه في الجزائر هو وجود التنوعات اللغوية، ويعود الأمر إلى تشابك وتداخل عدة مجتمعات متعايشة لها تصوراتها ومجالات استعمال بعينها، وكذا من حيث الممارسات الحقيقية للناطقين، وبإلقاء الضوء على واقع اللغة التي صنعت تفرد الإنسان الجزائري وتمايزه في مجتمعه عن غيره من البشر في مختلف المجتمعات، يمكن تمييز أربعة أنساق لغوية منتشرة هي:

---

[1] - خليفة شاطر، بروز الهوية الوطنية القومية في تونس، قضايا عربية، الشخصية المغربية في المغرب العربي،ع2، بيروت، 1979، ص 292.

[2] - Eugène Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, édition sindbad, Paris, 1971, p 25.

- **اللغة العربية الفصحى:** ما نلاحظه أن الجزائر احتفظت بلغتها العربية الفصحى، فاللغة العربية هي اللغة الأم للثقافة الإسلامية[1]، والهوية الثقافية للأمة العربية إنما هي حالة ذاتية خاصة ترتبط بمعوقات وجودها ولكن اللغة العربية هي العامل الأساسي المحرك لهذه الذاتية وشرط حصانتها وديمومتها[2]، فاللغة العربية عرفها الجزائريون بموجب قدوم الفاتحين المسلمين إلى شمال إفريقيا تم تعريب المجال الجغرافي وأسلمته في الآن نفسه، حيث جرى هذا التعريب ببطء عبر فترة طويلة امتدت من أيام عقبة بن نافع في القرن السابع إلى غاية وصول القبائل، أو الهلالية، الأمر الذي جعل اللغة العربية تتربع على عرش اللسان الجزائري دونما مقاومة*، أو رفض، لارتباطها بالإسلام وبشكل وثيق جدا، حيث أصبحت دول شمال إفريقيا تمثل مقاطعة نائية تابعة للعروبة.

- **اللغة الأمازيغية:** في الجزائر نجد قسما كبيرا يتكلم اللغة الأمازيغية بشتى لهجاتها في العديد من مناطق البلاد وهي تتمركز بشكل ملحوظ في منطقة القبائل وجبال الأوراس، كما يستخدمها الطوارق (أمازيغ الصحراء) في الصحراء الكبرى، وكانت تستخدم اللغة الأمازيغية في عموم الجزائر حتى قدوم الفينيقين، حيث شهدت تلك المرحلة استخدام كتابة التفيناغ، وعلى الرغم من انتشار البونيقية، واللاتينية والعربية فيما بعد، إلا أن اللغة الأمازيغية ظلت اللغة الأساسية للجزائريين حتى هجرات بني هلال في القرن الحادي عشر.

وبالاعتماد على المحدد اللغوي للمجموعة الإثنية، وبفعل العوامل التاريخية، يمكن الانتهاء إلى تحديد المناطق المرشحة وفق هذا المنظور لتشكيل هوية إثنية متميزة:

منطقة جبال الأوراس: يتحدث قاطنوها بالشاوية [تشاويث، لهجة زناتية]، **منطقة القبائل**: يتحدث قاطنوها بالقبايلية [تقبايليث]، **منطقة شنوة بتيبازة** [إيشنوين]: يتحدثون [تشنويث، لهجة قريبة للزناتية]، **منطقة وادي ميزاب**: الناطقون بالميزابية

---

[1] - يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، منتدى الفكر العربي، الأردن، 1998، ص 18.

[2] - صالح أبو أصبع، تحديات الإعلام العربي، دراسة الإعلام، المصداقية، الحرية، التنمية، والهيمنة الثقافية، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان،1999، ص46.

* وقد كان لتواجد هذا العنصر العربي دور بارز ليس فقط في تشكيل التضاريس الإثنية واللغوية للبلاد بل وأيضا في تذويب الكثير من النتوءات العرقية واللغوية الأخرى، فيا يسميه البعض(الاستعراب)، فاللغة العربية في الجزائر إذن مرجعية تاريخية مرتبطة بالدين، ولذا كانت هذه اللغة قداستها مستمدة من قداسة الإسلام، وقد ساعد هذا الأمر في المحافظة على وحدة اللغة، خاصة إذا عرفنا أن التشكيل الديني عند مجموع السكان لا يخرج في مجوعه عن الإسلام.

يتحدثون [ثمزابيث، لهجة زناتية]، **أمازيغ تيماسين– تقرت**: وهي مجموعة صغيرة تتحدث لهجة أمازيغية زناتية، **أمازيغ ورقلة**: مجموعة صغيرة أيضا تتحدث لهجة زناتية [ثقرقرنت]، **أمازيغ منطقة تيميمون**: وهي مجموعة أكبر نسبيا تتحدث لهجة زناتية [ثازناتيث]، **منطقة الأهقار**: وهي المنطقة الرئيسية بالنسبة لطوارق الجزائر [إيترقين]، تتحدث بالترقية [ثاترقيث]، **أمازيغ منطقة عين صالح**: مجموعة أمازيغية زناتية تتحدث [ثيدكلث]، وأخيرا هناك مجموعة أصغر تتحدث لهجة قريبة للشلوحية [لهجة أطلسية] منطقة ندرومة بتلمسان[1].

- **اللهجة الدارجة:** أما اللهجة العامية الجزائرية، فهي مزيج هائل مستمد من العربية الفصحى والأمازيغية والفرنسية، وحتى بعض الرواسب التركية، وهي أكثر الأنساق التي يمكن الخروج منها بملاحظات مثل[2]:

- يلاحظ بأن التراكيب اللسانية العامية المستمدة من العربية الفصحى قد تم تحويرها على مستوى النطق عن طريق الحذف بشكل خاص، مثلا: تحوير كلمة "يستقصي" بمعنى يسأل أو يبحث إلى "يسقسي".

- كما أن التراكيب المستمدة من الفرنسية قد تمت قولبتها لتتماشي واللسان العامي الجزائري، حيث تمت إعادة صياغتها على الأوزان اللغوية العربية والأمازيغية أيضا، مثلا: كلمة "آري arrêt" قد اندمجت تماما في الدارجة الجزائرية بعد أن تغير نطقها قليلا عن أصلها، كما صار جمع هذه الكلمة على وزن عربي خالص " لاريات".

- كما تأثر اللسان الأمازيغي باللغة العربية الفصحى، وأخذ منها الكثير من التراكيب والمصطلحات فهو نفسه أعطى الدارجة الجزائرية الكثير من التراكيب والعبارات مثلا: يقال عادة عن الرجل الشهم في المجتمع الجزائري بأنه "ذرقاز"، وهي عبارة أمازيغية من أصل " آرقاز" التي تعني الرجل أيضا.

- إضافة إلى بعض التراكيب اللغوية القديمة المستمدة من التواجد التركي بالجزائر مثل عبارة " قهوجي"، "خزناجي" وكلمة "قاوري" التي تعني بالتركية "خنزير".

---

[1] - عادل زقاغ، مرجع سبق ذكره، ص ص 143 123.

[2] - ميمونة مناصرية، هوية المجتمع المحلي في مواجهة العولمة، من منظور أساتذة جامعة بسكرة، أطروحة مقدمة لنيل رسالة الدكتوراه في علم اجتماع التنمية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر-بسكرة، الجزائر، 2011-212، ص ص 298 297.

- بسبب الشساعة الجغرافية للجزائر واختلاف أنماطها المعيشية والثقافية باختلاف مناطقها، فالدارجة نفسها تختلف بأشكال طفيفة أحيانا، ومتفاوتة أحيانا أخرى، بحسب تقارب المناطق من بعضها والعكس، سواء على مستوى التراكيب أو المضامين، أو على المستوى النطقي والصوتي، فسكان الغرب الجزائري مثلا لهم فنونومات (النغمات الصوتية) مختلفة عن فنونومات سكان الشرق، حتى في التراكيب والعبارات المشتركة، هذا ناهيك عن أقصى الجنوب كمنطقة تمنراست وتيميمون.

- **اللغة الفرنسية:** يتم تداول اللغة الفرنسية بشكل واسع في الإدارات العمومية والهيئات الحكومية، لسيطرة الجيل القديم (الجيل الذي تعلم في عهد الاحتلال الفرنسي) على المناصب الحساسة في الدولة وهيئاتها، وهي مستعملة في مستويات مختلفة من النخبة والجيل الثاني من المغتربين في فرنسا[1].

د- البعد الديني: يشكل الدين الإسلامي في الجزائر جوهر الهوية المحلية، فالدين هو المكون الأول لهويتنا الثقافية، لأنه هو الذي يحدد للأمة فلسفتها الأساسية عن سر الحياة وغاية الوجود، كما يجيب عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها على الإنسان في كل زمان ومكان، فالإسلام له تأثيره العميق والشامل في هويتنا الثقافية، كما أن التوحيد بمعناه الشامل يمثل أبرز ملامح هويتنا الثقافية، والتدين هنا لا يعني ممارسة الشعائر الدينية وحدها، بل هو موقف من ثوابت كثيرة، منها ما يرتبط بالأسرة وكيفية تكوينها بشكل صحيح، فهذا مكون رئيسي من مكونات الهوية الثقافية، ومنها ما يرتبط بالمنهج العلمي الذي اعتمد على العقل والوحي بشكل متوازن، وهذا يمثل أيضا ملمحا من ملامح هويتنا الثقافية[2].

هـ- التاريخ: إن الباحث في الثقافة الجزائرية بوصفها استمرارية للزمن، يجد تاريخا مميزا جمع شمل كل الجزائريين بلا استثناء، كثورة التحرير الجزائرية التي شارك في إنجازها جميع الجزائريين، وقطف ثمار الاعتزاز بمآثرها جميع الجزائريين أيضا، مما يوحي بهوية جزائرية صرفة لا تقبل المجادلة ولا تقبل المراهنة على أي مركب من مركباتها، ونفس الأمر

---

[1] - المجلس الأعلى للغة العربية، دور القنوات الإذاعية في ترقية استعمال اللغة العربية وتهذيب أساليبها، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، د.س.ن، ص24.

[2] - محمد أحمد محمد إسماعيل، برنامج مقترح لتفعيل دور أنشطة نادي الطفل لتأصيل الهوية الثقافية، مجلة كلية التربية، ج3، ع 30، جامعة عين شمس، ، 2006، ص 391.

ينطبق على الجزائريين في عهد الستينات وسينطبق على الجزائريين بعد قرون، إذ ما دام الفرد جزائريا فإن الانتماء للمآثر الجزائرية يظل حقا مشروعا له، فجزائر القرن الواحد والعشرين ليست جزائر المائتين قبل الميلاد لكنها تمثل امتدادا لها، ويجد الجزائريون في كل المراحل المتعاقبة والوضعيات التاريخية ما ينعش الذاكرة ويشكل مصدر الإلهام الثقافي، ولذلك فإنه مهما تغيرت الأزمان فإن الهوية تبقى هوية جزائرية[1].

و- العادات والتقاليد: تعتبر العادات والتقاليد أحد مكونات الهوية الثقافية وتختلف من منطقة إلى أخرى باختلاف مجتمعاتها، فالعادات والتقاليد هي مجموعة الأفعال والسلوكات التي تفرضها الجماعة على أعضائها، والتي تنتقل من جيل لآخر عن طريق التوارث.

وبالرجوع إلى الجزائر نجد أن اتساع الإقليم الجزائري أوجد اختلافا في بعض العادات والتقاليد بين عدة جهات، بالرغم من القاسم المشترك في طبيعة المناسبات سواء كانت دينية أو اجتماعية، والمقصود بوجود اختلاف هو في طريقة الاحتفال وأنواع المآدب التي تحضر في هذه المناسبات، وكذا في كل الأزياء المعبرة عن الفرحة بإحيائها، بالإضافة إلى عادات وتقاليد تضم الشعائر والطقوس والآثار الشعبية القديمة المأثورة من احتفالات الزواج، الختان، الأعياد الشعبية، الطعام الأمثال والحكم الشعبية وغيرها، وستعرض فيما يأتي البعض منها:

- الاحتفالات الأسرية، الزواج، الختان: تختلف عادات إقامة أعراس الزواج في الجزائر من منطقة إلى أخرى، كما تختلف طريقة تحضير الطعام واللباس والاحتفالات الغنائية واللهجات، حيث أن مساحة دولة الجزائر مساحة كبيرة تختلف فيها الثقافات، وبالتالي تتعدد العادات والتقاليد الخاصة بترتيبات الزواج والمهر والخطوبة والأزياء التي يتم ارتداؤها في تلك المناسبات، ففي المجتمع الجزائري تختلف عادات الشرق عن الغرب أو الوسط فيما يخص **تحضيرات الزواج**، فالعروس التلمسانية تصنع جهاز زواجها بيدها على ماكينة الخياطة ويطلقون عليه **"القش"**، في حين أن عائلات وهران لا تزال تحافظ على عادات وتقاليد الأجداد فلا يتسنى للعريس أن يرى عروسه إلا مرة واحدة مع أهله عند الخطبة، أما في منطقة القبائل فتختلف عادات عقد الزواج فيذبح جدي يسال دمه على عتبة باب بيت الزوجية، وتخرج الفتاة من تحت ذراع وليها أو أبيها، وفي شرشال

[1] - ميونة مناصرية، مرجع سبق ذكره، ص 127.

وحسب عرف سيدي معمر فيشترط على العروس أن تخرج من بيت أبيها إلى بيت أبيها حافية القدمين[1]، أما بالنسبة **للباس العروس** فيختلف من منطقة إلى أخرى ويتنوع بين الفرقاني العنابي، الكراكو الجزائري، الجبة القبائلية، القفطان التلمساني والوهراني، الملحفة الشرشالية، وتختلف الأكلات في هذه المناسبة بين الكسكسي، الشخشوخة، الشوربة...الخ.

أما **الختان** فتتفق معظم العائلات على ختان أولادهم في شهر رمضان في النصف أو اليوم السابع والعشرين أو قد يتجاوز ذلك إلى أحد العيدين (الفطر أو الأضحى) أو في عيد المولد النبوي الشريف، ويظهر التنوع الثقافي في طريقة الاحتفال بهذه المناسبة وأبرز هذه العادات وضع "**قصبة**" فوق بيت الاحتفال بها خيطان من الصوف بيضاء وحمراء للدلالة على وجود ختان.

-**الأعياد الشعبية:** يتأصل في الجزائر باختلاف ولاياتها أكثر من 250 عيدا شعبيا متجذرا منذ القدم، وهذا في مختلف أنحاء الوطن من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، حيث تعتبر هذه الأعياد من العادات المتأصلة والتقاليد التي يحتفظ بها كل جزائري[2].

-**الأمثال الشعبية:** تعبر الأمثال الشعبية عن فلسفة المجتمع اتجاه جوانب الحياة الإنسانية ورصد لأنماط سلوك أصحابها اتجاه المواقف المتعددة، كما تعد عنصرا هاما في بيئة الثقافة المحلية، وتؤثر الأمثال على تفكير الناس وتصرفاتهم، حيث يتم تناقلها عبر الأجيال لأنها سهلة الحفظ والانتشار وسريعة النفاذ إلى العقول والنفوس، ويمكننا تعريف المثل الشعبي على أنه: "عبارات موجزة سهلة النطق وبسيطة المعنى وعبارة عن خلاصة لتجارب أشخاص ما، توارثتها الأجيال وأخذت منها العبرة والتفكير"[3].

وبالنظر إلى المجتمع الجزائري نجده يحتوي على عدد كبير من الأمثال الشعبية ، والسبب راجع إلى شساعة الجزائر ، وتعدد الثقافات فيها ، وبالعودة إلى تاريخها عن الأمثال الشعبية، نجد الثقافة الجزائرية قد حظيت بموروث هام من كلام الأولين الذي توارثه جيل نقلا عن جيل مشكلا بذلك حلقة امتدادا لعلاقة مجتمعية ترتبط بمدلولاتها

---

[1] - http:// www.djelfa.info/vb/showthread (consulté le 25/02/2016 10 :30h).

[2] - http:// www.algeria-today.com (consulté le 28/02/2016 16 :05h).

[3] - فاتن محمد الشريف، الثقافة والفلوكلور، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، القاهرة، 2008، ص 105.

الثقافية والدينية والحياتية. ولعل الأمثال الشعبية أبرز تلك الموروثات التي تناقلتها الأجيال، والتي لازالت إلى اليوم تحظى بمكانتها الرفيعة رغم أن عمر بعضها يمتد إلى مئات السنوات، وربما السبب في ذلك راجع إلى كونها لا ترتبط بزمان ولا مكان، لتعبر عن كل واقع تصاغ فيه بطريقة خاصة لقائلها.

وعلى الرغم من أن هذه الأمثال تختلف في ألفاظها إلا أنها تلتقي في مضمونها مع اختلاف مصادرها، وبكل بساطة فهي تعبير عفوي عن موقف أو حدث موجز البلاغة، والعالم العربي عامة والجزائر خاصة مليئة بالحكم والأمثال الشعبية التي نتعلم منها الحكمة والعديد من الفضائل والخصال الحميدة، فأجدادنا لم يتركوا مثلا إلا وتضمن موعظة، فهناك أمثال عن الحب ونبذ الكراهية والذكاء والغباء والصبر والإيمان والنصح، وعلاقة الأم بأولادها، أو علاقة النسب والأنساب، وكلها تحض على الترابط ونبذ الخصال السيئة والابتعاد عنها، وباستعمالها يحاول شباب اليوم من جهة الرجوع إلى ماضيهم وأصالتهم، ومن جهة أخرى الاقتداء بها وتقويم السلوك في المجتمع[1].

ومن أهم الأمثال الشعبية التي يستعملها في حديثهم: "أنا وخويا على وليد عمي، وأنا ووليد عمي على البراني"، دليل على وجوب الوقوف سندا لأقرب ذوي القربى"، "عيش تسمع، عيش تشوف" بمعنى مع مر السنين سنرى مالا يخطر ببال أحد، "الدار دارنا والحيوط نتاع جارنا" وهي عبارة تسند إلى حكاية رجل حل ضيفا عند أحد أصدقائه، وعند دخوله المنزل سأله إن كان هذا المنزل له أم هو مؤجر، فأجابه المضيف "الدار دارنا والحيوط نتاع جارنا"، فذهب كلامه مثلا يقال لمن لا يقول الحقيقة بصريح العبارة.

ثالثا: ملامح الهوية الثقافية الجزائرية المعاصرة

تتضح ملامح الهوية الثقافة الجزائرية المعاصرة بالوقوف عند أهم مكوناتها، مبرزين جهود الدولة للحفاظ على هذه الهوية:

---

[1] - وداد لعوج، الأمثال الشعبية الجزائرية.. إرث لا يزال له حضوره في اللسان الشعبي، http://www.elmakam.com/?p=8903، (روجع يوم 2016/05/17).

1-التراث الثقافي: تم منذ عام 1999 إعادة تنظيم عميقة على المستويين التنظيمي والمؤسساتي لحماية التراث الثقافي، إذ كان التراث الثقافي مختزلا في البعد الأثري فقط، ولم يكن يعني سوى الجزء الشمالي من البلاد، لذا تم تحويل الوكالة الوطنية للآثار وحماية المواقع والمعالم التاريخية إلى ثلاثة كيانات مستقلة كلفت كل واحدة من الثلاثة بقطاع معين وهي[1]:

-ديوان تسيير واستغلال الممتلكات الثقافية.

-المركز الوطني لأبحاث الآثار.

-المركز الوطني لحفظ وترميم الممتلكات الثقافية.

كما تم إنشاء المركز الوطني للمخطوطات بولاية أدرار سنة 2005.

2-المسرح والسينما: كان الإنتاج المسرحي قبل عام 1999 لا يتجاوز 10 مسرحيات سنويا، وفي عام 2007 تم إنتاج ونشر ما يقارب 47 مسرحية وتوزيعها على كامل التراب الوطني من خلال 850 عرضا وشاهدها ما يقارب 300 ألف متفرج، وتواصلت الديناميكية في سنة 2008بميزانية تبلغ 240 مليون دينار جزائري لإنتاج 52 مسرحية، كما جرى ترسيم المهرجان الوطني للمسرح المحترف الذي بدأ في عام 2006.

تمثل السينما صناعة ثقافية كبيرة التزم القطاع بترقيتها وتشجيعها، وقد تمحورت الأعمال المنجزة منذ عام 2004 حول ما يلي:

- إنشاء مركز وطني للسينما والإنتاج السمعي البصري.

- تحويل المعهد الوطني للفنون الدرامية إلى معهد عال لحرف السمعي البصري، وفنون العرض من خلال إدراج تعليم اختصاصات السينما، لاسيما فروع التكوين في مجال الصوت والصورة.

- إعادة تأهيل الإنتاج السينماتوغرافي بوضع أجهزة التصوير مجانا تحت التصرف، وتقديم

مساعدات مالية لـ 113 مشروعا سينمائيا منذ سنة 2002، يندرج 50 منها في إطار سنة 2007 وحدها و15 لسنة 2008.

وفي إطار برنامج التنمية 2009-2014 تجري إعادة صياغة الإطار القانوني من خلال مشروع قانون خاص بالإبداع السينمائي، واستكمال تأهيل شبكة متحف السينما (17)

[1] - عليا الجباخنجي، الثقافة الجزائرية، استعادة معالم الهوية وتجديدها، مجلة المعرفة، ع 176، 2009، ص 26.

واستعادة حوالي 300 قاعة عرض سينمائي ظلت مغلقة أو حولت عن وظيفتها الرئيسية، وتعزيز قدرات تمويل السينما، من خلال صندوق تطوير الفنون والتقنيات والصناعة السينمائية، وبعث التكوين في مجال الحرف الفنية وتقنيات السينما.

3- الفنون الموسيقية: تم منذ سنة 1999 إنشاء الأوركسترا السيمفونية الوطنية وثلاث مجموعات محلية وفرقة وطنية للموسيقى الأندلسية وكذا فرقة للموسيقى الشعبية، وتزامن مع هذا تأسيس المركز الوطني للبحث في مراحل ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا، والمركز الوطني للدراسات الأندلسية بولاية تلمسان، وكان قد تم الشروع في تطبيق عملية على نطاق واسع لتسجيل وتدوين التراث الموسيقي الوطني سنة 1998 في إطار حماية التراث الموسيقي بكل أنواعه وطبوعه الجزائرية المتميزة بمختلف تعبيراتها، وتتضمن خطة قطاع الثقافة بين سنتي2009-2014 مايلي[1]:

- تشجيع تطوير تعليم الموسيقى في الأوساط المدرسية بالتنسيق مع وزارة التربية الوطنية.
- تشجيع إنشاء المعاهد البلدية للموسيقى وتحضير تأطيرها.

وتعرف الموسيقى بالجزائر تمايزا واضحا بين مختلف الطبوع باختلاف المناطق، فمنها الشعبي المنتشر بالجزائر العاصمة، وطابع المألوف المعبر عن أصالة وتراث عريقين بولايات منطقة الشرق الجزائري، والطابع الحوزي والأندلسي الذي تختص به المناطق الغربية من البلاد، ثم الطابع الصحراوي والترقي بأقصى الجنوب الصحراوي الكبير.

[1] - http://www.m-culture.gov.dz/mc2/ar/musique.php (consulté le 29/01/2016 18:10h).

الخاتمة:

إن المجتمع الجزائري له كيانه الخاص، فهو من أمة لها ترابط داخلي ويتميز عن سواه من المجتمعات وثقافته ليست روح الشعب فقط، بل نتاج مكاسب هذا الشعب باحتكاكه بالشعوب العربية الإسلامية خاصة وبالشعوب الأخرى عامة، وبالثقافات والحضارات المختلفة ووسائل الحياة المادية وتطبيقاتها"[1].

وهكذا يمكن القول أن هناك شخصية جزائرية تبتنى عبر العصور والشخصية الجزائرية الحديثة هي ثغرة التفاعل بين الماضي والحاضر وهي تتكون من مقومات بعضها ثابت وبعضها متغير، فأما الثوابت فهي المكان ثم البعد الزماني الذي يحدد الذاكرة المختزنة للجماعة البشرية المعينة على مر الزمن، مكوناتها من لغة ودين، وعلم وأدب وفن، ونظم وحكم وقيم، ثم هناك عوامل متغيرة وتتشكل من التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن تفاعل كل هذه العوامل تتشكل خصوصية الهوية الثقافية للشخصية الجزائرية.

[1] - محمد الطمار، مرجع سبق ذكره، ص 10

المراجع:

1- باللغة العربية:

أ- الكتب:

1- أبو أصبع صالح، تحديات الإعلام العربي، دراسة الإعلام، المصداقية، الحرية، التنمية، والهيمنة الثقافية، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان،1999.

2- الجرجاني الشريف علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995.

3- السحمراني أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، ط1، دار النفائس، 2002.

4- الشريف فاتن محمد، الثقافة والفلوكلور، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، القاهرة، 2008.

5- الطمار محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

6- القرضاوي يوسف، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، منتدى الفكر العربي، الأردن، 1998.

7- المجلس الأعلى للغة العربية، دور القنوات الإذاعية في ترقية استعمال اللغة العربية وتهذيب أساليبها، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، د.س.ن.

8- الكيال تهاني، الثقافة والثقافات الفرعية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1997.

9- الهرماسي محمد صالح ، مقاربة في إشكالية الهوية، ط2، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2002.

10- بن نعمان أحمد، الهوية الوطنية، دار الأمة، الجزائر، 1995.

11- بومهرة نور الدين، الجزائر والعولمة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2001.

12- حسين عدنان السيد، متطلبات الأمن الثقافي العربي، دراسة في الاستراتيجيات والسياسات، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، الثقافة العربية أسئلة التطور والمستقبل، ع29، بيروت، ديسمبر، 2003.

13- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري(20-16م)، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985.

14- لبيب الطاهر، سوسيولوجية الثقافة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978.

ب- المجلات والدوريات:

1- إسماعيل محمد أحمد محمد، برنامج مقترح لتفعيل دور أنشطة نادي الطفل لتأصيل الهوية الثقافية، مجلة كلية التربية، ج3، ع 30، جامعة عين شمس، 2006.

2- الجباخنجي عليا، الثقافة الجزائرية، استعادة معالم الهوية وتجديدها، مجلة المعرفة، ع 176، 2009.

3- شاطر خليفة، بروز الهوية الوطنية القومية في تونس، قضايا عربية، الشخصية المغربية في المغرب العربي،ع2، بيروت، 1979.

ج- الأطروحات والرسائل الجامعية:

1- مناصرية ميمونة، هوية المجتمع المحلي في مواجهة العولمة، من منظور أساتذة جامعة بسكرة، أطروحة مقدمة لنيل رسالة الدكتوراه في علم اجتماع التنمية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر-بسكرة، الجزائر، 2011-212.

د- المؤتمرات والندوات:

1- التويجري عبد العزيز بن عثمان وآخرون، العولمة والهوية، الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي في ضوء فلسفة حوار الأديان والحضارات، الدورة الأولى، الرباط، المملكة المغربية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997.

هـ- المواقع الإلكترونية:

1- وداد لعوج، الأمثال الشعبية الجزائرية.. إرث لا يزال له حضوره في اللسان الشعبي، http://www.elmakam.com/?p=8903، (روجع يوم 2016/05/17).

2- http:// www.djelfa.info/vb/showthread (consulté le 25/02/2016 10 :30h).

3- http:// www.algeria-today.com (consulté le 28/02/2016 16 :05h).

2- باللغة الأجنبية:

أ- الكتب:

1- Eugène Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, édition sindbad, Paris, 1971.

الملخص:

يرتكز الاقتصاد بصفة عامة على جملة من العناصر الأساسية، المتمثلة في الفلاحة والحرف والتجارة بنوعيها الداخلية والخارجية، وان تقدم الدول يتحدد بمدى وفرة هذه العناصر، وكذا قدرة الإنسان على تفعيلها وتسخيرها لصالحه، فكلما توفرت هذه العناصر وتم التحكم فيها، تحسن المستوى المعيشي للمجتمع.

كما يعتمد الاقتصاد التونسي على الفلاحة بالدرجة الأولى بسبب وفرة الأراضي الزراعية الخصبة والمناخ الملائم الذي يساعد على تنويع المحاصيل الزراعية وتطوير الإنتاج، فكانت كل منطقة مختصة في إنتاج أنواع معينة من المحاصيل، حيث كانت اغلب زراعة السكان هي الحبوب منها القمح الصلب والشعير والبقول والخضر بالإضافة إلى الأشجار المثمرة مثل شجرة الزيتون، وغيرها من الخيرات التي تزخر بها البلاد التونسية.

بالإضافة إلى ذلك نجد أن المجتمع التونسي عرف صناعات تقليدية، تستمد خاماتها الأولية من الإنتاج الزراعي والحيواني، وهذا بفضل براعة الأسر التونسية في إنشاء صناعة تفيدها في حياتها اليومية، هذه الخيرات كلها يعتمد عليها البايات الحسينيين في قطاع التجارة بنوعيها الداخلية والخارجية من أجل الصعود بالبلاد إلى مصف الدول المتقدمة ووضع قاعدة متينة للاقتصاد التونسي، لان حياة البلاد وسعادتها تكمن في وضع نهضة اقتصادية وطنية، تسترجع بها البلاد رمقها، وتحي ما اندثر من قوتها.

لقد ساهمت التجارة في إدخال البلاد التونسية في وضع علاقات مع بعض الدول الأوروبية في مجال تبادل المنتوجات التي تزخر بها البلاد، وهذا بما يعرف بالتجارة الخارجية، كما ساهم البايات في وضع تسهيلات للسكان من اجل وضع أسواق داخل المدينة لتبادل السلع بين مختلف الجهات، وفك العزلة عن المناطق الصحراوية وغيرها. وهذا ما يعرف بالتجارة الداخلية.

Résumé :

L'activité commerciale de la Tunisie au cours de l'époque Husseinienne

Generalement, l'économie se base sur un ensemble d'éléments essentiels, comme l'agriculture, la production et le commerce intérieur et extérieur. Le développement des pays se base sur la disponibilité de ces éléments ainsi que la capacité des individus de les exploiter pour son propre intérêt, et à chaque fois que ces éléments sont disponibles et bien contrôlés, le niveau de vie s'améliore.

L'économie de la Tunisie se base principalement sur l'agriculture en raison de l'abondance des terres agricoles fertiles et du climat propice pour la diversification des récoltes et du développement de la production, chaque région était spécialisée dans la production d'un élément agricole spécifique .La majorité des plantations des habitants étaient : l'orge, le blé dur, les légumes secs et les légumes a cote des arbres fruitiers comme l'olivier d'autres richesses agricoles que recèle la Tunisie.

La communauté tunisienne a connu des productions artisanales qui puisent leurs ressources premières de la production agricole et animale et le mérite revient à l'intelligence des familles tunisiennes dans l'édification dune production utile pour leur vie quotidienne. Les beys Husseinite se basaient sur toutes ces ressources du commerce intérieur et extérieur dans le but de hisser le pays au rang des pays développés, et mettre en œuvre une base solide pour l'économie Tunisienne car le pays et sa prospérité résident dans une renaissance économique nationale qui lui permettra de récupérer son bien être et raviver toutes ses forces perdues.

Le commerce a permis à la Tunisie de tisser de nouveaux liens entre la Tunisie et quelques pays européens dans le domaine des échanges des productions que recèlent la Tunisie. Cette activité est connue sous le nom de commerce extérieur. Ceci dit, les Beys ont mis en œuvre des facilités pour édifier des marchés à l'intérieur des villes ,faciliter l'échange des marchandises, et rapprocher les zones lointaines comme le Sahara à travers ce qu'on appelle le commerce intérieur.

Abstract:

The commercial activity of Tunisia during the Husseinian era

Economy is generally founded on a number of essential elements consisting of agriculture, industry, and trade with its internal and external features. The development of countries depends on these elements and on the ability of people to exploit and beneficiate from them. Whenever these elements were available and controlled, the standard of living improved for a society.

Thus, Tunisian economy depends mostly on agriculture due to the abundance of fertile lands and the convenient climate that helps provide a variety of harvests and develop productivity too. So, each region was specialized in the production of certain types of crops as most of the cultivated goods were cereals such as: durum wheat, barley, pulses, and vegetables, in addition to fruitful trees like olive trees and all varieties that abounded in Tunisia.

Tunisia was well known for its traditional craft as it obtained raw materials from agricultural and animal productions thanks to the proficiency of Tunisian households with craft in their daily lives. The Husainian Beys depended in these internal and external trade resources in order to boost the country's development to compete with the leading countries and establish a solid base for the Tunisia economy. Because the country and its prosperity lie in a national economic revival that will allow him to recover his welfare and revive all its lost strength.

Trading activity allows Tunisia to forge new links with some European countries in products. This activity is known as external trade. That said, The Beys encouraged internal trade by providing facilities to people to open markets for exchanging commodities and to break the isolation of desert regions.

مقدمة

لقد مارس المجتمع التونسي في هذه الفترة نشاطا تجاريا واسعا حتى أصبح من الدعائم الرئيسية للاقتصاد التونسي، ويظهر ذلك في الأمن الذي عاد للبلاد بفضل تشجيع البايات ولإدراكهم بأنه هو العامل الأساسي لترويج المنتوجات والصناعات المحلية في الخارج، حيث كانت القوافل تربط بين مختلف جهات البلاد، وتعمل على مبادلة البضائع المتنوعة في إنتاج الجنوب والساحل والشمال وكذلك إلى البلدان المجاورة والخارجية[1].

فكانت التجارة في المجتمع التونسي تنقسم إلى نوعين، هما: التجارة الداخلية والخارجية:

1- التجارة الداخلية:

لقد أدى تنوع الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي إلى ازدهار النشاط التجاري، فأصبحت المدن التونسية مراكز تجارية هامة يأتي إليها الأهالي من مختلف جهات البلاد لشراء حاجاتهم الضرورية، ومنها من يأتي إليها من الفلاحين، من أجل بيع إنتاجهم الزراعي والصناعي، وهذا ما خلق نوعا من الترابط بين المدن والأرياف[22]، ومن خلال ذلك نجد انتشار العديد من الأسواق في القطر التونسي، التي يأتي إليها التجار من كل الجهات. ومن أهمها هي سوق العطارين والبركة والقرانة والترك والقماش، وهي أسواق كانت منتشرة في العصر الحفصي والتركي، لتستمر خلال الفترة الحسينية، ومع ظهور أسواق جديدة منها ما يلي:

---

[1]-أحمد قاسم، "أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 33-34، مطبعة الإتحاد العام التونسي، تونس، 31 جويلية 1979، ص152.

[2]-رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، السلسلة الرابعة تاريخ، منشورات الجامعة التونسية، 1980، ص277.

- **سوق السكاجين:** قد عرفت بصنع السروج ولوازم الفروسية، وكانت هذه السوق في القطر منذ القرن 9هـ / 15م، و تم تجديدها في عهد الباي حسين بن علي من 1117هـ/1705م إلى غاية 1153هـ/1740م.
- **سوق البلاغجية:** أسست هذه السوق من قبل علي باي الثاني سنة 1182هـ/1768م، وتقع بالقرب من سوق العطارين. وقد تخصصت في صنع البليغة وكل أنواع الأحذية، وهي أحذية تقليدية وأغلب صناعها من صفاقس وسوسة[1].
- **سوق الباي:** أسسها حمودة باشا 1196هـ/ 1781م إلى غاية 1228هـ/1813م، وكانت مختصة في تجارة السجاد والأقمشة الحريرية، وتباع فيها أيضا الأقمشة الصوفية[2].
- **سوق الشواشين:** تحتوي على سوقين وهما السوق الصغير والكبير الذين تم بناؤهما من قبل حمودة باشا الحسيني بين سنتي 1197هـ/1782م إلى غاية 1230هـ/1814م، وكانت جماعة حرفي الشاشية، إحدى أهم الجماعات والحرف المتعلقة بالشاشية حيث كانوا يمارسون نشاطا تجاريا مربحا، وكانت حكرا على مدينة تونس. وقد كان لهذا القطاع أمين يسهر على آداب المهنة و أخلاقياتها، ويعمل على تسوية النزاعات[3].
- **السوق الجديد:** أسس هذه السوق يوسف صاحب الطابع، وأشرف على تدشينها الباي حمودة باشا سنة 1228هـ/1813م، وفيها أنشطة تجارية مختلفة[4].

بالإضافة إلى أسواق أخرى ساهمت في الترويج للحرف والفلاحة التونسية. نجد أنه في القرن 18م، قام أحد الرحالة الروس بزيارة إلى الايالة التونسية، وهو الرحالة سومراكوف، الذي اعتبر الأسواق في الايالة هي أفضل الأماكن وأكثرها ضرافة، وهي عبارة عن أروقة مغطاة، حيث وصف سوق العطارين، ومختلف أنواع الروائح الطيبة

---

[1]- محمد بن عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسية الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، ط1، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، تقديم محمد اليعلاوي، دار سراس للنشر تونس، 1994، ص380

[2]- الحشايشي،المصدر السابق، ص382.

[3]- نفسه، 385.

[4]- أبوا بكر عبد الكافي، تاريخ تونس، منشورات التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، 1966، ص95.

الصادرة عن العدد من الحشائش و الأعشاب و الورود والحناء، ثم يواصل جولته في سوق الشواشين، متأملا فيما تزخر به هذه السوق من بضائع متنوعة، ثم يدخل سوق الأسلحة للتعرف على محتوياتها، وقد تمكن من خلال هذه الرحلة من التعرف على الأسواق باعتبارها تمثل مركز ثقل الحياة الاقتصادية في الايالة، وأتاحت له الفرصة للاتصال بأهاليها وتجارها[1].

وكانت التسهيلات التجارية تقوم تحت تشجيع البايات قصد الحصول على الأموال لخزينة الدولة واستغلالها في أمور البلاد، وأكثر البايات اهتماما بهذا الموضوع، حمودة باشا الذي ساهم بسياسته في إنعاش التجارة الداخلية، إذ منع التجار الأجانب من ابتياع المحصولات الزراعية من المزارعين مباشرة، إلا إذا تمت بواسطة تجار تونسيين وتم هذا الإجراء لأمرين هما:

- ضمان ربح التجار المحليين على كل صفقة.
- محاولة حماية الفلاح والتخفيف من الغبن الذي يحصل له عندما يبيع كل محصول له أو جزء منه، قبل وقت الحصاد بأثمان بخسة.

أما التجار اليهود القاطنون بتونس والذين يعتبرون تونسيين، فإن حظهم في التجارة الداخلية كان محدودا نسبيا، حيث حدد لهم نوع البضاعة التي يسمح لهم بالاتجار بها في الداخل وهو أنهم يبيعون ما يكال بالذراع ويوزن بالميزان من حرير وغيره[2].

و إلى جانب ذلك، نشط الباي التجارة الداخلية التي تتم عن طريق القوافل التجارية العاملة في الجنوب والشمال، وكان لها فضل في ترويج البضاعة وتنشيط التجارة[3].

---

[1]- نجم الدين القزدغلي "إيالة تونس من خلال مذكرات وتقارير الرحالة الروس في القرنين الثامن والتاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 97-98، زغوان، 2000، ص 188-189.

[2] - رشاد الإمام، المرجع السابق، ص278.

[3] - رشاد الإمام، المرجع السابق، ص278.

وكذلك قام الباي ببناء قنطرة ببنزرت، والتي ربطت أخصب جهة تزرع فيها الحبوب وهي المنطقة الشمالية بالعاصمة والنواحي المجاورة لها، كما استغرق الباي في بنائها ما يزيد عن خمسة عشر سنة، وتمت سنة 1800م، بعد أن صرف الباي على إقامتها أموالا كثيرة. ومن مظاهر اهتمام هذا الباي بتنشيط التجارة الداخلية، هو بناؤه لسوق الباي، وهي من أحسن أسواق العاصمة[1].

وكما يقول ابن أبي الضياف حول يوسف صاحب الطابع ما يلي:"...**وله عند الكثير من أعيان المملكة والحاضرة أموال لها بال على وجه القراض يتجرون بها معتمدين جاهه، حتى أن الفقير القادر على العمل في التجارة، إذا إستقرضه رأس المال يقوم بذلك ولا يتوقف، ولا يأخذ إلا ثلث الفائدة من أموال قراضه، ترغيبا للناس في العمل، وفي الأخذ من عنده، ويقول القليل من الكثير كثير...**"[2].

وبهذه السياسة الداخلية استطاع الباي أن يحافظ على منتجات الدولة مع الحركة التجارية الداخلية بإقامة الأسواق، وضمان حق الفلاح في إنتاجه وعمله. وهذه السياسة اتبعها البايات من بعده من أجل إنجاح التجارة الداخلية، وحافظوا على حقوق الفلاح والصناع.

2- التجارة الخارجية:

فبحكم موقع تونس الجغرافي، وتنوع منتجاتها الفلاحية، ومؤهلاتها التجارية تعاطت هذه البلاد مع البلدان المسيحية شتى أنواع التجارة، وهذا منذ دخولها تحت النفوذ العثماني الذي ساهم في تعزيز العلاقة التجارية مع الشرق، بعد أن نقصت خلال العصر الحفصي، وكذلك ظهور التجار المسيحيين المتمتعين بنظام الامتيازات[3].

---

[1] - Louis Frank, Histoire de Tunis, Précédée d'une description de cette régence, Didot Frères, Imprimerie RSDE l'institut de France, Paris, 1851. , P. 123

[2]- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس و عهد الأمان،الدار التونسية للنشر، تونس،1963، ج7، ص96.

[3] - Khelifa chater, : Dépendance et mutations Précoloniales - La Régence de Tunis de 1815à 1857, Publications de l'université de Tunis, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne, Tunis, 1984, p. 150-151.

وقد سهل هذا النظام قدوم التجار المسيحيين، وخاصة منهم الفرنسيين إلى تونس حيث يطيلون البقاء فيها من أجل التوسع في العمل التجاري، وينتظمون في شكل مجموعات عرفت بالأمة La Nation، ومما دعم هذا النظام، هو وجود قناصل موفودين من حكوماتهم، ويمثلونها لدى الباي، ويقومون بالدفاع عن مصالح الأمة المستقرة بتونس. وهذا يعني أن الايالة التونسية قد دخلت في نوع آخر من التجارة، وهي التجارة الخارجية مع الدول الأوروبية وغيرها، وفي هذا الصدد نستنتج ثلاثة نقاط مهمة:

- وجود تجارة عبور نشيطة خصت البضاعات الإسبانية والشرقية وغيرها.
- بروز تجارة الحبوب كعنصر رئيسي في صادرات البلاد، ونمو بيع زيت الزيتون والصوف.
- الازدياد المتواصل في الواردات، وخاصة ما يتعلق بالمواد الخام الصالحة لصناعة الشاشية وغيرها[1].

وكانت لتجارة العبور في تونس آفات صحراوية، إذ أن الإيالة كانت ملتقى للقوافل الصحراوية والمغربية. فكانت قوافل غدامس وفزان تأتي بالعاج والتبر وريش النعام وغيرها. وتحمل الملح والمنسوجات الأوروبية وغيرها والمرجان، وخاصة المعادن، فوجود هذه القوافل في الخريف والشتاء، كان مناسبا لتنشيط الحركة التجارية في تونس، وبيع نصيب كبير مما كانت تستورده من أوروبا، حيث كان فضاء التجارة في تونس جامعا لأجناس مختلفة ومتباينة من حيث نوعية التجارة التي تتعاطاها[2].

وفي هذا الصدد نلاحظ عودة التجار المسيحيين بعدما عرفت الايالة نوعا من الأمن والاستقرار، وأعادوا بناء الحي الإفرنجي الموجود في جهة باب البحر، فشيدت الفنادق للفرنسيين والإنجليز والهولنديين واليهود والايطاليين والمالطيين وغيرهم. وكان أكثر هؤلاء التجار يمثلون مجموعات تجارية موجودة بأوروبا، بالإضافة إلى وجود نوع

[1]- الصادق بوبكر "إيالة تونس في القرن 17م وعلاقاتها التجارية مع موانئ البحر المتوسط"، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والأندلسية الموريسكية، زغوان، 1987، ص11.

[2]- نفسه، ص16.

أخر من التجار وهم التجار التونسيون الذين ساهموا في تشجيع هذه التجارة، ومنهم كبار التجار المتمثلين في البايات والقياد وأعوان الدولة. ثم وجد التجار الأندلسيين والتجار التونسيين المحليين، أهمهم محمد سيالة، ومحمد كراث وإبراهيم العصفوري وغيرهم من التجار. ولكن المنافسة الأوروبية حددت من نفوذهم التجاري في الخارج، مما أدى بالبعض منهم إلى الانصراف إلى التجارة الداخلية، وهذا ما نجده عند الأندلسيين الذين تعرضوا إلى مزاحمة من طرف الليفورنيين والفرنسيين، فانصرفوا إلى التجارة الداخلية والحرف التقليدية[1].

لقد تمكنت الدول الأوروبية من السيطرة على التجارة الخارجية وذلك بوفرة الأموال التي ساعدتها على الحصول على امتيازات، سمحت لها باستغلال مناطق بتونس لصالحها الخاص، وهذا ما نجده في الشركة الفرنسية التي استغلت مقاطعة رأس النيقرو أو ثامكرت (Cap Négre)، التي تقع في شرق طبرقة، في أواخر القرن 17م، وبداية القرن 18م، والذي حولته إلى مركز تجاري يشغله التجار الفرنسيون، ويتعاطون فيه تسويق حبوب إفريقية. وقد كرست هذه الشركات مبالغ مالية معتبرة كي تربط اقتصاد القبائل بتجارتها، ومع تقديم الهدايا لرؤسائها من أجل بناء علاقات حسنة معهم، والحصول على المنتوجات[2].

- كما اعتمدت هذه الشركة الدفع الفوري بالريالات الاسبانية التي كانت هي العملة الرئيسية للبلاد حتى سنة 1714م.
- الحرس على خلق سوق قارة لشراء الحبوب في رأس النيقرو.
- إدخال معايير كيلية جديدة تناسب بائع الحبوب.

---

[1]- الصادق بوبكر، المرجع السابق، ص 17-19.

[2]- محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش و محمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس، 1980، ص 85.

- اعتماد أسعارا توفر ربحا ملائما للتجار، وتعمل على إعفائهم من تكاليف نقل قموحهم إلى أسواق أخرى بعيدة.

- اتساع رقعة مساحات الأراضي المخصصة لزراعة القمح.

أما بالنسبة للتأثير النقدي لتجارة شركة رأس النيقرو على الايالة التونسية هي:

- طوال فترة تواجد هذه الشركات في البلاد كانت تستخدم العملة الفضية الاسبانية مثل الريال الاشبيلي أو المكسيكي وغيرهم.

- التجارة بالعملة الاسبانية صارت من أهم موارد الربح لرأس النيقرو، وذلك اعتمادا على تدهور القيمة الحقيقية لهذه الريالات من جهة، ومن جهة أخرى ارتفاع قيمتها في السوق التونسية والمضاربات الناتجة عن عملية تحويلها فأدى هذا الوضع إلى أن الشركات كانت تتحصل على القموح بأثمان حقيقية دون أثمانها الاسمية، وبهذا ساعدت على تعميق الأزمة المالية للبلاد التونسية وجعلها أكثر تبعية لرأسمال تجاري أوروبي وفرنسي خاصة[1].

واستمرت هذه الشركات في نشاطها إلى غاية صيف سنة1741م، حيث اتجه الباي علي باشا وابنه يونس إلى طبرقة وقام بالقضاء على مركز الجنويين (GENIS)التجاري فيها ووضع حدا للوجود المسيحي في هذه الجهة، ثم التفت إلى مركز كاب نيقرو التجاري، فأخذه من الفرنسيين ودمره تدميرا كليا، وهذا من أجل القضاء على التجار الأوروبيين قصد مراقبة تصدير منتوجات البوادي، وجرت خلاله حرب انتهت بصلح في نوفمبر1742م، وسرعان ما رجعت الأمور إلى نصابها، وبدأت المصالح التجارية بين البلدين[2].

---

[1] - الصادق بوبكر" بعض مظاهر التأثير الاقتصادي للشركات التجارية برأس النيقرو (ثامكرت) على الايالة التونسية في أواخر القرن 17م وبداية القرن 18م"، عبد الجليل التميمي، الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادرها، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، 1986، ج1-2، ص611-612.

[2] - محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص85.

ومن سياسة على باي الثاني التجارية، حث التجار التونسيين على العمل ، وتحسين العملة. فقد ذكر ابن أبي الضياف في كتابه ما يلي:"...**أنه كان يعطي ما يفضل عنده من الأموال للتجار يتجرون بها برا وبحرا ولا يسترجع منهم إلا رأس المال ولهم الربع بتمامه لدورة ثانية**"[1].

وبذلك نشطت التجارة في عهده برا وبحرا، وشرقا أكثر منها غربا، بالرغم من تلك الأزمة الناتجة عن احتلال فرنسا لجزيرة كورسيكا، والتي انتهت بالصلح الذي تم في سنة 1770م. ومن نتائجها رجوع التجار

الفرنسيين إلى تونس، ونمو التجارة بين البلدين، وتوسع التعاون بينهما ومحاولة بعض التونسيين ربط علاقة تجارية مباشرة مع مرسيليا التي كانت آنذاك أهم موانئ البحر المتوسط [2].

كما بدأ أحد التجار التونسيين عمليته التجارية في سنة 1187هـ/1773م، إلى مرسيليا انطلاقا من سوسة وتونس ثم التحق بهذه المدينة الفرنسية. ومن أهم البضائع التي تاجر بها في مرسيليا الغاسول، وهو نبات بري يستخدم في صناعة الصابون، بالإضافة إلى الصوف والشعير وفي المرتبة الثانية الفول والقمح، والحمص والتمر والشمع، ومن السلع التي استوردوها من مرسيليا هي: القهوة، الطرطر Tartre، وهو رسوب الخمر في أسفل الإناء يستعمل في صناعة الشاشية والشب والحطب والكافور والأمشاط والمسامير والفلفل والحديد وسبائك الذهب والأسلحة وطبنجات،ومحارب برشلونة، والأقمشة المختلفة والمذهبة.و من الملاحظات التي سجلها هذا التاجر عند عودته: "**...أن سوق مرسيليا صعبة جدا بالنسبة للتجار التونسيين، وتكمن هذه الصعوبة في اللغة وفي الإقامة وفي المعاملات وتتضاعف هذه المصاعب نتيجة العداوة التي يكنها التجار الفرنسيون للتجار الأجانب، وهذا رغم المعاهدات التجارية**

[1] - ابن أبي الضياف، المرجع السابق، 1963، ج2، ص161.

[2] - محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص87.

التي كانت قائمة بين البلدين، وهذه الحالة تؤكد على سيطرة التجار الفرنسيين على التجارة التونسية والرغبة في الحصول عليها بأبخس الأثمان..."[1].

والجدير بالملاحظة أن فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية كانت تهدف إلى إقصاء الدول الإسلامية عامة من التجارة الخارجية، وقد وظفت كل الوسائل لتحقيق ذلك.

ولكن هذه الحالة التي آلت إليها التجارة الخارجية لتونس من تسلط الفرنسيين عليها انتهت في فترة حمودة باشا، الذي قام بتشجيع التونسيين على تولي شؤون هذه التجارة وذلك باتخاذه جملة من التدابير منها:

- إعطاؤهم رخص تصدير الحبوب أو الزيت، وهؤلاء التجار التونسيون يبيعونها بدورهم لغير أهل المملكة من التجار.

- إعفاء أهل المملكة من دفع ضريبة على تصدير الحبوب والزيت من تونس، وإنما يدفعها غير أهل المملكة من التجار.

- تخفيف الباي لحقوق الجمرك على التجار التونسيين فيما يخص البضائع التي يستوردونها من فرنسا بعد أن كانت القيمة 11% أصبحت 5.5% فقط.

- ذلك الاحتكاك بين التجار الأجانب والتونسيين ولد تأثيرا إيجابيا، وذلك لاكتساب التونسيين للخبرة في طرق وأساليب المهنة[2].

كما اتبع الباي عدة سياسات مع مختلف البلدان وهي كما يلي:

1- سياسة حمودة باشا التجارية مع أوربا ومن خصائصها ما يلي:

- فتح باب تصدير الحبوب التونسية، وخاصة القمح إلى أوربا على أوسع إمكاناته.

- إيجاد الباي أسواق واسعة للإنتاج في أوروبا.

---

1 - علي الزواوي "دفتر حسابات خاص حول تجارة التونسيين مع مرسيليا خلال سنتي 1187-1188هـ/ 1773-1774م،عبد الجليل التميمي، الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادرها، ج 1- 2، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، 1986، ص22-28.

2 - رشاد الإمام، المرجع السابق، ص 280-281.

- عمله على زيادة الإنتاج التونسي، ونشر الأمن.

- جعل الريال الاسباني (Piastre d'Espagne)، والفرنك الفرنسي العملتين المعتمدتين، في التعامل التجاري مع الدول الأوروبية.

- محافظته على أمن التجار الأجانب بالبلاد، ومن بين هذه الدول الأوروبية فرنسا وبريطانيا،واسبانيا وإيطاليا وأمريكا والدانمرك والسويد والبلاد الألمانية[1].

ولما تولى حمودة باشا الحكم كانت فرنسا وبريطانيا تستأثران بامتيازات تجارية هامة بتونس، وكانتا لا تدفعان من الضرائب الجمركية إلا 3% مقابل 5% تدفعه الدول الأجنبية الأخرى، وأهم ما كانت تصدره المؤسسات التجارية الفرنسية إلى بلادها هي الحبوب، وكان ذلك كامتياز تجاري تتمتع به الشركة الملكية الإفريقية[2]. وبعد وقت أصبحت تورد لتونس عدة أصناف من السلع خاصة الصوف الاسباني لصنع الشاشية، والبن، والسكر، والكتان وتصدر من تونس الحبوب والزيت والحرير، وبذلك ازداد التبادل التجاري[3].

كما ذكر أحد الدارسين حول هذا الموضوع، مقارنا حجم التجارة التونسية الفرنسية مع حجم التجارة التونسية مع الدول الأخرى لسنة 1790م وهي كما يلي:

- إستيرادات من مرسيليا إلى تونس 5.239.649 ليرة.
- صادرات من تونس إلى مرسيليا 4.629.603 ليرة.
- إستيرادات من البلدان الأجنبية الأخرى إلى تونس 2.099.750 ليرة.

---

[1]- رشاد الإمام "سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا"، المجلة التاريخية المغربية، العدد6، تونس، يوليو 1976، ص73-74.

[2] - لقد أنشئت هذه الشركة بتاريخ 22فيفري 1741م، من أجل إنماء تجارة إفريقية وتوفير الرخاء لرعايا الفرنسيين مع ضمان الوسائل التي تساعدهم على تطوير العمليات التجارية والهدف منها هي الرغبة في منع الانجليز من التسلل إلى هذه السواحل التي تعتبر أكبر مخزن للحبوب بالنسبة لفرنسا بالإضافة في جلب أكبر كمية ممكنة من حبوب الغرب التونسي إلى مرسيليا. أنظر: - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص195-196.

[3]- رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس...، ص287.

- صادرات من تونس إلى البلدان الأجنبية الأخرى 3.095.665 ليرة[1].

أما حجم التبادل التجاري بين تونس والخارج لسنة 1792م، هي كما يلي:

- إستيرادات من مرسيليا إلى تونس 5.878.031 ليرة.
- صادرات من تونس إلى مرسيليا 7.751.318 ليرة.
- مجموع التجارة الفرنسية التونسية 13.629.349 ليرة.
- تجارة الدول الأجنبية مع تونس 6.984.003 ليرة.
- الميزان التجاري لصالح فرنسا يساوي 6.645.346 ليرة[2].

ومن خلال هذه الأرقام، نلاحظ أن هناك تقارب في حجم الصادرات والواردات التونسية.

وبالإضافة إلى حسن التعامل التجاري مع بريطانيا، فإن الباي قد قام بتبادلات تجارية مع إسبانيا، حيث قوى علاقاته مع هذه الدولة منذ سنة 1790م، كما عقد الباي معاهدة صلح مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة1797م، وهذه التجارة نشيطة جدا بين الطرفين[3].

2_ سياسة الباي التجارية مع الدول الإسلامية: منها الدولة العثمانية ومصر من المشرق، وطرابلس الغرب والجزائر والمغرب الأقصى من الغرب، وهذه كلها تهدف إلى تشجيع الروابط التجارية فيما بينهم من أجل ضمان الاستمرارية[4]. ومن بين الدول الإسلامية التي شجع الباي التجارة معها بصفة خاصة الجزائر، نظرا للموقع الجغرافي المتقارب، وهذا ما ذكره أحد الدارسين حول الجزائر: **"... لقد كانت تونس هي أقرب الأسواق الخارجية إلى الشرق الجزائري، لذلك كان تجار قسنطينة يفضلون التوجه**

---

[1] - هي إحدى وحدات العملة الفرنسية، ففي سنة 1770م كانت قيمة الريال التونسي تساوي ضعفي الليرة الفرنسية.
أنظر: - رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس...، ص288.

[2] - رشاد الإمام ، "سياسة حمودة باشا مع أوروبا..."، ص 75-76.

[3] - Khelifa chater, Op.cit, p. 168-170.

[4] - علي الزواري" العلاقات التجارية بين تونس والشرق في القرن 18م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29-30، 1983، ص 213-214.

إليها، حيث ينقلون لها منتوجاتهم ويتزودون منها بما يحتاجه السكان من مختلف المواد حيث كانت القوافل الرابطة بين جنوبي الايالتين كانت يومية وأن تجار سوف التي تقع في الجنوب الشرقي في بايلك قسنطينة، يحملون إليها أقمشتهم الصوفية وأنواع التمور الممتازة والمظلات والتبغ ويستوردون منها مجموعة كبيرة من المصنوعات المحلية، والأوروبية... "[1].

وبعد أن كانت تونس تستقبل بين 8 إلى10 قوافل تجارية سنويا عن طريق قسنطينة أصبحت في سنة 1809م تستقبل تلك القوافل شهريا. أما بالنسبة للسلع المصدرة والمستوردة فهي تتمثل فيما يلي:

أهم الأسواق	المقاصد	المواد المصدرة	المواد المستوردة
قسنطينة	تونس	الصوف، الجلود المدبوغة،التمور الشواشي،ريش النعام...	المصنوعات الأوروبية ،العطور ،التوابل، القهوة، الأقمشة والحريرية
الوادي	نفطة	التبغ، التمور	المواد العطرية، الأقمشة الحريرية، الأسلحة، الكبريت...
توقرت	نفطة غدامس	الأقمشة الصوفية العادية، التمور، المظلات، المواد العطرية، التمور، الحبوب، الزيتون...	الأقمشة القطنية، العطريات، المصنوعات الأوروبية، التبر، العبيد، جثث النعام، البخور.

[1] - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر1766-1791م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،ص 151-155.

ورقلة	غدامس	الأقمشة الحريرية والقطنية،التمور، الحبوب، الزيتون، الأسلحة، وأنواع من العملة...	التبر، العبيد، العاج، البخور، وكثير من المنتوجات الإفريقية...[1].

3_ سياسة الباي حمودة باشا التجارية مع إفريقيا السوداء: التي تتم عن طريق القوافل البرية من أجل حصول الدولة على معدن الذهب، بالإضافة إلى تجارة العبيد، حيث تجلبه من مختلف البلدان الإفريقية علاوة على ريش النعام

النعام والعاج. فكانت تونس تصدر من تلك المنتوجات، العبيد إلى المشرق الإسلامي وريش النعام إلى ليفورنه وغيرها من المنتوجات[2].

وبهذه العلاقات التجارية التي قام بها الباي حمودة باشا مع مختلف الدول استطاع في الأخير تطوير التجارة وتنويع الحرف وترويج المنتوجات في الداخل والخارج، وتواصلت الأوضاع في الإيالة على هذا النحو طيلة حكم الباي حمودة باشا، ولكنها تغيرت فيما بعد لعدم قدرة البايات الذين خلفوه على الحفاظ على الواقع الاقتصادي المتطور، حيث بلغت مدا خيل الدولة في عهد الباي أربعة وعشرين مليونا من الفرنكات، وبتوقف القرصنة وفساد السياسة قد جعلت تلك المداخيل تنخفض بصفة عجيبة[3].

وفي هذا الصدد نجد إحصاءات أوردها محمد العامري الخاصة بمداخيل الإيالة التونسية للفترة الممتدة من 1824م إلى غاية 1829م، ليبين حالة البلاد مع العلم أن قيمة الريال تعادل قيمة الفرنك في هذه الفترة، و هي كما يلي:

---

[1] - نفسه، ص 159.

[2] - رشاد الإمام، سياسة الباي حمودة باشا مع تونس...، ص297-300.

[3] - محمد العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، القصبة، تونس، 1974، ص294.

المداخيل:	القيمة بالفرنك:
- أداءات على المنتوجات الفلاحية السنوية	4.200.000 فرنك.
– ضرائب على العمال	732.380 ف.
– أداءات على السلع المستوردة	217.700 ف.
– مداخيل الزيت	400.000 ف.
– مداخيل دار الجلد	250.000 ف.
– الأداءات الجمركية المستخلصة بتونس	220.000 ف.
– الأداءات الجمركية المستخلصة بمختلف الموانئ	86.000 ف.
– أداءات صيد المرجان ببحيرة بنزرت	200.000 ف.
– مداخيل ممتلكات الباي	600.000 ف.
– ضرائب يدفعها اليهود	180.000 ف.
– مداخيل صنع البارود	46.000 ف.
– المعاليم الموظفة على البواخر المحجوزة	50.000 ف.
– المعاليم الموظفة على المراكب المارة بميناء حلق الوادي	20.000 ف.
– خطايا يجمعها العمال	300.000 ف.
_ اداءات على الأوامر التي تحمل طابع الباي	87.000 ف.
_ اداءات على الحانات	36.000 ف.
_ أرباح من ضرب دار السكة	200.000 ف.
_ مداخيل من أرزاق المتوفين الذين تركوا ورثة	270.000 ف.
- المجموع:	**8.095.080 فرنك.**

ومن خلال هذه المعلومات نلاحظ مقدار مداخيل الدولة في هذه السنوات وصل إلى ثمانية ملايين وخمسة وتسعين ألف وثمانين فرنكا[1].

هذه الأوضاع التي آلت إليها الايالة كانت نتيجة هيمنة الدول الأوروبية التي تسعى إلى السيطرة على التجارة العالمية، فتحكمت في أسعارها واحتكرت طرقها وأرباحها، وفرضت على بايات تونس معاهدات تمنح التجار الأوروبيين حقوقا كثيرة، وامتيازات مجحفة مكنتهم من السيطرة على التجارة الخارجية للبلاد التونسية، حيث أنهم في سنة 1820م كانوا يتحكمون في 92 % من صادرات تونس من زيت الزيتون مقابل 7.72 % للتجار التونسيين، و0.28 % للتجار اليهود، كما استقر بتونس بين سنتي 1816-1830م ما يزيد عن 18 تاجرا فرنسيا، إضافة إلى تجار الانجليز والايطاليين[2].

وهكذا تمكن هؤلاء التجار الاحتكاريون من اقتناء المنتوجات التونسية بأسعار بخسة وتسويقها بأسعار مرتفعة ففي الفترة المتراوحة بين 1820-1830م، انخفض سعر زيت الزيتون بما يزيد عن الثلثين، في حين أصبحت القموح التونسية تروج بصعوبة بسبب منافسة قموح البحر الأسود لها، وكذلك الشأن بالنسبة للبضائع التونسية الأخرى مثل: الأصواف والجلود والشاشية التي تنتج في المعامل بفرنسا تحت علامة تونسية مزورة. وفي المقابل ازدادت الواردات التونسية في أوروبا وكانت متكونة في مجملها من بضائع باهظة الثمن أو هي من الكماليات تستوردها العائلة المالكة مثل: الجواهر والأقمشة الرفيعة. وقد نتج عن ذلك تفاقم الأزمة الاقتصادية بالبلاد وهذا ما أجبر البايات على التخفيف من قيمة الريال التونسي، وأدى ذلك إلى التداين لدى كبار التجار.كما وقع ضغط ضرائبي على السكان، ولم ينج من هذه الأزمة حتى رجال المخزن الذين أفلسوا بسبب منافسة الأوروبيين لهم[3].

---

[1] - محمد العامري، المرجع السابق، ص295.

[2] - عبد المجيد كريم، وثائق معرض الحركة الصلاحية بالبلاد التونسية بين 1815-1920، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية،

[3] - Thomas Maggil, Nouveau Voyage À Tunis, C. L. F Panckoucke, Paris, 1815, P. 150-164.

- الصادرات والواردات التونسية:

1- الصادرات التونسية: تتكون هذه الصادرات تجاه أوربا من المنتوجات الفلاحية والحيوانية خاصة.

كما أن أغلب ما تصدره الايالة التونسية إلى الخارج، هي الحبوب وعلى رأسها القمح والشعير خاصة في السنوات الخصبة، بالإضافة إلى الفول والحمص والعدس والتمر، وتعد هذه المنتجات بمثابة تتمة للحبوب. كما كان زيت الزيتون أهم مادة غذائية يقع تصديرها إلى الخارج، فهي تمثل مع القمح قوام الحياة الفلاحية والتجارية. والى جانب هذه المادة الغذائية، كانت تونس تصدر كميات من الكسكسى نحو ليفورنة وغيرها. بالإضافة إلى السمن، ومن بين المواد الأولية للصناعات الصوف والجلود[1]، حيث كان الصوف يباع ممشط أو خام، وكان طلبها من طرف التجار الأوروبيين في ارتفاع، والجلود أيضا ازداد الطلب عليها من طرف ليفورنة خاصة، بالإضافة إلى الصابون والمنسوجات وهذه الأخيرة كانت منتشرة خاصة في بلاد الجريد وسوسة وجربة وغيرها، ومنها الأحزمة والشاشية و الشموع والإسفنج، وغيرها من المواد المصدرة[2].

2- **الواردات التونسية:** شملت هذه الواردات مواد غذائية كالتفاح واللوز والزيت و التبغ والخمر وتجار هذين المنتجين هم اليهود، ومن المواد الكمالية نجد الأقمشة والمنسوجات الرفيعة.كما كانت المملكة تستورد ما هو ضروري لصناعة الشاشية، خاصة الصوف الإسباني ومواد التلوين وأدوات لخدمة الصوف، كما تستورد المواد الأولية لمصانعها و ورشاتها، بما في ذلك الأدوات الضرورية لصناعة السفن[3].

---

[1] - محمد الحبيب عزيزي " مؤسسة دار الجلد في العهد الحسيني بالإيالة التونسية"، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 6، 2004-2005، ص 150.

[2] - Thomas Maggil, op.cit, p.165.

[3] - Charles Cubisol, Notices Abrégées sur la Régence de Tunis, Libraire-Commissionnaire, À La Librairie L'Elmilik, Tuins, 1867, P. 46-47.

ومن خلال كل هذه المعلومات نستخلص أن التجارة من أهم المراحل التي اعتمد عليها البايات الحسينيين لترويج المنتوجات سواء الفلاحية منها أو الحرفية، وذلك بإنشاء الأسواق الداخلية عبر مختلف الجهات وتنقل القوافل من منطقة إلى أخرى، كما ساهم في فك العزلة عن بعض القبائل الجبلية والصحراوية، حيث أحدثت نوعا من التقارب بين القبائل المختلفة مما ساعد على تبادل الأفكار والتجارب والمعرفة، بالإضافة إلى أن التجارة الخارجية ساهمت في إدخال البلاد التونسية في منافسة تجارية مع الدول الأوروبية، وهذا ما ساعد على التعرف على مختلف عادات وتقاليد تلك المجتمعات.

الببليوغرافية:

- **الإمام، رشاد:** سياسة حمودة باشا في تونس ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، السلسلة الرابعة تاريخ، منشورات الجامعة التونسية، 1980.

- **بن أبي الضياف، أحمد:** إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس و عهد الأمان، ج1-8 ،الدار التونسية للنشر، تونس،1963.

- **بوبكر، الصادق:** إيالة تونس في القرن 17م وعلاقاتها التجارية مع موانئ البحر المتوسط، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والأندلسية الموريسكية، زغوان، 1987.

- **بوبكر، الصادق** " بعض مظاهر التأثير الاقتصادي للشركات التجارية برأس النيقرو (ثامكرت) على الايالة التونسية في أواخر القرن 17م وبداية القرن 18م"، التميمي عبد الجليل ، الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادرها، ج1-2 ، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، 1986.

- **الحشايشي، محمد بن عثمان:** العادات والتقاليد التونسية الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، ط1، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، تقديم محمد اليعلاوي، دار سراس للنشر تونس، 1994.

- **الزبيري، محمد العربي:** التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

- **الزواوي، علي** "دفتر حسابات خاص حول تجارة التونسيين مع مرسيليا خلال سنتي 1187-1188هـ/ 1773-1774م،عبد الجليل التميمي، الحياة الاقتصادية...

- **الشريف، محمد الهادي:** تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش و محمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس، 1980.

- **العامري، محمد الهادي:** تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، القصبة، تونس، 1974.

- **عبد الكافي، أبو بكر:** تاريخ تونس، منشورات التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، 1966.

- **عبد المجيد، كريم و جلاب، الهادي:** وثائق معرض الحركة الصلاحية بالبلاد التونسية بين 1815-1920، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1994.

- **المدني، أحمد توفيق:** محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- **CHATER, KHELIFA**: Dépendance et mutations Précoloniales - La Régence de Tunis de 1815à 1857, Publications de l'université de Tunis, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne, Tunis, 1984.

-**CUBISOL, CHARLES**: Notices Abrégées sur la Régence de Tunis, Libraire-Commissionnaire, A La Librairie L. Elmilik, Tuins, 1867.

- **FRANK, LOUIS**: Histoire de Tunis, Précédée d'une description de cette régence, Didot Frères, Imprimer RSDE l'institut de France, Paris, 1851.

- **MAGGIL, ThOMAS**: Nouveau Voyage À Tunis, C. L. F Panckoucke, Paris, 1815.

الدوريات:

- **الإمام رشاد:** "سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا"، المجلة التاريخية المغربية، العدد6، تونس، يوليو 1976.

- **الزواري علي:** " العلاقات التجارية بين تونس والشرق في القرن 18م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29-30، 1983.

- **عزيزي محمد الحبيب:** " مؤسسة دار الجلد في العهد الحسيني بالإيالة التونسية"، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 6، 2004-2005.

- **قاسم أحمد:** "أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 33-34، مطبعة الإتحاد العام التونسي، تونس، 31 جويلية 1979.

- **القزدغلي نجم الدين:** "إيالة تونس من خلال مذكرات وتقارير الرحالة الروس في القرنين الثامن والتاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 97-98، زغوان، 2000.

الإسهامات السياسية والثقافية للنخب الجزائرية في أوروبا والمشرق العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين

أ.د.خير الدين شترة
جامعة المسيلة

الملخص:

لقد كان للنخبة الوطنية في المهجر سواء في أوروبا أو في المشرق العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين أدوار ومساهمات أساسية دعمت بها الحركة الوطنية الجزائرية في مناهضتها للاستعمار الفرنسي، وهي مساهمات لا يمكن إغفالها بأي حال من الأحوال، ولعل الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو إبراز قيمة هذه الإسهامات وعظمة الأدوار الطلائعية لهاته الثلة من الوطنيين المهاجرين الذين انفردوا أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية بمجموعة من الخصائص والصفات.

Abstract

Political and cultural contributions of the Algerian elite in the Middle East and Europe

In the first half of the twentieth century

The national elite abroad either in Europe or in the Middle East had in the second half of the 20th Century fundamental roles and contributions by which it supported the Algerian national movement to fight French colonialism. Indeed, in no way these entries may be neglected. It is likely that the main purpose of this study is to highlight these investments and the size of leadership roles of this group of nationalist emigrants who were distinguished during and after the world war II by characteristics and qualities.

1. تمهيد حول خصائص ومميزات النخبة الوطنية في المهجر:

لقد كان للنخبة الوطنية في المهجر أدوار ومساهمات أساسية دعمت بها الحركة الوطنية الجزائرية في مناهضتها للاستعمار الفرنسي، وهي مساهمات لا يمكن إغفالها بأي حال من الأحوال، ولعل الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو إبراز قيمة هذه الإسهامات وأهمية الأدوار الطلائعية لهاته الثلة من الوطنيين المهاجرين الذين انفردوا أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية بمجموعة من الخصائص والصفات لعل أبرزها:

❖ **وحدة عناصرهم المذهبية والسياسية:**

كان الوطنيون الجزائريون في المهجر موحدون إلى حد بعيد على المستوى الفكري والمذهبي لأن الأولوية في نضالهم الوطني كانت موجهة للعدو الاستعماري المشترك، يجمعهم في ذلك روحهم النضالية واستعدادهم للتضحية من أجل الاستقلال، ولم تُطرح مسألة طبيعة المجتمع الذي ناضلوا من أجله رغم اختلاف التكوين الاجتماعي والثقافي لهؤلاء الأعضاء الذين اكتفوا بالعروبة والإسلام كالطابع الأساسي للجزائر، وبعبارة أخرى كان الهدف الأساسي لنشاط الوطنيين الجزائريين موجهًا ضد الاستعمار الفرنسي فكان موقفهم دفاعيًا وليس من أجل البناء بل من أجل الحصول على وسائل ذلك البناء، ومما زاد من قوة وفعالية تنظيماتهم هو سيطرة التيار الوحدوي على نشاطاتهم إضافة إلى تميّزهم بثقافة جامعة بين العروبة والإسلام، مكّنتهم من العمل والنضال في بيئة سياسية تلاءم وتكوينهم وعقليتهم.

❖ **وحدة العمل الدبلوماسي والسياسي:**

شكّل النشاط الدبلوماسي الذي قام به الوطنيون الجزائريون في المشرق خصوصاً عملاً مشتركًا ومنسقًا تنسيقًا محكمًا سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ، وكان هذا النشاط موجهًا بالدرجة الأولى نحو البعثات الدبلوماسية العربية ومن أنشطتهم الدعاية لقضية بلادهم من خلال حضورهم في المحافل الدولية والإقليمية سواءً كانت سياسية أو ثقافية كالمؤتمر الثقافي العربي الأول (بيروت في سبتمبر 1947)، والمؤتمر الإسلامي الاقتصادي الأول في باكستان في ديسمبر 1949م الذي حضره الشهيد علي الحمامي الذي وافته المنية هو ورفاقه بعد مشاركتهم في المؤتمرات إثر حادث طائرة في باكستان 1949/12/12م، إلا أن قضية استشهادهم استغلت استغلالاً واسعًا من طرف وسائل الإعلام في نطاق الدعاية من أجل استقلال الجزائر والمغرب العربي، فخصّصت كل من

الصحف المصرية والشمال إفريقية مقالات بارزة ترثي فيها الزعماء الثلاث (علي الحمامي– امحمد عبودة – الحبيب ثامر).

❖ **وحدة النشاط الإعلامي (الصحف والبلاغات والندوات الصحفية):**

لقد شكّلت الصحف أداة إعلامية هامة استغلها الوطنيون الجزائريون في المهجر استغلالاً كاملاً في التعريف بالواقع الاستعماري في الجزائر، كما قامت الصحف العربية بتغطية أنشطتهم السياسية التي قاموا بها في إطار مكتب المغرب العربي بالقاهرة، ومن أهم الصحف المصرية التي خصّصت صفحاتها لأقلام الوطنيين الجزائريين (جريدة الأهرام – جريدة المصري – والمصور، ومجلة الإخوان المسلمون...)، ويعود تجاوب الصحف مع قضية الوطنيين الجزائريين إلى كوْن هؤلاء الأخيرين اعتمدوا أسلوباً يفهمه القارئ العربي ويتعاطف مع مضمونه؛ أسلوبًا يستمد مرجعيته من تيار القومية العربية التي كانت تهيّمن على الساحة الفكرية في المشرق العربي آنذاك.

2. إسهامات النخب الجزائرية في أوروبا خلال الفترة (1939-1962):

عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية تأسّس في فرنسا وتحت رعاية عضوين من حزب الشعب الجزائري وهما (سي الجيلاني[1]- عمار خيذر)، "اتحاد عمال شمال إفريقيا" وقد ضمّ الاتحاد حوالي 3000 منخرط من التونسيين والجزائريين والمراكشيين، وعلى ما يبدو أنه كان استمراراً للاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا، والأكيد أنه ضمّ الكثير من المناضلين السابقين بحزب الشعب الجزائري ومنهم عبد الرحمان ياسين (تونس)[2]، والملاحظ أن الاتحاد ربط صلته بهيئة أخرى مغاربية ظهرت بإيطاليا وباريس وبرلين هي مكتب المغرب العربي.

ومن الشخصيات الجزائرية المغمورة التي عملت على خلق التواصل القومي والوحدوي الذي انشلّ جزئيًا بسبب سياسة التسلط والقمع الفرنسيين عشية الحرب، شخصية "محمد الماضي الجزائري" الذي استقال من الجيش الفرنسي سنة 1936م بتهمة الانتماء إلى منظمة سرية يمينية متطرفة حيث حُكم عليه بالسجن لمدة ثمانية أشهر ونصف ذلك أنه كان يبحث عن تأييد الألمان، لتضغط هذه الأخيرة على فرنسا حتى تتنازل عن مستعمراتها وتمنح الاستقلال لسكان المغرب العربي، ونشط محمد الماضي أولاً في اللجنة السرية للعمل الثوري "la cagoule" في 10 أفريل 1941م، ثم أسّس الماضي"لجنة إفريقيا الشمالية"، التي كانت بدايةً حقيقية لإنشاء حزب اشتراكي لشمال إفريقيا

بعدها أصبح يسيّر لجنة التجمّع الوطنية الخاصة بالشمال أفارقة، المتفرعة عن الحركة الاشتراكية الثورية (M. S.R) حيث كان للجنة المذكورة فروع بتونس يشترك في تسييرها تونسيون وجزائريون[3].

وبعد جوان 1941م أسّس حركة باسم "اللجنة الإسلامية لشمال إفريقيا" والتي أظهرت ميولاً نحو ألمانيا الوطنية الاشتراكية وكان من أعضائها بعض الجزائريين منهم: الآغا سي حمو السعيد وفضيل سي العربي وحسني الأحمق وعمار نارون، وأصدر الماضي إلى غاية 1944م جريدة حملت اسم "الرشيد" وكانت ذات اتجاه مغاربي مع ميول ألمانية، وكانت الجريدة تُصدر في (30000) نسخة(جانفي1941م) وتوزّع في تونس والجزائر أيضًا، كما أسّس الماضي نادياً للدراسات الشمال إفريقية[4]، ومن جهة أخرى وفي نهاية سنة 1938م أُنشئت جمعية ببنغازي سميت "لجنة الدفاع عن أهالي إفريقيا الشمالية" بـ"ليبيا"، كان على رأسها السيد"محمد الويشي" [يبدو أنه ليبي]، وضمّت نخبة من الوطنيين من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى[5].

وخلال الحرب العالمية الثانية تشكّل ببرلين أيضاً مكتب المغرب العربي وكان أول من إنظم إليه من الطلبة الجزائريين "إسماعيل الخضراوي"، تحدّث عنه يوسف الرويسي قائلاً: « تعرّفنا عليه بواسطة المفتي الحاج أمين الحسيني الذي كانت له معه قصة طريفة حكاها لنا شخصيًا قال: ذات يوم أعلَمني مصطفى الوكيل سكرتيري الخاص أن شابًا جزائريًا يطلب مقابلته فظن أنه في حاجة إلى مساعدة مالية فأمر له بـ 400 مارك مع الاعتذار بعدم إمكانية المقابلة في الوقت الحاضر بسبب مشاغله فاعتذر الشاب الجزائري عن قبولها، فظنّ المفتي أن المقدار قليل فرفعه إلى 600 مارك فاعتذر مرة ثانية عن قبول الإعانة وقال الوكيل أنا ما أتيت لطلب الإعانة، أنا جئت لمقابلة المفتي شخصيًا لأقدّم له ما جمعته أنا وبعض إخواني من العمال، واقتصدناه من أجورنا مساهمةً منا في قضية فلسطين، قال المفتي: فتأثّرت بالغ التأثّر واستقبلته للحين واعتذرت له عن قبول الإعانة وأن يدّخروها لأنفسهم، فهم إليها أحوَجُ، فألحَّ قائلاً: لا تحرمْنا من شرف المساهمة في قضية فلسطين، قال: فقبلتها منه وفي أثناء الحديث معه سألته أين تعلّم العربية ؟ قال ففهم مرادي واغرورقت عيناه بالدموع، وقال لي يا صاحب السماحة نحن الجزائريين الذين عنَاهم شوقي بقوله:

بَلَابِلُ الله لمْ تَخْرَسْ وَلا وُلِدَتْ *** خُرس ولكِنْ بُومُ الشُؤمِ رَبَّاهَا

قال: ومنذ ذلك الحين يأتي إسماعيل الخضراوي لمقابلتي كل أسبوع وعلمت منه أشياء كثيرة خصوصًا ما يتعلق بتربية أبناء الجزائريين في فرنسا قال: فبادرتُ بإرسال إعانات مالية لمندوب جمعية العلماء في باريس لنتفق على تعليم الجزائريين المهاجرين في فرنسا اللغة العربية والمبادئ الإسلامية»[6].

وبعد الحرب الثانية استمر النضال الجزائري المغاربي في أوروبا متضامنًا، ففي سنة 1947م سافر محمد المصمودي بصحبة الدكتور شوقي مصطفاي إلى إيطاليا للاتصال بالطلبة العرب هناك وقد وجدوا تجاوبًا من الطلبة الليبيين الذين يزاولون دراستهم بإيطاليا واجتمعوا هنالك "بعبد اللطيف الكخيا" الذي أسّس جمعية في روما للتعريف بقضايا المغرب العربي وحقيقة الاستعمار الفرنسي، واستمرّ هذا العمل في الخارج إلى غاية 1956م[7].

وكانت الجمعيات الطلابية الإطار الوحيد الذي انصبّت فيه الحياة الطلابية اجتماعيًا وسياسيًا وقد تجاوزَت الإطار المحلي بالنسبة للطلبة الجزائريين لتشمل أقطار المغرب العربي الثلاث ولكن بصفة سطحية تكاد التشكيلات القطرية أن تتغلب عليها، لأن الطلبة الجزائريين كانوا يؤسسون تقريبًا في كل جامعة من الجامعات الفرنسية، جمعية خاصة بهم مستقلة عن (جمعية ط.ش.أ.م) التي كان مقرها باريس، أو جمعيات تابعة لهذه الجمعية الأخيرة تعتبر فروعاً لها، وفي هذا الإطار انحصرت الحياة الطلابية الجزائرية اجتماعيًا وسياسيًا حوالي أربع عقود من الزمن.

وفي الخمسينات من القرن الماضي سعى الطلاب المغاربة (جزائريون- تونسيون- مغاربة) لإيجاد إطار وحدوي لعملهم السياسي والاجتماعي وذلك بتأسيس منظمة طلابية مغربية واحدة، تجمع شمل طلاب أقطار المغرب الثلاثة ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل في سنة 1953م بسبب ابتعاد الطلبة التونسيين «ومن هنا انبثقت لدى الطلاب الجزائريين فكرة تأسيس منظمتهم الطلابية الخاصة بهم، بحيث ظهرت إلى الوجود بعد سنة واحدة من هذا التاريخ الأخير منظمة طلابية عُرفت باسم "اتحاد الطلبة الجزائريين بمدينة باريس (UEAP)، وقد أشرف على تأسيس هذه المنظمة وسيّرها الحزب الشيوعي الفرنسي»[8].

لكن بعد فترة وجيزة بادرت (ج.ط.ش.م.أ) وأعضائها المقيمين في الجزائر العاصمة وبوحي من جبهة التحرير الوطنية عقد اجتماع تحضيري في باريس بين(4-7 أفريل1955م) للنظر

في كيفية إنشاء منظمة طلابية جزائرية وانتهى المجتمعون إلى إعلان قيام "الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" وذلك رغم المعارضة الشديدة التي أبداها الطلبة الشيوعيون في باريس وتولوز الذين رفضوا أن يشمل اسم المنظمة كلمة "مسلمون"[9].

ولهذه الجهود النضالية المكثفة التي قام بها الطلبة الجزائريون بالمهجر (أوروبا) كتب الزعيم مصالي الحاج بنشرية الثمرة الثانية[10] مقالاً بعنوان: «دور الشبيبة المثقفة في تكوين الحركة الوطنية بمغربنا»[11] نوّه فيه بالدور العظيم الذي أدوّه بالمهجر في سبيل وحدة المغرب العربي وخصّ بالذكر الطلبة الجزائريون والتونسيون « وعلى ذكر الشباب المغربي (المغاربى) [يقول مصالي الحاج] يَجمُل بي أن أعرّج على أسماء الدكتور بن سليمان، والمحامي الهادي نويرة والأستاذ البلهوان والدكتور الحبيب ثامر... الذين جاءونا يومئذ مبكرين وقاموا هم بدورهم بقيادة الحركة الوطنية بعدما ألقي علىّ القبض في باريس...» إن هؤلاء الشبان الذين أصبحوا اليوم من أحسن قادة الحركة الوطنية التونسية كانوا قد ساهموا في ذلك الحين إلى سنة 1937م، بقسط وافر في الحركة الوطنية الجزائرية، وإني مازلت أذكر تلك الحُجرة الصغيرة التي كان يقطنها الهادي نويرة والتي وضعنا فيها سوياً الخطط الرئيسية للبرنامج السياسي لحزب الشعب الجزائري، إن هذه الذكريات المقتطفة من هنا وهناك تُثبت بجلاء كم كان دور الشبيبة المغربية عظيماً في تكوين حركات شمال إفريقيا الوطنية، لاسيما حينما كانت تسعى وتدأب في ظروف أقل ما يقال فيها أنها حرجة، وبفضل هذا النشاط الذي كانت عناية الله تكلؤه استطعنا أن نهدم ذلك الجدار الذي كان يحول بيننا وبين العامل في مصانع "دينو" والطالب في الجامعات.

أمّا فيما يتعلق بنشاط (ج.ط.ش.أ.م)، فقد عاد الطلاب إلى تشكيل جمعيتهم التي كانت منظمة قبل سنة 1940م، وعادوا إلى شعارهم المفضل، الوطنية المغاربية، ففي الجزائر أُنتخب شوقي مصطفاي رئيساً لـ:(ج.ش.أ.م) خلال سنة 1945م، ولاحظ تقرير الجنرال الفرنسي توباد عنهم بعد حوادث 08 ماي 1945م، «أن شباب الكليات انساق في أغلبيته نحو الأفكار الوطنية، وفي أدنى الأحوال أصبح مستقلاً، وذكرت تقارير فرنسية أخرى عن الطلبة في باريس خلال سنتي (1946-1947)م أن طلبة شمال إفريقيا تبنوا الوطنية الأكثر راديكالية..." وأن جميع هؤلاء الطلبة كانوا يتحدثون عن المغرب العربي كوطن واحد ويتمنون استقلاله أو ينادون بشبه اتحاد لبلدانه الثلاثة»[12].

وكان مركز الطلبة لا يزال بعد الحرب العالمية الثانية بشارع سان ميشال رقم 115 بباريس حيث كانت الألوان الوطنية لأقطار المغرب العربي تزينه، وخلال سنتي(1945م-1946م) أقامت الجمعية عدة نشاطات ثقافية واجتماعية، وشارك الطلبة الجزائريون في مؤتمرات طلابية عالمية أو فرنسية، كما كان مقر الجمعية مسرحاً لالتقاء طلبة المغرب العربي بإخوانهم طلبة المشرق، حيث كان يدور الحديث على الحالة السياسية بالمشرق العربي وعن الجامعة العربية، كما تم الاعتراف بالجمعية كمنظمة وحيدة لها "الحق في تمثيل طلبة شمال إفريقيا في مؤتمر مدينة "غرونوبل"(GRENOBLE) الفرنسية وهو المؤتمر التحضيري للمؤتمر العالمي للطلبة[13].

وفي نفس السياق أرسلت الجمعية ممثلين رسميين عنها إلى مؤتمر "براغ"(BRAGUE) العالمي للطلبة، وبالمناسبة نفسها أسّست بنفس المدينة "جمعية أحباء طلبة شمال إفريقيا"، وخلال سنة 1946م حاولت الجمعية إحياء سنتها القديمة وذلك بالعودة إلى مؤتمراتها السنوية، فكلّفت السيد محمد يزيد[14] (1923-2003)م والسيد بن اعميرة (؟) وجمال (؟) من تونس للقيام بالتحضير للمؤتمر الذي سيعقد بمدينة فاس في 15 سبتمبر1946م، غير أن سلطات الحماية الفرنسية منعت إقامته بالمغرب الأقصى، فأقيم المؤتمر بمدينة باريس(Paris) (مارس-أفريل) 1947م، حضره 60 طالباً مغاربياً بفرنسا، و09 طلبة من المغرب العربي منهم طلبة مثّلوا جامع الزيتونة لأول مرة، واهتم المؤتمر بدراسة مشاكل الشبيبة الشمال إفريقية، والتنظيم المستمر للجمعية مع ربط الصلات بالعالم العربي[15].

وبمناسبة منع عقد مؤتمر طلبة شمال إفريقيا بالمغرب احتجت جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية عن هذا التصرف وأرسل نائب رئيسها الفضيل الورتيلاني[16] برقية تنديد إلى رئيس الحكومة الفرنسية (جورج بيدوGeorges Bidault)،جاء فيها: «أذاعت شركة "لوتر" يوم 15 أكتوبر 1946م البرقية الآتية: كانت(ج.ط.ش.ا.م) قد عقدت النية على أن تقيم مؤتمرها السنوي في هذا العام بمدينة رباط الفتح وهيَّأت له كل العدة، وفي آخر لحظة أبلغها المقيم العام الفرنسي بمراكش "بلاغ منع" يحظر عليها عقد هذا المؤتمر، دون أن يوضح لها الأسباب، وجبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية بمصر، تستنكر هذا العمل التعسفي وتحتج عليه أشد الاحتجاج وتعده مخالفاً لمقتضيات الديمقراطية الأولية التي تنادون بها[17]. وليست لدينا الآن معلومات كافية عن قرارات مؤتمر ربيع

1947م ونشاطات جمعية الطلبة في المغرب العربي ككل إلى غاية سنة 1950م، اللهم إلا شذرات عن جمعية الجزائر التي لوحظ عن طلابها أنهم دخلوا الحملات الانتخابية للأحزاب فيما بين سنتي (1946-1949)م.

ويبدو أن الطلبة المغاربة قد تعرضوا إلى القمع والمتابعة من قبل السلطات الفرنسية إضافة إلى أن الجمعية قد دخلت في منافسات مع جمعيات طلابية فرنسية كانت هذه الأخيرة خاضعة لعدّة إيديولوجيات، وكانت تريد السيطرة والنفوذ على الطلبة المغاربة وعلى الجمعية، كما أن الطلبة كانوا خلال نفس الفترة ينتمون إلى أحزاب أقطارهم، فقد ذكر محمد حربي أن طلبة الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية كانوا يحتكرون جمعية الطلبة نتيجة تحالف الشبيبة الجزائرية وحركة الانتصار، مع حزب الدستور الجديد وحزب الاستقلال[18].

لقد أرادت (ج.ط.ش.أ.م) بعْث نشاطها المغاربي خلال سنة 1950م، فقد أسّست فرعاً لها بمدينة بوردو الفرنسية (Bordeaux)(جانفي 1950م)، وهو الفرع الذي نظّم اجتماعاً عامًا له يوم 25 جانفي لإحياء ذكرى مرور أربعين يومًا على وفاة شهداء المغرب العربي الثلاثة: علي الحمامي[19]، الحبيب ثامر[20]، امحمد بن عبود، كما أجرت الجمعية تحضيرات تمهيدية لعقد مؤتمر الطلبة بتونس الذي جرت أشغاله من 15 إلى 22 سبتمبر 1950م وهو من أهم المؤتمرات بالنظر إلى ما تضمّنه من تقارير نهائية عن أهداف الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وآفاق مستقبل المغرب العربي.

ولقد نصّت تقاريرها على عدّة مطالب حول الثقافة الشعبية وأخرى خاصّة بكل قطر، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية لكل بلدان المغرب العربي إضافة إلى توحيد مناهج وبرامج التعليم في كل المنطقة مع إجباريته ومجانيته[21]، ورغم أننا لا نملك الآن معلومات كافية عن الطلبة الذين شاركوا في المؤتمر ولا عن إيديولوجيتهم إلاّ أنّه يبدو من الواضح من خلال قراراتهم أنهم كانوا مؤمنين بوحدة المغرب العربي ومقتنعين بأفكار القومية العربية والجامعة العربية ومن ثمّ فإن المؤتمر لم يكن مؤتمراً طلابياً بل كان مؤتمراً ذا أبعاد سياسية، لقد أُختُتم في جو جماهيري "منقطع النظير"، بملعب"جو أندري"('Geo.Andre) في تونس بحضور 10000 مواطن تحت إشراف باي تونس (محمد الأمين باشا)، وخلال هذا الحفل تحمّس الشباب ونادوا بوجوب السعي للاستقلال التام الناجز الذي لا تشوبه شائبة للمغرب العربي.

وذكر برفيي(Previa) عن مؤتمر تونس أنه انتخب بناءً على توصيات مؤتمر 1947م أمانة دائمة مكلفة بتحضير مؤتمر استشاري للاتحاد المغاربي للطلبة المسلمين U.M.E.M، على أن يكون هذا الاتحاد مقسّمًا إلى ثلاث فيدراليات وطنية غير أن الأمانة لم تتمكن من الاجتماع في تونس سنة 1952م[22] فعقدت ندوة في الجزائر العاصمة أشرف عليها حزب الشعب الجزائري- حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في 07/23/ 1952م حرّر خلالها الحاضرون"دستور الاتحاد" وبموجبه انصهرت جميع الجمعيات الطلابية المغاربية بما في ذلك جمعية مدينة تولوز(Toulouse)، وجمعية الطلبة الجزائريين بالزيتونة والقرويين وتلاميذ الثانويات والمدارس الجزائرية في الاتحاد، وأصبح رئيسًا له السيد محمد أمير من الجزائر، كان الهدف من المؤتمر الاستشاري-الذي عُوّض بالندوة- هو إنشاء اتحاديات وطنية في الجزائر والمغرب الأقصى وتونس على أمل تكوين اتحاد يضم الاتحاديات الثلاث على مستوى المغرب العربي، لكن الطلاب التونسيون عندما رأوا أن بلادهم قد دخلت منذ بداية جانفي 1952م في مرحلة نضالها من أجل الاستقلال تكتّلوا فيما بينهم وأسّسوا في جويلية 1953م الاتحاد العام للطلبة التونسيين وعقدوا مؤتمرًا خاصًا بهم بمركز جمعية طلبة إفريقيا المسلمين بباريس.

وهو الأمر الذي دفع بالطالب "بلعيد عبد السلام"[23]، إلى الدعوة في شهر ديسمبر 1953م إلى تأسيس اتحاد طلابي خاص بالمسلمين الجزائريين أيضًا وكان قد سبقه إلى هذه الدعوة السيد عبد الحميد مهري[24] خلال ندوة 1952م، بحجّة أنّ الطلبة الدستوريين (تونس) والاستقلاليين(المغرب) لا يريدون النضال الموحّد، غير أنّ دعوة عبد الحميد مهري رُفضت[25] واستطاع بلعيد عبد السلام أن يكسب أنصارًا من الطلاب لدعوته، منهم أحمد طالب الإبراهيمي (جمعية العلماء) والعياشي ياكر (حزب البيان)، وهؤلاء وغيرهم هم الذين أسّسوا الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين والذي ظهر خلال الثورة[26]، إنّ هذه الجمعية المغاربية الطلابية التي تأسّست بفرنسا سنة 1927م في الوسط الطلابي المغاربي بفرنسا تبنّت مبدأ توزيع المسؤولية التسييرية بالتساوي بين طلبة البلدان الثلاثة؛ حيث أصبح يمثّل كل بلد في مجلسها الإداري ثلاثة طلبة وتكون الرئاسة بالتداول وحتّى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بقي الطلبة الجزائريون لما لهم من أهمية من حيث النشاط والحركية يتحكمون في تسيير الجمعية وفي انتخاب ممثلي المجلس الإداري للجمعية[27].

من جهة أخرى كان محور الخطاب الطلابي لهذه الجمعية يتركز حول التعليم سواء منه العصري أو التقليدي ويكفي في هذا الإطار العودة إلى جدول أعمال المؤتمر الذي انعقد في باريس(Paris) فيما بين 31 مارس و03 أفريل 1947م إذ درس ما يتعلّق في مختلف مراحل التعليم من ابتدائي وثانوي وعال وصناعي، كما درس مسألة تعليم البنات وتدريس اللغة العربية بالإضافة إلى دراسة الحالة المادية للطلبة[28] وبنفس السياق جاءت أعمال المؤتمر الحادي عشر الذي انعقد في تونس فيما بين 15 و22 سبتمبر 1950م.

والحقيقة أنّ الجمعية لم تنقطع عن التقاليد التي سارت عليها خلال الثلاثينات حيث كانت تنظّم الندوات السياسية وتستقبل الزعماء الوطنيين للبلدان المغاربية، وكانت منذ ظهورها سنة 1927م وإلى مطلع الخمسينات أهم جمعية طلابية تتجه إلى عموم الطلبة المغاربيين الدارسين بفرنسا، ولم ينجح تأسيس بعض الجمعيات الطلابية الأخرى التي بدت وكأنّها منافسة لها في الحد من تأثيرها وإشعاعها، والحقيقة أنّه خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية لم تبلغ الجمعية من حيث إشعاعها ما بلغته طيلة الثلاثينات، بل أن الأمر وصل إلى الدعوة إلى بعث جمعيات وطنية وهو ما قد يدل على الرغبة في إيجاد هيكلة جديدة لتأطير الساحة الطلابية.

فقد دعا مؤتمر (ج.ط.ش.أ.م)، نفسه المنعقد في سبتمبر 1950م بتونس إلى تأسيس الاتحاد المغاربي للطلبة المسلمين، يتكوّن من ثلاث جمعيات طلابية وطنية، وقد سبق هذه الدعوة في باريس محاولات طلبة الحزب الشيوعي الجزائري[29]، حيث ظهر منذ سنة 1950م اتحاد الطلاب المغاربة بفرنسا وبالتالي فإن العمل المغاربي المشترك على المستوى الطلابي يبدو أنه تراجع مع مطلع الخمسينات لصالح العمل في إطار وطني دون أن يعني ذلك تجاوز جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين التي استمر وجودها إلى ما بعد الأزمة الهيكلية التي تردّى فيها الاتحاد.

وفي افتتاح مؤتمر الاتحاد العام للطلبة التونسيين في صائفة 1955م ألقى الجزائري "محمد أمير عيسى" رئيس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين خطابًا ذكّر فيه بالدور الذي لعبته جمعيته في توحيد طلبة شمال إفريقيا «..لا تجهلون (كذا) ما لجمعية طلبة شمال إفريقيا من فضل في ربط وتمتين العلاقات بين طلاب تونس والجزائر ومراكش» وأضاف في نفس السياق « إن (ج.ط.ش.أ.م) التي تضم غالبية طلبة المغرب العربي،

الذين يزاولون تعليمهم بفرنسا شاعرة بواجبها في توحيد هؤلاء الطلبة، لما لهم من إحساس قومي وروابط دينية وتاريخية ولغوية، وهو ما يعني أنه يدافع عن وجودها حتى بعد أن بعثت اتحادات طلابية وطنية، فأي دور يمكن أن تقوم به الجمعية المغاربية بعد ذلك ؟».

وقد تساءل أمير نفسه «هل أنّ تكوين هذه الاتحادات سيعطّل نشاط جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين ؟» غير أنه اكتفى في إجابته بالقول أن الاتحاد العام للطلبة التونسيين كان في الأفكار منذ سنة 1918م، عام تكوين اتحاد طلبة شمال إفريقيا المسلمين بالجزائر وهو ما يعني أن ذلك لم يمنع من تأسيس (ج.ط.ش.أ.م) سنة 1927م كما لم يحلْ دون الدور الهام الذي قامت به طيلة الثلاثينات وما بعدها في تأطير طلبة البلدان الثلاثة الدارسين بفرنسا[30].

فالجمعية خلال هذه الفترة ووفاءً منها لخطها النضالي كانت منشغلة بمسألة استقلال المغرب العربي، فقد طالبت في مؤتمرها (11) المنعقد بتونس في سبتمبر 1950م بالاستقلال التام، وبقي هذا المطلب على رأس أولوياتها، إلى أن حصلت كل من تونس والمغرب على استقلالهما، ثم تركّز اهتمامهما على متابعة مضاعفات حرب التحرير الجزائرية على الطلبة الجزائريين، حيث تكثّفت عمليات المطاردة والاعتقال ضدهم في النصف الثاني من الخمسينات إلى سنة 1961م[31]، كل ذلك شغل الجمعية عن طرح مسألة مستقبلها في ظل ظهور اتحادات وطنية، وكذا عن التعامل مع الواقع الجديد الذي شهد اتساعًا متزايدًا في القاعدة الطلابية من جهة وبعث مؤسسات جامعية وطنية تستوعب أعدادًا متناميةً من الدفعات الجديدة من الطلبة من جهة ثانية[32]، ومن خلال تتبّعنا لمسار وتطور(ج.ط.ش.أ.م)خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية لفتت انتباهنا شخصية الطالب الجزائري محمد أمير بن عيسى الذي أعطى بحيويته واتساع علاقاته دفعة قوية لحركة الجمعية.

استهل الطالب محمد أمير الدراسة والنضال الطلابي بباريس بدون منحة، وكان والده هو الذي ينفق عليه مبلغ خمسة آلاف فرنك شهرياً، يدفع خُمسها في الإيجار، وبعد السنة التحضيرية التي كانت سنة تأقْلم مع الحياة الجامعية وأجواء باريس السوداء دخل الطالب الجديد ميدان النضال الطلابي من بابه الواسع فقد أُنتخب خلال الموسم (1948-1949)م في الهيئة التنفيذية لجمعية الطلبة المسلمين بفرنسا، هذه الجمعية

التي ترأسها أربع مرات وكان محل إجماع الطلبة الأشقاء من تونس والمغرب، بالإضافة إلى الجمعية ترأس محمد أمير* الفرع الجامعي للطلبة الوطنيين وذلك إلى غاية 1955م[33].

في أواخر سنة 1951م شهدت باريس تجمعات ومظاهرات عربية بمناسبة استقلال ليبيا واجتماع الجامعة العربية بالعاصمة الفرنسية على هامش دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة، وفي هذا الجو الحماسي أوصى حزب الشعب الطلبة الجزائريين المتخرجين بالذهاب إلى ليبيا لمساعدة هذا البلد الشقيق في بناء نفسه ودعم استقلاله.

وشهدت تونس في تلك الأثناء اصطدامات عنيفة ذهب ضحيتها أكثر من 10 طلبة من جامع الزيتونة وتضامناً مع هؤلاء الضحايا نظمت (ج.ط.ش.أ.م) يوم احتجاج مشفوع بإضراب عن الدروس والطعام وتخللته تجمعات ومسيرات.

وقد احتضن مقر الجمعية بـ (115 شارع سان ميشال) تجمعًا هامًا حضرته وفود من الطلبة العرب والأفارقة والأسيويين، وكان من الطبيعي أن يثير هذا النجاح حفيظة الشرطة الفرنسية، فأوعزت إلى القضاء بتلفيق حوالي 14 تهمة أُلصقت كلّها بالطالب محمد أمير باعتباره رئيس الجمعية، ومن هذه التهم المشاركة في مؤامرة الزيتونة بتحريض الطلبة في تونس والمشاركة في مؤامرة تيزي وزو، ولحسن حظ المتهم أنه لم يسبق له أن زار المدينتين وجاءت الوزارة بمنشور وزّع عند مدخل الجمعية يتضمن تصريحات محظورة في رأيها نقلاً عن كلمة رئيس الجمعية في التجمع المذكور، فاعترف الطالب أمير بأنّ ما في المنشور من كلامه فعلاً وهذا الكلام سبق أن عُلق داخل الحرم الجامعي لكنه لم يكتبه ولم ينشره ولا يستبعد أن يكون كلامه قد وَجد أناس طيبين اجتهدوا في طبعه وتوزيعه[34] وبفضل هذه الحجّة التي أشار بها عليه محاموا حزب الشعب نجا رئيس الجمعية من قبضة الشرطة والسجون.

وفي جويلية 1952م عقدت بالجزائر ندوة للطلبة المناضلين لدراسات الوضع على ضوء نزوع الطلبة التونسيين والمراكشيين إلى تأسيس تنظيمات قطرية مستقلة وصادف الندوة إقدام حركة الضباط الأحرار بمصر على الإطاحة بالملك فاروق ويقول الدكتور أمير:« أن الندوة خرجت بفكرة منظمة جديدة باسم الاتحاد الإسلامي للطلبة المغاربة والسر في تكوينه أن الطلبة التونسيين والمراكشيين مقبلون على المشاركة في أحداث جسام ببلديهما، وليس مستبعدًا أن تلجأ إدارة الاحتلال هنا وهناك إلى حلّ وحضْر

التنظيم الطلابي، وفي هذه الحال يمكن أن يجد في الاتحاد الإسلامي برئاسة الطالب محمد أمير ملجأً ووسيلةً لمواصلة النضال، ولكنّ التنظيم المغربي الجديد لم يجدْ التجاوب من الطلبة التونسيين والمغاربة الذين كانوا مشغولين بأوضاعهم الخاصة، الأمر الذي أغضب رئيس الإتحاد بعض الشيء لأنه وجد من أجله»، وفي نفس الوقت أخذ الطلبة الجزائريون يفكرون بأنه حان الوقت لدمج جمعية الطلبة المسلمين المغاربة بالجزائر وفرنسا في تنظيم واحد ونظرًا لعوامل كثيرة لم تتجسّد هذه الفكرة إلا في جويلية 1955م بتأسيس "الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين".

ظلّ الطالب محمد أمير بن عيسى يناضل على جبهات مختلفة فعندما بادر الحزب الشيوعي الفرنسي بمحاولة تنظيم الطلبة الجزائريين في "اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس" سنة 1954م، كان أمير من الطلبة الوطنيين المتسللين في صفوفه وقياديه إلى جانب أنه لم يتوقف عن النضال في صفوف الاتحاد الإسلامي للطلبة المغاربة، وفي هذا الإطار أسّس الطالب محمد أمير مجلة "مغرب الطالب" التي صدرت خلال الفترة (أفريل– ماي– جوان 1955م).

وقد نُشر في العدد الثاني من المجلة مقال كتبه صديقه الأديب فرنسوا مورياك (François Mauriac) عضو الأكاديمية الفرنسية بعنوان: "آخر رمضان" وكان المناضل محمد أمير قد وجّه دعوة إلى مورياك وماسينيون(Massigon) وروبير بارا(Robert Barra) لتناول فطور عشية عيد الفطر يوم 22 ماي 1955م معه وبعض زملائه واستغلال ذلك الظرف الإنساني ومحاولة تحسيس هذه الشخصيات الكبيرة المتواضعة بالقضية الجزائرية وخلفياتها[35]، هذا النشاط السياسي العلني بحكم منصبه كرئيس لـ(ج.ط.ش.أ.م) كان يواكبه نشاط سري نظرًا لانتماء الدكتور محمد أمير إلى أول قيادة لاتحاد اتحادية الجبهة الفرنسية، وكان هذا النشاط يتمثل في إرسال التقارير بانتظام إلى جماعة القاهرة.

3. إسهامات النخب الجزائرية في المشرق العربي خلال الفترة (1939-1962)م:

مما لاشك فيه أن الطلبة الجزائريون الذين شدوا الرحال إلى المشرق العربي، كانت لهم أوضاعهم الخاصة بهم حتى أنها في بعض جوانبها اختلفت جذريًا عن أوضاع زملائهم في أوربا أو أمريكا، وقد تمثلت الأوضاع الخاصة للطلاب الجزائريين في المشرق العربي في الظروف المادية القاسية والشاذّة من نوعها التي عاشها الطلاب سواءً خلال الفترة التي

نحن بصدد دراستها أو التي سبقتها، مما جعل الطّلاب الجزائريون يواجهون في كل مواقف حياتهم الدراسية صعابًا قاسية مؤلمة، وقد ساهمت الثورة الجزائرية حينما اندلعت في تفاقم هذه الصعاب والظروف التي كان يعيشها الطلاب الجزائريون في المشرق العربي[36].

وكمثال على هذه الصعاب يروي الطالب سعد الله أبو القاسم عن ظروف تلك المرحلة في مصر قائلاً: «بما أن قبولي في الدراسة سيضمنُ لي الإعانة المادية من الحكومة" ومنحة جامعة الدول العربية، إذ يقبض كل طالب جزائري حوالي خمس جنيهات شهرياً"، سعيت للالتحاق بأي كلية غير أن الأمور سارت على عكس ما أريد، فقبولي بالجامعة تأخر كما ساءت العلاقة بيني وبين الشيخ الإبراهيمي"مسؤول مكتب الجمعية والبعثات الطلابية" وهو ما جعلني أمر بمرحلة صعبة في حياتي، فقد سكنْتُ في ضاحية المعادي، بعد ذلك مع الزميلين "أبو القاسم الجبالي والتارزي الشرفي" اللذيْن منحاني بعض الغطاء والوطاء وأصبحت أنام على الأرض نحو ثلاثة أشهر، ومن الغريب أن هذه الأشهر كانت هي أشهر الشتاء في القاهرة»[37].

لقد كان الطلبة الجزائريون بالمشرق عمومًا وبالقاهرة خصوصًا يُشكّلون شريحة هامة في الجالية الجزائرية وكانوا على وعي سياسي كبير لأن معظمهم عانوا من ظلم الاستعمار الفرنسي قبل خروجهم من الجزائر، كانت معاناتهم سياسية وثقافية واقتصادية؛ وإذا كان زملائهم الدارسون في المدارس الفرنسية قد لا يحسّون بنفس المعاناة الثقافية، فإن طلبة القاهرة كانوا يحسّون بمعاناة مضاعفة لأنهم كانوا مقتنعين أن الاستعمار الفرنسي هو الذي تسبّب في غربتهما ضد ثقافتهم العربية الإسلامية وسرَق هويتهم الوطنية، لذلك كانوا غير متسامحين مع الذين يتسامحون مع الاستعمار ولو ثقافيًا[38].

كما أن كثرة عددهم ونفوذهم في دوائر الطلبة العرب قادهم إلى التفكير في تكوين منظمة تجمعُهم، فكانت "رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي"، ولم يكن من السهل عليهم الانضمام إلى الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين لولا قناعتهم بوحدة النضال ومواجهة العدو صفًا واحدًا، وكان بعض أعضاء الرابطة يعتقدون أنهم أحق بقيادة الحركة الطلابية المناضلة وتمثيل القضية الجزائرية من زملائهم في قادة الاتحاد العام، لأن القضية في نظرهم تعني تحقيق الهوية الثقافية للجزائر، بينما لا تُمثل قيادة الاتحاد العام بتركيبتها البشرية وبآرائها تلك الهوية، وقد كان غالبية أعضاء

الرابطة من الفئات الشعبية المحرومة، وهي نفس الفئات التي خرجت منها قيادة الثورة الأولى، ونتيجة لهذا الموقف الفكري الواضح أُتهم عدد من طلبة الرابطة بالبعثية والناصرية ومضادّة مقرّرات الصومام، وبالتالي ذهبوا ضحية اتهام باطل واختفوا عن الأنظار[39].

وعن أعداد هؤلاء الطلبة، كان قد سأل في ربيع 1954م الطالب علي مراد[40] "ممثل فرع العاصمة لـ ج.ط.ش.أ.م" في رسالة بعث بها إلى الطالب رابح تركي الناشط في الحركة الطلابية بالقاهرة عن أعدادهم وتوزيعهم حسب الكليات والمعاهد، وتضمّن ردّ هذا الأخير بتاريخ 23 أفريل1954م المعلومات التالية:« كلية الآداب: حوالي 60 طالب من بينهم 14 طالبة، كلية الحقوق: حوالي 60 طالب من بينهم طالبة واحدة، كلية العلوم: 60 طالباً من بينهم 03 طالبات، كلية الطب: 65 طالباً من بينهم 03 طالبات، معهد الدراسات العليا: 30 طالباً، مدرسة تكوين القابلات والممرضات: حوالي 20 طالبة، أي أن مجموع الطلبة والطالبات يومئذ لم يكن يزيد عن 330 من مجموع 4500 طالب بجامعة الجزائر...»، وقد أرفق "علي مراد" ردّه عل رسالة تركي رابح بتكليف هذا الأخير بأن يُمثّل جمعية الطلبة بالجزائر في مؤتمر طلبة الشرق مشترطًا عليه، أن يُراعي موقف الطالب الجزائري المستعمَر، وختم التكليف بالعبارات التالية:« وما ترجوه جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا هو أن تبلّغ تحياتها الودية لإخواننا طلبة المشرق العربي ويُترجم عن عواطفنا المخلصة نحوهم، وأملنا في استرجاع مجدنا وإحياء هويتنا فليحيا شباب المشرق وليحيا شباب الجزائر عربًا أحرارًا»[41].

وعن نفس الظروف النضالية والمعاناة الاجتماعية ذكر مولود قاسم نايت بلقاسم عن أيام دراسته بالقاهرة (1950 -1953)م قوله: « وكنت أنا مع قاسم رزيق على اتصال دائم بمكتب حزب الشعب الجزائري في القاهرة في إطار مكتب المغرب العربي الذي كان يضم الأحزاب المغاربية الثلاث، وكان مقر المكتب دار واحدة، هي في الواقع شقة واسعة للمكاتب الثلاث... إلى أن انتقل المكتب المغاربي المشترك كل حزب بقسطه إلى شقة أوسع في 32 شارع عبد الخالق ثروت، وكنا دائمي الاتصال والتنسيق مع الإخوة هناك»[42].

كما ذكر سعد الله أبو القاسم شيئًا عن مشاركته في النضال الطلابي بمصر: « وخلال إقامتي في مصر شاركت باسم الجزائر -بالإضافة إلى الدراسة- في بعض الأنشطة الطلابية

كأسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية وأسبوع جمع التبرعات للثورة الجزائرية والمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي والتطوّع في جيش التحرير الجزائري ونشاط الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وتنظيم مكتبة الحكومة المؤقتة ونشر المقالات والقصائد...»[43] وللحديث عن مساهمات الطلبة الجزائريين ومشاركاتهم النضالية بمصر والمشرق العربي فردًا فردًا سيأخذ ذلك الحديث إلى جرد مجلدات ضخمة لا خاتمة لها، فمثلاً من الشخصيات الطلابية التي لا نعرف عنها الكثير لكن بالنظر إلى حجم دورها الطلابي بمصر نكون قد هضمنا حقها التاريخي في التذكير بها على الأقل: سعد بزيان 1931م، البشير كعيسي[44] دودو أبو العيد (1934–2002)، ركيبي عبد الله 1928م.

ولعلّ من أكبر الشخصيات الطلابية التي كان لها دور فعّال ومثمر في الحياة الطلابية بمصر هي شخصية الزيتوني الشاذلي المكي (1912–1988م) أصيل خنقة سيدي ناجي (بسكرة) أين وُلد وتعلّم حيث انتقل بعدها رفقة عائلته إلى تبسة وهناك عكف على الدراسة والتحصيل، ليلتحق بعدها بجامعة الزيتونة أين تحصّل على شهادة التطويع وهناك كان له نشاط طلابي كبير حيث كان من المؤسسين لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، كما كانت له إسهامات ملحوظة في الأوساط السياسية والثقافية بتونس، وباندلاع الحرب العالمية الثانية أُلقي عليه القبض واعتقل بمنفى جنين بورزق (عين الصفراء) وبعد إطلاق سراحه تفرّغ للنضال السياسي السري ليُتّهم في أحداث 08 ماي 1945م مما اضطره إلى السفر إلى عنابة ومنها إلى تونس ثم مصر، وكان الشيخ الفاضل بن عاشور هو الذي مكّنه من اجتياز الحدود التونسية الليبية، وفي مصر عمل ضمن نطاق الجامعة العربية ومنطقة شمال إفريقيا، وبعد اندلاع الثورة وقَع له خلاف مع بن بلة، فقَبضت عليه السلطات المصرية مع أحمد مزغنة وأُودعا السجن العسكري إلى غاية 1960م[45].

قال عنه الرشيد إدريس: « الأستاذ الشاذلي المكي هاجر إلى القاهرة في نفس المدة التي وصل فيها بورقيبة إلى القاهرة، وكنت أعرفه في تونس مسؤولاً عن الطلبة الجزائريين ومتّصلاً بجمعية العلماء وتحصّل على نيابة من حزب الشعب الجزائري ورئيسه مصالي الحاج في مصر»[46]، وتحدّث عنه في موضوع آخر قائلاً: « لقد لقيت الأخ الشاذلي المكي يبذُل وحدَه الجهود للتعريف بالقضية الجزائرية والمغاربية، وكان مجهوده والحقّ يُقال مجهودًا جبارًا، لأن قضية الجزائر كانت قضية دقيقة وشائكة، وإن كانت لا تختلف في

أصلها عن قضايا الأقطار المغربية الأخرى، أو الأقطار المنكوبة بالاستعمار، وبمناسبة الذكرى الثانية لحوادث 8 ماي 1945م نظّم الشاذلي المكي باسم حزب الشعب الجزائري احتفالاً منفردًا أحيا به ذكرى المجازر...»[47].

لقد تزامن نشاط مكتب المغرب العربي بأوروبا مع هيئة مغاربية أخرى ظهرت بالمشرق العربي هي جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية قال عنها كرو: « أنها تأسّست بعد الحرب العالمية الثانية من طرف الشيخ محمد الخضر حسين»[48]، هذا الأخير كان قد أسّس جمعية تعاون جاليات شمال إفريقيا سنة 1923م، وتطوّرت نظرته إلى هذا الموضوع عبر السنين وأصبحت ذات صبغة سياسية برزت في تأسيس جمعية تدعى "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" إثر الحرب العالمية الثانية، وفي ذلك يقول مواعدة: « إنه لم يعثر على معلومات تبيّن ظروف تكوين هذه الجبهة»[49] والملاحظ هنا أن أفكار الشيخ الخضر حسين السياسية الوحدوية المغاربية لم تتطوّر خلال الفترة التي ذكرها الدارس لحياة الشيخ إنما كانت قبل ذلك[50]

ويعود ظهور الجبهة إلى اجتماع القاهرة خلال مارس 1944م[51]، وهي بقيادة رجل يدعى الأمير مختار الجزائري، ويضيف أن أعضاء اللجنة كانوا من المهاجرين الجزائريين في المشرق، ولعلّ من بينهم مغاربة وتونسيون وستكون هي مقدمة لمكتب المغرب العربي أما عن ظروف نشأة الجبهة، فقد ورَد في مقال للأمير مختار الجزائري بعنوان: "كيف تكوّنت جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية؟" مفاده أن برقية أتتْهُ من "يافا" بفلسطين وهو في بيروت، في يوم من أيام ذي العقدة 1362هـ ونوفمبر 1943م، طلب صاحبه من الأمير الحضور إلى يافا، ولما قصدها وجد بها الشيخ الفضيل الورتيلاني في انتظاره، وجمعهما لقاء مع اثنين من الأصدقاء استعرضوا خلاله "أمجاد ماضي الجزائر والعرب والإسلام".

وبعد هذا اللقاء انتقل الأمير إلى القاهرة منفردًا ثم بعائلته حيث تمَّ تأسيس « جمعية الجالية الجزائرية وكان في عضويتها شخصيات عربية وإسلامية، وكانت الهيئات على اتصال برجال من أبناء المغرب العربي أمثال: الشيخ محمد الخضر حسين وإبراهيم أطفيش والفضيل الورتيلاني وغيرهم، وكانوا جميعاً يؤمنون بعدالة قضية المغرب العربي في وجه الاستعمار الفرنسي، ومن هنا تولّدت فكرة إيجاد هيئة جامعة تتناول قضية إفريقيا الشمالية الموحدة[52].

ومن ذلك أن رئاسة هذه الجبهة أسندت إلى الشيخ محمد الخضر حسين، وتولى الفضيل الورتيلاني منصب السكرتير العام، ومن أعضائها البارزين: الدكتور محمد عبد السلام العبادي، وأحمد نجيب برادة، والحاج أحمد بن قايد ومصطفى(بك) يرم، والشيخ إبراهيم أطفيش والشيخ إسماعيل علي والشيخ السعدي عمار والحاج اليمين الناصري ومن الشباب: أبو مدين الشافعي وأحمد بن المليح وحمود بن قايد وأحمد السعدي ومحسن بيرم[53].

وكان أول بيان للجبهة هو الذي صدر منددًا بأحداث 8 ماي 1945م، « لعله من قبيل الصدف، أن أول بيان للجبهة المذكورة كان عن ثورة الجزائر العربية في أحداث ماي 1945م وقد جاء فيه: «أن القطر الجزائري كشقيقيه تونس ومراكش يعيش اليوم موجة من الاضطهاد لا يكاد الإنسان يجد لها نظيرًا في تاريخ البشرية» إلى أن يقول: «وهذا جزاءُ الجزائر التي آوت فرنسا المنهزمة يوم محنتها الكبرى وشاركت بمئات الآلاف من زهرة شبابها محاربين في صفوف الحلفاء في سبيل تحريرها، ولا تزال أنباء بطولتهم في محاربة الفاشية في تونس وصقلية وإيطاليا وفرنسا وبجميع الميادين الأوروبية..»[54].

ولقد كان العنصر الفعّال في تسييرها هو الشيخ الفضيل الورتيلاني الذي كان أمينها العام، وقد بذل جهودًا كبيرة في سبيل خدمة قضايا الجزائر والمغرب العربي[55]، ولقد سعى في إطار الجبهة بالتعريف بقضية الأقطار المغاربية فندّد بالاستعمار الفرنسي وقدّم مذكرات احتجاج إلى الهيئات الرسمية وعقد ندوات ومؤتمرات عدّة في هذا السياق[56].

ومن الواضح أن الجبهة تأسّست بهدف تحقيق استقلال المغرب العربي ووحدته، ومن الذين انظموا إلى الجبهة من تونس الشيخ محي الدين القليبي من الدستور القديم، والحبيب بورقيبة من الدستور الجديد[57]، ومن الجزائر الصديق السعدي ومحي الدين القلي[58]، وقد استمر العمل المتحد بين أعضاء الجبهة إلى غاية سنة انعقاد مؤتمر المغرب العربي عام 1947م وكانت الجبهة على اتصال بمنطقة المغرب العربي بواسطة الحجاج المغاربة وعن طريق الصحافة[59].

وانحصرت أعمال الجبهة في الأمور الآتية: إطلاع الرأي العام في المشرق بأوضاع إخوانهم في المغرب العربي ولفْت انتباه قادة العرب من ملوك ورؤساء وشخصيات سياسية بقضايا المغرب العربي وغالبًا ما انتهزت الجبهة فرصة المناسبات الدينية والوطنية لتهنئتهم والاتصال بهم والتحدّث إليهم عن أحوال المنطقة وتوجيه المذكرات

والبرقيات إلى الدول العظمى، حاولت الجبهة كذلك الاتصال بالشعوب العربية في المشرق العربي، إذ أوفدت أمينها العام الشيخ الورتيلاني في جويلية 1946م إلى سوريا ولبنان « لإثارة الرأي العام فيها عن قضية المغرب العربي بواسطة المحاضرات والصحافة والاتصال برجال الحكم والنوّاب والزعماء والهيئات»[60]، وكان يعينُه في ذلك عدد من المهاجرين الجزائريين أمثال: زين العابدين بن حسين و(أخ الخضر حسين)، والأمير مختار الجزائري، والأمير سعيد الجزائري..[61].

وأصبحت الجبهة بالقاهرة كذلك قلعة لاستقبال "أحرار" المغرب العربي، واحتضانها لهم كاستقبالها للحبيب بورقيبة ومحي الدين القليبي والأمير عبد الكريم الخطابي وجماعة مكتب المغرب العربي بأوروبا الذين التحقوا بمصر وهم: الحبيب ثامر، الطيب سليم، والرشيد إدريس، والهادي السعيدي، وحسين التركي[62]، ويبدو أن الجبهة قد انحلّت خلال سنة 1948م، فآخر بيان لها صدر في 1948/04/24م موقّع من طرف الرئيس الشرفي للجبهة "عبد الكريم الخطابي" والرئيس "محمد الخضر حسين" يدعو النداء الأهالي إلى الاتحاد في مكافحة الاستعمار وإلى نبذ الخلافات الحزبية[63]. ومن الجمعيات المغاربية الأخرى التي ناضل تحت لوائها الوطنيون الجزائريون قبل تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة نذكر مثلاً:

أ - جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية: جاء في جريدة الوزير[64] التونسية عن ظروف تأسيسها ومبادئها وأهدافها ما يلي: «نهضت هذه الطائفة وأخذت تدعو إلى تأليف جمعية خيرية أدبية تسمى جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية فوجدت لدعوتها تلبية من ذوي النفوس الشريفة الداعية إلى الخير والإصلاح بضمائر مخلصة وهمم، فكان هذا الإقبال الذي تجلى لأول مرة بإجابة الدعوة، مما قوى أملهم وزاد عزمهم ونشاطهم فوضعوا لهذه الجمعية قانوناً وعرضوه في جمع كبير من أبناء تلك الجاليات، وبعد المناقشة في بعض مواده وتنقيحه عقدوا الاتفاق على العمل به، ثم اجتمعوا بمحل عيادة حضره الدكتور عبد العزيز قاسم لانتخاب مجلس يُدير هذه الجمعية فأسفر الانتخاب عن حضرات الأستاذ (كذا): محمد عبد الوهاب المحامي وعبد العزيز قاسم المراكشي، والأستاذ محمد الرزقي والدكتور عبد السلام العبادي عن الجزائريين، والسيد محمد الخضر والطاهر محمد التونسي عن التونسيين والأستاذ محمد التهامي نصر والأستاذ عبد الله عبد الكافي عن الطرابلسيين ثم أنتخب حضرة صالح أفندي

مبروك، أمينًا للصندوق والأستاذ علي محمد شقرون كاتب السر العام، ثم عقد مجلس الإدارة بعد ذلك اجتماعاً لانتخاب الرئيس وإنجلى الانتخاب عن اختيار حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد الخضر حسين».

ومن أهداف هذه الجمعية: «إسعاف ذوي الحاجات منهم والقيام على تعليم أطفالهم الفقراء وإلقاء المحاضرات العلمية والأدبية لتنوير الأفكار وبثّ الأخلاق الحميدة، مما يعود عليهم بالفوائد الكبيرة ويُدخلهم في حياة لذيذة وسعادة صافية ﴿وَاللهُ يَدْعو إلى دَارِ السَّلامِ ويَهدي مَن يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتقيمْ﴾، أما مقرها فيمكن مخاطبة الجمعية باسم الرئيس إلى هذا العنوان : مصر، عيادة الدكتور عبد العزيز قاسم بالسبع قاعات البحرية بالسكة الحديدية...»[65].

ب- جمعية مجاهدي أفريقية الشمالية : هي مثلها مثل جمعية مهاجري إفريقيا وربما هي امتداد لها حيث جاء في جريدة الدفاع ليوم الأربعاء 1949/01/03م، نداءً صادرًا عن فرقة الأمير عبد القادر الجزائري، بخصوص عقد مؤتمر عام لتحرير إفريقيا والتي يقصد بها في أدبيات المهاجرين الجزائريين (بلدان المغرب العربي)، ومن المعروف أن فرقة الأمير عبد القادر كانت منضوية في كتيبة المغاربة لتحرير فلسطين والتي انبثقت عنها أيضا جمعية مجاهدي إفريقيا الشمالية التي أصدر رئيسها الأمير سعيد في 1948/01/12م يحثّ فيه على الجهاد ضد الصهيونيين[66] ومن أهداف هذه الجمعية:

- ✓ العمل على تحقيق حرية شعوب شمال إفريقيا وبقية الشعوب الإفريقية الأخرى.
- ✓ السعي نحو ضم شعوب شمال إفريقيا إلى مجلس الأمم المتحدة.
- ✓ العمل على رفع الاضطهاد الديني والسياسي والاقتصادي الذي ترزح تحته الشعوب الإفريقية بصفة عامة وشعوب شمال إفريقيا بصفة خاصة[67].

ج - جمعية الدفاع عن أفريقية العربية: تأسّست هذه الجمعية في دمشق إثر اجتماع عُقد في منزل مفتي المذهب المالكي في سورية الشيخ محمد مكي الكتاني أحد علماء المسلمين المهاجرين من المغرب الأقصى وجرى الاجتماع في جوان 1946م، وقد نصّت المادة الثانية من القانون الأساسي لهذه الجمعية بأن:« غايتها هي جمع كلمة المهاجرين وتقوية الروح الوطنية والروابط القومية والتعريف بقضية البلاد الأفريقية العربية، وقد كان من مؤسسي الجمعية شخصيات جزائرية ومغاربية مهاجرة أمثال: أحمد

جودت الهاشمي، كامل عيادة، عبد الغني البجقني، هادي الئيس، كامل التونسي، على الجزائري، عمر فرحات حسن فرحات، محمد المبارك مطيع المرابط وغيرهم من الشخصيات المغاربية»[68]، وكانت الجمعية نشيطة في تنفيذ المهمات التي ألزمت نفسها بها، حيث يتّضح ذلك من وثائقها ومراسلاتها مع العديد من الشخصيات والمؤسسات السياسية والإعلامية، كما يتضح من خلال دعوتها واستضافتها لشخصيات نضالية مغاربية بارزة مثل: علال الفاسي الفضيل الورتيلاني، الأمير عبد الكريم الخطابي، البشير الإبراهيمي، الحبيب بورقيبة يوسف الرويسي الحبيب ثامر...

د- **جمعيات تحرير المغرب العربي في دمشق وبيروت:** يبدو أن جمعية تحرير المغرب العربي هي اسم آخر قد يكون وارثاً لجمعية الدفاع عن إفريقيا العربية، حيث أقيمت في لبنان جمعية في نفس الفترة تحمل نفس الاسم مركزها الرئيسي في بيروت ويرأسها السيد عبد السلام بوعزة الجزائري، التاجر المعروف بتجارة الترانزيت، حيث اشتهرت بأنشطتها المتنوعة والمكثفة لصالح استقلال دول المغرب العربي بالتنسيق مع لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة وضمت في عضويتها من الجزائريين، محمد علي الحسيني الجزائري، عمر فرحات، حسين فرحات، محمد المبارك، ومن التونسيين يوسف الرويسي، وكامل التونسي[69].

ومن الواضح أن هذه الجمعية نظّمت في سوريا حملة خاصة لجلب الدعم للنضال التونسي بالتعاون مع الحزب العربي القومي في "حلب" حيث انتهز الجميع فرصة انعقاد المؤتمر الطبي العربي فيها بتاريخ 1946/08/28م، فحوّلوه إلى مظاهرة سياسية لاستقبال الحبيب بورقيبة وزميله يوسف الرويسي، وقد أصدرت الجمعية بالتنسيق مع الحزب العربي القومي وثيقة من (44) صفحة بعنوان "المظاهرات العربية الكبرى التي قامت في الشهباء لنصرة المغرب العربي «بمناسبة زيارة زعماء الحزب الحر الدستوري التونسي.

ويبدو أن هذه الجمعية كانت أول من طرح مسألة الاضطهاد الفرنسي للثقافة العربية في الجزائر، وعموم بلدان المغرب العربي في المحافل الدولية، فقد ورد في تقرير قدّمته هذه اللجنة عام 1948م إلى مؤتمر اليونيسكو في بيروت يحمل عنوان "حالة التعلّم بالمغرب العربي في ظل الاستعمار الفرنسي" وهو عبارة عن كتيب يحتوي ثلاثة تقارير ومقدمتين إحداهما لرئيس الجمعية في لبنان (عبد السلام بوعزة)، أما التقرير الأول فعن الحالة

التعليمية والثقافية في الجزائر وقّعة الشاذلي المكي موفَد حزب الشعب الجزائري إلى المشرق العربي[70].

كان لانعقاد مؤتمر المغرب العربي عام 1947م أثره العميق في حركة بلدان شمال إفريقيا بالمشرق وفي الحركات الوطنية داخل الأقطار الثلاثة خاصة[71]، وأن المؤتمر روعي فيه أن يكون الممثلين من الحركات القائمة في شمال إفريقيا حتى يكتسب صفة الإجماعية التي تعطي لقراراته قوة تأييد الأحزاب برمّتها، وقد انعقد هذا المؤتمر برئاسة فخرية من الأمين العام للجامعة العربية "عبد الرحمان عزام"[72] كما حضر جلسته الافتتاحية شخصيات عربية ولها مكانتها، وناقشت الجلسة الثالثة لمؤتمر المغرب العربي(1947/02/16م) مشروع لجنة توحيد مكاتب الدعاية، فتقرّر تكوين مكتب المغرب العربي، وهو مكتب مشترك بين رابطة الدفاع عن مراكش، والوفد الخليفي في لجان الجامعة العربية وحزب الشعب الجزائري وحزب الدستور التونسي، وبفضل هذا المكتب أصبحت القاهرة مطمح الذين يهتمون بالشؤون المغاربية ومحجّ الوافدين من شمال إفريقيا إلى درجة توصلت معها الحكومة المصرية لتلقي احتجاج من السفارة الفرنسية التي اعتبر المكتب قضية توزيع أوراق التعريف والجوازات الخاصة في إطار تسهيله عملية التعليم للطلبة الوافدين[73]، ولقد قام مكتب المغرب بعدة أعمال من بينها فضح تصرفات الاستعمار عن طريق نشرة منتظمة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، إصدار نشرة خاصة بالصحف التي كانت تصدر في الأقطار الثلاثة، العمل على نشر كتاب عن كل قطر مغربي، ولتدويل قضية بلدان شمال إفريقيا الثلاث، عمل كذلك على نشر كتب بالفرنسية والانجليزية، وفي سنة 1952م، تعزّز مكتب المغرب العربي بقدوم شبان جزائريين بعضهم كان أعضاء في حزب الشعب: محمد خيضر، أحمد بن بلة، حسين آيت أحمد؛ وتزامن هذا الوجود الجزائري بعودة علال الفاسي إلى القاهرة.

لقد ساهم مكتب المغرب العربي في إخراج القضية الجزائرية ومن ثم القضية المغاربية من دائرتها الضيقة إلى المحيط الدولي بوجه عام، والمحيط العربي بوجه خاص، وقد صرحت مجلة فرانس FRANCE : « أن مكتب المغرب العربي أصبح نوعيًا امتدادًا من امتدادات الجامعة العربية أو قسمًا مكملاً لها»[74] ومن الأنشطة التي قام بها الوطنيون الجزائريون بالمشرق أنهم شكّلوا كتيبة داخل فيلق الطلبة العرب وشاركوا في معركة قناة السويس[75]، وكان الاتجاه الراديكالي الداعي إلى العمل المسلح يتزايد داخل مكتب المغرب

العربي فبعد سنة واحدة من تشكيل المكتب، تكوّنت في جانفي 1948م لجنة تحرير المغرب العربي برئاسة عبد الكريم الخطابي، وأصبحت المسألة الرئيسة هي التنسيق بين مختلف الأحزاب الوطنية المغاربية لإعلان الكفاح المسلح في كل شمال إفريقيا، ووقّع في تاريخ 29 ماي 1954م بالقاهرة على ميثاق لاتحاد كومندو شمال إفريقيا، وقد سبقه اتفاق سري أبرم في 1951م، مابين ممثلي كل من حزب الاستقلال وحزب الدستور الجديد وحركة انتصار الحريات الديمقراطية.

وليس من الصدفة أن يلقّب أوائل رجال المقاومة الجزائرية من طرف الفرنسيين "بالفلاقة"، وفي سنة 1951م تحقق رابط آخر بين الوطنيين الجزائريين في المشرق حين أرسلت إدارة حركة الانتصار بعض مسؤولي المنظمة الخاصة المتابعين أمنياً إلى القاهرة للإفلات من الاعتقال حيث شكّلوا أول وفد خارجي للحزب بالمشرق والذي ضم كل من آيت أحمد، محمد خيضر وأحمد بن بلة، كما أن ممثلي النهج الثوري سيعيشون سنوات مهمة من التقارب المباشر مع لجنة تحرير المغرب العربي[76]، وهناك وقائع وشهادات كثيرة تدعّم فرضية تشكيل اتحاد كومندو شمال إفريقيا، لكن تبقى نادرة ومقتضبة وعلى سبيل المثال، منذ الشهور الأولى للثورة في جنوب تونس ساعد جيش التحرير الجزائري (لزهر شريط وطاهر لسود) على تنظيم وحدات جيش التحرير التونسي، كما أن أنصار"صالح بن يوسف" ساعدوا مباشرة الثوار الجزائريين[77]، كل شيء يؤكد بأن تحالف وحدات جيش التحرير الوطني الجزائري وجيش التحرير التونسي يسجّل واقعيًا في إطار مشروع ثورة عامة بشمال إفريقيا.

لقد أدى مكتب المغرب العربي بالقاهرة دورًا طلائعيًا في إنجاز الوحدة السياسية والمغاربية بصفته مؤسسة انبثقت عن الحركة الوطنية المغاربية بالذات، كما كان امتدادًا دوليًا للكفاح الوطني داخل بلدان المغرب العربي، وقد جاء تأسيس مكتب المغرب العربي في دمشق سنة 1946م، قبل تأسيس مكتب القاهرة، إلا أن التنسيق بين المكتبين كان محكمًا، سواء على مستوى التصوّر والخطة السياسية أو على المستوى العملي التطبيقي، ثم تأسيس مكتب المغرب العربي بنيويورك سنة 1947م، إلا أنه لم ينجح في إدماج عناصر المغرب العربي حيث اقتصر على مناضلي المغرب الأقصى، بينما قام التونسيون والجزائريون بأنشطتهم على انفراد، قامت جماعات وجمعيات أخرى في

برلين وباريس وجنيف بالدعاية لقضية المغرب العربي منذ الثلاثينات لحصوله على الاستقلال.

مما تجدر ملاحظته عن النشاط النقابي للطلاب الجزائريين بصفة عامة أنه كان تقريبًا متوازيًا ومتماشيا مع أحداث الثورة وتطويرها، ففي نفس الوقت الذي كان فيه النشاط الطالبي في الجزائر وفي فرنسا حثيثًا يبحث عن طريقة يجمع بها شمل الطلبة حيثما كانوا، وفي وسائل تعبئتهم والتفافهم حول الثورة تأسّست رابطة الطلبة الجزائريين في مصر في صيف سنة 1956م[78]، أما في سوريا فقد تأسّست قبل ذلك بسنة لجنة الطلبة الجزائريين، وبالضبط في مارس 1955م[79].

ومن العوامل التي ساعدت على تكاثف النشاط السياسي للطلاب الجزائريين أن أعدادهم قد تضاعفت بين سنتي (1957– 1958)م، وذلك بقدوم عدة بعثات طلابية من الجزائر وتونس، ولذلك كان لمكتب المغرب العربي في دمشق الذي كان يرأسه آنذاك يوسف الرويسي، دور في النشاط السياسي الذي لعبه الطلبة الجزائريون في سوريا، ومما يُلفت الانتباه أن الطلبة الجزائريين في سوريا كانوا مهيكلين بطريقة أو بأخرى في أربع منظمات محلية هامة هي(لجنة الطلبة الجزائريين) "1955– 1958"م، التي تحوّلت فيما بين 01 سبتمبر و06 سبتمبر 1958م إلى رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي، ورابطة طلاب المغرب العربي التي تأسّست في سوريا في سنة 1956م[80].

وكان صيف عام 1959م الخطوة الحاسمة التي بلغ فيها طلابنا في المشرق العربي غايتهم في التنظيم والتلاؤم بحيث انضوى جميعهم تحت لواء الاتحاد العام للطلبة الجزائريين، لقد تعدّدت أنشطة الطلبة الجزائريين في سوريا وشمل مجالات واسعة يصعُب علينا تحديدها وضبطها في هذا المجال، ومما يلاحظ على هذا النشاط أنه ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالقضية الوطنية والتعريف بآفاقها وتطوّر أحداثها داخليًا وخارجيًا، لذلك أنشأوا مجلتين الأولى هي مجلة "كفاح المغرب العربي"(05 أعداد)، والثانية "نشرة ثقافية" (أعداد غير معروفة).

4. **الخاتمة:** إن هذا النشاط الفيّاض للنخبة الوطنية بالمهجر كان يعكس من جهة الحالة الواقعية لنضجهم السياسي، ومن جهة أخرى نوعية وحقيقة التحوّلات التي سيشهدها المجتمع الجزائري فيما بعد الاستقلال، فالمكانة التي كان يحتلها العنصر الجزائري ضمن تلك الحركية الجماعية هي التي كانت من أهم أسباب انبعاث النهضة في

تلك الأقطار، إن أنشطة الجزائريين السياسية والجمعوية والصحفية والنقابية والفكرية والأدبية... تحيلنا إلى تبني نتيجة مهمة وهي: أن منطلقات النخب الجزائرية كانت منطلقات ثقافية مضمرة في شخصيتهم من غير تكلف وموارية والتي هي في الأخير وعي مدرك بقضية الوحدة وإيمان يقيني بضرورة التوّحد، بل أن المنطلقات نفسها شكّلت في فترة زمنية سابقة رهاناً حقيقياً على مصير الجزائر، ذلك أن تصفحنا لبرامج وأهداف ومطالب التيارات الوطنية الجزائرية ينتهي بنا إلى خلاصة واحدة وهي اقتران المطلب الوطني بالمطلب القومي من غير تناقض بينهما.

الهوامش:

1- قالت عنه الشرطة الفرنسية سنة 1943م بأنه كان يلعب ورقة ألمانيا لانتصار أطروحات نجم شمال إفريقيا.

2- Ageron(Ch.R),"CONTRIBUTION à l'étude de la propagande Allemande au Maghreb Pendant la Deuxième Guerre Mondiale", R.H.M, n°(7-8), Tunis, Mois Janvier 1977, P24.

3- سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية ،ج3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص 208.

4- Ageron , " CONTRIBUTION à l'étude", R.H.M, N°(7 -8), P26.

5- بلقاسم (محمد)، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (1910- 1954)م، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر: (1993- 1994)م ، ص 269.

6- الرويسي يوسف، "نشاط مكتب المغرب العربي ببرلين" أكتوبر 1943–مارس1945"، م.ت.م، ع (7– 8) تونس: جانفي 1977م، ص.ص(24-23).

7- الطاهر (عبد الله)، الحركة الوطنية التونسية، ط2، تونس: دار المعارف للطباعة، 1990م ، ص 216.

8- هلال (عمار)، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م، الجزائر: دار هومة، 2004م، ص23.

9- نفسه، ص24.

10- نشرية أصدرتها جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس.

11- الثمرة الثانية، إصدار جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس(1947– 1948)، تونس: مطبعة التليلي، بلا تاريخ، ص.د

12- بلقاسم (محمد)، المرجع السابق، ص 354.

13- رمضان عبد المجيد، ثوار الجزائر، الجزائر: دار نزهة الألباب، 2004 م، ص 58.

14- **محمد يزيد:** من مواليد مدينة البليدة (1923- 2003)م انخرط منذ أن كان طالباً في صفوف حزب الشعب الجزائري عام 1942م، وانتخب كاتبا عامًا لجمعية مسلمي شمال إفريقيا (1947-1946)، وفي عام 1948م ألقي عليه القبض وحكم عليه بسنتين سجناً بتهمة حيازته على مناشير سرية، ونظم مع الطيب بولحروف إضرابًا بسجن بربروس (سركاجي)، ولما أطلق سراحه رجع إلى فرنسا وهناك كان ممثلاً لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، انتخب عضوًا في اللجنة المركزية من سنة 1950م إلى 1954م، عين ممثلاً لجبهة التحرير الوطني في أمريكا من 1955م إلى غاية الاستقلال. وشارك بفعالية في الدورات 10 و11 و12 للأمم المتحدة التي سجلت القضية الجزائرية وأدرجتها في جدول أعمالها. وحينما تأسس المجلس الوطني للثورة الجزائرية عام 1956م صار عضوًا فيه، كما عُين عضوًا في تشكيلة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كوزير للأخبار والناطق الرسمي لها من 1958م إلى 1962م.

15- بلقاسم (محمد)، المرجع السابق ، ص. ص (355 – 356).

16- **الفضيل الورتيلاني:** من مواليد بلدة بني ورثيلان (1900–1959) هو إبراهيم بن مصطفى الجزائري، انتقل إلى مدينة قسطنطينة سنة 1928 حيث استكمل دراسته على يد العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ولم يلبث حتى بات منذ سنة 1932 مساعداً له في التدريس ، و متجوّلاً لصالح مجلة الشهاب ومرافقاً لابن باديس في بعض رحلاته بالوطن، مشاركاً بقلمه في كل من البصائر والشهاب، ثم نزل "الفضيل" فرنسا سنة 1936م مبعوثًا عن الجمعية، وأقام في باريس ثم اضطُّر إلى مغادرة فرنسا باتجاه إيطاليا ومنها إلى القاهرة سنة 1940م، حيث آثر الانتساب إلى الأزهر فحصل على شهادته العالمية في كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية، سنة 1947م نزل الفضيل الورتلاني اليمن ونجح في توحيد صفوف المعارضة، وإزالة الخلاف بينهم، وبدأ في تهيئة الناس للتغيير بخطبه الحماسية التي تلهب المشاعر وتوقد الحماسة في الصدور، وفي ربيع الآخر 1367هـ - فيفري 1948م نجحت المعارضة في الوصول إلى الحكم بعد إزاحة الإمام يحي حميد الدين واتهم الورتلاني بالمشاركة في محاولة انقلابية في (اليمن) فحكم عليه بالإعدام، ثم غادر الورتلاني اليمن، وتنقل في عدة دول أوربية، ورفضت الدول العربية استقباله حتى وافقت لبنان على استقباله، شريطةَ أن يكون الأمر سرًا.

17- الورتيلاني (الفضيل)، الجزائر الثائرة، الجزائر: دار الهدى، 1992م، ص 365.

18- HARBI (M), Aux Origines du Front de Libération Nationale : le scission du P.P.A – M.T.L.D, Paris : Christian Bourgeois , 1975 . P175.

19- **علي الحمامي**: ولد سنة 1902 بمدينة تيارت، هاجر مع والده إلى المشرق وهو صغير ،أقام فترة بمدينة الإسكندرية وتعلم في المدارس الفرنسية وفي سن الشباب عاد مرة أخرى إلى الجزائر، انتقل إلى المغرب سنة 1922م ، ليلتحق بثورة الأمير عبد الملك بن الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين انطلاقا من مدينة فاس، ثم التحق بالأمير عبد الكريم الخطابي، حيث مكث معه حتى سنة 1924م، بعدها انتقل إلى باريس سنة 1924م بتكليف من بن عبد الكريم الخطابي للقيام بدور إعلامي ودبلوماسي من أجل نقل صوت حرب الريف إلى العالم . وفي باريس اتصل الحمامي بالأمير خالد وشاركه نشاطه وكان له دور في تأسيس جمعية نجم شمال إفريقيا في 02 مارس 1926م، وخلال الفترة (1928- 1933) عاش متنقلا ما بين الدول الأوروبية، والمشرق العربي وفي سنة 1934

انتقل إلى بغداد عبر إيريتيريا وعمل هناك 12 سنة كأستاذ للتاريخ والجغرافيا، ثم انتقل سنة 1947 إلى القاهرة بعد فرار صديقه الخطابي من النفي والتحاقه بالمدينة، وأصبح عضوا في مكتب تحرير المغرب العربي، حيث شارك الحمامي سنة 1949 رفقة التونسي الحبيب ثامر والمغربي محمد عبود في المؤتمر الإسلامي بباكستان، وبعد نهاية المؤتمر يوم 12 ديسمبر 1949م وفي طريق العودة إلى القاهرة سقطت الطائرة، التي كانت تقلهم بجبل بمنطقة إسلامستان ببكستان واستشهد الثلاثة في هذا الحادث، للتوسع يراجع: - علال الفاسي، نبذة عن حياة علي الحمامي، **جريدة العلم**، عدد1024، 22ديسمبر1949. - محي الدين القليبي، الأستاذ علي الحمامي، **جريدة البصائر**، عدد100،ص87.

20- **الحبيب ثامر:** ولد بتونس العاصمة يوم 4 أفريل 1909م، درس الحبيب ثامر بالمدرسة الصادقية بتونس قبل أن يتحول إلى فرنسا لدراسة الطب بتولوز أولا ثم بباريس. وهناك نشط بكل من الحزب الحر الدستوري الجديد وجمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين التي تولى رئاستها عام 1935م، بعد أحداث أفريل 1938م وإلقاء القبض على القيادات الوطنية تولى رئاسة الديوان السياسي السري الذي يمثل القيادة السرية للحزب الدستوري الجديد. وعند احتلال المحور لتونس خلال الفترة (نوفمبر 1942 - ماي 1943) استغل الظرفية لتعزيز نشاط الحزب العلني، استقر أولا بألمانيا ثم اتجه إلى مصر وكان من مؤسسي مكتب المغرب العربي بالقاهرة عام 1947. وقد عرف هناك بمواقفه العروبية والإسلامية، أرسل إلى باكستان لحضور مؤتمر الاقتصاد الإسلامي المنعقد بكراتشي في أواخر عام 1949م، وقد توفي في حادث طائرة بلاهور صحبة رفيقيه أعضاء وفد المغرب العربي.

21- بلقاسم محمد، المرجع السابق ، ص 358.

22- نفسه، ص 361.

23- **بلعيد عبد السلام:** من مواليد جويلية 1928 بمدينة عين الكبيرة بسطيف، سياسي ورئيس حكومة سابق،،تقلد منصب رئيس الحكومة الجزائرية من 8 جويلية 1992 إلى 21 أوت 1993م في فترة حكم علي كافي، درس في كلية الطب بجامعة الجزائر ثم انتقل إلى جامعة قرونوبل بفرنسا، كان عضواً في اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) منذ سنة 1953م، وكان قبلها قد ترأس جمعية الكلية

المسلمين لشمال إفريقيا (A.E.M.A.N) خلال الفترة (1951-1953)، وفي سنة 1953م أسس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، التحق بالثورة التحريرية سنة 1955م، وتولى فيها عدة مناصب قيادية كمساعد وزير الثقافة في الحكومة المؤقتة سنة 1958م، ومساعد بن يوسف بن خدة، منتدب للشؤون الاقتصادية خلال الفترة (1961-19 مارس 1962)، وبعد الاستقلال تولى عدة مناصب وزارية كان آخرها رئيساً للحكومة.

24- **مهري عبد الحميد بن عمار:** من مواليد بلدة الخروب بقسنطينة في 03 أفريل 1926م، ونشأ وتكوَّن بوادي الزناتي، التحق بجامع الزيتونة في السنة الدراسية (1946-1947)، ونظراً لتفانيه وإخلاصه عُين مسؤولاً في تونس لتمثيل حزب الشعب، ثم بعد ذلك مسؤولاً سرياً في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، بعد عودته إلى الجزائر انضم إلى اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية بعد مؤتمر أفريل 1953م، وبقي فيها إلى غاية سنة 1954م واعتقاله من طرف السلطات الفرنسية في ديسمبر 1954م، وبعد حوالي ستة أشهر أطلق سراحه (ماي 1955م)، أين التحق بالقاهرة ومنها أرسل إلى دمشق، حيث عُيّن ممثلاً دائمًا لجبهة التحرير الوطني في العاصمة السورية، كما كلف أيضاً بعدة مهمات أخرى خلال مرحلة الثورة، وبعد مؤتمر الصومام عُين في المجلس الوطني للثورة المنبثق عن مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956م، وعندما تشكَّلت أول حكومة جزائرية مؤقتة في 19 سبتمبر 1958م تقلَّد عبد الحميد مهري في هذه الحكومة وزارة شؤون شمال إفريقيا، ثم منصب وزير الشؤون الاجتماعية والثقافية في التشكيلة الثانية، بعد الاستقلال سنة 1962م تخلى عن السياسة ليتفرغ لميدان التعليم إلى غاية انقلاب 19 جوان 1965م حيث عاد إلى مواقع المسؤولية السياسية، حيث استوزر عدة مرات وعين كسفير في عدد من الأقطار إلى غاية حتى استدعائه إلى الجزائر وتوليه منصب الأمانة الدائمة للجنة المركزية ثم منصب الأمين العام للحزب خلال الفترة (1988 و1996)، تمت إزاحته من منصب الأمين العام للحزب عام 1996م في إطار ما سمي حينها بالمؤامرة العلمية، توفي صبيحة يوم الاثنين 30 جانفي 2012م.

25- HARBI , Aux Origines. P 90.

26- HARBI , Aux Origines. P 90.

27- Harbi(M),Une Vie Debout, Mémoires Politiques, T1, 1945–1962,Alger:1ère Ed, CASBAH, 2001, P100.

82- للتوسع طالع :" مؤتمر شمال إفريقيا المسلمين"، المباحث، ع26، مارس 1947م.

-29 - Guy (Perville), les étudiants Algériens de L'université française(1880-1962), Paris: Ed. du C.N.R.S, 1984, PP(111-112).

30- الاتحاد العام لطلبة تونس، المؤتمر القومي الثالث 1955م تونس: مطبعة نشريات حسان مزالي، د.ت، ص.ص(47-46).

31- من ذلك مثلاً أنه خلال شهري ديسمبر 1958م وجانفي 1959م وقع إلقاء القبض على ثلاثين طالبا جزائريا يدرس بفرنسا ثلاثة عشر منهم بباريس 32- ضيف الله (محمد)، المدرج والكرسي، تونس: مكتبة علاء الدين، 2003م، ص 117.

33- نفسه ، ص59.

34- نفسه، ص 60.

35- نفسه، ص.ص(63- 64).

36- هلال (عمار)، المرجع السابق، ص 68، للتوسع حول هذه الظروف يراجع: شاوش (حباسي) "محطة في مسار الحركة الوطنية التونسية"، مجلة الدراسات التاريخية، ع07، الجزائر: 1993م، ص 145.

37- سعد الله (أبو القاسم)، مسار قلم (يوميات)، ج1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 2005م، ص21.

38- نفسه، ج1، ص 30.

39- نفسه، ص 14.

40- **علي مراد:** ولد علي مرّاد في الأغواط في 21 أكتوبر 1930. درس في كلية الآداب بجامعة الجزائر وتحصل فيها على الإجازة في اللغة العربية في سنة 1954. وواصل دراساته العليا بجامعة السوربون بباريس حيث نال فيها شهادة التبريز في سنة 1956 في نفس التخصص وشهادة دكتوراه الدولة في الآداب في سنة 1968 بعد أن قدم أطروحة حول الحركة الإصلاحية في الجزائر بين 1925و1940، وتفرغ بعد ذلك للتدريس والبحث في مجال التاريخ والدراسات الإسلامية، وقد أثمرت كل هذه الجهود فكوّن أجيالا من المختصين في تاريخ العالم الإسلامي وآدابه، وألف عددا من الكتب والبحوث النفيسة،

منها: الحركة الإصلاحية في الجزائر بين 1925و1940، ابن باديس مفسرا للقرآن، نور على نور. صفحات من الإسلام. مدخل إلى الفكر الإسلامي، الإسلام المعاصر، السنة النبوية، شارل دو فوكو في نظر الإسلام، الإسلام والمسيحية في حوار، الإمبراطورية العثمانية وأوروبا من خلال أفكار وذكريات السلطان عبد الحميد الثاني، الخلافة، سلطة للإسلام؟ عمل الدكتور علي مرّاد أستاذا ثم مديرا لمعهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة ليون 3، ثم انتقل في بداية التسعينيات إلى العاصمة الفرنسية ليعمل أستاذا في جامعة باريس 3، ثم مديرا لمركز دراسات المشرق المعاصر التابع لهذه الجامعة خلفا لصديقه الدكتور محمد أركون الذي أحيل على التقاعد.

41- عباس (محمد)، مثقفون في ركاب الثورة: ج2، الجزائر: دار هومة، 2004م، ص ص(60 -61).

42- بن نعمان (محمد)، مولود قاسم نايت بلقاسم، ط2، الجزائر: دار الأمة، 1997م، ص20.

43- سعد الله (أبو القاسم)، مسار قلم، ج2، ص10.

44- ذكر الدكتور إبراهيم فخار في حديثه عن صالح الخرفي أن كعيسي كان رئيسا للطلبة الجزائريين بالقاهرة باسم جمعية العلماء عام 1957م، - راجع - بلحاج (قاسم أحمد)، الشاعر صالح الخرفي، الجزائر: جمعية أنغام الحياة الثقافية، 2004م، ص68.

45- بوشارب (عبد السلام)، تدسة (معالم وآثار)، الجزائر: المتحف الوطني للمجاهد، 1996م.ص. ص (37– 38).

46-,Centre de documentation National, B5-43, Doc N1 الصباح 17 جوان 1980م.

47- Centre de documentation National, B5-43, Doc N1 . الصباح 18 جوان 1980م

84- كرو (محمد أبو القاسم)، محمد الخضر حسين، تونس: دار المغرب العربي، 1973م، ص 05.

49- مواعدة (محمد)، محمد الخضر حسين، تونس: الدار التونسية لنشر، 1974م ، ص 119.

50- للتوسع في نشاط الوطنيين التونسيين والجزائريين بالمشرق أثناء الحرب العالمية الثانية يراجع: - شاوش (حباسي) المرجع السابق، مجلة الدراسات التاريخية ، ع07، ص. ص(145–147).- الآجري (محمد صالح)، تطور الحركة التونسية، ج1 تونس: الدار التونسية للنشر، 1974م، ص.ص(130–140)، - داهش (محمد علي)، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2004م ، ص.ص(174–178)- الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، المغرب: دار الطباعة المغربية، 1948م ، ص.ص(407–408).

51- سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، ص 243.

52- الورتيلاني، المصدر السابق، ص.ص(284– 286).

53- عبد الباقي (علي محمد)،" أصداء الثورة الجزائرية في الشرق العربي من خلال جهود الورتيلاني"، مجلة سيرتا، ع 6/7 الجزائر: جويلية 1982م، ص 45.

54- الورتيلاني، المصدر السابق، ص 299.

55- مرحوم (علي)،"مواقف من جهاد الفضيل الورتلاني" الثقافة، ع34، الجزائر: أوت/سبتمبر 1976م، ص.ص(58-56) للتوسع يراجع: - عبد الغفار (محمد حسين)، الحركة الوطنية في تونس (1881- 1929)م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة القاهرة، مصر: 1980م، ص.ص(145– 155)، - بوصفصاف (عبد الكريم)، ج.ع.م.ج ودروها في الحركة الوطنية، الجزائر: دار البعث، 1981م.، ص 348.

56- الزريبي (الهادي)، ثورة (1918-1915)م ودورها في تحريرها المغرب العربي، تونس مطبعة الخدمات السريعة، 2002م ص.ص (25– 26).

57- مواعدة، المرجع السابق، ص 120.

58- فضلاء (محمد الحسن)، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الجزائر: دار هومة، 2000م ، ص 75.

59- الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 270.

60- الفضيل الورتيلاني، المصدر السابق، ص 287.

61- الرويسي (يوسف)، " نشاط مكتب المغرب العربي بدمشق"، م.ت.م، ع12، تونس 1978م، ص 209.

62- الورتيلاني، المصدر السابق، ص.ص (330 – 331).

63- بن العقون (عبد الرحمان)، الكفاح القومي والسياسي، ج3، ، الجزائر: م. و. ك، 1984م.، ص.ص (60 – 61).

64- الوزير، ع 175، تونس : 23 سبتمبر 1924م.

65- نفسه.

66- الخالدي (سهيل) الإشعاع المغربي في المشرق ودور الجالية الجزائرية في الشام، الجزائر: دار الأمة، 1997م، ص. ص (166– 167).

76- نفسه، ص 168.

68- نفسه، ص 169.

96- بشيري (أحمد)، الثورة الجزائرية والجامعة العربية، الجزائر : منشورات تالة،2005م، ص ص (54 – 57).

70- الخالدي، المرجع السابق، ص. ص (172– 173).

71- Centre de documentation National, B5–43, Op. Cit155 -157-

يراجع أيضًا :- الشوكي (عبد الرحمان السيد)، مصر والحركة الوطنية في الجزائر منذ ح ع01 حتى الاستقلال، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر: 1991م ، ص. ص(49-148). - مكتب المغرب العربي، مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة 1947/02م، مصر:مطبعة المكتب الثقافية، ب.ت، ص.ص(3–19).

72_ **عبد الرحمان عزام**: ولد في قرية الشوبك الغربى في محافظة الجيزة، (8 مارس 1893م . 2 يونيو 1976م)، سمي بجيفارا العرب لأنه شارك في حروب كثيرة منها حربه ضد الصرب في صفوف العثمانيين، وحارب الإنجليز مع أحمد الشريف السنوسي كما حارب الفرنسيين وحارب ضد الطليان، واحتل مع محمد صالح حرب والسيد أحمد الشريف الواحات المصرية. أنشأ الجيش المرابط خلال الحرب العالمية الثانية وساهم في صنع أول جمهوريه في العالم العربي الجمهورية الطرابلسية، أصبح في 22 مارس 1945م الأمين العام الأول لجامعة الدول العربية في قمة أنشاص وبقي أمينا عامًا إلى عام 1952م.

73- جربال (دحو)، جيش التحرير المغاربي، الجزائر: مؤسسة محمد بوضياف، 2004م. ص 150-يراجع السروجي (محمد محمود)، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال، القاهرة: مطبعة المصري،ب.ت.، ص.ص(225– 226).

74- مكتب المغرب العربي، مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة من (15 إلى 22 فيفري 1947)، مصر : مطبعة المكتب الثقافي الدولي ،ب.ت.، ص.ص(225-226). يراجع: - الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 380.

75- جربال، جيش التحرير، ص157.

76- الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص408. يراجع أيضا: - بشيري، المرجع السابق، ص 56.

77- ALI(HAROUN), La 7 Wilaya La Guerre du F.L.N en France, Paris, Le Seuil, 1986, P40.

87- عمار (هلال)، نشاط الطلبة، ص 74.

79- نشرة الاتحاد العام للطلبة الجزائريين – فرع دمشق – ع01، دمشق: 1960/01/1م، ص 17.

80- نفسه، ص 87.

ثبت المصادر والمراجع المعتمدة:

الوثائق الأرشيفية والنشرات:

1. الاتحاد العام لطلبة تونس، المؤتمر القومي الثالث 1955م تونس: مطبعة نشريات حسان مزالي، د.ت.

2. الثمرة الثانية، إصدار جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس(1947–1948)، تونس: مطبعة التليلي، بلا تاريخ، ص.د.

3. مكتب المغرب العربي، مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة 1947/02م، مصر:مطبعة المكتب الثقافية، ب.ت.

4. مكتب المغرب العربي، مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة من (15 إلى 22 فيفري 1947)، مصر: مطبعة المكتب الثقافي الدولي ،ب.ت.

5. نشرة الاتحاد العام للطلبة الجزائريين – فرع دمشق – ع01، دمشق: 1960/01/1م.

6. Centre de documentation National, B5-43, Doc N1 -
7. Centre de documentation National, B5-43, Doc N1
8. Centre de documentation National, B5–43,

- **الكتب:**

1. الآجري (محمد صالح)، تطور الحركة التونسية، ج1 تونس: الدار التونسية للنشر، 1974م.
2. بلحاج (قاسم أحمد)، الشاعر صالح الخرفي، الجزائر: جمعية أنغام الحياة الثقافية، 2004م.
3. بلقاسم (محمد)، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (1910- 1954)م، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر: (1993- 1994)م.
4. بشيري (أحمد)، الثورة الجزائرية والجامعة العربية، الجزائر : منشورات تالة،2005م.
5. بوشارب (عبد السلام)، تبسة (معالم وآثار)، الجزائر: المتحف الوطني للمجاهد، 1996م.
6. بوصفصاف (عبد الكريم)، ج.ع.م.ج ودروها في الحركة الوطنية، الجزائر: دار البعث، 1981م.
7. جربال (دحو)، جيش التحرير المغاربي، الجزائر: مؤسسة محمد بوضياف، 2004م.
8. الخالدي (سهيل) الإشعاع المغربي في المشرق ودور الجالية الجزائرية في الشام، الجزائر: دار الأمة، 1997م.
9. داهش (محمد علي)، دراسات في الحركة الوطنية والاتجاهات الوحدوية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2004م.
10. رمضان عبد المجيد، ثوار الجزائر، الجزائر: دار نزهة الألباب، 2004 م.
11. الزريبي (الهادي)، ثورة (1915-1918)م ودورها في تحريرها المغرب العربي، تونس مطبعة الخدمات السريعة، 2002م.
12. السروجي (محمد محمود)، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال، القاهرة: مطبعة المصري،ب.ت.

13. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية ،ج3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م.

14. سعد الله (أبو القاسم)، مسار قلم (يوميات)، ج1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 2005م.

15. الشوكي (عبد الرحمان السيد)، مصر والحركة الوطنية في الجزائر منذ ح ع01 حتى الاستقلال، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر: 1991م

16. ضيف الله (محمد)، المدرج والكرسي، تونس: مكتبة علاء الدين، 2003م.

17. الطاهر (عبد الله)، الحركة الوطنية التونسية، ط2، تونس: دار المعارف للطباعة، 1990م.

18. عباس (محمد)، مثقفون في ركاب الثورة: ج2، الجزائر: دار هومة، 2004م.

19. عبد الغفار (محمد حسين)، الحركة الوطنية في تونس (1881- 1929)م، دكتوراه، كلية الآداب جامعة القاهرة، 1980م.

20. بن العقون (عبد الرحمان)، الكفاح القومي والسياسي، ج3، ، الجزائر: م. و. ك، 1984م.

21. الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، المغرب: دار الطباعة المغربية، 1948م.

22. فضلاء (محمد الحسن)، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الجزائر: دار هومة، 2000م.

23. كرو (محمد أبو القاسم)، محمد الخضر حسين، تونس: دار المغرب العربي، 1973م.

24. مواعدة (محمد)، محمد الخضر حسين، تونس: الدار التونسية لنشر، 1974م.

25. بن نعمان (محمد)، مولود قاسم نايت بلقاسم، ط2، الجزائر: دار الأمة، 1997م.

26. هلال (عمار)، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م، الجزائر: دار هومة، 2004م.

27. الورتيلاني (الفضيل)، الجزائر الثائرة، الجزائر: دار الهدى، 1992م.

28. ALI(HAROUN), La 7 Wilaya La Guerre du F.L.N en France, Paris, Le Seuil, 1986

29. Harbi(M),Une Vie Debout, Mémoires Politiques, T1, 1945–1962,Alger:1ère Ed, CASBAH,2001.

30. HARBI (M), Aux Origines du Front de Libération Nationale : le scission du P.P.A – M.T.L.D, Paris : Christian Bourgeois , 1975.

31. Guy (Perville), les étudiants Algériens de Université française(1880-1962), Paris: Ed. du C.N.R.S, 1984

- المقالات:

1. الرويسي يوسف،"نشاط مكتب المغرب العربي ببرلين" أكتوبر1943– مارس1945"،م.ت.م، ع(7– 8)تونس:جانفي1977م.

2. الرويسي (يوسف)، " نشاط مكتب المغرب العربي بدمشق"، م.ت.م ، ع12، تونس 1978م.

3. شاوش (حباسي) "محطة في مسار الحركة الوطنية التونسية"، مجلة الدراسات التاريخية، ع07، الجزائر: 1993م.

4. عبد الباقي(علي)،" أصداء الثورة الجزائرية في الشرق العربي من خلال جهود الورتيلاني"، مجلة سيرتا،ع 7/6 الجزائر: 1982م.

5. مرحوم (علي)،"مواقف من جهاد الفضيل الورتلاني"، ثقافة، ع34، الجزائر: أوت/سبتمبر 1976م.

6. مؤتمر شمال إفريقيا المسلمين"، المباحث، ع26، مارس 1947م.

7. الوزير، ع 175، تونس : 23 سبتمبر 1924م.

8. Ageron , "Contribution à l'étude", R.H.M, N°(7 -8).

9. Ageron(Ch.R),"Contribtion à l'étude de la propagande Allemande au Maghreb Pendant la Deuxième Guerre Mondiale", R.H.M, n°(7-8), Tunis, Mois Janvier 1977.

الشعب الإدارية المتخصصة وسيلة للتهدئة بين المثالية والواقع

هاشمي كوثر، جامعة 08 ماي 1945 قالمة

الملخص:

تأسست الشعب الإدارية المتخصصة في إطار سياسة التهدئة المطبقة من قبل الحاكم العام جاك سوستال، وهي صورة مستنسخة عن الشؤون الأهلية بالمغرب الأقصى والمكاتب العربية في الجزائر، وهكذا أريد لها أن تكون الوارثة الأمينة لتجربة عمرها مائة وعشرون عاما 1830-1955 وقد كانت المهمة الأساسية لهذا التنظيم هو مراقبة السكان في الأرياف وكسب ولائهم، وللشعب الإدارية المتخصصة مهام إدارية وسياسية تتمثل في التصريح بالولادات والوافيات وإعداد بطاقات الهوية،بالإضافة إلى حل المشاكل الخاصة بالمنح العائلية والتكفل بإحصاء السكان لتجديد القوائم الانتخابية ،فضلا عن مهمة نشر التعليم الفرنسي في الأرياف، لكن كل هذه المهام ما هي إلا تمويه عن مهمتها الأساسية: مراقبة تنقلات جيش التحرير الوطني وخلق فئة من الجزائريين عميلة لفرنسا لكن جبهة التحرير الوطني كانت متفطنة لمناوراتهم وردت عليها بتأسيس المجالس الشعبية على مستوى القرى والدواوير.

Résumé:

Les SAS s'intègrent dans la grande tradition des bureaux arabe de l'Algérie celle des service des affaire indigènes du Maroc, Les SAS est donc une structure administrative civile et militaire .crier par le gouverneur général jacques Soustelle pour créer un lien direct avec la population rurale, elle avait pour mission d'assurer la sécurité et d'intervenir dans des domaines aussi divers que l'administration, la santé, le social, l'éducation, l'économie, l'habitat, et la préparation des listes électorale . Mais le front de libération national il été très contions de cette politique de pacification, pour en faire face, il a créé les assemblées populaires dan les régions rurales.

Abstract:

The Special administrative sections were established as part of the policy of appeasement practiced by the governor general Jacques Soustelle and it was apratect copy of civil affairs in Morocco and Arabs offices in Algeria .it was supposed to complete an experience which lasted more hand 120 years (1832-1955). The main mission of this organization was to control people in rural areas and gain their loyalty andallergiance It also had other administrative and political missions such as births and deaths registration; census and electoral registers ,making ID cardes and solving problems related to social security and family allowances, As Social mission , it alid best to spread French education and values among Algerian Muslims.

Despite all these plans, the national liberation Front was averted avvare of Jacques Soustelle's activities and maneuvers that's why they founded many people's councils in most villages.

مقدمة:

حاولت السلطات الاستعمارية القضاء على الثورة ومنع انتشارها بشتى الوسائل والطرق فإلى جانب التصعيد العسكري يرفع الترسانة العسكرية المادية والبشرية في الجزائر لجأت السلطات الفرنسية إلى سياسة التهدئة، محاولة ربح الشعب الجزائري إلى صفها وإبعاده عن دعم وتأييد الثورة من خلال سياسة التهدئة والتي تعتبر الشعب الإدارية المتخصصة (.section Administratif Spécialisé) أحد أهم صورها، هذه الأخيرة التي أسسها الحاكم العام جاك سوستال (jacques Soustelle) في سبتمبر 1955 بعد 20 أوت 1955، التي حولته إلى صف غلاة المستوطنين، بعد التنكيل الذي ألحقه بالجزائريين كرد فعل على الهجوم، مما أدى إلى توسع الهوة أكثر بين السلطات الفرنسية والشعب الجزائري، لذلك أعلن عن تأسيس الشعب الإدارة المتخصصة.

فما هي الشعب الإدارية المتخصصة وما هو الهدف من تأسيسها وهل نجحت في المهمة التي أسست لأجلها؟.

الشعب الإدارية المتخصصة: (Section Administrative Spécialisé)

1- ظروف إنشاء الشعب الإدارية المتخصصة

تعتبر الشعب الإدارية المتخصصة من أعمدة سياسة التهدئة(pacification)، وإحدى أبرز الأدوات التي ابتدعها الحاكم العام جاك سوستال، لتجسيد سياسة إدماج الجزائر في فرنسا من خلال مهامها المدينة والعسكرية المختلفة، ولهذا اعتبرت صحيفة لومند (le Monde) الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ 24 جويلية 1957 أن ضابط الشعب الإدارية المتخصصة هو مناضل في ظل سياسة التهدئة[1].

أما الكاتب الصحفي المهتم بتاريخ الثورة الجزائرية، السيد إيف كوريير (Yves Courrière) فاعتبرها شبه مكاتب لتقديم المساعدات وتلقى الشكاوي"[2].

([1]) قريقور ماتياس، الفرق الإدارية المتخصصة في الجزائر بين المثالية والواقع (1962-1955)، ترجمة م.جعفري، الطبعة الأولى، منشورات السائحي، الجزائر، 2012، ص 15.

([2]) Yves courrière, La guerre d'Algérie le temps des léopards, op.cit, p 479, 480.

وقد تزامن تأسيس الشعب الإدارية المتخصصة في 05 سبتمبر 1955 مع تأسيس قسم جديد في ديوان الحاكم العام جاك سوستال (Jacques Soustelle) يهتم بالتنظيم الإداري والاقتصادي للجزائر، حيث كانت مهمته هي إعداد برامج ملائمة لسياسة التهدئة وإعادة الأمن والهدوء في المناطق التي تم تحديدها من قبل الحاكم العام للجزائر[1].

فهل كان ضابط الشعب الإدارية المتخصصة مجرد ضابط بسيط مكلف بتوزيع الصدقات أو ضابط مكلف بالقيام بإصلاحات هيكلية ؟ وهل علينا أن نرى في الشعب الإدارية المتخصصة جهود مالية وبشرية لا يمكن التغلب عليها على حساب فرنسا أي نوع من المعاناة للنظام المالي الفرنسي ، فهذه الأحكام المتناقضة يمكن ربطها بالتقاليد التي تتخذها الفرق الإدارية المتخصصة كمرجع لها، وهي المكاتب العربية وشؤون الأهالي بالمغرب[2].

وفي سنة 1832 أسس أول قسم إداري متخصص في الشؤون الأهلية بقرار من الجنرال تريزال (Trézel) أوكلت إدارته للنقيب لامويسيار (Lamoricière) وكان من أهدافه الأساسية متابعة العلاقات مع القبائل والأعراش[3].

وفي سنة 1844 أسس الجنرال بيجو(Bugeaud) [4] المكاتب العربية ،حيث شملت صلاحياتها النواحي السياسية، الاقتصادية ،الاجتماعية ، الدينية والثقافية

([1]) CAOM, Aix en Provence, ALG. GGA, boit N 3R/286, la création des SAS.

([2]) قريقور ماتياس، المرجع السابق، ص 15.

([3]) عمار جرمان، الحقيقة، مذكرات عن ثورة التحرير الوطني وما بعد الاستقلال، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2007، ص 114.

([4])الجنرال (Bugeaud) قد خلف الماريشال فالي كحاكم عام للجزائر بتاريخ 22 فيفري 1841 ، ولقد حدث بمجيء بيجو تطورات جديدة في مسالة الإدارة وغيرها ،حيث كان يرغب في بسط نفوذ الاستعمار على كامل القطر الجزائري لذا قام بإعادة تأسيس إدارة الشؤون العربية بتاريخ16 أوت 1841 حيث عين الضابط دوماس (Doumas) رئيسا لها والتي كانت قاعد أساسية لتأسيس المكاتب العربية التي أنشئت بمقتضى مرسوم وزاري بتاريخ 01 فيفري 1844.

Xavier yacono, les bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'oust de tell Algérois, édition plan, paris, 1953, pp 7-12

،فتحولت إلى شرطة تراقب الطرق والأسواق والمؤسسات الدينية والعدلية ،بالإضافة إلى التحقيق في الجرائم والجنح وأي تحرك ضد الإدارة الفرنسية ،والإشراف على الحلة المدنية و جمع الضرائب وتجنيد الأهالي في أعمال السخرة وخدمة الاستيطان[1] أم مؤسسها الجنرال بيجو فاعتبر مهمتها تكمن في الاهتمام بتنظيم الأمن أكثر من الاستعداد للحرب ،عليه أن تستميل العرب وتقوم بإدارتهم وتمنحهم الهدوء والراحة [2]

وفي سنة 1865 كان هناك 41 مكتبا وخمس ملحقات، لكن في عام 1871 تمكن المستوطنون من دفع الحكومة الفرنسية إلى استبدال الحكم العسكري للجزائر بحكم مدني، متذرعين بالفوضى التي سادت المكاتب العربية خلال 1866-1867، في مواجهة المجاعة، وهجرة السكان المسلمين [3]

وقد تم بعث المكاتب العربية في المغرب الأقصى في ثوب جديد، حيث تم تأسيس مصلحة الاستعلام لقيادة أركان جيش الإنزال سنة 1907 بالدار البيضاء وفي سنة 1909أصبحت هذه المصلحة مستقلة تحت قيادة قائد الفيلق (سمون) (Simon) وفي سنة 1926 أطلق عليها اسم "مصلحة شؤون الأهالي" service des affaire) (indigène[4].

وهكذا فقد أريد للفرق الإدارية المتخصصة أن تكون الوارثة الأمنية لتجربة عمرها مائة وعشرون عاما (1832-1955) من النشاط في المكاتب العربية بالجزائر ومصلحة شؤون الأهالي بالمغرب التي كانت تحت قيادة الجنرال ليوتي (Léotti)[5].

---

(1) Jacques Frémeaux, les bureaux arabes dans l'Algérie de la conquête, édition Denoël, paris 1993, p213

(2) Xavier yacono, op.cit, p 07

(3) قريقور ماتياس،المرجع السابق، ص17

(4) المرجع نفسه.

(5) مقابلة مع السيد بيار دو روجو (pierre de rougoux) ضابط سابق في تنظيم (SAS) بتاريخ 2015/11/13 بمركز التوثيق التاريخي حول الجزائر (centre de documentation historique sur l'Algérie)، أكس بروفنس (Aix en Provence) فرنسا.

فهل هي مجرد الصدفة أن يكون المفتشون العامون الثلاثة للفرق الإدارية المتخصصة كلهم من قدماء مصلحة شؤون الأهالي في المغرب الأقصى ،وهم الجنرال بارلانج (Parlange) والجنرال بارسيو (Partiot) والجنرال تيرانيه (Teranier)[1].

ولفهم أسباب تأسيس الفرق الإدارية المتخصصة، يجب الوقوف عند ظروف ذلك العصر والشخصيات الفاعلة ومساراتهم الذاتية، فاسم جاك سوستال (jacques Soustelle) هو الأكثر بروزا في عملية تأسيس الفرق الإدارية المتخصصة وعنده تلتقي تجربة المصالح السرية لفرنسا الحرة وتجربة علم الأعراق البشرية ، يضاف إلى ذلك نموذج وذكرى المكاتب العربية والشؤون الإسلامية التي وورثتها أيضا الفرق الإدارية المتخصصة.

وبالتالي يمكن القول بفرضية اتفاق التأثير فقد استغل سوستال تجربته في مصلحة الاستعلام والعمل لفرنسا الحرة التي عمل فيها خلال الحرب العالمية الثانية التي علمته طرق إيجاد المعلومة ، بالإضافة إلى استعانته بعلم الأجناس وهو عنصر لاينبغي تجاهله فجيرمان تيون (germaine Tillon) وهي عضو في ديوان الحاكم العام جاك سوستال،قضيا مسارهما المهني في هذا الميدان وفهما أهمية التعرف ومعرفة الاستماع إلى السكان ،زيادة على ذلك فان جاك سوستال كان متأثرا جدا بتجربته المكسيكية ،فقد سافر سنة1932 إلى المكسيك وشارك في حركة " الأهالي" بمبادرة من الحكومة المكسيكية، حيث كان المعلمون والمساعدون الاجتماعيون والأساتذة يتنقلون من قرية إلى أخرى لمساعدة وتربية الأهالي[2]

كما أن تجربة شؤون الأهالي بالمغرب الأقصى أيضا كانت عاملا حاسما في استنساخ التنظيم الجديد الذي عرف باسم الشعب الإدارية المتخصصة ، خاصة وان من ضمن المساهمين فيها شخصيتان قريبتان من جاك سوستال وهما الرائد مونتاي (Vincent Monteil) رئيس ديوانه العسكري والجنرال بيرلانج (Parlenge) ، كما يمكن

([1]) قريقور ماتياس ،المرجع السابق، ص 17.

([2]) المرجع نفسه ، ص 29

أن نضيف إلى جملة أوجه النظر المتقاربة هذه تجربة الهند الصينية التي تمثل إخفاق حرب تقليدية،الجنرال كونستانس (constance) كان احد الشخصيات الفاعلة في هذه الحرب ، هو الذي كلف بمهمة تكوين ضباط على عجل وإعداد منظومة لإقامة أربعمائة 400 فرقة إدارية متخصصة في مناطق التهدئة(Zones de pacification) [1].

فقد أعتبر الحاكم العام جاك سوستال (jacques Soustelle) أن الإدارة الفرنسية في الجزائر "كانت تطفو على سطح بحر عميق مثل زورق بدون ربان، لا تعرف كيف تجري التجديف خاصة أن القتال نزع نحو التشدد والتصعيد العسكري فلا بد من وسيلة لمسك زمام الأمور والتحكم في استعمال القوة[2]. وأرجع فشل العمليات العسكرية في القضاء على الثورة الجزائرية إلى نقص المعلومات الضرورية بسبب غياب العلاقة مع السكان المسلمين، كنتيجة حتمية لتراكم الأخطاء منذ بداية القرن وإلغاء المكاتب العربية ووقف توظيف الإداريين[3].

لقد قامت قيادة الجيش الاستعماري في الجزائر بتقوية قبضتها على السكان المسلمين الجزائريين بكل الوسائل، لعزل جيش التحرير الوطني عن حاضنته الشعبية، فهذه القيادة كانت تعلم من تجربتها في الجزائر وفي الهند الصينية ومن دراستها للحرب الثورية – صدق كلمة ماوتسي تونغ- بأنّ جيش التحرير وسط الشعب كالسمك وسط الماء[4]. ولهذا عملت على تفكيك التنظيم الإداري السياسي الذي أنشأته جبهة التحرير الوطني، بالتوازي مع مجهودات ضخمة بذلتها لبعث تنظيم إداري أكثر فاعلية لمراقبة السكان المسلمين في المدن والأرياف وكسب ولائهم وهو ما يسهل مهمتها في القضاء على جبهة التحرير الوطني.

([1]) Jacques Soustelle, aimée et Souffrante Algérie, op.cit, p 27.

([2]) Idem, p 16.

([3]) Ibid, pp 24- 26.

([4]) المجاهد اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، العدد 31، 01-11-1958، الجزء الأول، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين ، 2007، ص 439.

وضمن هذا المسعى تم تأسيس الشعب الإدارية المتخصصة كتنظيم إداري استثنائي وانتقالي يخضع للسلطة المدنية التي يمثلها رئيس الدائرة، والسلطة العسكرية الممثلة في عقيد أو قائد القطاع العسكري[1]. وتتكون كل شعبة إدارية متخصصة من 30 إلى 35 جندي[2]. وعادة ما يكون رئيس الشعبة من قدماء ضابط شؤون الأهالي [3] و يشترط فيه أن يكون من قدماء حرب الهند الصينية، أو أن يكون أجرى تكوينا خاصا عن عقلية المجتمع الجزائري بصفة خاصة[4].

كما تضم كل شعبة إدارية متخصصة ضابط صف ، وكاتب ومحاسب وخوجة ومستخدمين صحيين (أطباء وممرضين) حيث كانت السلطات الفرنسية تستخدم في مكاتب الشعب الإدارية المتخصصة الأطباء الذين كانوا يؤدون الخدمة الوطنية في الجزائر فيتم دمجهم مباشرة في تنظيم الفرق الإدارية المتخصصة[5].

ولتدعيم سلك الشعب الإدارية المتخصصة تم تجنيد عدد من الجزائريين تحت تسمية المخازنية (Maghazinis) [6] ووضعتهم تحت تصرف ضباط الشعب الإدارية المتخصصة، حيث كانوا يدعمون عمليات التمشيط التي تقوم بها القوات الفرنسية وهم بذلك لا يختلفون عن فرق الحركة[7].

([1]) مقابلة مع السيد بيار دو روجو (pierre de rougeaux) ضابط سابق في تنظيم (SAS) بتاريخ 2015/11/13 بمركز التوثيق التاريخي حول الجزائر (centre de documentation historique sur l'Algérie)، أكس بروفنس (Aix en Provence) فرنسا.

([2]) عمار جرمان، المرجع السابق، ص 114.

([3]) جمال خرشي، المرجع السابق، ص 114.

([4]) عمار جرمان، المرجع السابق، ص 114.

([5]) CAOM, Aix en Provence, ALG, GGA, boit N 3R/314, gouvernement général de l'Algérie, service de l'action administrative économique bulletin de liaison et de documentation 30 novembre 1955, les zones de basification (SAS) plan pour une monographie de section administrative spécialisé.

([6]) استحدث هذا الجهاز من قبل الحاكم العام للجزائر السيد جاك سوستال (jacques Soustelle) سنة 1955، و هم أعوان جزائريون تابعين للإدارة الاستعمارية الفرنسية حيث يتم توظيفهم عن طريق عقد لمدة ستة أشهر قابل للتجديد وتتمثل مهمتهم في حماية أعوان الشعب الإدارية المتخصصة ومساعدتهم في أداء مهمتهم،وقد وصل عددهم سنة 1955الى عشرين ألف 20000عون . Achour cheurfi,op.cit,p251

([7]) CAOM, Aix en Provence, ALG, FM, boit N 81F/155, effective section administrative spécialisé.

وقبل التحاق موظفي الشعب الإدارية المتخصصة بمناصبهم كانوا يتلقون تكوينا إداريا متخصصا في مبادئ اللغة العربية الدارجة[1]، ودروسا في علم الاجتماع والمعاملات الإنسانية في شكل تربصات تطبيقية ويدوم هذا التكوين سنة كاملة[2].

وهكذا فإن التركيبة البشرية للشعب الإدارية المتخصصة كانت تسمح بالتحكم في مختلف المناطق والمراقبة الفعالة والدقيقة والمركزة والمتواصلة للشعب عندما يتداوي وعندما يتعلم، والهدف من هذا التنظيم بطبيعة الحال هو عزل جبهة التحرير الوطني[3].

وقد حدد القانون المؤسس للشعب الإدارية المتخصصة النقاط الأولى لتموضع هذه الشعب كالتالي: المنطقة (A) وتشمل الشمال الغربي لمنطقة الشمال القسنطيني، المنطقة (B) وتشمل الأوراس، المنطقة (C) وهي منطقة القبائل، المنطقة (D) هي منطقة الشمال الشرقي للشمال القسنطيني والمنطقة (E) تغطي الجنوب الغربي للشمال القسنطيني، المنطقة (F) تشمل إقليم وهران والمنطقة (H) تغطي إقليم الجنوب، أما المنطقة (I) فشملت مدينة الشلف[4].

وفي إطار هذه التقسيمات لمناطق التهدئة (Zones de pacification) تم تأسيس الشعب الإدارية المتخصصة (sections administratives spécialisées) التي أطلق عليها باختصار (SAS) والتعريف بهذه الشعب يكون عن طريق استعمال حروف كبيرة (Majuscule) مصحوبة برقمين حيث الحرف يحدد منطقة التهدئة التابعة إليها الشعبة

(1) CAOM, Aix en Provence, ALG, GGA, boit N 3R/314, gouvernement général de l'Algérie, service de l'action administrative économique bulletin de liaison et de documentation 30 novembre 1955, les zones de basification (SAS) plan pour une monographie de section administrative spécialisé.

(2) Vincent Guy képe, plou montig, le pretonneux, édition, jeune pied noire, paris, 1988, p 3.

(3) Gregor mathias, les sections administrative spécialisé (SAS) une institution ambiguë, entre édial, et réalité (1955- 1962), thèse de doctorat sous la direction de jean louis tirant, Université de Provence, département d'histoire 1994- 1995, p 6.

(4) Ibid.

(la zone de pacification) والعدد الأول يحدد البلدية التابعة لها والرقم الثاني يحدد الرقم التسلسلي لهذه الشعبة[1].

2- مهام الشعب الإدارية المتخصصة:

2-1- المهمة الإدارية والسياسية:

كانت المهمة الإدارية للشعب الإدارية المتخصصة تتمثل بالأساس بالتصريح، بالولادات أو الوفيات وإعداد بطاقات الهوية وطلب القروض لدى الشركة الزراعية للاحتياط(Association Agricole de réserve) وحل المشاكل الخاصة بالأرض، والأجور ، و المنح العائلية والضمان الاجتماعي و توزيع استدعاءات مصالح التجنيد على لمعنيين[2].

لقد كان هدف الشعب الإدارية المتخصصة في هذا المجال هو تقريب الإدارة من السكان المسلمين الذين أصبحوا غير ملزمين بالتنقل إلى مقر البلدية لاستخراج الوثائق الإدارية الضرورية، حيث أن بعد السكان المسلمين عن مقر الشعبة الإدارة المتخصصة لم يكن يزيد عن عشر كلم، مقابل 30 كلم عن مقر البلدية[3].

ويعد ضابط الشعبة الإدارية المتخصصة نائبا لمسؤول المقاطعة ، وضابط للشرطة القضائية كما يستطيع أن ينفذ البرامج الاستعجالية التي تصدرها الحكومة العامة في المناطق الهادئة[4]. كما يعمل على تدوين الاحتياجات والطلبات، ورفعها بسرعة إلى السلطات الإدارية الوصية عليه[5].

([1]) Achour cheurfi, op. cit, p 312.

([2]) CAOM, Aix en Provence, ALG, GGA, boit N 3R/314, gouvernement général de l'Algérie, service de l'action administrative économique bulletin de liaison et de documentation 30 novembre 1955, les zones de basification (SAS) plan pour une monographie de section administrative spécialisé.

([3]) قريقور ماتياس ، المرجع السابق، ص 60.

([4]) محمد العربي سعودي، المؤسسات المركزية والمحلية في الجزائر، الولاية، البلدية (1516- 1962) ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون، الجزائر، 2006، ص 207.

-ouvernement ou retour de Gouille, 1956) Philippe bourdrél, la dernière chance da la l'Algérie française, du G[5](1958, édition Albin, France, 1996, p 247.

إلى جانب المهام الإدارية العادية، هناك المهام الإدارية ذات الطابع السياسي التي يضطلع بها ضابط الشعبة الإدارية المتخصصة، حيث يتكفل بتحضير الانتخابات من خلال إحصاء السكان لتحديث القوائم الانتخابية ويبذل جهده لإقناع السكان بالمشاركة في الانتخابات، وهو ما لم يكن يتم دون مشاكل، ذلك أنّ الانتخابات البلدية لا تهم أحدا سوى بعض الأعيان، وكان يضاعف تحركاته لحث القرويين على التصويت، ومن الأجوبة التي كان يتلقاها منهم: (إذا أرادت)، (كما تريد) متجنبين الردود الصريحة[1].

3-2- المهمة الاجتماعية والاقتصادية:

كان نشر التعليم الفرنسي في أوساط المسلمين الجزائريين ومحاربة الأمية التي كانت متفشية في أوساطهم ضمن أولويات برنامج الحاكم العام جاك سوستال لتحقيق الإدماج لذلك أدمج نشر التعليم في أوساط السكان المسلمين خاصة في المناطق الريفية ضمن أولويات المهام الاجتماعية التي كلفت الشعب الإدارية بانجازها.

ومن المفيد في هذا السياق الإشارة أن وضعية التعليم الموجه للمسلمين في الجزائر كانت كارثية، حيث المدارس الفرنسية في الجزائر كانت تضم فقط نسبة لا تتجاوز 15٪ من مجموع الأطفال المسلمين الذين بلغوا سن التمدرس، لهذا كان على الشعب الإدارية المتخصصة أن تعيد تنظيم وتجهيز التعليم من نقطة الصفر. ولتحقيق ذلك وضعت تحت تصرفها اعتماد مالي لبناء وإعادة بناء المدارس، وتكفلت الكتيبة العسكرية القريبة منها بتوفير المعلمين، أما الدوائر فقد وفرت لها حاجتها من الوسائل التعليمية[2].

ونظرا لقلة الأقسام الدراسية ونقص المعلمين فقد كان يجمع خمسون تلميذا في قسم واحد، وبثلاثة مستويات في الوقت نفسه ، بعضهم يشتغلون بالقراءة وآخرون

([1]) قريقور ماتياس، المرجع السابق، ص 69.

([2])المرجع نفسه، ص 96.

بالكتابة والباقي يدرسون الحساب، وكان التلاميذ يدرسون اللغة الفرنسية، والرياضيات والتاريخ- التاريخ الفرنسي- والإملاء والتربية المدنية[1].

وبما أن تأسيس الفرق الإدارية المتخصصة قد تزامن مع إقامة المحتشدات التي قطعت سبل العيش عن سكان وعزلهم عن مواردهم الطبيعية (زراعة ورعي) ورمتهم بين أحضان البؤس والشقاء [2]. فقد حاول ضباط الشعب الإدارية المتخصصة أن يتظاهروا بالتفاعل ضد الأحوال الاجتماعية المزرية، بتوزيع بعض الدقيق والحليب، ورخص لاقتناء بعض الحبوب والألبسة ولكن لم يكن كافيا[3].

وفي المجال الصحي لم تكن الشعب الإدارية المتخصصة تملك الوسائل لمواجهة وضع صحي كارثي كان يعيشه المسلمون الجزائريون تميز بانتشار الأمراض والأوبئة بسبب تدهور الأوضاع المعيشية، فلم تكن الشعب الإدارية المتخصصة المشكلة حديثا تملك لا طبيبا ولا ممرضا و لم يكن لديها إلا بعض الأدوية، وكانت مهمتها الأولى هي تنسيق جملة من الوسائل المادية والبشرية لتكيفها مع حقائق الميدان، لم تكن لديها هياكل المساعدة الطبية المجانية، كل شيء كان يتحمله الجيش وهيئة "المساعدة الصحية والاجتماعية الريفية" (Aide sanitaire et social rurale) وكان عليها أن تطلب من الجيش فريقا من المساعدة الطبية المجانية، وبذلك تم إدماج الجهاز الطبي للجيش في تلك الفترة في الإطار الإداري للشعب الإدارية المتخصصة[4].

كما كانت إمكانيات الشعب الإدارية في مجال الوسائل الصحية تختلف من شعبة إلى أخرى، فمنها من لم يكن يتوفر على محل قار للمساعدة الطبية المجانية، كما

([1]) نفسه، ص 99.

([2]) نفسه، ص 112.

([3])Yves Courrière, La guerre d'Algérie le temps de léopards, op. cit, p 36-37.

([4]) قريقور ماتياس، المرجع السابق، ص 86.

أنها كانت تتوقف عن تقديم الخدمات في الشتاء لأن المناخ الصعب كان يمنع العمل تحت الخيام[1].

لذلك كان من أولويات الشعب الإدارية المتخصصة هو بناء البرج وهو المركز الذي تستقر فيه وسهل عليها القيام بوظائفها دون التأثر بالظروف المناخية[2].

3- 2/ المهمة العسكرية:

من بين أسباب تأسيس الشعب الإدارية المتخصصة رغبة السلطات الاستعمارية في مراقبة السكان المسلمين والبحث عن المعلومة، ولهذا وضعت تحت تصرف ضباط الشعب الإدارية المتخصصة عدد من المجندين الجزائريين بصيغة التعاقد أطلق عليهم اسم "المخازنية" للسهر على توفير الأمن.

وتضطلع الشعب الإدارية المتخصصة بواسطة " المخازنية" بالبحث عن المعلومات حول جبهة التحرير الوطني ومراقبة السكان المسلمين، وتسعى إلى البحث عن المنظمة السياسية[3] الناشئة وسط السكان وتفكيكها، ومساندة الجيش الفرنسي والانضمام إليه فرديا أو جماعيا، وتكوين جماعات الدفاع الذاتي (auto défonce) التي تتكون من الجزائريين العملاء تم تزويدهم بالأسلحة بحجة الدفاع عن أنفسهم من هجمات جيش التحرير الوطني متحولة بذلك -الشعب الإدارية المتخصصة- إلى شعب مدعمة كانت تسمى قطاع التهدئة(secteur de pacification)[4] وقد استطاعت فعلا إنشاء شبكات منظمة سرية أطلق عليها اسم البطاقات البيضاء (cartes blanches)،

)[1](Yves courrière, la guerre d'Algérie le tempes de léopards, op. cit, pp : 33- 37.

)[2](. CAOM, Aix en Provence, ALG, GGA, boit N 3R/314, gouvernement général de l'Algérie, service de l'action administrative économique bulletin de liaison et de documentation 30 novembre 1955, les zones de basification (SAS) plan pour une monographie de section administrative spécialisé.

([3]) ذلك أن قيادة الثورة تفطنت إلى مناورات الحاكم العام وردت عليها بتأسيس المجالس الشعبية على مستوى القرى والدواوير وتعيين المسؤولين عنها، بالإضافة إلى قامة نظام لدفع الاشتراكات وتموين جيش التحرير الوطني. أحسن بومالي، المرجع السابق، ص: 256.

([4]) قريقور ماتياس، المرجع السابق، ص ص: 138- 139.

حيث يتمتع عاملو هذه البطاقات بامتيازات مقابل الإدلاء بمعلومات حول تحركات المجاهدين والمناضلين[1].

2-4/ رد فعل جبهة التحرير الوطني على تأسيس الشعب الإدارية المتخصصة:

لقد كانت جبهة التحرير الوطني تدرك خطورة المهمة التي توخى الحاكم العام جاك سوستال تحقيقها بواسطة الشعب الإدارية المتخصصة، وهو ما كشفته وثيقة عثر عليها عند أحد مناضلي جبهة التحرير الوطني ورد فيها أن السلطات الاستعمارية قد أدركت جيدا أن قوة جبهة التحرير الوطني تكمن في اتحادها مع الشعب الجزائري خاصة في المناطق الريفية ولذلك أنشأت تنظيم الشعب الإدارية المتخصصة، حيث حاول من خلالها الحاكم العام جاك سوستال (Jacques Soustelle) إحباط عمل جبهة التحرير الوطني بوضع كل أشكال العراقيل في طريقها[2].

وهكذا بذلت جبهة التحرير الوطني استطاعتها لعرقلة عمل الشعب الإدارية المتخصصة بوضعها تحت الرقابة الدائمة لمواجهة التعبئة الشعبية التي كانت بها وذلك بمنع سكان المشاتي والدواوير قدر المستطاع من التعامل معها[3].

كما عمدت جبهة التحرير الوطني إلى تكثيف هجماتها ضد المنشئات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي التي أقامتها الشعب الإدارية المتخصصة، فشنت عمليات عسكرية ونصبت كمائن لدوريات المخزن التي كانت تضطلع بحماية أبراج الشعب الإدارية المتخصصة، حيث قدرت حصيلة قتلى هذه العمليات الحربية من الشعب الإدارية المتخصصة منذ تأسيسها إلى غاية 9 ماي 1960 حسب تقرير رسمي بسبعة وسبعين (77) ضابط، أما عدد القتلى الملحقين وعناصر المخزن فقد وصل إلى 441 عنصرا[4].

([1]) عمار جرمان، المرجع السابق، ص: 115.

([2]) Gregor mathias, op. cit, pp 343, 344.

([3]) Idem.

([4]) Ibid.

كما بادرت جبهة التحرير الوطني إلى وضع خطة لاستبدال الإدارة الاستعمارية بإدارة جزائرية تابعة لها فأنشأت نظام المجالس الشعبية على مستوى القبائل والأعراش والمداشر والقرى، تتمثل مهمته في التكفل بتأطير السكان وتوعيتهم بخطر والانسياق وراء الدعاية الاستعمارية وتكثيف النشاط الاجتماعي من خلال مساعدة عائلات المساجين والشهداء[1].

([1]) Archives de ministère de défense, paris, Shat, boit N 1h1206 DI, not d'information, quelque ordres de grandeur concernent les affaire Algérienne.

خاتمة :

انطلاقا مما سبق يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية

أولا: إن فكرة الشعب الإدارية المتخصصة لم تكن فكرة جديدة وإنما هي استنتاج لفكرة المكاتب العربية ومكاتب شؤون الأهالي في المغرب الأقصى.

ثانيا: تأسيس الحاكم العام جاك سوستال للشعب الإدارية المتخصصة كان بهدف التهدئة من جهة ومن جهة أخرى لدعم فكرة الاندماج بين أوروبي الجزائر والمسلمين التي طالما آمن بها، لكن أليس من المثالية غير المنطقية أن تسعى فرنسا إلى استدراك الوقت الضائع والأكثر من ذلك أن تستعمل العسكريين لتحقيق ذلك في سنوات، ما لم يتحقق طوال أكثر من قرن من الزمن بواسطة إدارة مدنية، وهل تكتفي إنجازات الفرق الإدارية المتخصصة لتعويض قرن من غياب كلي لفرنسا في عمق الأرياف الجزائري؟

ثالثا: هذه الرغبة في استدراك الوقت الضائع تجسدت في أعمال كان الهدف منها التطوير السريع لشعب مع دفعه إلى نبذ تقاليده وعقلياته من أجل إدخاله بوسائل إدارية في الحداثة سواء في ميدان (البناء، السكن، المرأة...). ألم يكن يراد إنكار خصوصيات سكان الجزائر من خلال فرض نمط غربي بشكل عنيف؟

قائمة المصادر والمراجع:

بالعربية:

1. عمار جرمان، الحقيقة، مذكرات عن ثورة التحرير الوطني وما بعد الاستقلال، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2007.
2. قريقور ماتياس، الفرق الإدارية المتخصصة في الجزائر بين المثالية والواقع (1955-1962)، ترجمة م.جعفري، الطبعة الأولى، منشورات السائحي، الجزائر، 2012.
3. محمد العربي سعودي المؤسسات المركزية والمحلية في الجزائر، الولاية، البلدية (1516- 1962) ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون، الجزائر، 2006.

بالفرنسية:

1. Archives de ministère de défense, paris, Shat, boit N 1h1206 DI, not d'information, quelque ordres de grandeur concernent les affaire Algérienne.
2. CAOM, Aix en Provence, ALG, FM, boit N 81F/155, effective section administrative spécialisé.
3. CAOM, Aix en Provence, ALG, GGA, boit N 3R/314, gouvernement général de l'Algérie, service de l'action administrative économique bulletin de liaison et de documentation 30 novembre 1955, les zones de basification (SAS) plan pour une monographie de section administrative spécialisé.
4. CAOM, Aix en Provence, ALG. GGA, boit N 3R/286, la création des SAS.
5. Gregor mathias, les sections administrative spécialisé (SAS) une institution ambiguë, entre édial, et réalité (1955- 1962), thèse de doctorat sous la direction de jean louis tirant, Université de Provence, département d'histoire 1994- 1995.

6. Jacques Frémeaux, les bureaux arabes dans l'Algérie de la conquête, édition Denoël, paris 1993
7. Philippe bourdrél, la dernière chance da la l'Algérie française, du Gouvernement ou retour de Gouille, 1956- 1958, édition Albin, France, 1996.
8. Vincent Guy képe, plou montig, le pretonneux, édition, jeune pied noire, paris, 1988.
9. Xavier yacono, les bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'oust de tell Algérois, édition plan, paris, 1953.

المقابلات:

1. مقابلة مع السيد بيار دو روجو (pierre de rougoux) ضابط سابق في تنظيم (SAS) بتاريخ 2015/11/13 بمركز التوثيق التاريخي حول الجزائر (centre de documentation historique sur l'Algérie)، أكس بروفنس (Aix en Provence) فرنسا.

الدوريات:

1. المجاهد اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، العدد 31، 01-11-1958، الجزء الأول، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين ، 2007.

طفوحات فشل السياسات التنموية بالمغرب على المحيط التعليمي": العنف المدرسي أنموذجا" أنس الصنهاجي أستاذ في التاريخ المعاصر جامعة سيدي محمد بن عبد الله - ظهر المهراز- فاس

الملخص

حاولنا في هذا البحث مقاربة ظاهرة الاعتداء في المجال المدرسي المغربي، وذلك من خلال فهم هذا السلوك انطلاقا من عوامل ومحددات مباشرة وأخرى غير مباشرة، لا يحسن تفسيرها إلا بالرجوع إلى سياسات الدولة ومشروعاتها الإصلاحية وما خلفته من أوضاع اقتصادية واجتماعية هشة، نتيجة إخفاقها في إيجاد الصيغة المناسبة التي يمكن عبرها ردم الهوة السحيقة بين طبقات المجتمع والتوزيع العادل للثروة وصيانة منظومة القيم، وكل ما من شأوه المحافظة على التسامح والسلم والاجتماعيين، وهذا ما جعلنا ننطلق من فرضية مفادها أن السلوك المنحرف للتلميذ هو مظهر من مظاهر القصور في التكيف الاجتماعي/التربوي الذي يعاني منه المتعلمون، وتعبير من تعبيرات السخط والتمرد والامتعاض بوسائلهم الخاصة، فتفريغ طاقاتهم العدوانية على هذه الشاكلة هو نوع من الثورة على الواقع المعيش بالطريقة "الهوليودية" أو "بليودية"، والذي يمكن أن يصل إلى مستويات خطيرة حين يحاول قمع تعبيرهم عن دواتهم أو إبداء سلوك يرمي إلى احتقارهم أو استصغارهم، وعلى هذا الأساس يمكن الجزم أن العنف المدرسي هو تعبير عن مضامين اجتماعية ورمزية وقيمية وثقافية ناجمة عن تغيرات بنيوية عميقة وإخفاقات سياسية متراكمة أفضت إلى إنتاج نسق قيمي نفعي براغماتي متنكر، يقوم على ميكانزمات التبرير الأخلاقي الانتهازي، والاستسلام للضغوط الاجتماعية التي تبني مجتمعا فردانيا سلبيا وأنانيا، همه مصلحته الضيقة والبحث عن الربح السريع بكل الوسائل الممكنة دون اعتبار الآخر، أي مجتمع يتفاعل مع محيطه بعقلية جلاديه.

الكلمات المفتاح

العنف المدرسي – عنف المجتمع- السياسة التعليمية - توجهات الدولة – المنظومة التربوية – منظومة القيم.

SUMMARY

Failures of reform policies in Morocco and its repercussions on the educational field: “school violence as an example"

Violence, and its effects on the relationships between individuals and social patterns, has been a subject for academic research by many psychologists and anthropologists. School violence is just a mirror that reflects the depth of social imbalances caused by the failure of the development policies and frequent programs adopted by many Moroccan governments. Added to this fact, lobbies who have got power, money and business try their best to pre-empt any real development initiative that aims to reform. As an aspect of this plot, the lobbies imported inadequate educational projects and presented them as an alternative to finish off everything that could threaten their economic and political hegemony. Power and money holders achieved their tight interest and goals with the assistance of media producers and greedy intellectuals who powerfully applaud this "achievement".

School Violence, then, is a thumbnail that obviously shows the culmination of the tension in Moroccan society as a result of the various inadequate reform projects accompanied by the collapse of values, the spread of extreme poverty , prostitution and all the contradictions caused by the monopoly of wealth and its distribution. In parallel, Western cultural invasion raises the level of individuals’ consumption and constructs a society that believes only in violence as a means of self-assertion instead of tolerance. In this regard, the depiction of violence in Western media plays also an important role in the etiology of violence behaviours. Students who lack that sense of critical thinking can easily get affected and desensitised by what they see on television, in internet, etc. Such effects are the outcome of the absence of modern educational programs that understand the psychology of students, interact with them positively, and help them at the same time to overcome frustrations and lack of confidence in oneself caused by the economic pressure and lack of family communication and social frustration.

What we see and hear daily of individual or collective violence against the teacher or the student or the school as a whole calls for urgent solutions because it threatens the community as a

whole. School is the second institution after the family in the socializing circle affecting and being affected by the community. School has got a burden responsibility in regulating morally relations. What a responsibility and what a complex role school has got in front of this reality.

The issue of violence is not only a matter for an individual alone, or a teacher or students, or even the family and the school, but it is a matter for the future of society. It determines the type of relationships and values that should exist between individuals in society as to maintain the integrity of the cultural entity of the nation. So, thinking in addressing seriously the issue of violence is in fact thinking in building a society with strong foundations. It is all about a serious step to solve the issue in question.

تقديم

يُعدّ العنف معضلة اجتماعية عايشها الإنسان منذ بدء الخليقة، إذ ما لبثت تمارس بصور وأشكال تختلف من مجتمع إلى آخر باختلاف العادات والتقاليد والأعراف والأزمنة والظروف الاجتماعية والإنسانية[1]، والأنظمة السياسية، وتختلف شدة العنف ووطأته في المجتمع الواحد باختلاف درجة تحضر أفراده ووعيهم وثقافتهم[2]، وكذلك باختلاف الطبقات الاجتماعية وأنماط الحياة فيه.[3]

ويعد العنف المدرسي من أكثر الظواهر الاجتماعية تأريقا للمشرفين والقيمين على الشأن التعليمي في المغرب، لاسيما مع استفحاش مظاهره وحضوره الشبه اليومي في شبكات التواصل الاجتماعي، جراء الهجرة القروية والاتساع المضطرد للمجال الحضري والفروق الطبقية[4] وما واكبها من تغلغل القيم المنكرة لمثل التسامح والمكارم العربية الإسلامية، مقابل سيطرة الإعلام الغربي المشجع على العنف بمختلف أشكاله، والمسوق لثقافة الاستهلاك والفردانية والذاتية.. وقد طفح ذلك على سطح الواقع المغربي نتيجة فشل المشروعات الإصلاحية والتنموية المعتمدة من قبل الدولة، وإخفاقها في مجاراة طموحات المجتمع وتطلعاته والتحسين من وضعيته.

وفي حمأة ذلك صارت المدرسة كمؤسسة للتنشئة والتربية والتعليم بمثابة مجتمع مصغر يشي عن هول الأزمة المجتمعية العميقة التي يكابد فيها، نتيجة غياب مشروع مجتمعي واضح وإرادة سياسية ملحة في إنجاحه، فعمق الاختلالات التي طالت المدرسة نابعة من تبعيته للمركز الاستعماري وذيوله الذين ما انفكوا يوظفون المدرسة أداة رئيسة لإنتاج العلاقات الاجتماعية عينها للإبقاء على سيادة العائلات المالية والأوليغارشيات المخزنية نفسها التي تضمن هيمنة النظام ومصالح مستعمر الأمس،

---

[1] - باسم سرحان، **دور الإدراك في تحديد المشكلات المجتمعية**، دراسة ميدانية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد 1، 1989، المجلد السابع عشر، ص. 32.

[2] - محمد جسوس، **أطروحات حول مشاكل التعليم**، **جريدة الاتحاد الاشتراكي**، 12 دجنبر 1989، ص. 4.

[3] - مصطفى عمر التير، **المشكلات الاجتماعية تحديد إطار عام**، مجلة فكر العربي العربي، العدد 19، 1981، ص. 16.

[4] - بوتمور، **الطبقات في المجتمع الحديث**، ترجمة محمد الجوهري وآخرون،دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1984.، ص.87.

فالصراعات المحتدة اليوم بين مختلف القوى المتباينة في بنية الإنتاج المادي والثقافي، تطال الحقل المدرسي لتؤثر في مضامين القرارات والمناهج والبيداغوجيات.

وبحكم واقع التخلف والتبعية وتفوق قوة الآخر(الغرب)، بات تدخل القوى الأجنبية في هندسة وتوجيه المنظومات والمؤسسات المجتمعية للدول التابعة أو الخاضعة، محددا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك من خلال أشكال التغلغل والتحكم المؤسساتية أو الاتفاقيات الدولية و الثنائية، ويمكننا استكشاف طبيعة هذا التدخل في المجال التعليمي من خلال:

- ✓ العمل على الانتقال بالمدرسة وظيفيا وبنيويا، من المنظومة التقليدية إلى أخرى عصرية على غرار النموذج الغربي الرأسمالي والليبرالي أساسا.
- ✓ اعتماد المرجعيات البيداغوجية والتربوية الغربية الغريبة على ثقافتنا وبنيتنا الاجتماعية.
- ✓ الانضباط لتوجيهات وتوصيات بعض المؤسسات الدولية وعلى رأسها صندوق النقد الدولي.

وتأسيسا على ذلك يمكن الاستشكال انطلاقا من تساؤل رئيس مفاده: **ما هي بواعث العنف المدرسي وأنماطه داخل المؤسسات التعليمية في المغرب وما المشارب التي تسهم في نمو الظاهرة واستبدادها؟** ويتفرع عن هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الجزئية التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- ✓ **ما دور التغير الاجتماعي في بروز ظاهرة العنف المدرسي؟**
- ✓ **كيف أسهمت سياسات ومؤسسات الدولة في تفاقم ظاهرة العنف المدرسي ؟**
- ✓ **ما دور بعض مؤسسات التنشئة الاجتماعية في تغول ظاهرة العنف المدرسي واستشرائها؟.**

أولا- البواعث غير المباشرة لتفشي ظاهرة العنف المدرسي بالمغرب

1- <u>سياسات الدولة وخياراتها المفضية إلى استبداد ظاهرة العنف المدرسي</u>

تعتبر ظاهرة العنف التي تنخر مؤسساتنا التعليمية معضلة اجتماعية استطار شرها واستبد في سلوك متمدرسينا، إثر الفشل الذريع الذي منيت به أنظمتنا السياسية في تدبير الإصلاحات الاقتصادية والتربوية منذ فجر الاستقلال، وإخفاقها في إيجاد صيغة

من شأوها انتشال الوضع الاجتماعي من مستنقع الفقر المدقع والعطالة والتخلف والحرمان...، هذا الواقع المحبط ولّد جملة من الأمراض المجتمعية واستنبت أوضاعا وسلوكات شاردة عن جادة الصواب، وممارسات وجدت في المخدرات والكحوليات المركن النفسي المريح للتنفيس عن عمق الأزمات المركبة التي يتلظى في دوامتها، فكان من البديهي أن يكون العنف والعدوانية وسيلة له للتعبير عن سخطه على المعيش المزري، وتوجسه من مستقبل مدلهم فاقد الملامح، وبوح رمزي عن توتره الدائم من الوضع القائم، وتصريف عن رفضه لكل مظاهر العسف والقهر والاستبداد الذي يتمظهر بشكل جلي في سوء توزيع الثروات وما تخلفه من تمايزات اجتماعية صارخة.

والعنف داخل المؤسسات لا ينفصل عن هذه التأثيرات والمؤثرات فهو طفح من طفوحات الأزمة الهيكلية للدولة وفشل السياسة التعليمية، فالإفلاس الذريع للميثاق الوطني للتربية والتكوين ومخططه الاستعجالي في إصلاح المنظومة وانتشالها من مستنقع الوهن والارتكاس، لم يكن فقط نتيجة لتجاهل متطلبات مجتمعية نابعة من هويته بمضامينها الثقافية والاقتصادية والروحية، آو انعكاسا لضعف في تشخيص علمي دقيق للوضع التعليمي بالمغرب، بل كمنت حقيقته في الإملاءات السياسية والتوصيات الإجبارية المفروضة من لدن صندوق النقد الدولي، التي تناغمت وغياب تصور جاد بإرادة سياسية حقيقية للنهوض بالقطاع، عن طريق الاستثمار في بناء الإنسان ونشر القيم العقلانية، فنجد ميثاق التربية والتكوين وملحقاته من المخطط الاستعجالي والمجلس الأعلى للتعليم تُستخدم لتجسيد اختيارات الدولة على مستوى السياسة التعليمية. فالإرهاصات الأولية لإطلاق "الميثاق الوطني للتربية والتكوين" كانت في 1995، في سياق التقرير الدولي الشهير حول انهيار النظام التعليمي بالمغرب وما سمي آنذاك بالسكتة القلبية، حيث اعتبر قطاع التعليم عبئا على الاقتصاد المغربي والمالية العامة ومعرقلا للتنمية على غرار القطاعات الاجتماعية الأخرى، ومعيقا للتخلص من الدَّين الخارجي وإنعاش التوازنات الماكرو اقتصادية، لذلك نصح البنك الدولي الحكومات المغربية المتعاقبة بإصلاح التعليم بما يُخفف من أعبائه على الدولة عن طريق فتحه أمام القطاع الخاص وضرب مبدأ المجانية كحق إنساني، كما نصحت بنبرة الأمر بتقليص عدد المدرسين وتخفيض الوعاء الزمني للمواد الأساسية ومراعاة الاستثمارات في البنيات التحتية، أما فيما يرتبط بالتزامات الدولة على مستوى التعلم فقد نص

الفصل 31 من دستور 2011 على تيسير (فقط) الولوج لقطاع التعليم، مما يجعل الدولة في حل من أي التزامات على هذا المستوى.

وفي خضم ذلك حصلت تراجعات خطيرة في مسألة تجويد العملية التعليمية، وذلك من خلال فتح الباب لتعدد الكتاب المدرسي والذي شكل أحد المداخل لتسليع التعليم وتحويلة من قطاع تربوي تعليمي إلى مؤسسة تجارية... وفي سنة 2007 اعترف مزيان بلفقيه مهندس ميثاق التربية والتكوين بإخفاق الإصلاح ودعا إلى استدراك ما يمكن استدراكه بإسعاف جديد، وفي تقرير شهير للمجلس الأعلى للتعليم آنذاك حمل فيه المسؤولية في فشل المنظومة لنساء ورجال التعليم. وعلى ضوء هذا التقرير تم إنزال المخطط الاستعجالي الذي خصص له غلاف مالي كبير فاق 50 مليار درهم، تم إهداره وتبديده دون حسيب أو رقيب كما حصل مع باقي "الإصلاحات" المتعاقبة منذ الاستقلال، الأمر الذي يجسد بشكل مفضوح إمعان النظام في نهج سياسة الإفلات من العقاب رغم أن التعليم قضية مصيرية بالنسبة للشعب المغربي. وغير خاف على أحد أن طبيعة المجلس الأعلى للتعليم وتركيبته واختصاصاته، كسائر المجالس بالمغرب السابقة والحالية، لا تؤهله للاضطلاع بأي مهمة إصلاحية، فما هو إلا مؤسسة شكلية لها دور استشاري في أحسن الأحوال وهذا ما تنص عليه الوثيقة الدستورية الأخيرة. كما أن تركيبته بعيدة كل البعد عن المعايير الدولية خصوصا وثيقة اليونسكو الصادرة سنة 1966 والتي تم تحيينها سنة 1998 خصوصا ما تعلق بمبادئ الاستقلالية والتعددية، فهو يضم عناصر وقوى متنافرة منهم أغلبية محافظة مناصرة للقيم والمصالح السائدة، كما يضم أقلية فرنكفونية ولكنها أكثر تأثيرا بسبب ارتباطها بالمصالح العالمية. بيد أن طبيعة خلاف هذين التيارين ليس خلافا مرجعيا إيديولوجيا بين مكون يناصر العروبة والإسلام وآخر يدعو إلى القطيعة واستلهام نظم أثبتت نجاحها كما يحلو للبعض تصويره، ولكن الحقيقة التي تشهد عليها نتائج و خلاصات اشتغال هذا المجلس الصوري هي أن كلا الفريقين يعمل على تكريس منظومة تعليمية تخدم ما هو قائم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. وهذا مازاد من الأزمة الهيكلية المزمنة المتمثلة في تراجع مكانة وجاذبية المدرسة العمومية من خلال هشاشة البنية التحتية والاكتظاظ في الأقسام التعليمية وارتفاع نسبة الأمية و الهدر المدرسي...، وما زاد الطينة بلة وأتى على البقية الباقية من التعليم العمومي هو سياسة الخريطة المدرسية التي باتت تفرض

إنجاح تلاميذ المستوى الابتدائي والإعدادي بنسبة تفوق تسعين في المائة، وتجميد التكوينات المخصصة للشغيلة التعليمية لتحيين أدائها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل جدّت الدولة ووزارتها الوصية بكل الإمكانيات على إبعاد مسؤولية الفشل عن دائرتها و إلصاقها بالهيئة التعليمية، حيث جندت لذلك آلة إعلامية حرصت على نزع رداء الرمزية والوقار على الأستاذ، وتنميطه في الوسائل الإعلامية بصورة الشخص السادي والجشع والمتملص من أداء مهامه، فضلا عن التنكيل به -كلما احتج معبرا عن رأيه- وسحله أمام أنظار المتعلمين والمجتمع، وشجه وتهشيم عظامه في شوارع الرباط واعتقاله كالمجرمين وتقديمه للمحاكمة. وكل ذلك وغيره كان من بين الأدوات والميكانيزمات التي تسهر على تأبيد الأزمة التي يتخبط فيها قطاع التعليم وفرض الاختيارات السياسية القائمة بالمغرب.

2- الوضع الاقتصادي والاجتماعي ودوره في تغذية العنف المدرسي

العنف المدرسي هو ظاهرة مركبة[1] يتغذى على مجموعة من العوامل والمتغيرات [2]التي تتفاعل وتتداخل وتترابط فيما بينها[3]، غير أن العوامل الباعثة له يتصدرها غياب العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة[4] المصحوبة بهيمنة قوى المال والأعمال على مراكز السلطة والقرار، والتي تمنع إنجاح أي مشروع إصلاحي أو تنموي يمكن أن يهدد مركزها، الأمر الذي أفضى إلى انهيار قيمة العمل وتكدس الأحياء العشوائية في المدن بفقراء القرى والبوادي وتفشي البطالة،[5] وفي معرض حديث عالم الاجتماع "جوهان جولتن"(Galtung Johan) عن العنف وبواعثه ذكر أنه سلوك ضار يمكن تجنبه عند الوفاء بالاحتياجات الأساسية للمواطن مثل توفير الرفاهية والهوية والحرية[6]، ويعزي

---

[1] - حليم بركات، **المجتمع العربي المعاصر**،مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 3، بيروت، 1988، ص. 30

[2] -- Beaulieu, **la violence à l'école secondaire, mémoire de maitrise**, faculté des sciences de l'éducation, université de Laval. 2005, p.01

[3] - سهيل كامل، **السلوك الانساني بين الحب والعدوان**، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد، 27، 1989، ص. 52.

[4] - حسنين توفيق إبراهيم، **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، 1992، ص. 75.

[5] -بوتمور، **تمهيد في علم الاجتماع**، ترجمة محمد جوهرة وآخرون، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1996، ص. 80.

[6] -John Edwards' **'Bumper Sticker' Complaint Not So Off the Mark**, New Memo Shows. p.158

الدارسون استشراء هذه الظاهرة إلى ثلاثة أسباب رئيسة[1] ، أبرزها العنف الهيكلي الذي ينجم عن التفاوت في توزيع الدخول والثروات ومستوى العيش، وفي هذا الصدد اعتبرت النظرية البنائية الوظيفية العنف نتاجا لظروف اقتصادية واجتماعية تتمثل في الأوضاع العائلية وضغوطات الحياة وحالات البطالة والخلافات والتفكك الأسري والفقر وانخفاض دخل الأسرة مع كثرة عددها، وما يواكبه من تغذية غير مناسبة وسكن غير لائق وتعليم هش ومحيط فاسد، وفي إطار نظرية الفقر والضعف التي تكابدها الطبقة المسحوقة في المجتمع، فسر الباحثون أن هذان الإحساسين يجعلان الفرد في توتر دائم، فالنقص الذي يعاني منه الفقراء من المواد اللازمة والإحساس بضعف قدرتهم على تحقيق المتطلبات التي حولتها العولمة من كماليات إلى ضروريات يشعرهم بالقهر الاجتماعي وقلة الحيلة[2] فيدفعهم ذلك بشكل ألي إلى سلوك العنف[3]. وفي هذا السياق أثبتت بعض الدراسات في هذا المجال أن السلوك العنيف تختلف حدته من باختلاف المستوى الاقتصادي للفرد، إذ لاحظوا أن المتمدرسين الذين يعيشون في مستوى اقتصادي متدني أكثر عدوانية من أترابهم ذوي المستوى الاقتصادي المرتفع، وهذا ما أكده كل من" **سيرز(Levin)** و **ماكوبي (Sirz)** و**لفين (Makoby)** ، كما أكد مشيل جورم**Michael Joram**))، أن سيادة ضنك العيش في مجتمع وقلة فرص العمل فيها، أسباب كفيلة بتفريخ مجتمع عنيف على كافة المستويات.[4]

3- <u>وسائط الاعلام آلية خطيرة في تطوير وسائل العنف المدرسي وتغول الظاهرة</u>

إن انتهاج المغرب لسياسة إعلامية منفتحة على كل الثقافات بكل مشاربها دون ضوابط أو رقابة إستراتيجية من شأنها صيانة منظومة القيم وتشذيبها من المؤثرات السلبية والاستلابية، مدعاة لإدمان واستهلاك برامج إعلامية تستنبت ثقافة العنف في سلوكيات التلميذ خاصة والمواطن المغربي عامة وتزيد من تطويرها وانحرافها عبر إسعافها بجرعات مسترسلة تكبر في لاشعور التلميذ/ المواطن، الممارسة العدوانية وتنتصر لمنطق القوة،

---

[1] - العنف الاجتماعي، على موقع شبكة الانترنت: http://www.islamonline.net/servlet/Satellite

[2] - ضياء زاهر، **القيم في العملية التربوية**، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1996 ، ص 3

[3]- صالح عبد الله جاسم، **ظاهرة إتلاف المرافق المدرسية ومدى انتشارها وأسبابها**، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 60، 1989، ص. 66.

[4] - محمد خضر بن عبد المختار، **الاغتراب والتطرف نحو العنف**، دار غريب للنشر والطباعة، الجزائر، 1999.ص.91.

فتغدو في تمثله مدرج من مدارج إثبات الذات ومضمار للظهور والتميز عن الأقران والأتراب[1]، والملاحظ **أن البرامج والمسلسلات والأفلام التي يعرضها التليفزيون والسينما سواء منها المخصص للأطفال أو المعروضة للجميع، ذات تأثير مباشر في السلوك الاجتماعي للتلميذ على وجه الخصوص، حيث تستثير خياله وتدفعه في بعض الأحيان إلى تقمص الشخصيات التي يشاهدها، خصوصاً ما اتصل منها بالمغامرات والحركة والعنف، وقد تتحول حالات التقليد والمحاكاة إلى ممارسة فعلية لأعمال العنف التي يترتب عليها اندفاعه في مسارات الجنوح، وارتكابه للعنف المفضي في بعض الأحيان إلى الجريمة داخل وخارج الحرم المدرسي . فيصبح ضحية إعلام تجاري نفعي يبروز في أعماله الدرامية مثلا التلاميذ الكسالى وكذا الزعران والمنتهكين للقانون في صور أفراد يتمتعون بالوسامة والأناقة والثروة والسطوة والقدرات غير العادية...، كما يجعلهم مثار إعجاب وتهافت الفتيات وحب الأحباب واحترام الأصحاب، مقابل الحط من قيمة التلميذ الجاد والمجتهد حيث يرسمونه في صورة الأبله الساذج الذي يضع نضارات سميكة ولباس متقادم تجعله محط سخرية واستهزاء من زملائه المتكاسلين. وهذا ما يجعل التلاميذ في كثير من الأحيان يجهدون في لبس هذه النماذج وتقمص شخصياتها، والنتيجة تكون مرضية في كل الأحوال، فهم إن نجحوا في هذا التقليد تحولوا إلى مجرمين، وإن فشلوا صاروا محبطين.**

ويبدأ تعود التلاميذ على ممارسة العنف والتفنن في طرقه ومناهجه منذ نعومة أظفارهم، عن طريق المثيرات السلبية لأفلام الكارتون الأجنبية التي تصنع من شخصيات افتراضية خوارق تقضي بأقصى مشاهد العنف على الخصوم و الأعداء، وتبين أن كل مشكلة تعترض البطل لا يمكن أن تحل إلا بالقتل، ومع المداومة يبدأ الطفل يختزن في ذاكرته هذه المشاهد ويرسبها، ثم ينتقل شيئاً فشيئاً إلى استحضارها في لعبه مع الأطفال، ما يتيح له إشباع ميوله للقوة والسيطرة، فيطلق العنان لاندفاعات سلوكية، تزيد من حدتها ألعاب الفيديو التي تنمي فيه الشخصية

[1] - غريب السيد أحمد وآخرون، علم اجتماع الأسرة، دار المعرفة، القاهرة، 2001، ص. 352.

الصدامية، وتكرس ثقافة العنف لدى الأطفال وتشجع على إنضاج الطفوحات العدوانية، وتحويلها إلى دأب يومي.

فكافة الألعاب تعتمد على عناصر ومؤثرات ضوئية وصوتية تشد الصغار والمراهقين بشكل كبير وفعال، نظرًا لتمكنها من إخراج صور وألوان معينة قد يعجز مخرجو السينما والتلفزيون عن تقديمها، وتكمن الخطورة في هذه الألعاب أن غالبيتها تسهّل عمليات القتل أو تفرضها للوصول إلى الهدف. فكلما قتل اللاعب زومبي مثلا أو رجل أو أي شيء تجده يصدح ابتهاجا لأن هذا سيقرّبه من هدفه. ورويدًا رويدًا لا يعود لموضوع القتل أهمية عنده، وفي لحظات معينة قد ينجرف الإنسان وراء هذا الـ"لاإحساس" بإنسانية الآخر، فيسرق أو يقتل أو... بأعصاب باردة، ناهيك عن كثرة الدماء التي يراها على الشاشة، ومنظر الخصوم وهم يتساقطون متألمين، إلى ما هنالك من إعطاء اللاعب لذة في القتل. وهنا مكمن الخوف أن تتحول هذه اللذة الخيالية بإيحاءاتها إلى الرغبة باللذة الحقيقة.

وفي دراسة حول السلوكيات التي يكتسبها الأطفال من التعرض للعنف في التلفزيون أجريت على عينة من الآباء والأمهات، أشارت النتائج إلى أن التلفزيون يعد من أكثر وسائل الإعلام المسؤولة عن اكتساب الطفل للعنف[1]، وتبين من النتائج ان المواد الأجنبية هي الأخطر في المساعدة على نشر العنف لدى الأطفال حيث يكثر فيها عرض أساليب القتل وإلحاق الضرر بالآخرين، واستخدام القوة في تحقيق الأهداف.[2]

وقد تعددت في الآونة الأخيرة الدراسات النقدية التي تتناول ظاهرة العنف السينمائي، ومن بين الكتب المهمة التي صدرت في هذا الشأن كتاب للمؤلف " مايكل ميدفيد " بعنوان "هوليود ضد أمريكا " يتهم فيها الكاتب صناعة السينما الأمريكية بتدمير قيم المجتمع الأمريكي وتنميته كره الأخر. إذ جزم أن هذا النوع من الإنتاج السينمائي هو أكثر العوامل التي تشكل خطراً على

[1] - مامنية سامية، **بنية النظام التربوي الجزائري المعاصر وعلاقته بانحراف التلميذ**، العدد 08، 2014، ص ص. 204-205.

[2] - علي إسماعيل مجاهد، **التنبؤ العلمي كأساس للتخطيط الأمني**، دار الإسراء، القاهرة، 1995، ص. 81.

الثقافة الشعبية ، فالتركيز المبالغ فيه على العنف والقسوة يؤدي إلى تشجيع المزيد من السلوك الرافض للمجتمع. [1]

ومن الدراسات الهامة في هذا الصدد دراسة أجراها فريق من الباحثين في جامعة " الينوى " الأمريكية والتي خلصت أن الأطفال الذين يشاهدون مسلسلات العنف في التلفزيون بكثرة يكونون أكثر ارتكاباً للجرائم عندما يكبرون من غيرهم[2] وكان من بين النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة أيضاً، أن العنف التلفزيوني يؤثر في أطفال مختلف الأعمار والطبقات ذكوراً وإناثا، وتنبه الدراسات إلى حقيقة أخرى مفادها أن المشاهدين ينخفض إحساسهم بالإثارة يوماً بعد يوم نتيجة كثرة مشاهد العنف، وهنا يضطر المنتجون والمصورون وكتّاب السيناريو إلى زيادة جرعات العنف بإفراط.. وعليه تصبح المسألة دائرة مفرغة تؤدي إلى فقدان الإحساس بالخوف فيقدم المنتجون عنفاً أكثر وأكثر.. والملاحظ أن مناظر الدم والعنف التي كانت ترهب الناس في الماضي لم تعد تثير خوفهم ، بل والأكثر من ذلك أن هذه المناظر الدموية أصبحت جزءاً من الثقافة الشعبية للناس، فترتب على ذلك أن التآلف مع هذا الكم الكبير من العنف الدموي على الشاشة وفي وسائل الإعلام قاطبة أفضى إلى التسامح مع العنف الدموي في الشارع وداخل مؤسسات التنشئة الاجتماعية.

وفي ذلك انتبه معظم النقاد السينمائيين أن أفلام العنف في الستينات والسبعينات كانت تترك لدى المشاهد الرغبة في أن يلقى القاتل جزاءه وأن ينال عقابه، بل كانت الأفلام تجعل من المشاهد مشاركاً في الثأر من المجرم على مستوى اللاشعور طبعاً، أما اليوم فباتت تدعو المشاهد وتحفزه إلى الاستمتاع بالقتل والضرب والتشويه وتوجهه إلى التعاطف مع المجرم، وفي هذا الصدد يقول"

[1] -Ali Mortada, **Cinéma et Société marocaine**, Projet de fin d'études, Master en didactique, Faculté des lettres et sciences humaines, Université de Sidi Mohammed ben abd Allah, 2013-2014, p. 92.

[2] - أسامة مزيان، **انعكاسات أفلام العنف على سلوكيات الأحداث والمراهقين في أوساط مؤسسات التنشئة الاجتماعية**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في علم الاجتماع التربوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، السنة الدراسية 2006-2007، ص. 202.

ستيفن ماك " أحد أساتذة الاجتماع في جامعة كاليفورنيا الأمريكية، أن المشاهد اليوم لم يعد يتعاطف مع الضحية كما كان الأمر في الماضي، وللأسف فإن صنّاع الأفلام يفعلون ذلك بمنتهى المتعة.[1]

وقد خلقت دراسة ضخمة بعنوان "العنف ووسائل الإعلام" أجريت عام 1969 من قبل لجنة علمية أميركية لدراسة أسباب العنف وكيفية منع الجريمة، إلى أن صور العنف في التلفزيون تسيطر على خريطة البرامج (حوالي 80% من البرامج تتضمن أحداث عنف) كما أشارت هذه الدراسة إلى أن العنف التلفازي هو الذي أسهم في زيادة الاضطرابات في الشوارع الأميركية .

وعلى الرغم من كل التحذيرات الداعية إلى تقليل مظاهر العنف في وسائل الإعلام فان نسبة العنف المقدمة في برامج الأطفال تزداد عاما بعد عام، حيث وصلت إلى 99% خلال التسعينيات[2].

إن أكثر البرامج المثيرة للعنف هي البرامج المستوردة من الولايات المتحدة والهند، حيث تشير إحدى الدراسات المتعلقة بالجريمة إلى أن الشاب الذي يبلغ من العمر 18 عاما يكون قد شاهد حوالي 40 ألف مشهد للقتل ونتيجة لذلك فان الأحداث والبالغين في الولايات المتحدة مثلا يحملون ما يزيد على 210 ملايين قطعة سلاح ناري ويطلقون النار بسباطة على الآخرين لأتفه الأسباب[3].

وفي السياق نفسه كشفت بعض الدراسات في المنطقة العربية والعالم الثالث أن حوادث عديدة وقعت بطريقة تحاكي ما يحدث في وسائل الإعلام، حيث يتم تقليد الأفلام والمسلسلات المعروضة فيها بطريقة تجتهد في إعادة تشخيصها على أرض

[1] - أسامة مزيان، **انعكاسات أفلام...**، م.س، ص.210.

[2] - Ali Mortada, **Cinéma et Société marocaine**, op.cit., p. 98.

[3] - عبد المولى السهلي، **عنف الصورة في البرامج الإعلامية والسينما**، بحث التخرج من مركز التربية والتكوين الجهوي فاس، السنة الدراسية 2013-2014، ص. 125.

الواقع[1].وقد اعترف 77% من عينة لشباب منحرفين في السجون المغربية أن السبب في ارتكابهم الجريمة كان دافعه تقليد أدوار العنف التي يجسدها ممثلو السينما والتلفزيون، وكان من أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة التي أجراها طلبة الماستر في علوم التربية أن التلفزيون ساعد بشكل أساسي على انحراف هؤلاء الشباب حيث علمهم السرقة والنصب وطرق إخفاء الجرائم.[2]كما أشارت دراسة أخرى إلى وجود علاقة طردية بين زيادة مشاهدة الأفلام في السينما والتلفزيون وزيادة الاستعداد للانحراف، خاصة بين صغار السن والشباب بسبب الرغبة في تطبيق ما يشاهدونه[3].

صفوة القول أدى الإنتاج التلفزيوني والسينمائي دورا وازنا في إشاعة ثقافة العنف في المدارس المغربية ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى[4]خاصة أن كثيرا من الأفلام الأمريكية والهندية والمصرية وحتى المغربية ما لبثت تمجد العنف وتحتفي به فى كليشهات جذابة وشيقة تغري الأحداث والشباب وتدفعهم للانحدار بالفعل الأخلاقي والسلوكي العام، وذلك في ظل غياب تام لدور الإعلام المغربي في وضع تصور إجرائي واعي بخطورة هذا النوع من الإنتاج عبر وسائط إعلامية متعددة تقدم بدائل وتنبه من انعكاساته الوخيمة على التوازن النفسي والسلم الاجتماعي، وتحذر من نسف قيم التسامح والانضباط فيه، بل بالعكس من ذلك تماما إذ ماانفك الإعلام المغربي الرسمي يستورد هذا النوع من الإنتاج ويبثه عبر برامجه المتنوعة، بذريعة حرية الإبداع الفني. وقد زاد من تفاقم الوضع انتشار مثل هذه الأفلام في أوساط شعبية أمية، ومجتمع يشهد تغيرات بنيوية من قبيل خروج الأم للعمل التي كانت تؤدي دور الضمير في الكيان الأسري.

---

[1] - خديجة الماحي وآخرون، **سيكولوجية المجرّم**، بحث لنيل الماستر في علوم التربية، كلية التربية الرباط، السنة الدراسية 2012-2013، ص. 117

[2] - نفسه، ص. 119.

[3] - إسماعيل الأسدي، **العنف أسبابه وأنواعه وأدواره وسبل المعالجة**، مركز البحوث التربوية والنفسية، العدد الحادي عشر، 2003، ص.14.

[4] -محمد الباهي السيد ، **علم النفس الاجتماعي** ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية، 1980،ص2

ثانيا - البواعث المباشرة لاستشراء ظاهرة العنف المدرسي

العنف المدرسي هو فعل سلوكي جانح، يتوجه بالأذى المادي أو الفظي أو الرمزي لأحد أطراف المكونات التعليمية [1] أو يعمد إلى إفساد وتخريب الممتلكات والأجهزة داخل فضاء مؤسسة تعليمية،[2] وهو معيار من جملة المعايير التي تقيس مدى الاحتقان الاجتماعي وانحطاط النظام التربوي[3]وضعف التكيف المدرسي.[4] وقد انتقل العنف الاجتماعي إلى المؤسسات التعليمية والتربوية ووجد فيها الظروف التي تغذيه وتساعده على الربوّ والتفريخ حتى بات يعتقد أن هذه المؤسسات هيئت لاحتضانه.[5]

1- دور السياسة التعليمية في استفحال ظاهرة العنف المدرسي

يتأسس مفهوم السياسة التعليمية بوجه عام على جملة من المبادئ والمنطلقات التي يقوم عليها نظام تعليمي في أي بلد من بلدان العالم، بحيث تحدد إطاره العام وفلسفته وغاياته ونظمه، وتنظيمه المؤسساتي والإداري، على ضوء قيمه الدينية والاجتماعية، وإرثه الحضاري والتاريخي، وثرواته المادية والبشرية، ويعتبر تملك رؤية مستقبلية لنسق تربوي حجر الزاوية في السياسة التعليمية، ذلك أن الأنظمة التعليمية محكومة بالتطور، لأنها موجهة لمجتمعات دائمة التحول والنمو، ولذلك نجد في الدول المتقدمة الناجحة في سياساتها التعليمية مواكبة لأخر الأفكار والمستجدات البيداغوجية، وكل ما ينسجم مع الأطوار التي يمر منها المجتمع وحاجيات كل مرحلة على حدة، عكس الأنظمة التعليمية في المجتمعات المتخلفة التي تستثمر في الجهل، وتفتقد إلى الرؤية المستقبلية في بناء السياسة التعليمية، ولذلك تبقى أنظمتها التعليمية فاشلة ومفلسة، وعوض أن يغدو التعليم رافعة لتنمية مستديمة، يمسي مصنعا لأزمة مستديمة.

---

[1] - Shidler. L, **Teacher sanctioned violence**. Childhood education, ACEI, Spring , 2001. p.167

[2] - Alain Bauer, **Mission sur les violences en milieu scolaire, les sanctions et la phase de la famille, rapport remis aux ministres de l'éducation national**, Paris. 2010،p. 05

[3] - Dupaquier. J, **la violence eu milieu scolaire**, Paris Pressé universitaire de France Mai 1999 p8.

[4] - تبداني خديجة وآخرون ، **الأسرة والمدرسة، سوء التكيف المدرسي بين الإشكالية والواقع**، وهران، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع،2004 ، ص. 78.

[5] - علي أسعد وطفة، **من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي**، مجلة شؤون اجتماعية، العدد 104، 2009، ص. 48.

ويعتبر النظام التعليمي في المغرب نظاما يفتقد إلى البوصلة، ولذلك فهو عاجز عن الخروج من دائرة الأزمة، بل أصبح يكرس الأزمة المجتمعية على جميع الأصعدة، فهو نظام غير قادر على التأثير الايجابي على المجتمع، وضخ القيم الايجابية في شرايين الواقع الاجتماعي، كما أنه نظام قاصر عن خلق علاقات منسجمة متكاملة بين عناصره المؤسسية والبشرية، فرسام السياسات التعليمية في واد، والواقع المعتل في واد آخر، أما الخبراء المغاربة في المجال فيؤتى ببعضهم للمدح والإشادة في مختلف وسائل الإعلام بالإصلاحات التعليمية المزمعة أفقيا من قبل الدولة، لإضفاء الشرعية والتنويه بمضامينه، وبطبيعة الحال فإن الأنظمة التعليمية التي تتميز بمثل هذه خصائص، يكون مآلها الخيبة والأفول وضياع مستقبل شعوبها وآمالهم الوردية، وهذا ما يحيلنا إلى الاستفهام بسؤال مفاده ما الذي يجعل الأنظمة الاوطوقراطية تبرمج لضرب التعليم وتبث ظروف إفشاله منذ البداية؟

نعم إن الإفشال أيضا وللأسف مكلف و يحتاج "تخطيطا إستراتجيا وأموالا طائلة وخبراء في الدعاية، وهناك شواهد تاريخية في "إصلاح التعليم بالمغرب" شاهدة على ذلك، لجان وميزانيات ودراسات بالملايير، وزيارات سياحية لبلدان مختلفة تحت عنوان الاستفادة من التجارب، وإنفاق مجنون للمال، يبني به اللصوص مساكن فاخرة، عوض أن تبنى به المدارس، وصفقات مغشوشة يتسرب عن طريقها المال العام إلى جيوب القيمين على مشروعات البناء والمشرفين على المناقصات، بحيث لم نسمع متابعات قضائية رغم فضاعة الجرائم المالية والفساد الإداري والمالي المستشري، ولعمري إنها لصدمة كبيرة حينما تطالع الأرقام التي صرح بها وزير التربية الوطنية السابق محمد الوفا سنة 2011 بخصوص البرنامج لاستعجالي والموجود على موقع اليوتوب، حيث أورد أن الأرقام والنسب المتعلقة بانجاز البنايات، لم تتجاوز 27% من مجموع الانجازات المقررة في البرنامج الاستعجالي، حيث تم إنجاز 74 مدرسة ابتدائية فقط من أصل 225 مؤسسة مبرمجة، فيما لم تتجاوز نسبة البنايات في التعليم الإعدادي والثانوي 50 % في 12 أكاديمية، بإنجاز 109 من أصل 529 إعدادية مبرمجة، أما الثانويات التأهيلية فلم تتجاوز 84 ثانوية من أصل 278 مؤسسة مبرمجة، ومن خلال هذه الأرقام نجد أن النقص كبير جدا، وما لم يدل به الوزير هو مصير الملايير المعتمدة في هذا البرنامج

الترقيعي الفاشل، رغم إشارته أن الغلاف المالي المرصود للانجازات قد وزع معظمه على مجمل الأكاديميات.

يبدو إذن أن هذا الفشل هناك من يستفيد منه، نعم إن الأنظمة السياسية الاستبدادية تمارس نوعا خاصا من الاستثمار دعنا نسميه الاستثمار في الجهل، ذلك أن العلم عدو الاستبداد، ولذلك رغم دموع التماسيح التي يذرفها المستبدين على التعليم فهم يتمنون فشله الدائم، وقد صدق عبد الرحمن الكواكبي حين قال:" الاستبداد أصل لكل فساد، فالمستبد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده ويحارب العلم فيفسده".

2-الخيار البيداغوجي ودوره في تقوية ظاهرة العنف المدرسي

إن الانتشار الواسع للعنف المدرسي، وهذا الاستحكام الذي تعرفه الظاهرة التي تمتد لتشمل مختلف جوانب الحياة المدرسية يعود لأسباب ومصادر متعددة منها ما هو متصل بالفاعلين، ومنها ما هو ذو علاقة بالمناهج الدراسية وطريقة إعدادها، ومنها ما هو مرتبط بالفلسفة المعتمدة في تدبير المنظومة التربوية عموما والمؤسسات التعليمة بشكل خاص، ففشل الإستراتيجية التعليمية المفروضة في تحقيق ما بشرت به يعزا لأسباب منها ما يتصل بمضمونها الذي يتسم بعدم الواقعية باعتباره برنامجا أعد من فوق ودون إشراك حقيقي للمعنيين المباشرين، ومنها ما هو متعلق بغياب الإرادة لتفعيلها، والذي يجد تجليه الأوضح في عدم تخصيص أية موارد للمؤسسات من أجل تنفيذها. وهذا ما جعل الأساتذة والتلاميذ وحتى الإداريين ينظرون إليها باعتبارها مشروعا غايته تحصيل دعم المؤسسات الدولية المعنية، وديكورا للتجميل مثل غيره من المشروعات التي لم يروا لها أثرا على أرض الواقع.

ومن أبرز الإجراءات السياسة التعليمية التي أدت بشكل مباشر إلى استفحال ظاهرة العنف المدرسي نذكر:

أ- **الخريطة المدرسية**

إن ما يصطلح على تسميته بالخريطة المدرسية هي من الأسباب المحددة لظاهرة العنف المدرسي وتخلف المنظومة التربوية، فالتلاميذ العراة من الكفايات المطلوبة والفاقدين لأهلية المستوى الذي يدرسون فيه، يجنحون بمجرد إدراكهم بعد دقائق أن الدرس يفوق قدرتهم الاستيعابية[1] وأن أترابهم انخرطوا في بناء التعلمات، إلى البحث عن قفشات يبرزون فيها دواتهم كرد فعل سلوكي لتسكين الإحساس بكيانهم المقهورة بسياط الجهل، فيعمدون إلى الظهور بمظهر التلاميذ الحذاق[2]، فيبدؤون بسلوكيات استفزازية[3] لعرقلة سير الدرس[4] وإذا توسموا في الأستاذ ضعفا، باشروه بالكلام النابي. فتلاميذ هذه الطينة هم ضحية إدراك يقيني أن فشلهم الدراسي هو نتيجة مؤامرة[5] سياسية حاكتها القوانين التعليمية التي أوصلتهم إلى مستوى فاتهم فيه بناء مستقبلهم من حرفة أو صنعة أو تجارة..، ونتاج فشل السياسات التنموية التي وعدوا بها في كل انتخابات دورية، وأنهم ضحية استغلال ممنهج من طبقة تملك المال والنفوذ والسلطة، فعنفهم ضد الأستاذ في عمقه هو قناة يصرّف فيه المتمدرس حقده وبغضه للنظام القائم باعتبار أن الأستاذ في وعيهم الشقي هو ظل النظام والمتصرف باسمه، وعدوانهم ضده هو غيض من فيض، وشكل من أشكال الانتفاضة على القهر والاستبداد والعسف الاجتماعي.

وقد تضافر ذلك مع الاكتظاظ المهول الذي زاد من حدة ظاهرة العنف، وقلص من قدرة الأستاذ على مواكبة التعلمات، والوقوف على الاختلالات النفسية التي يعاني منها التلاميذ ذوو النزعة العدوانية، إذ تعدت الحجرة في كثير من الأحيان 50 تلميذا أو أكثر في أقسام طاقتها الاستيعابية لا تتعدى 25 تلميذا، وأقسام ضمت أكثر من مستوى في حجرة واحدة، وقد فاقم ذلك وزاد من حدته الإخفاق الذريع في إتمام مشاريع إحداث

---

[1] - ليفون ميلكان وآخرون، **بعض مظاهر السلوك العدواني لدى طلبة المرحلة الإعدادية والثانوية**، المجلد الثاني الجزء الثاني، جامعة قطر مركز البحوث التربوية، قطر 1984، ص. 404

[2] - عبد الله الرشدان وآخرون، المخل إلى التربية والتعليم، دار الشروق، عمان، ص. 210.

[3] -André Doudin. P, Miriam ekohen –Markus: **Violence à l'école , fatalité ou défi** , édition, de book, 2000, p. 137.

[4] - زين العابدين درويش ، **علم النفس التربوي**، 1992، ص. 331.

[5] - معتز سيد عبد الله، **الاتجاهات العصبية**، سلسلة علام المعرفة رقم 137، 1989، ص. 132.

المؤسسات التعليمية جديدة بالأسلاك الثلاثة التي كان من شأوها تخفيف وطأة الاكتظاظ وتوفير الوسائل التعلمية التي ما انفك غيابها أو تقادمها يعكر صفو الظروف التعليمية والتربوية الصحية، وينزع الجودة عن العملية التعلمية ويسقطها في الارتجالية والاعتباطية، فالنقص الحاد في الإمكانيات والوسائط الديداتيكية والتربوية، وغياب المكتبات التثقيفية وقاعات للتنشيط التربوي[1] وإدماج الانشطة الموازية في التعلمات التي تنفس عن المتعلم وتفجر مواهبه وقدراته وتصرف مكبوتاته في إبداعات تربوية[2] كلها قرائن تنذر بفشل المنظومة التعليمية، فالمدرسية حينما تكون فاقدة للدعامات التربوية الضرورية وطاقم تربوي عاري من الأهلية، ومؤسسة بمناهج لا تستجيب لطموحات المتعلم يكون بالضرورة منبثا للعنف والانحرافات السلوكية.[3] وفي هذا الشأن تأسف وزير التربية الوطنية السابق محمد الوفا في أول وثيقة رسمية تقيّم البرنامج الاستعجالي، خلال اجتماع للجنة التعليم والثقافة والاتصال بمجلس النواب في شتنبر 2013، عن النقائص التي أفضت إلى فشل البرنامج الإصلاحي، المجملة على حد تعبيره في الإخلال بالمقاربة التشاركية في تنفيذ المشاريع، وإسقاط المقاربة التعاقدية، وغياب تام للافتحاص الواجب للصفقات التي تفوق كلفتها 5 ملايين درهم، علاوة على غياب تام لتقارير انتهاء تنفيذ الصفقات التي تفوق كلفتها مليون درهم، وأشار الوزير أيضا إلى أن عددا من الأكاديميات لم تنجز سوى 5 % من المدارس المزمع تشيدها، كما أن 31.4 % من الثانويات بلغت فيها نسبة الاكتظاظ فوق 40 تلميذا، وهي نسب مقلقة على حد تعبيره. أما عن نسب الاكتظاظ ما فوق 40 تلميذا بالقسم، فقد سجل التعليم الابتدائي نسبة بلغت 7.9 %، والإعدادي 14.4 %، بينما تجاوزت هذه النسبة 31.4 % بالتعليم الثانوي، هذا وأشارت ذات الأرقام إلى أن الميزانية الإجمالية المرصودة لتنزيل البرنامج لاستعجالي على مستوى الأكاديميات الجهوية برسم الفترة الممتدة بين 2009 و2012، تمثل 85.74% من مجموع الاعتمادات المرصودة لإنجاز هذا البرنامج.[4] بيد أنها لم تأت بشيء يذكر إذ لا زالت دار لقمان على حالها.

---

[1] -سهيلة كاظم الفتلاوي، **كفايات التدريس**، دار الشروق للنشر والتوزيع، د.ت، ص. 17

[2] - محمود أبود، "ثقافتنا التربوية"، **المجلة التربوية**، العدد 01، 1007، غزة، ص. 89

[3] - طه عبد العظيم، **إستراتيجيات إدارة الضغوط التربوية النفسية**، عمان، دار الفكر، 2007، ص. 265.

[4] - جريدة الصباح، الاثنين 30 شتنبير 2013.

وهكذا نلاحظ أن سياسة العتبة المرصودة للإنجاح دون استحقاق، وما وازاها من هشاشة المؤسسات التعليمية واكتظاظ حجراتها وضعف في المواد البشرية وسوء تكوينها وتوزيعها، يظل أس المشكل إذ تظل الخريطة المدرسية منضبطة للتعليمات التي تحرص على الرفع من عدد المتمدرسين على حساب جودة الأداء التربوي، وشروط تحصيل الكفايات المطلوبة، وفي هذا الصدد ما فتئت مجموعة من الصحف الوطنية والمواقع الالكترونية منذ نهاية الموسم الدراسي 2008/2007 ، تستنكر عتبة النجاح التي حدد معدلها في سللك الابتدائي ب3 /10 ، وسلك الإعدادي ب4 أو 20/5 و السنة الثالثة إعدادي والأولى و والثانية ثانوي ب 20/7. بل وصل المعدل بإحدى المجموعات المدرسية الابتدائية بدائرة أكنول نيابة تازة إلى 0,58 /10 فتقليص نسبة التكرار بتوصيات وزارية هو إزماع لا يستند لأي أساس تربوي أو علمي بل يرتكن إلى إملاءات المؤسسات المالية الدولية التي تؤاخذ السياسة التعليمية الرسمية بانخفاض قاعدة المتمدرسين وارتفاع نسبة الأمية، الأمر الذي يؤشر على غياب إرادة وتصور حقيقي للإصلاح . فإذا كان التكرار مؤشرا قويا على الفشل في أي نظام تعليمي، فله أسباب كثيرة: مثل عدم نجاعة منظومة التقييم ، أو كثرة المواد وعدم تناسقها أو غياب فاعلية الأساليب البيداغوجية، أو ضعف أهلية العاملين مدرسين وإداريين وفنيين ، أو أن المعارف لا تستجيب لحاجيات المتعلمين أو..

وفي ظل هذا الواقع الشجي بات المدرس في دوامة المنظومة واستهتارها يجد نفسه و في إطار التعليم الجمعي، أمام 50 وربما 60 تلميذا أو أكثر ، فكيف يواجههم و بأي أسلوب سيتعامل مع خصوصياتهم وفروقهم الفردية ، فكيف سيكون تعليمه في هذه الحالة ؟. إن المدرس في هذه الحالة يتعامل مع كل هؤلاء و يوجه خطابه إليهم في الوقت نفسه و بشكل جماعي كما لو كان أمام تلميذ افتراضي واحد . على أننا نلاحظ أن أفضل المعلمين و أكثرهم التزاما ، يجاهد في أن يتموضع خطابه و نشاطه التعليمي بشكل عام في الوسط ، بحيث يسير بإيقاع وسرعة من يفترض أنهم متوسطون، ولكن هذا الطريقة كثيرا ما تكون على حساب الطرفين أي على حساب الضعاف و المتميزين على حد سواء. مجمل القول، إن اعتماد الخريطة المدرسية التي فرضت على المتعلمات والمتعلمين النزوح إلى المستويات العليا دون تحصيل الكفايات المطلوبة ، وما ترتب عنها من اكتظاظ رافقه خصاص مهول في الأطر والبنيات التحتية، وما واكب من اتساع دائرة

الحرمان والهشاشة، وانعدم مبدأ تكافؤ الفرص و انسداد الأفق وانتشار بطالة حملة الشهادات وسيادة الشعور بالحيف والاستبداد، ظل من بين أهم الأسباب التي أدت إلى انفجار ظاهرة العنف المدرسي.

ب-المذكرات الوزارية الخاصة بمعالجة العنف

في غمرة المنتديات التشاورية التي أطلقها المجلس الأعلى للتعليم، بحثا عن مشروع إصلاح جديد يرتقي بالمنظومة التربوية ويجفف منابع العنف التي تسببت فيه السياسة التعليمية وخياراتها البيداغوجية، أصدارت وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني مذكرة بتاريخ: 17 أكتوبر2014 تحت رقم **14/867**، تدعو إلى إلغاء عقوبات التوقيف الكلي أو الجزئي عن الدراسة التي تتخذها المجالس الانضباطية في إطار التدابير الزجرية في حق التلاميذ الذين تسجل في حقهم مخالفات سلوكية في الصف أو في الوسط المدرسي عموما.

وفي المقابل تقترح المذكرة أن يسمح للتلميذ المخالف بمتابعة حصصه الدراسية، على أن يتم إخضاعه خارج أوقات دراسته ووفقا لعدد من ساعات الخدمة يتم تقديرها تبعا لجسامة الفعل المرتكب، وتقترح المذكرة عقوبات "لايت" بديلة من قبيل:

. تنظيف ساحة ومرافق المؤسسة.

. إنجاز أشغال البستنة.

. القيام بأشغال داخل المكتبة المدرسية كالتنظيف وترتيب الكتب والمراجع.

. المساعدة في الأشغال المرتبطة بتقديم خدمات المطاعم والداخليات المدرسية.

. المساعدة في تحضير الأنشطة الرياضية.

وقد شددت المذكرة في الحفاظ على كرامة التلميذ المعاقب ونبّهت إلى الحرس على ألا يعَرّض لأي تجريح أو تحقير، أو مس بسلامته الجسدية، كما أكدت أن العقوبة يجب أن تتناسب مع نوعه وسنه وقدراته البدنية.

اقتراح سليم، وعقوبات بديلة ناعمة، غير أن الواقع المدرسي والبيئة الاجتماعية العامة تكتنفها مجموعة من الاختلالات، ستُسهم هذه المذكرة في تفاقمها، وسيزداد الوضع التعليمي المتردي أصلا تأزما وتقهقرا، بل ستغدو هذه المذكرة بمثابة رصاصة الرحمة للمنظومة التعليمية، فالوزارة المعنية واعية بواقع المدرسة المغربية التي باتت ملغمة

بمختلف شبكات تجار المخدرات(الهروين، الحشيش، الاقراص المهلوسة) وباعة الخمور، أما في المؤسسات التعليمية الواقعة في الأحياء الشعبية فأغلبها صارت فضاء لبيع المخدرات القوية المفعول والخمور الرخيصة الثمن بالتقسيط، حيث صار الكوب المتوسط الحجم والقرص المهلوس لا يتجاوز الدرهم الواحد، والشاهد على ذلك ما تضج به مواقع التواصل الاجتماعي من صور وأشرطة مسجلة، بعضها يظهر تلاميذ وتلميذات بزهو وهم يعقرون أحد أنواع الأنبذة في عقر قاعة الدرس. فنحن إذن أمام وضع سلوكي من تلميذ فاقد للوعي، وقادر أن يفعل أي شيء يمكن تصوره تحت تأثير المخدرات، فالمعقول من السيد الوزير هو المبادرة إلى تجنيد طاقم من الأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين، كخطوة أولى لاحتواء الوضع، في غضون إتمام المشروع المقترح لحل جدري للحد من الظاهرة، في إطار تصحيح مسار المنظومة التربوية المجتمعية وتأهيلها، والمنطق يقتضي التفكير في اعتماد عقوبات بديلة مقترحة تنسجم والواقع المأسوف، وفي هذا السياق لا بد من طرح سؤال مفاده كيف ستكون الأجواء الصفية في وجود الطرفين المتشاجرين؟ ما النفسية التي سيُقدم بها الدرسُ ؟ وإلى أي حد يضمن هذا الإجراء هيبة المدرس ووقاره داخل الفصل؟ ألا يبعث هذا على المزيد من التجرؤ على المُدرسات والمُدرسين؟ وإذا كانت عقوبات التوقيف المؤقت والحرمان من الدروس وربما التهديد بالطرد النهائي من الدراسة لم يجد نفعا بل في تنام واطِّراد، فكيف ستحد هذه العقوبات المقترحة من المعضلة؟ .وفي إطار الواقعية دائما، ما السبيل لتطبيق العقوبات البديلة خارج أوقات الدراسة؟ هل المقصود هو بعد انتهاء الحصص المسائية، أي بعد الساعة السادسة؟ أم المقصود هو يوم الأحد؟ وسواء هذا أو ذاك، من سيؤطر التلميذ حفاظا على سلامته البدنية؟ وإذا كان المؤطر متوفرا، أين الإطار القانوني الذي ينظم هذه المَهمّة؟ علما أن واقع جداول حصص التلاميذ لا يسمح بذلك، لاسيما المؤسسات التعليمية التي يتوافد عليها التلاميذ من القرى المجاورة عبر وسيلة نقل جماعية، هل سيشُد التلميذ الرحال إلى المؤسسة يوم الأحد للقيام بأشغال البستنة أو التنظيف بعيدا عن مرآى الزملاء حفاظا على كرامته مثلا؟ ثم لماذا سكتت المذكرة عن الإجراءات الواجب اتخاذها في حق الرافضين لهذه العقوبات البديلة؟. هذه الأسئلة كان الغرض منها تبيان مدى العبث الذي تعرفه السياسة التعليمية ومهازلها في تدبير ظاهرة العنف المدرسي، كما يوضح بالملموس فقدانها لأي تصور إجرائي لاحتواء الظاهرة.

إن التشكيك في جدوى اعتماد العقوبات البديلة لا يعني تطرفا أو نزوعا إلى العقاب والتشدد مع ذوي هذه السلوكات الجانحة، وإنما الدافع هو الخوف من الإجهاز على منظومة تعليمية على حافة الإفلاس تهدد المجتمع في استقراره وتماسكه.

ج- المناهج الدراسية

تعتبر المناهج الدراسية مصدرا خصبا من مصادر العنف المعنوي، كيف لا وما يحدث في أغلب الأحيان هو ترجمتها بعد استيرادها ثم فرضها بطريقة تعسفية على التلاميذ، ونتيجة لذلك فان معظم محتويات تلك المناهج لا تلبي احتياجات المتعلمين ولا تلائم طموحاتهم وميولاتهم النفسية.[1]فتعدد الكتب المدرسية مثلا لم يضف أي جديد للمناهج الدراسية ولم يتح مبدأ تكافؤ الفرص، كما أنها لم تحقق ما وظفت من أجله وهو الوقوف على المعطيات الخاصة بكل جهة أو منطقة، ومراعاة خصوصياتها الثقافية والجهوية وأوساطها الاجتماعية (وسط حضري-وسط قروي). فالكتب المقررة في البادية مثلا تحوي موضوعات بعيدة عن عقل المتعلم ولا توائم وسط التلميذ ومستواه الإدراكي، هذا علاوة عن الأخطاء التي تعج بها سواء المنهجية أو اللغوية، بل تجد في كثير من الأحيان وفي جميع المستويات في المقرر الواحد وفي الدرس الواحد وثائق موجودة في البعض وغائبة في البعض الأخر، هذه الحقيقة تحيلنا إلى فهم مدى قدرة اللوبي المالي في المغرب إخضاع حتى الأدوات التعليمية ووسائطها إلى هدف ربحي، بمباركة السلطة الوصية على القطاع.

فكيف لمناهج دراسية موجودة على هذه الحالة ألا تشعر التلميذ بالضجر وتحسه بالنقص والعجز في مسايرة التعلمات، والفشل في التكيف ضمن الوسط التعليمي؟ وكيف لا تدفع التلميذ إلى العنف بكل أشكاله؟[2] إذ بإخضاعها إلى المنطق التجاري تعمل بشكل بديهي في تخلف التلميذ من الناحية الدراسية، وتغني إحساسه بالفشل المتواصل والإحباط الذي يفقده الباعث المشجع لاستمرار تعلمه، ويؤدي الإرغام على تعلم بعض المواد التي لا يرغب المتعلم في تعلمها أحيانا إلى كراهية المدرس والعملية التعلمية برمتها، الأمر الذي يكرس لديه غياب التوافق مع المدرسة أو استحالة انسجامه

[1] -عبد القادر يوسف، **أزمة التربية في الوطن العربي**، مجلة التربية، العدد 34، 1985، ص. 174.

[2] - نفسه، ص. 174.

مع شروطها ومتطلباتها، فيتبلور هذا الشعور غالبا في صورة تمرد ضد السلطة المدرسية بكل مكوناتها، وتزداد حدة الفعل كلما كان التلميذ فاقدا للثقة في إمكاناته أو غير متحلي بروح المبادرة، نتيجة وصم نفسه بوصمة الدونية واقتناعه أن لا رجاء منه[1]، ، فيعمد إلى اتخاذ بعض البدائل الشخصية الدفاعية لتخدير الشعور بهذه الوصمة عن طريق تحديه لأنظمة المدرسة ورفض الانصياع لتعاليمها. ومن جهة أخرى يؤدي عقم المناهج الدراسية من حيث محتواها إلى قناعة التلميذ بتفاهتها وعدم فائدتها ،[2]فحين لا يجد لها معنى مقبولا لديه، ولا واصل يربطها برغباته وحاجياته وطموحاته، لا يقبل عليها ولا يجهد نفسه أو عقله لاستيعابها.[3]

د- طرق وأساليب التقويم

ما انفك الفاعلون التربويون والمختصون ينتقدون مناهج التقويم التعليمي وطابعه الاختباري بالمغرب باعتباره أسلوب مفلس وغير مجدي، فأساس العلة في خيارنا التعليمي هو إيلاء الامتحانات أهمية كبيرة، بحيث ينظر الجميع إلى الامتحان كغاية في حد ذاته و ليس كوسيلة للكشف و التشخيص و التقييم ... ففي نظام التقويم المعتمد ، نجد سيادة أسلوب الاختبارات الذي يعتمد الطريقة الكتابية أو الشفهية، لتحديد قدرة التلميذ على الحفظ والاستظهار و"عند الامتحان يعز المرء أو يهان ." والمعضلة في الأسلوب المتبع أنه لا يبحث عن مكامن الخلل التي تشوب العملية التعليمية لتصحيح مسارها وتحيين قنواتها. بل تسيطر على المنهجية التعليمية وتشكل فيها العنصر الأساس في أسلوب التحفيز و إثارة همة التلميذ و دفعه للتحصيل و الجد في ضبط التلقينات، فيفضي ذلك إلى سلوكيات عنيفة وعدوانية تفجرها مشاعر الفشل و الإحباط و الاحتقان النفسي[4] الذي تسهم في تعاظمه الأجواء المشحونة الذي تمر فيه الامتحانات و التي تؤدي إلى تعثر أعداد غفيرة من التلاميذ ، بحيث لا يكشف الامتحان في نهاية المطاف عن مستوى تحصيلهم الحقيقي ، ذلك المستوى الذي كان سيكون

---

[1]- Lewis Cosser, **Les fonctions du Conflit sociale**, Paris, Ed. p-u-f. Paris, 1982, p. 10.

[2] -Aicha Belarbi, **Attitude des lycéens et lycéennes envers la famille, la religion el l'Ecole**, in jeunesse et changement sociale, Université de Tunis, C-E-R-E-S, 1984, P.65

[3] - عدنان دوري، **جنات الأحداث**، منشورات ذات السلاسل، 1985، ص. 273.

[4] - أحمد أوزي، **سيكولوجية المراهق: دراسة ميدانية للاتجاهات النفسية والتربوية**، الرباط، 1986، ص. 202.

مغايرا بكل تأكيد ، لو كانوا في وضعية مريحة نفسيا. وهكذا يتبين أن من بين أهم العوامل التي لها دور محدد في تفشي ظاهرة العنف المدرسي في المدارس المغربية، نمطية الروائز وطبيعتها التي تجنح إلى قياس مدى التحصيل المعرفي للتلميذ عن طريق استخدام الأسئلة المباشرة التي تستفز الذاكرة وتقيس مدى قوة أو حدود قدرتها على استرجاع ما تم تعبئته وحفظه، دون اختبار غيرها من القدرات الذهنية العديدة كالقدرة على التحليل والتركيب والموازنة والنقد...، وهو المنهج المعتمد في غالب الأحيان في تقرير مصير التلميذ الدراسي. وعليه فإن الاعتماد على الامتحان فقط كأسلوب للتقويم يدفع التلميذ إلى استعمال كل الوسائل المتاحة لمدافعة الرسوب،[1] هذا الوضع يجعله مستعدا -في اضطراب نفسي من فوبيا الامتحان- [2]لممارسة العنف مع كل من يمكن أن يحول بينه وبين فعل الغش[3]، فأمام ماضوية الامتحانات التي تجاوزها التلميذ بولوجه إلى عالم الرقميات والمعلوميات وإلمامه بمعارفها، بات يرى في أساليب التقويم مدعاة للسخرية والاستهجان، باعتبارها لا تواكب المستجدات التي يطل عليها عبر عالمه الرقمي، ولا ترضي ميوله وطموحه ومواهبه وتطلعاته، ولا تؤثر في وجدانه وإيقاعه النفسي ولا تتماشى مع تصوراته وقيمه الجديدة،[4] فالاقتصار على الروائز والامتحانات بالصورة التي عليها الآن يجعل من عملية التقويم ناقصة ومثبطة وغير محفزة على التفاعل وفق ما هو مفترض بيداغوجيا لأنه لا يراع في صياغتها تحقيق جملة الأغراض التربوية المنتظرة منها،[5] وعليه ينبغي ألا تنفرد الامتحانات بصورتها الرتيبة كوسيلة وحيدة للتقويم، بل يجدر أن تشفع بأدوات تقويمية مستجدة تساير تحولات التلميذ، وقنوات

---

[1] -Journal Libération, 9 Juillet, 1992, p. 3

[2] - أحمد محمد الزعبي، **علم نفس النمو، الطفولة والمراهقة الأسس والمشكلات و سبل معالجتها**، دار زهران للنشر والتوزيع، الأردن، 2001، ص. 456.

[3] - جريدة العلم، **وسائل الغش في الامتحانات**، عدد 9 مارس 1995، ص. 3

[4] -El Mostafa Haddiya, « **Processus de la socialisation en milieu urbain au Maroc** », publication de la faculté des lettres et des sciences Humaines, Rabat,1991, PP. 39-40.

[5] - عمر عبد الرحيم نصر الله، **تدني مستوى التحصيل والانجاز أسبابه وعلاجه**، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، الاردن، 2004، ص. 490.

الإدراك وميله المعرفي[1]، لأن طبيعة العملية التربوية وعمل التلميذ أوسع مما يمكن أن تقيسه تلك الامتحانات، المفضية إلى تواب بالنجاح أو عقاب بالرسوب.[2]

وفي هذا الصدد أعرب الباحث عبد الصمد بلكبير أن الخلل الذي يشوب نظام التقويم يرتبط بأعطاب ناتجة عن النظام التربوي كنتيجة للمقررات والبرامج والمناهج وطرق التدريس والعلاقة بالمكتبة والإدارة التربوية وعلاقة المدرس بالمجتمع، بالتالي فإن فساد نظام التقويم ينبع من فساد النظام التربوي الذي ينتج هو الآخر عن فساد الجانب الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي والسياسي، وأضاف أن الأجدى هو توجيه التلاميذ لكي يبدعوا ويبتكروا لا لكي يحفظوا ويرددوا، لذلك فظاهرة الغش هي منتوج لآلية فاسدة هي آلية الحفظ. [3]

هـ -ضعف التكوين البيداغوجي للمدرس

يعتبر فشل المدرس في خلق أجواء صحية لإنجاح العملية التعليمية و تدبير المشاكل واحتوائها داخل الفصل الدراسي، انعكاسا لضعف الشبكة التربوية المشرفة على انتقاء المدرسين وهشاشة سياسة التكوين، فالطاقم المكلف باجتياب وتكوين الأساتذة المؤهلين لممارسة مهنة التعليم يفترض فيه أن يملّك الأساتذة المتمتعين سلفا بقوة الشخصية والاتزان النفسي والذكاء الاجتماعي والتواصلي...، بالوسائل والأدوات المنهجية والنظرية والتطبيقية التي تجعلهم ماهرين في فن التواصل والتفاعل وكسب ثقة متمدرسين يعانون من أوضاع اجتماعية ونفسية مزرية،[4] أغلبهم مدمنين على أشكال من المخدرات والمشروبات الكحولية، بل بعضهم ضبط في عصابات إجرامية، فاجتياب أساتذة موهوبين يصلحون للتدرسين في هذا الواقع، يتطلب تربصا من نوع خاصة وعلى مستوى رفيع من التكوين، وهذا ما يجعلنا نجزم أن السياسة المنتهجة في اختيار الأساتذة وفحوى منهاج التكوين المبرمج في مراكز التكوين تعتريه الارتجالية والسطحية وتغيب عنه الجدية والرغبة في التغلب على المشاكل التي تعرقل جودة العملية التعليمية، فظاهرة

---

[1] - لويس كامل مليكة، **سيكولوجية الجماعات والقيادة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثاني، 1989، ص. 183 .

[2] - أمينة هاشم سراج، **التسرب المدرسي بين تلاميذ المدارس**، ندوة الثقافة والعلوم، دبي، 2003، ص. 42

[3] -http://www.oujdacity.net/international-article-12427-ar/

[4] - عبد العزيز غانم، "**أخلاقيات مهنة التعليم: معايير لضبط سلوكيات المعلمين**"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 62، أبريل 1990، ص. 88.

العنف المدرسي التي ابتليت به مؤسساتنا زادت في تغذيته مراكز تكوينية بمناهج متقادمة وخريجين بتمثلات متجاوزة في التعامل مع المتعلم، ومقومات بالية لمجابهة هذا الواقع، وما زاد الوضع سوءا، حرمان المدرس من دورات تكوينية دورية يحيّن فيها مداركه البيداغوجية وخططه وأساليبه الديداكتيكية، ويطور فيها ممارسته المهنية ويذاكر المشاكل والعراقيل التي تحول دون حوكمة الممارسة التربوية، الأمر الذي أفضى إلى جهل المدرس بالمستجدات [1]والحقائق المتعلقة بالمتعلم وتأثير المحيط والوضع السوسيو اقتصادي والتحولات العالمية[2] على شخصيته ونموه ومزاجه النفسي[3]، وأثر على كفاءته في توظيف ردود الفعل المواتية لمعالجة المواقف الطارئة [4]مع مختلف أطيان التلاميذ بانتماءاتها الاجتماعية ومعضلاتهم النفسية، بما يجفف بواعث العنف قبل نضوج مسبباته[5]، فتخلي الوزارة الوصية عن نية تعميم أوراش في مجموع الأكاديميات لمتابعة المدرس في العطل المدرسية جديد الوسائل التعليمية والتقنيات التي تراع المرحلة العمرية والبيئة الاجتماعية ومستوى الاستيعاب، وما يوازيها من دراسات في علم النفس التربوي والاجتماعي وسيكولوجية النمو وأصول التربية وفلسفتها زاد من افتقار المدرس للاستراتيجيات البيداغوجية المواكبة للمتغيرات[6]، فأفقد ذلك بناء التعلمات بما يشقي رغبة المتعلمين ويمتع العملية التعليمية ويشرك المتعلم في إنجاحها والإقبال على إثرائها في جو ملؤه المودة والاحترام.[7]وقد وازى ذلك إقدام الحكومات المغربية منذ 1998 إلى حدود حكومة عباس الفاسي، تعيين مدرسين في مختلف ربوع المغرب دون تكوين مسبق، لازمه إشراف تربوي من قبل مفتشين أغلبهم لا يقدم جديدا في المجال التربوي أو الديداكتيكي، بل يكتفون بتقديم ملاحظات في مساحة تقيس حدود الالتزام

---

[1] - محمد منير مرسي، **أصول التربية**، عالم الكتب، دون تاريخ، ص. 237.

[2] - حسن منسي، **إدارة الصفوف**، دار الكندي للنشر والتوزيع، الاردن، 2000، ص. 81.

[3] - مصباح عامر، **التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية**، شركة دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص. 247.

[4] - موقف عبد العزيز الحسناوي، **دراسة مقارنة لمعرفة تطور اتجاهات مدرسي الفيزياء نحو استخدام الحاسوب والأنترنت في التدريس، وأثرهما في تحصيل طلبتهم** مجلة العلوم الإنسانية، العدد44 ، 2010، ص. 08

[5] Virgin. Benin, **La relation pédagogique du rapport au savoir.** 2004, p. 02

[6] - صفاء عبد العزيز وآخرون، **إدارة الفصل وتنمية المعلم**، دار الجامعة الجديدة، مصر، 2007، ص. 104.

[7]- محمد عودة، **إعداد معلم المدرسة الأساسية**، دار الكتب الجامعي، الامارات العربية المتحدة، 2006، ص. 182.

بالبيداغوجية المتبناة من قبل السياسة التعليمية (بيداغوجية الكفايات) دون اقتراح حلول إجرائية من شأنها تطوير أداء المدرس في ظل غياب الوسائل الديداكتيكية المساعدة والظروف التعليمية وسيادة خريطة المدرسية تفرض انتقال تلاميذ دون مستوى النجاح.

قصارى القول، إن السعي للحد من العنف المدرسي، يتطلب قرارات مؤسسية ذات صلة بالتوجهات العامة في مجال التربية، وهي في الغالب قرارات تمس السياسة التربوية في أبعادها الفلسفية، هذه السياسة التي لا تريد التنبه، متغاضية بوعي عن ضلوعها في تجدير ظاهرة العنف المدرسي واستحكامها في البيئة المدرسية، عبر ممارستها لمختلف أشكال العنف الرمزي على المتعلمين، وذلك من خلال:

– عنف المنهاج الدراسي الذي يتجاوز في كثير من أوجهه طاقة المدرس والتلميذ، ويسقط– من اعتباره فوارق الجهات والمؤسسات والأفراد . عنف نظام الامتحان الذي لم تستطع مختلف التجديدات التربوية أن تنزع شبحيته .

– عنف ذو صلة بتدبير الزمن المدرسي وزمن التعلمات ، بحيث لا مجال فيه للخصوصيات الجهوية والإقليمية ولا لخصوصيات المتعلمين، وإنما تتحكم فيه إكراهات ذات صلة بالعنصر البشري والتجهيزات ومتطلبات العمل، مما يولد لدى المدرس والتلميذ معا غضبا وإحباطا حين يعجزان عن تنفيذه.

– عنف مرتبط بتدبير الإمكانيات المادية والبشرية (ظاهرة الاكتظاظ ، والأقسام متعددة المستويات ، وأقسام ذوي الحاجات الخاصة) حيث تطرح نوعا من الإرغامات التي لا يملك المدرس والتلميذ معا إلا الانصياع لها...

خلاصات واستنتاجات

حاولنا في هذا البحث مقاربة ظاهرة الاعتداء في المجال المدرسي المغربي، وذلك من خلال فهم هذا السلوك انطلاقا من عوامل ومحددات مباشرة وأخرى غير مباشرة، لا يحسن تفسيرها إلا بالرجوع إلى سياسات الدولة ومشروعاتها الإصلاحية وما خلفته من أوضاع اقتصادية واجتماعية هشة، نتيجة إخفاقها في إيجاد الصيغة المناسبة التي يمكن عبرها ردم الهوة السحيقة بين طبقات المجتمع والتوزيع العادل للثروة وصيانة منظومة القيم، وكل ما من شأوه المحافظة على التسامح والسلم والاجتماعيين، وهذا ما جعلنا ننطلق من فرضية مفادها أن السلوك المنحرف للتلميذ هو مظهر من مظاهر القصور في التكيف الاجتماعي/التربوي الذي يعاني منه المتعلمون، وتعبير من تعبيرات السخط والتمرد والامتعاض بوسائلهم الخاصة، فتفريغ طاقاتهم العدوانية على هذه الشاكلة هو نوع من الثورة على الواقع المعيش بالطريقة "الهوليودية" أو "بليودية"، والذي يمكن أن يصل إلى مستويات خطيرة حين يحاول قمع تعبيرهم عن دواتهم أو إبداء سلوك يرمي إلى احتقارهم أو استصغارهم ، فضعف التكوين البيداغوجي للكثير من المدرسين يكون في كثير من الأحيان سببا في تفاقم الظاهرة جراء جهلهم بوسائل التواصل الحديثة في التعامل مع سيكولوجية تلميذ مراهق يعيش في وسط اجتماعي يختزن كل الأمراض النفسية وكل مظاهر القهر والانحلال الاخلاقي، فالعدوان الملاحظ داخل الفضاء المدرسي هو نوع من العدوان الوسيلي الذي ينشد بفعله اجتياز الامتحانات بنجاح بوسائل منحرفة من قبيل الغش والاعتداء على الأساتذة الذين يعرقلون هذه الغاية، وهذا ما يدل أن حالة التوتر التي يعيشها المجال المدرسي لا تعدو أن تكون صورة نشاز للخلل العام والأزمات المختلفة التي يئن تحت وطئتها المجتمع، ومشهد من مشاهد فشل السياسات الدولة في النهوض بالإصلاحات التنموية، وهذا يدفعنا إلى الجزم أن العنف المدرسي هو تعبير عن مضامين اجتماعية ورمزية وقيمية وثقافية ناجمة عن تغيرات بنيوية عميقة وإخفاقات سياسية متراكمة أفضت إلى إنتاج نسق قيمي نفعي براغماتي متنكر، يقوم على ميكانزمات التبرير الأخلاقي الانتهازي، والاستسلام للضغوط الاجتماعية التي تبني مجتمعا فردانيا سلبيا وأنانيا، همه مصلحته الضيقة والبحث عن الربح السريع بكل الوسائل الممكنة دون اعتبار الآخر، أي مجتمع يتفاعل مع محيطه بعقلية جلاديه.

المراجع بالعربية

-إسماعيل الأسدي، **العنف أسبابه وأنواعه وأدواره وسبل المعالجة**، مركز البحوث التربوية والنفسية، العدد الحادي عشر، 2003.

- أحمد أوزي، **سيكولوجية المراهق: دراسة ميدانية للاتجاهات النفسية والتربوية**، الرباط، 1986.

-أحمد محمد الزعبي، **علم نفس النمو، الطفولة والمراهقة الأسس والمشكلات و سبل معالجتها**، دار زهران للنشر والتوزيع، الأردن، 2001.

-أمينة هاشم سراج، **التسرب المدرسي بين تلاميذ المدارس**، ندوة الثقافة والعلوم، دبي، 2003.

-باسم سرحان، **دور الإدراك في تحديد المشكلات المجتمعية**، دراسة ميدانية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد 1، 1989، المجلد السابع عشر.

- أسامة مزيان، **انعكاسات أفلام العنف على سلوكيات الأحداث والمراهقين في أوساط مؤسسات التنشئة الاجتماعية**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في علم الاجتماع التربوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، السنة الدراسية 2006-2007.

تبداني خديجة وآخرون ، **الأسرة والمدرسة، سوء التكيف المدرسي بين الإشكالية والواقع**، وهران، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع،2004 .

-بوتمور، **تمهيد في علم الاجتماع**، ترجمة محمد جوهرة وآخرون، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1996

- بوتمور، **الطبقات في المجتمع الحديث**، ترجمة محمد الجوهري وآخرون،دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1984.

-جريدة الصباح، الاثنين 30 شتنبير 2013.

- جريدة العلم، **وسائل الغش في الامتحانات**، عدد 9 مارس 1995.

-حسن منسي، **إدارة الصفوف**، دار الكندي للنشر والتوزيع، الاردن، 2000.

-حليم بركات، **المجتمع العربي المعاصر**،مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 3، بيروت، 1988.

-حسنين توفيق إبراهيم، **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، 1992.

-زين العابدين درويش ، **علم النفس التربوي**، 1992.
-طه عبد العظيم، **إستراتيجيات إدارة الضغوط التربوية النفسية**، عمان، دار الفكر، 2007.
-ليفون ميلكان وآخرون، **بعض مظاهر السلوك العدواني لدى طلبة المرحلة الإعدادية والثانوية**، المجلد الثاني الجزء الثاني، جامعة قطر مركز البحوث التربوية، قطر 1984
-لويس كامل مليكة، **سيكولوجية الجماعات والقيادة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثاني، 1989.
-معتز سيد عبد الله، **الاتجاهات العصبية**، سلسلة علام المعرفة رقم 137، 1989.
- محمد جسوس، **أطروحات حول مشاكل التعليم، جريدة الاتحاد الاشتراكي**، 12 دجنبر 1989.
- مصطفى عمر التير، **المشكلات الاجتماعية تحديد إطار عام**، مجلة فكر العربي العربي، العدد 19، 1981.
- مامنية سامية، **بنية النظام التربوي الجزائري المعاصر وعلاقته بانحراف التلميذ**، العدد 08، 2014.
- محمد خضر بن عبد المختار، **الاغتراب والتطرف نحو العنف**، دار غريب للنشر والطباعة، الجزائر، 1999.
محمد الباهي السيد ، **علم النفس الاجتماعي** ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية، 1980
- محمود أبود، "ثقافتنا التربوية"، **المجلة التربوية**، العدد 01، 1007، غزة.
- مصباح عامر، **التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية**، شركة دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003
-موقف عبد العزيز الحسناوي، **دراسة مقارنة لمعرفة تطور اتجاهات مدرسي الفيزياء نحو استخدام الحاسوب والأنترنت في التدريس، وأثرهما في تحصيل طلبتهم** مجلة العلوم الإنسانية، العدد44 ، 2010.
- سهيل كامل، **السلوك الانساني بين الحب والعدوان**، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد، 27، 1989.
-سهيلة كاظم الفتلاوي، **كفايات التدريس**، دار الشروق للنشر والتوزيع، د.ت.

علي إسماعيل مجاهد، **التنبؤ العلمي كأساس للتخطيط الأمني**، دار الإسراء، القاهرة، 1995.

-عبد المولى السهلي، **عنف الصورة في البرامج الإعلامية والسينما**، بحث التخرج من مركز التربية والتكوين الجهوي فاس، السنة الدراسية 2013-2014.

-عبد القادر يوسف، **أزمة التربية في الوطن العربي**، مجلة التربية، العدد 34، 1985.

- عدنان دوري، **جنات الأحداث**، منشورات ذات السلاسل، 1985.

-عمر عبد الرحيم نصر الله، **تدني مستوى التحصيل والانجاز أسبابه وعلاجه**، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، الاردن، 2004.

-علي أسعد وطفة، **من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي**، مجلة شؤون اجتماعية، العدد 104، 2009.

- عبد الله الرشدان وآخرون، المدخل إلى التربية والتعليم، دار الشروق، عمان.

-عبد العزيز غانم، "**أخلاقيات مهنة التعليم: معايير لضبط سلوكيات المعلمين**"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 62، أبريل 1990، ص. 88.[1] - محمد منير مرسي، **أصول التربية**، عالم الكتب، دون تاريخ.

- صفاء عبد العزيز وآخرون، **إدارة الفصل وتنمية المعلم**، دار الجامعة الجديدة، مصر، 2007.

- صالح عبد الله جاسم، **ظاهرة إتلاف المرافق المدرسية ومدى انتشارها وأسبابها**، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 60، 1989.

- ضياء زاهر، **القيم في العملية التربوية**، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1996 .

- خديجة الماحي وآخرون، **سيكولوجية المجرّم**، بحث لنيل شهادة الماستر في علوم التربية، كلية التربية الرباط، السنة الدراسية 2012-2013.

- غريب السيد أحمد وآخرون، **علم اجتماع الأسرة**، دار المعرفة، القاهرة، 2001.

المراجع بالفرنسية

-Ali Mortada, **Cinéma et Société marocaine**, Projet de fin d'études, Master en didactique, Faculté des lettres et sciences humaines, Université de Sidi Mohammed ben abd Allah, 2013-2014.

-Aicha Belarbi, **Attitude des lycéens et lycéennes envers la famille, la religion el l'Ecole**, in jeunesse et changement sociale, Université de Tunis, C-E-R-E-S, 1984.

-André Doudin. P, Miriam ekohen –Markus: **Violence à l'école , fatalité ou défi** , édition, de book, 2000.

-Beaulieu, **la violence à l'école secondaire, mémoire de maitrise**, faculté des sciences de l'éducation, université de Laval. 2005.

John Edwards' **'Bumper Sticker' Complaint Not So Off the Mark**, New Memo Shows.

- Shidler. L, **Teacher sanctioned violence**. Childhood education, ACEI, Spring , 2001.

- Alain Bauer, **Mission sur les violences en milieu scolaire, les sanctions et la phase de la famille, rapport remis aux ministres de l'éducation national**, Paris. 2010.

-Dupaquier. J, **la violence eu milieu scolaire**, Paris Pressé universitaire de France Mai 1999.

Lewis Cosser, **Les fonctions du Conflit sociale**, Paris, Ed. p-u-f. Paris, 1982.

-El Mostafa Haddiya, « **Processus de la socialisation en milieu urbain au Maroc** », publication de la faculté des lettres et des sciences Humaines, Rabat, 1991.

-Virgin. Benin, **La relation pédagogique du rapport au savoir.** 2004.

Journal Libération, 9 Juillet, 1992, p. 3

http://www.oujdacity.net/international-article-12427-ar/

تغيير المسئول لكيفيّة تسيير سابقه ظاهرة صحّية أم مرضية ؟

د. عبد النور أرزقـي جامعـة البويرة

الملخص:

كثيرا ما يعمد المسئول الجديد إلى تغيير طريقة وكيفيّة التسيير التي ألفها الموظفون، أحيانا دون رسم أي هدف، بل يسعى إلى إحداث التغيير من أجل التغيير ليس إلا. وإذا أدرك البعض لاسيما الواعون بأنّ الهدف هو إحداث الوثبة البسيكولوجية أو تغيير الطريقة بأخرى أكثر نجاعة وتناسبا، فإنّ الأغلبية لا تراه سوى من باب إحداث القطيعة ومسح ما سبق ومن سبق. يصبح الأمر خطيرا إذا انطبق ذلك على المسئول ذاته.

RESUME :

Le changement au niveau des postes de responsabilité et de gestion est un acte normal et, dans tous les cas la continuité doit être l'objectif principal . Nous remarquant que la majorité des responsables - notamment dans les pays du tière monde - optent pour le changement de méthodes et de manières de gérer dans l'intention d 'effacer le précédent . Un phénomène qui bloque le développement et casse le rythme d'avancement .

ABSTRACT :

All organizations in the world change the bosses and responsibles, but some of them when they arrive try to change the method of management, and the aim is not to improve the situation but to rub out the image of the previous.

.

مقدمة:

إذا كان من غير الممكن تصوّر مؤسسة دون مسئول أو مسئولين فإنّ تغيّر المسئول من حين لأخر أو استبداله ضرورة تنظيمية، تستدعيها ظروف طارئة أحيّانا، أو حاجة ملحة للتغيير كفشل المسئول في تحقيق بعض الأهداف، أو تأدية أسلوبه لحالة احتقان أو عدم مسايرة بقيّة الأطراف لوتيرة تسييره أحيانا أخرى. والأكيد أنّ للمسئول دور كبير في إنجاح واستم²رار المؤسسة، يلعب الدور المحوري من حيث الإشراف، التسيير وخلق روح المبادرة والتعاون والتآزر بين العمال. وإذا كانت المؤسسات، إنتاجية، خدماتية أو تجارية، تقوم على أسس أو دعائم أربع ضرورية: تنظيمية، قانونية ، مالية ، وبشرية فإنّ هذه الأخيرة هي الهامة بل الأساسية، دونها لن تحقق الأهداف الأخرى، ولن تقوم للمؤسسة أيّة قائمة، لأنّه مهما كان التنظيم سليما ومهما كانت القوانين صارمة ومهما كانت الأموال متوفرة فإنّ الطاقة البشرية هي الضامن الوحيد للدينامكية والاستمرارية. وإذا كان الأمر كذلك فإنّ للرؤساء والمشرفين دورا كبيرا ومحوريا في ذلك. والأمر الهام في حيّاة المؤسسات هو تحقيق الاستمرارية في العمل، الاستقرار، التماسك وبالتّالي تحقيق الأهداف، لأنّ الغاية هي بقاء المؤسسة فأيا كانت وتيرة الإنجاز وأيا كان مستوى الأداء والإنتاج لن يجعلا للمنظمة شأنا ما لم يرافقا بالاستمرارية، فقيمة المنظمة في بقائها واستمرارية تحقيق أهدافها، فكم من منظمة انطلقت بوتيرة فائقة وحققت نتائجا باهرة ومذهلة لكن ما فتئت ان انطفأت وأقفلت، وكم هي أيضا من انطلقت ببطئ لكن استمرت. وعلى ذلك لا ينبغي أن يمثل تغيير الأفراد لاسيما المسئولين انقطاعا لهذه السمة، بل أحيّانا التغيير يدخل ضمن إستراتيجية البقاء سيما في عالم تميّزه المنافسة الشرسة، إضافة إلى طبيعة الحيّاة بشكل عام والحيّاة المهنية بشكل خاص: أفراد يلتحقون وآخرون يمرون ويغادرون.

في ظل هذا الواقع تتساءل، أو تجد المؤسسة نفسها في وضعية محيّرة:

هل لابّد من تغيير المسئول الجديد لنمط تسيير سابقه؟

هل هذا التغيير حتمية تنظيمية أم نزعة إنسانية؟

وهل بمحو كلّ أثار المسئول السابق يصنع الجديد لنفسه مكانة مرموقة؟

هل هذا السلوك مرتبط بشخصيّة المسئول أم هي حالة عامة؟

... وهل هي ظاهرة صحّية أم مرضية؟

التغيير: Le changement

يتغيّر العالم باستمرار في جميع المجالات، والمؤسسات كوحدة ضمنه تتغيّر بدورها بل مفروض عليها أن تتغيّر لكي تستمر وتبقى، مسايرة لكلّ التحولات والمستجدات. إنّ التغيير حقيقة إنسانية واجتماعية، لا يمكن إغفالها أو تجاهلها عند دراسة المجتمع ومختلف قضاياه. بقيت مسالة التغيّر على مستوى المنظمات مغفلة لمدة طويلة، ذلك بتركيز الباحثين على التوازن والتكامل الاجتماعيين، لكن في الفترة الأخيرة تحوّل الاهتمام للتغيّر التنظيمي تبعا لما شهده العمل من تحوّلات وتغيّرات متعددة الجوانب كاستجابة أو امتداد لتغيّر النظام الاقتصادي العالمي.

التغيّر كلمة مشتقة من الفعل غيّر، غاير غيارا ومعناه حوّل وبدّل، غيّر الشيء يعني جعله غير ما كان، كما يعني غاير غيارا ومغايرة، بادله وخالفه أي عارضه. وتغيّر أي تحوّل وتبدّل[1] والتغيّر كفعل هو عمليّة حيّاتية طبيعية، لا يمكن إغفالها أو تجاهلها عند دراسة قضايا المجتمع، فالإنسان لا يستقر على حال في جميع جوانبه: العضوية، النفسيّة والسلوكية. والتغيير حتمية حيّاتية للمجتمعات البشرية، هو سبيل بقائها ونموها ووسيلة تكيّفها مع واقعها وبه يتحقق التوازن والاستقرار. " يتناول التغيّر الاجتماعي كلّ مقوّمات الحياة الاجتماعية والنظم والعلاقات الإنسانية التّي تتفاعل وتترابط وتتكامل في ما بينها في كلّ صورة من صور التغير"[2]. أما التغيير فهو عمليّة إحداث تحوّلا في وضعيّة ما، من المفروض أن يكون نحو الأحسن، لكن لا يجب إصدار حكم تقويمي سوى بوضع معايير أو تحديد أهداف معيّنة لعملية التغيير المرجوة، وهو أيضا ضرورة حيّاتية وتنظيمية، يلجأ إليها كلّما لوحظ جمود أو عدم تحقيق الأهداف المسطرة أو ليس بالوتيرة المرجوة. وغالبا ما يحدث التغيير- كإدخال- وثبة بسيكولوجية لدى الأفراد حتّى وان لم يكن في مستوى التطلّعات أو أحسن من الوضعية السابقة لأنّ النفس البشرية تواقة دوما لإحداث التغيّر لاسيما في حالة تعفن الوضعيّة أو ركودها. أما في المؤسسات فهو خطوة من خطوات التنظيم، ولما كان من أهداف للمنظمات الاستمرار- النسبي- أو الحيّاة النسبية فإنّ عمليّة التفاعل مع المحيط تفرض عليها أو تؤدي بها إلى التغيّر، وضمنه يحدث التغيير أو يمكن الحديث عن التغيير، الذّي هو عمليّة مقصودة

1- المنجد في اللغة والأدب والعلوم، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، بدون تاريخ النشر، ص563.

[2] - محي الدين مختار، محاضرات في علم النفس الاجتماعي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص263.

يسعى من خلالها إلى تحديث أو تجديد يتماشى والظروف الزمنية والمكانية، أيّ مواجهة أو مسايرة التغيّرات المختلفة سيّان السياسيّة، الاجتماعية، الاقتصادية أو التكنولوجية. يحدث التغيّر التنظيمي إما استجابة للتغيّر الاجتماعي أو كخطوة من خطوات التغيير الذّي يتخذه رجال السيّاسة أو السلطات ضمن سيّاسة التسيير أو عقب حدوث اضطرابات أو أزمات اجتماعية أو اقتصادية تستدعي استراتيجيات خاصة لإعادة التوازن، كما يلجأ إليه تصحيحا لطرائق العمل. يقصد به أيضا التعديلات التّي تمس أهداف وسيّاسات الإدارة أو عناصر التنظيم، أو اختلاف حجم التنظيم من وقت لأخر وتباين بنائه عبر الزمن أو استبدال وظائفه مع الوقت.[1]

إلى جانب الأهداف المعلنة والمتمثلة في الربح وزيادة الإنتاج يوجد هدفان آخران وهما:

- تغيير طريقة تكيّف التنظيمات مع المحيط الخارجي.
- تغيير أنماط سلوك العمال.[2]

يتخذ التغيير التنظيمي شكلين، فإما تغيير استجابي بمعنى يحدث كاستجابة لعوامل محيطية تدفع المؤسسات إلى اتخاذ إجراءات وإحداث تغييرات لوقف التدهور وضمان الاستمرار. أو تنبؤي أيّ إحداثه مسبقا منعا لأيّ طارئ غير محمود. فقد تغيّر السلطات مسئولا كاستجابة إما لرفض بقيّة العمال له أو لعدم استحسانهم لطريقته أو بسبب فشله في التسيير أو بكلّ بساطة لعدم توافق طريقته مع وضعيّة المؤسسة وهو دليل على خطأ أو سوء الاختيّار، أو تغييره بعد عمليّة استشراف وتنبؤ والاقتناع بعدم صلاحيته للوضعية المستقبلية. يقتضي التغيير أحيّانا مس بعض الأفراد لاسيما الذّين يشغلون مراكز حساسة في الهيكل التنظيمي وذلك لما يحدثه من وثبة نفسية أولا وما يؤدي به من تغيير طريقة أو أسلوب التسيير ثانيا. فقط ينبغي أن يُقرأ التغيير بهذه الكيفيّة، فلا يعني ذلك - في معظّم الحالات- عدم كفاءة المسئول ولا تزعزع الثقة به إنّما ضرورة تنظيمية. والحيّاة أدوار، فإذا كان دوره اليوم اتخاذ القرارات فغدا تطبيق القرارات وكلاهما هامان في التنظيم، يكمّل بعضهما البعض والأمر الهام أيضا أو القراءة

[1] - يوسف سعدون، علم النفس الاجتماع : دراسة التغير التنظيمي في المؤسسة الصناعية. عنابة ، جامعة باجي مختار،ب ت ن، ص5.

[2] - بوفلجة غياث، مقدمة في علم النفس التنظيمي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص 59.

الحكيمة هي أن تغييره يعني ببساطة عدم توافقه كحامل لنمط تسيير مع الوضعيّة الجديدة، لأنّ النجاح في الحقيقة يأتي بتوافق وتكامل ما هو مطلوب مع ما هو موجود.

التنافس: La concurrence

هو عمليّة تحدث بين طرفين أو فريقين أو أكثر بغيّة تحقيق هدف معيّن أو مكانة معيّنة، وذلك ببذل أقصى مجهود أو سلك سبيل معين. " يتمثل الطابع الأساسي له في محاولة وسعي الفرد للحصول على أفضل موقف داخل الجماعة، أو بعبارة أخرى التفوق على فرد أخر."[1] ، وهو من المظاهر التّي يمكن ملاحظتها في المؤسسة. وعلى ذلك فالقيادة الحكيمة هي التّي تسعى لتسيير هذا التنافس والتحكّم فيه وجعله يخدم المؤسسة. يقابله التعاون الذّي يعني العمل مع فرد أخر أو مساعدته أو حتّى مساندته لتحقيق هدف ما، وهو المنشود، أن يعمل أعضاء الجماعة معا، من أجل تحقيق أهداف عامة ومشتركة. والواقع أنّ الفرد لا يستطيع لوحده تحقيق هدف المؤسسة إنّما بالمشاركة والتعاون مع زملائه العمال. ومن نتائج التنافس ما يعتبر ايجابي كتحسين نوعيّة الإنتاج رغبة من أطرافه تأكيد الكفاءة والجدارة في العمل، ظهور الدافعية في العمل سعيا للحصول على المكافآت، الحماس وحبّ العمل ... والتنافس يحدث في كلّ المستويات المهنية، فحتّى الإطارات تتنافس في ما بينها، ومن صوره التنافس على تبوء مركز الريادة والقيادة، إنّما يجب فقط أن يكون بوسائل مشروعة وايجابية.

الصراع: Le conflit

يسعى الإنسان دوما لإشباع حاجاته العضوية، النفسية والاجتماعية في ظل محيط مادي واجتماعي، مما يدفعه إلى التفاعل معه، الأمر الذّي يحقق له التوازن. " لكن قد يصطدم بتناقض وتصادم بعض الحاجات مع بعض الظروف مما يؤدي إلى حالة نفسية تسمى الصراع.[2] وإذا كان التعاون هو التوافق والترابط فإنّ الصراع هو النقيض. يستعمل المصطلح في علم النفس العام للتعبير عن الموقف الذّي يكون فيه المنبه ذو قيمتين احدهما موجبة والأخرى سالبة، إما في التحليل النفسي فهو" التعارض

[1] - أرنو ق. ويتيج ، مقدمة في علم النفس. (ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1994، ص315.

[2] - مصطفى عشوي، مدخل إلى علم النفس. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1990،ص108.

أو التناقض اللاشعوري بين رغبة التفريغ وميل المقاومة"[1]. ويستعمل في علم النفس الاجتماعي لوصف حالات المنافسة القوّية بين الأفراد أو الجماعات للاستحواذ على قيمة مادية أو معنوية على حساب الآخر، وهو في أقصى صوره عبارة عن محاولة طرف إحباط الطرف الأخر. ويعرّف أيضا بحالة من التوتر والاختلاف التّي تعيش فيها الجماعة والأفراد، أو موقف تشعر فيه الأطراف بوجود تعارض بينها، أو حالة من التعارض تحدث بين طرفين أو أكثر نتيجة للتفاعل بينها. وتستهدف عدّة مواضيع كالصراع من اجل المنصب، السلطة، المعلومة ... وفي العمل يتحدث عن الصراع التنظيمي الذّي يكون بين العمال في نفس المستوى أو من مستويين مختلفين أو بين جماعات العمل رسمية كانت أو غير رسمية. " ويرى ليكرت بأنّه نزاع حاد من أجل الحصول على النتيجة المرغوبة، والتّي وإن تحققت حالت دون حصول الآخرين على نتائجهم المرغوبة مما يؤدي للعداء"[2] وهناك من العلماء من يعتبره وظيفة حياتية كماركس و تالكوت بارسنس.

صراع الدور:

مثلما للفرد دور اجتماعي في بقيّة مناحي الحيّاة فإنّ له دور في مؤسسته المهنية. والدور الاجتماعي تعريفا هو" نمط منظّم من المعايير يخص سلوك فرد يؤدي وظيفة معيّنة في جماعة "[3]. يعرفه لنتون Linton بالجانب الديناميكي لمركز الفرد أو وضعه أو مكانته في الجماعة، بينما رويتز Roetz يرى بأنّه وظيفة الفرد في الجماعة أو الدور الذّي يلعبه في جماعة أو موقف اجتماعي. أما كوتر Cottrell فيعرفه" بمجموعة من الاستجابات الشرطية المرتبطة داخليا عند شخص ما في موقف اجتماعي، تعبر عن أسلوب في إثارة مجموعة متماثلة من الاستجابات المتماسكة في نفس الموقف"[4]. ومثلما يبدو فإنّ بين المركز والدور علاقة كبيرة، فإذا كان المركز هو المكان الذّي يشغله الفرد في الجماعة كمركز الأب، الأم، المعلم، المسئول... فإنّ الدور هو ما يقوم به وفق مستلزمات مركزه. وكنتيجة نقول تختلف الأدوار باختلاف المراكز، لكن تختلف أيضا باختلاف

[1] - مصطفي زيور، في: معجم العلوم الاجتماعية، أحمد مدكور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص347.

[2] - بوفلجة غياث، مرجع سبق ذكره، ص47.

[3] - لوكيا الهاشمي، جابر نصر الدين، مفاهيم أساسية في علم النفس الاجتماعي. عين مليلة (الجزائر): دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص113.

[4] - خليل عبد الرحمن المعايطة، علم النفس الاجتماعي. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص194.

الأفراد، فالعمليّة إذن ذات أبعاد متعددة أهمّها: المركز، الفرد والمحيط. وعلى ذلك نجد وضعيّات مختلفة كتعدد المراكز والأدوار عند فرد واحد، تفاعل الأدوار والمراكز، تعدد الأدوار في مركز واحد ... وطبعا تتوزع الأدوار وفق توافقها مع ما لدى الأفراد من قدّرات وخصائص . ويلاحظ أنّ الإنسان ينتقل من دور لآخر عبر حيّاته كانتقاله من طبقة اجتماعية لأخرى نتيجة تغيّر الحالة الاقتصادية، أو انتقاله من مرحلة عمرية لأخرى كمرحلة الرجولة بعد المراهقة، أو من حالة لأخرى كالحيّاة الزوجية بعد العزوبة ... قد يؤدي ذلك لصراع يعرف بصراع الأدوار. ومن أسبابه أيضا إدراك الفرد قيّامه بعدّة أدوار أو دورين، كلاهما يناسب مواقف ولا يناسب مواقف أخرى." ولا شك أنّ صراع الأدوار يؤثر على الشخصيّة تأثيرا سلبيا ويؤدي للكثير من المشكلات كالضغط النفسي "[1] ، وما لهذا التأثير من دخل في تحديد سلوكه وردود أفعاله.

الصراع التنظيمي:

يتكوّن كلّ منصب في المؤسسة من مهام، على الموظف تأديتها ضمن دور معين، يتلقي مع أدوار موظفين آخرين ضمن سيرورة العمل. وتختلف الأدوار من حيث مستواها ونوعها باختلاف المناصب وموضعها أو ترتيبها في الهيكل التنظيمي للمؤسسة. وطبعا المناصب المتشابهة من حيث الترتيب السلمي كرئيس فرقة ورئيس مصلحة تتطلّب وتستلزم تأدية نفس المهام وإن اختلف إتقانها باختلاف الأفراد. وإذا كان من المنطق والواجب تضافر الجهود والتعاون بين الجميع تحقيقا لأهداف المؤسسة فإنّه أحيّانا يظهر صراع بين الموظفين عند تأدية الأدوار، هذا بالإضافة إلى صراع حول منصب المسئول يظهر بين الموظفين الذّين تسمح لهم رتبتهم بتحمل مسئوليته، يتصارعون للوصول إليه وقد يتصارعون بعد الالتحاق به، إذ يسعى شاغله إلى البقاء فيه وبالتّالي إبعاد أيّ أحد- بطريقة أو بأخرى- ومحاولة منع الوصول إليه. تتعدد تعاريف الصراع التنظيمي بتعدد الباحثين واختلاف اختصاصاتهم وحتى انتماءاتهم العملية والفكرية، " فمنهم من يرى بأنّه سلوك بعض أعضاء التنظيم المتعارض مع سلوك آخرين في نفس

[1] - مصطفى عشوي، مرجع سبق ذكره، ص113.

التنظيم"[1] بينما يعرفه آخرون" بالعملية التّي يشعر خلالها شخص بأنّ غيره يؤثر في عمله سلبا".[2]

وإذا كان الصراع داخل الفرد أمر حتمي وطبيعي لكونه يضطلع بعدّة أدوار في حيّاته، يحصل أحيّانا تعارض بينها فإنّه يعيش أيضا في مؤسسته صراعات قد تنتج عن اختلاف في الرأي أو تعدد الاتجاهات ، وذلك للفروق الموجودة بين الأفراد من حيث الخبرات، الظروف والشخصيّة بشكل عام، ومن أمثلته:

-الصراع بين الرئيس ومرؤوسيه

-الصراع بين المشرف والعمال

-الصراع بين المسئولين

-الصراع بين العمال

كما يحدث صراع بين الجماعات كالذّي يحدث بين الإدارات أو الوحدات التنظيمية أو الجماعات غير الرسمية، وأيضا الصراع بين المنظمات . والملاحظ أنّه أحيّانا قد لا يكون للعوامل التنظيمية مسؤولية في ظهور الصراعات إنّما تظهر لأسباب مرتبطة بالأفراد، ومن تلك الأسباب نذكر:

- نفور بعض الأفراد عن التعاون مع الآخرين، وهي سمة تجعل منهم منعزلين، وهي تتنافى مع تنظيم العمل الذّي هو أصلا عمل جماعي.

- تفاوت الخلفيات الثقافية والاجتماعية وحتّى العلمية.

- ميل البعض للاستحواذ على كلّ شيء كاحترام ورضا المسئول، المعلومات، منصب المسؤولية.

- سعي البعض لكسب حرب الواجهة، أيّ الضفر بالاهتمام والظهور.

- احتكار المنصب والانغلاق عليه ورفض التنسيق.

أما عن العوامل الموضوعية فيمكن إجمالها في ما يلي :

- صعوبة الاتصال بين الإدارة والعمال أو ما يعرف بمشكلات الاتصال التنظيمي.

---

[1] - James D. Thompson, « Organization management of conflict ». IN : Administrative science quarterly, March 1960,p-389.

[2] - Morton deutsche, The résolution of conflict :constructive processes. New haven, conn :Yale university press .1973.p-10.

- وجود الانفصال بين المشرفين والمسئولين والمنفذين.
- تباين واختلاف الأهداف بين المستويات المهنيّة.
- عدم تحقيق الإدارة أو المؤسسة لتطلّعات العمال أو عدم توفير لهم جوّ إشباع طموحاتهم لاسيما المهنيّة.
- التنافس على الموارد المتاحة.
- الانتماءات والولاءات الوظيفية والمهنيّة.
- التباين بين الصفات والأنماط الشخصيّة.
- الاختلاف الفكري بين العمال وبين الإدارة والعمال.
- صراع الدور.

والملاحظ أنّ الصراع التنظيمي ينشأ بطريقة تلقائية حينا، وبطرق متعمدة أو مفتعلة أحيّانا، كأن يلجأ إليه الرئيس أو المشرف بهدف خلق حالة من التوتر بين العمال لأهداف مختلفة كإضعاف تلاحم وتماسك الجماعات اللارسمية، خلق جوّ التنافس ... والمهمّ في كلّ ذلك هو أنّ الإدارة الحكيمة أو القادرة هي التّي تتمكّن من توجيهه وتوظيفه وتحويله لأداة فاعلة للنموّ والرقي، ذلك بجعله ينحصر في الصراع عن الأداء والإنجاز والجودة والتميّز. أما عن الصراع الذّي لا يخدم المؤسسة أو يؤثر عليها سلبا فيجب العمل على القضاء عليه أو على الأقل التقليل من حدّته. وضع المهتمون جملة من التدابير التّي من شأنها تحقيق ذلك من بينها :

- تحسين الظروف المادية والاجتماعية للموظفين.
- إعداد برامج اتصال فعّالة.
- تحسين الأجور وتوفير بعض الامتيازات وضمان العدالة في توزيعها.
- توفير الخدمات الصحّية، المواصلات والسكن.
- خلق جوّ الشفافية في المؤسسة.
- زرع ثقافة الفائدة العامة بين الموظفين.
- إشراك العمال في التسيير وفي اتخاذ القرارات.
- إزالة الحدود بين المستويات العليا والدنيا.
- خلق جوّ التعاون والتآزر والإخاء.
- فتح أبواب الحوار والتواصل بين مختلف الفئات العمالية.

- تنمية الروح المعنوية والولاء للمؤسسة.

أهداف التغيير التنظيمي:

يحدث التغيير التنظيمي بشكل عشوائي أو عفوي، إنّما توجد أسباب تدفع المنظمة لإجراء التغيير وتسعى من ورائه لتحقيق أهدافا معيّنة.

يكمن إجمال هذه الأهداف في :

- الاستجابة للتغيير الاجتماعي:

المنظمة كائن حيّ داخل تجمّع كبير، تولد تتطور كما أنها تضعف وتموت، وقوة المؤسسات إنما تقاس بطول عمرها، وهي تتأثر وتنسجم مع كلّ ما يحدث أو يطرأ في هذا النسق الكبير من تغيرات كالثورات، التوترات والاضطرابات، أو حتّى البرامج السيّاسية والتنموية. والواقع أنّه إذا كانت استجابتها أمر منطقي وطبيعي فإنّها تضمن لها التطوّر ومسايرة الأحداث ومن ثمّ الاكتفاء، مع العلم أنّ هذه الاستجابة قد تتعدى الحدود الجغرافية لتتأثر بما يحدث في العالم بأكمله.

- إحداث تطوّر تنظيمي :

إذا كانت المنظمة مجبرة على مسايرة عصرها زمانيا، فإنّها تضطر من حين لأخر لإحداث تغييرات تنظيمية بواسطة إتباع استراتيجيات خاصة، بهدف الحفاظ على التوازن أو إعادته إما كتصوّر تنظيمي (توقعي) أو عقب حدوث اضطرابات أو أزمات اجتماعية أو اقتصادية، تستدعي إجراءات خاصة كالتقشف مثلا بسبب ندرة المواد الخام أو المركزية الناتجة عن قلة الكفاءات الإدارية أو التقنيّة أو اليد العاملة الماهرة.

- تقوية الروابط مع المحيط:

لزيادة مقدرتها على التعامل والتكيّف مع المحيط المباشر أو البعيد وتحسين قدرتها على النموّ والبقاء، " وذلك لوجود أواصر الاتصال الدائم بينها والبيئة المحيطة بها"[1]. ضمن هذا المطلب يندرج تغيير المسئولين والإطارات، فلا تكفي لمسئول قوّة التسيير والإشراف إنّما لابّد عليه من ضمان التعامل مع المحيط، لأنّ حيّاة المؤسسة تتعدى الحيز الداخلي. نذكر في هذا ما أكّدت عليه نظرية النسق المفتوح، وهو أنّ المنظمة تصون نفسها بواسطة التبادل والتفاعل المستمر مع المحيط، ما يضمن

[1] - محمود سلمان العميان، السلوك التنظيمي في منظمات العمل، ط3، عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2005، ص343.

استمرارية التدفق الداخلي والخارجي للطاقة، بينما غيّاب التفاعل والتبادل في النسق المغلق يؤدي به للتلاشي نتيجة إهماله للمحيط الخارجي.

- الاهتمام بتطلّعات المستخدمين:

يتلخص في مساعدة العمال على تشخيص مشاكلهم وتسطير أهدافهم وتطلّعاتهم، ومن ثمّ تحفيزهم ومساعدتهم على إحداث التغيير والتطوّر المطلوب، لأنّ أيّ تغيير لا يحدث أو على الأقل لا ينجح إذا لم ينسجم معه العمال أو إذا لم يشاركوا فيه. أمر يفرض على المسئول التقرّب أكثر من العمال وفهم شخصيّاتهم وإدراك تطلعاتهم ... أمر ليس هينا وليس كلّ المسئولين قادرين عليه، مما يفرض أحيّانا إجراء التغيير. والحقيقة التّي يجب على المسئول إدراكها هي أنّ للأفراد أهدافا ينبغي تحقيقها. وعلى ذلك مثلما للمنظمة حاجة ماسة للأفراد لتسيير أمورها وأداء نشاطاتها وضمان نجاحها وبقائها فإنّ للأفراد حاجة للمنظمة التّي تعتبر الإطار الرسمي والطبيعي الذّي يحققون ضمنه ومن خلاله مآرب عدّة أولها توفير قوت أيامهم.

- تفادي أو محاربة الصراعات:

أي الكشف عن الصراع بين الجماعات أو بين الأفراد بهدف إدارته وتوجيهه بشكل يخدم المنظمة، لأنّ الصراع هو بمثابة السرطان الذّي ينخر الأجسام في صمت وخبث. وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي على المسئول الدخول في صراع مع العمال، بل من سّمات المسئول الجيّد إدارة الصراع وتفادي الدخول فيه.

- ضمان جوّ الثقة:

على المسئول العمل على زرع الثقة بين العمال في ما بينهم، وبينه والعمال وبين المجموعات. وطبعا تعتبر الثقة من دوافع العمل والأداء القوّية وإلهامه، ففي حالة غيّاب الثقة بين الرئيس والمرؤوس لن يحدث سوى الصراع، اللاتعاون واغتنام فرص التضييع والتخريب. واقع يدفع السلطات لتغيير المسئول والتضحية به بدل العشرات أو المئات من العمال.

- الحفاظ على الحيوية:

يؤدي التغير إلى إنعاش الحيوية داخل المنظمة والى نشر الطمأنينة وبث التفاؤل، وبالتّالي تظهر المبادرات الجماعية والفردية ويزداد الشعور بأهميّة وضرورة المساهمة، وتختفي روح الاتكال، اللامبالاة ... أمور ناتجة عن طبيعة النفس البشرية التواقة

والمحبة لكلّ تجديد، ولظهور مظاهر الملل والتكاسل الناتجين عن الرتابة. أحيّانا لابّد من تغيير المسئول ليس بسبب عجزه وتهاونه، إنّما لبعث روحا جديدة لدى العمال. وقد أكّدت التجارب في مختلف المجالات بأنّ للتغيير قوّة عجيبة في بعث الوثبة النفسية، حدث ذلك حتّى بوضع فردا أقلّ مستوى وحنكة قيّادية من سابقه.

قد يؤدي التغيير هذا حتّى لتنميّة القدّرة الابتكارية، وذلك بظهور مجالات التحدي والاكتشاف مما يخلف شغف المشاركة والإبداع والابتكار. ما لا ينبغي نسيانه أو ما يجب فرضه هو أنّ كلّ مسئول يحمل وراءه مشروعا، يجب أن يفتح أمام المستخدمين أفاقا جديدة. ومن الحتميات التّي يفرضها الفهم الصحيح للقيّادة والتسيير أنّ فشل المسئول في تطبيق مشروعه أو فرض طريقته لا يعني بتاتا فشله إنّما يعني لاتماشي تصوّره مع الواقع أو لا تعاطي المرؤوسين معه ، وعلى ذلك يعمد القادة رفيعو المستوى للاستقالة والانسحاب لإدراكهم بأنّ الهدف النهائي لكلّ تسيير هو المؤسسة ونجاحها والحفاظ عليها.

تسيير التغيير:

مهما كان نوع التغيير ومهما كان الهدف منه فإذا أراد القائم به النجاح له لابّد من استراتيجية لتسييره، ومن ضروريات هذا التسيير تفاعل وتعاطي الأفراد الذين سيطبق أو يجرى عليه هذا التغيير. للتغيير طرفان: القائم به والمطبق عليه أو معه. والحقيقة أنّ التغيير واقع وحاضر في كل المؤسسات، وأنّ المسئولين يميلون ويرغبون دوما فيه لاسيما إذا كانوا حديثي التنصيب، ولكونه (التغيير) قد يؤدي لنتائج إيجابية أو سلبية فلابّد من التحكم فيه وتوجيهه وفق الأهداف. " إنّ قدرة المؤسسة وفعاليتها وتطوّرها ترتبط باستراتيجيات التغيير الناجحة ".[1] يرى المهتمون بالتنظيم بأنّ التغيير هو الأداة الضامنة لتطوّر المؤسسة، يتفاعل ويتجاوب مع محيطها القريب ومحيطها البعيد، ذلك لأنّ بقاءها ومصداقيتها مرتبطان أو مرتكزان على قدرتها على النمو والتكيّف.

يتطلّب التغيير اتخاذ إجراءات علاجية، وقائية وتنبؤية وفق الحالة. ففي حالة ظهور مشاكل وصعوبات تقنية أو تسييرية لابّد من السعي لإيجاد الحلول الناجعة والكفيلة بتدارك الوضعية، ويجب تصوّر إجراءات وقائية لتفادي أي خلل أو تعطل، كما ينبغي التنبؤ بوضعيات أو حالات محتملة من شأنها إعاقة السير الحسن ووضع حلولا قصد

[1] - Perret Véronique, La gestion du changement organisationnel, conférence international de management stratégique. Université de lille 1996,p-17.

تطبيقها في حالة الحدوث. إنّ لكل تغيير مقاومة مرتبطة بطبيعة النفس البشرية التي تتحفظ دوما منه لاسيما إذا كان مصدره الغير، وعلى ذلك فإنّه تعترضه عدة صعوبات وعراقيل لابّد من التحكم فيها، أهم ما يجب الاهتمام به هو البعد الإنساني والنفسي، فلا يمكن للتغيير النجاح ما لم تراع الجوانب النفسية والإنسانية للأفراد موضوع التغيير. من هذا المنطلق فإنّ المسئول الجديد لا يعرف من التشكيلة البشرية للمؤسسة شيئا، فمهما كانت خبرته ومهما كان مستوى تمكنه فإنّ هذا العنصر الهام في التغيير غائب، مما يعني بالضرورة الفشل. في هذا الإطار يُقترح على المسئول الجديد ترقب الوضعية وملاحظتها مع عدم إدخال أي تغيير إذا كانت الأمور تسير بشكل عادي، حتى وإن اختلفت عن تصوّره أو إستراتيجيته، ريثما يحين وقت التدخل والتغيير.

يقترح داوي M.L.Dhaoui إجراءات تساعد في نجاح التغيير وهي[1]:

- اختيار مسئولا مناسبا لإجراء التغيير: شخصيته، كفاءاته، جاهزيته، استعداداته، إرادته.
- وضع خطة للتغيير: تحديد الأهداف، الخطوات، المدد.
- إيجاد مناخ اجتماعي مناسب.
- وضع حوافز وتشجيعات.
- انتهاج سياسة اتصال فعالة.
- وضع نظام متابعة ومراقبة.

إضافة إلى ذلك نقترح:

- إعلام وتحسيس العمال بضرورة وأهمية التغيير عن طريق الاتصال المباشر: محاضرات، اجتماعات أو فردا فردا.
- اختيار أفرادا مساعدين لتطبيق الخطة، على أساس القدرة في إحداث التغيير.
- دراسة العمال من حيث طبائعهم وشخصياتهم.
- اختيار الوقت المناسب لإحداث التغيير.
- توقع العراقيل والمعيقات ووضع الحلول والإجراءات.

إنّ تسيير التغيير يتطلب أن يكون المسيّر على قدر عال من الكفاءة لتكييف المؤسسة مع متطلبات المحيط، وتعديل سلوكات واستجابات العمال.[1]

[1] - محمد مسلم، تنمية الموارد البشرية: دعائم وأدوات. المحمدية (الجزائر): دار طليطلة، 2010، ص 23.

المنهجية:

لكون عملية تغيير المسئولين والتداول على المنصب أكثر حدوثا في قطاع التعليم، ولكون المسئولين في القطاعات الأخرى أكثر استقرارا بسبب طبيعة المناصب فقد مست دراستنا قطاعي التعليم العالي والبحث العلمي والتربية الوطنية. أختيرت المؤسسات قصديا وهي : - جامعة أكلي محند ولحاج بالبويرة

- مديرية التربية للولاية

- مجموعة من الثانويات والمتوسطات

جاءت نسب المشاركة كما يلي :

الجدول رقم (01) : نسب مشاركة المؤسسات في الدراسة

المؤسسة	ت	%
الجامعة	30	37.50
مديرية التربة	21	26.25
المؤسسات التربوية	29	36.25
المجمـوع	80	/

رجعت أكبر نسبة مشاركة للجامعة وذلك لوجود مناصب مسؤولية كثيرة : نواب رؤساء الأقسام، رؤساء الأقسام، نواب العمداء، العمداء، نواب رئيس الجامعة، رئيس الجامعة. مع وجود ست كلّيات ومعهدين. هذا إضافة لمشاركة بعض الأساتذة الذّين مارسوا المسئولية سابقا، مع الملاحظة أنّه يمكن لكلّ أستاذ المرور عن منصب مسؤولية في وقت ما.

أما بالنسبة لعدد الأفراد المشاركين حسب المؤسسات فقد جاء كما يلي:

[1]- Hellriegel et al, Management des organisations. Bruxelles : Boeck et lacier 1992,p-599.

الجدول رقم (02) : أفراد العينة حسب المؤسسات

المؤسســـــة		ت	%	
الجامعة	كل الكليات- المعهدان- رئاسة الجامعة	30	37.50	
مديرية التربة	كل مناصب المسئولية	21	26.25	
المؤسسات التربوية	ثانوية أوعمران	05	36.25	29
	ثانوية عقو محند أمزيان	05		
	ثانوية محمد بوشراعين	05		
	ثانوية عليان حميمي	05		
	متوسطة قويزي سعيد	03		
	متوسطة دحماني الحسين	03		
	متوسطة شيبان عيسى	03		
المجمـــوع		80	/	

طبقنا استبيانا يتكوّن من ثلاثة محاور:

- الأول حول كيفيّة الوصول لمنصب المسئول
- الثاني عن كيفيّة الحفاظ عليه

والثالث عن تغيير أسلوب وطريقة المسئول السابق .

أردنا أن نعرف هل تغيير المسئول لكيفيّة تسيير سابقه ظاهرة صحّية أم مرضية، بشكل أخر هل إدخالات المسئول هدفها تحسين التسيير أم تلميع صورته أو تشويه صورة من سبقه.

إنّ سعيّ ومحاولة المسئول الحثيثة لجعل المرؤوسين ينسون من سبقه، وبأيّ طريقة سلوك يبدو غريبا، أو قد لا يصدقه البعض لكن تؤكده الملاحظات الأولية، أو يؤمن به العامة لدرجة اتهام كلّ من تبوأ منصب مسئولية به. نسعى من خلال دراستنا تأكيد أو نفي ذلك.

خصائص العيّنة:

- الوظيفة:

في الحقيقة الوظيفة تفرض نفسها، لكون المشاركة أو الاختيّار مس كلّ المسئولين في المؤسسات موضوع الدراسة، ففي الثانويات تمثلت في: - المدير

- نائب المدير للدراسات (الناظر)
- مستشار التربية (عددهم اثنان في كلّ ثانوية)
- المقتصد

وفي المتوسطات : - المدير

- مستشار التربية
- المقتصد

أما في مديرية التربية فهي: - رؤساء المصالح ورؤساء المكاتب.

المصالح هي: - مصلحة التكوين والتفتيش

- مصلحة التعليم الثانوي
- مصلحة الدراسة والامتحانات
- مصلحة البرمجة والمتابعة
- مصلحة المستخدمين

وبكل مصلحة عدد من المكاتب على رأس كلّ مكتب مسئول.

- الجنس:

الجدول رقم (03) : توزيع أفراد العينة حسب الجنس

الجنس	ت	%
ذكر	65	81.25
أنثى	15	18.75
المجمـوع	80	/

مثلما يبدو في الجدول نسبة الذكور أكبر بكثير من نسبة الإناث (81.25% مقابل 18.75%) وذلك رغم كون عدد الإناث المشتغلات في قطاعي التربية والتعليم العالي (التدريس) أكبر من الذكور. وضعيّة تضع أكثر من سؤال منها :

- لماذا لا تتبوأ النساء مناصب مسئولية بكثرة ؟
- هل الاختيّار يأخذ الجنس كمعيّار؟
- هل النساء هن العازفات عن مناصب المسئولية ؟
- هل أدوارهن كأمهات يعيقهن في تحمّل أعباء مناصب المسئولية؟

أسئلة كثيرة وهامة يجب إجراء دراسات وأبحاث للإجابة عنها.

النتـائج :

بالنسبة للسؤال الأول بالمحور الأول والمتمثل في وصول أيّ موظف لمنصب المسئولية فقد أكّدت نسبة 88.75% بأنّه لا يمكن أن يصل الكلّ لمنصب المسئولية مقابل 11.25%. قد يرجع ذلك لقلّة المناصب مقارنة مع عدد الموظفين، وقد يرجع لصعوبة تحمّل أعباء المسئولية ولتطلّبها شروطا وخصائص لا يمكن أن نجدها عند الكلّ. المهم أنّ المسئول الذّي أجاب عن السؤال يرى بأنّ المنصب لا يمكن أن يصله الكلّ، وهي إجابة توحي إلى الإيمان بضرورة العمل والسعيّ للحفاظ عليه والبقاء فيه، فبأيّ كيفية يحقق ذلك ؟ هذا ما سنراه في البنود الخاصة بالمحور الثاني. وتكملة لهذا البند فقد أكّد أفراد العيّنة وبنسبة مرتفعة جدا (91.25%) بأنّ الاختيّار لمنصب المسئولية ينبغي أن يكون وفق معايير علميّة كالتمكّن والانضباط . موقف من شأنه أن يجعل الكلّ يعمل على تحقيق هذه الشروط بكلّ جدّية ، ويجعل أيضا المسئولين يجتهدون للحفاظ على مناصبهم في ظل المنافسة التّي يخلفها هذا النمط الاختيّاري. وإنّه لأمر جيّد لو حاولوا تغيير كيفيّة تسيير سابقهم من حيث التمكّن، الانضباط، البذل ، الجدّية والصرامة ... لكن رغم هذا فقد رأت نسبة تفوق النصف بقليل(52.50%) وجود اعتبارات أخرى توصل للمنصب كالمحسوبية، المعارف والمصالح، مما يدفع الطامحين إلى البحث عن سبل غير شرعية. ورغمّ هذا فقد أكّد أفراد العّينة وبصورة لا تدع مجالا للشك (100%) بأنّه لا ينبغي سلك أيّ طريق للوصول لمنصب المسؤولية. أمر يعطي صورة حسنة ومشرفة.

أما في المحور الثاني المتعلّق بكيفيّة الحفاظ عن المنصب ففي البند الأول فإنّ نفت النسبة العالية (51.25%) كون إظهار نقائص وعيوب المنافسين هو الضامن للبقاء في منصب المسئولية فإنّ نسبة التأكيد على العكس مرتفعة أيضا وقريبة منها (48.75%).

أما البند الموالي فقد أكّدت نسبة 90% ضرورة الاجتهاد أكثر من الكلّ للبقاء كمسئول ،

وهو أمر منطقي لا أظن بأنّ نسبة الاختلاف في ذلك ستكون مرتفعة أو معتبرة، وهي في بحثنا لا تمثل سوى 10% ، لكن رغم ذلك فهي تضعنا أمام حقيقة يجب أخذها بعين الاعتبار في التسيير وإيلائها الاهتمام من البحث والدراسة. ومما يؤكد استعداد المسئول لتوظيف كلّ طاقاته للبقاء في منصبه تأكيد نسبة 91.25% بأنّ كسب الصراع مع المنافسين يضمن التعمير في المناصب مدّة طويلة. وهو قبل كلّ شيء موقف يؤكد بأنّ المسئولين يؤمنون بوجود الصراع والتنافس عن المناصب. و طبعا مثلما أكّدنا سابقا فإنّ جوّ الصراع يفتح الباب لظهور سلوكات غير محبذة وأحيّانا خطيرة لا تخدم المؤسسة بقدر ما تضرها، في الوقت الذّي يكون المسئول مطالبا بإدارة الصراع بحنكة وحكمة عند مرؤوسيه، فكيف إذا ما ظهر على مستواه ؟ أما المحور الثالث المخصص لتغيير طريقة المسئول السابق فقد بدأناه بسؤال مباشر أكّد من خلاله أفراد العيّنة ضرورة إدخال تغييرات على أسلوب تسيير من سبق وبنسبة مائة في المائة، 75% على بعضه، 18.75% على كلّ الأسلوب و06.25% على معظمه. ولكي نعرف الأسباب والأهداف وراء ذلك طرحنا ثلاثة أسئلة بعدية، في الأول أكّدت نسبة86.25% بأنّه من أجل تغيير صورته (المسئول السابق) في أذهان المرؤوسين ، مع التأكيد على أنّ ذلك لا يتّم سوى بإظهار نقائصه وأخطاءه. إذا سلمنا بأنّ تغيير صورة من سبقنا يساعدنا في بسط نفوذنا وتمرير أسلوبنا في التسيير كجعل العمال يظنون بأنّ التغيير إنّما حدث بسبب فشله، ومجيئنا إنّما كان من أجل تعديل الوضعيّة، فإنّ ما يحيّر ويدّل على أمر غير عادي هو أن نسعى لإظهار نقائصه وأخطائه. يصبح همنا البحث عن الفجوات والتعثرات. والأكيد أنّ البعض- حتى في الحيّاة الاجتماعية العامة- يحاول دوما اصطياد أخطاء الغير ومن ثمّ تقديم صورته كبطل وكمنقذ. أمر ينبغي أن لا يحدث في مراكز القيّادة التنظيمية، بل ينبغي للمسئول أن يؤمن بأنّ تسييره ليس إلا مكملا لتسيير سابقه، ونجاحه لن يكون مرتكزا سوى على ما قام سابقه كأرضية وسريرة. وفي السؤال الموالي عزز هذا الاتجاه إذ أكّدت نسبة 88.75% بأنّ تغيير المسئولين دليل عن سوء تسيير، بينما الواقع وحتّى المنطق يؤكد عدم تعميم ذلك إذ قد يلجأ إلى تغيير المسئول وإن كان ناجحا كالذّي يحدث بهدف مواكبة تغيّر الظروف التنظيمية، مواكبة التغيّرات الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية ... نجد هذا المعنى في إجابات أفراد العيّنة عن

السؤال الموالي إذ أكّدوا وبنسبة 81.25% بأنّ تغيير المسئولين من حين لآخر ضرورة تنظيمية.

ختمنا الاستبيان بسؤال مدعم ومجمل للأسباب التّي تدفع المسئول لتغيير أساليب السابقين فكانت الأسباب :

- تصحيح الخاطئ وتقويم الاعوجاج
- مواكبة العصرنة والحداثة في التسيير
- توظيف طرق وأنماط تسييرية جديدة
- إعطاء نفسا جديدا للعمل
- ضمان التسيير الحسن والمستمر للمؤسسات
- إحداث الوثبة البسيكولوجية

هي أسباب ودوافع منطقيّة وحتّى مفيدة، لكن إضافة إلى ذلك عدد أفراد العيّنة أسباب أخرى هدفها التغيير من أجل التغيير وهي:

- محاولة كسب ثقة واحترام المرؤوسين
- إظهار الفرق ومن ثمّ التموقع في مستوى القوّة
- إثبات الذات
- محو أثار المسئول السابق
- غلق أبواب المسئول السابق

خاتمة:

كثيرا ما يلاحظ في الحيّاة العامة حرص المسئول الجديد على تغيير أسلوب سابقه، أو محو أثاره كليّة، بهدف إظهار كفاءته أو تعزيز صورته إثباتا لقوّته وتأكيدا لكونه البديل، هذه الحقيقة أكثر وجودا في بعض المجتمعات، بل يعتبرها البعض إحدى سمات التخلّف. نلاحظ هذه الظاهرة حتّى على المستوى السّياسي، إذ المتتبع لحيّاة الدول والمجتمعات لاسيما المتخلفة يجد أحداثا كثيرة تصب في هذا المنحى، كلّ رئيس أو وزير أو حتّى والي يسعى لمحوّ كلّ انجازات سابقه ليعوضها، ناهيك عن توظيف أجهزة الدولة والإعلام بشتى وسائله لتحويل الرأي العام. أما في الدول المتقدمة فالظاهرة وإن وجدت تأخذ صورة أخرى إيجابية، وهي انجاز معالم أو تحقيق مشاريع من شأنها أن تنسي السابق وتخلّد صورة اللاحق.

إذا كان تغيير أساليب من سبق بهدف التغيير الايجابي، خاصة إذا كانت غير مجدية فإنّ التغيير من أجل التغيير، إما لتسويق صورته أو حقدا على من سبق ولو كان صالحا ونافعا فهو أمر يسهم في هدم المؤسسات، بل يجب الحفاظ على المكتسبات والعمل على تطويرها وإضافة ما ينبغي، وإصلاح ما يستلزم وفق الظروف والمستجدات. لابّد من ثقافة التداول على السلطة ومن ثقافة البناء والتكامل والاستمرار، والحيّاة مراحل، لكلّ مرحلة ظروفها، حيثياتها... ورجالها.

المراجع:

- الهاشمي لوكيا، نصر الدين جابر، مفاهيم أساسية في علم النفس الاجتماعي.عين مليلة (الجزائر): دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،2006.

- المنجد في اللغة والأدب والعلوم. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، بدون تاريخ النشر.

- أرنوف ويتيج، مقدمة في علم النفس. (ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994.

- بوفلجة غياث، مقدمة في علم النفس التنظيمي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.

- يوسف سعدو، علم النفس الاجتماع : دراسة التغيير التنظيمي في المؤسسة الصناعية. عنابة ، جامعة باجي مختار، بدون تاريخ النشر.

- محي الدين مختار، محاضرات في علم النفس الاجتماعي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

- محمد مسلم، تنمية الموارد البشرية: دعائم وأدوات. المحمدية (الجزائر): دار طليطلة، 2010.

- محمود سلمان العميان، السلوك التنظيمي في منظمات العمل. ط3، عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2005.

- مصطفى زيور، في: معجم العلوم الاجتماعية، أحمد مدكور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

-مصطفى عشوي، مدخل إلى علم النفس. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،1990.

-خليل عبد الرحمن المعايطة، علم النفس الاجتماعي. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.

- Hellriegel D.,Slocum J.W.,Woodman R.W., Management des organisations. Bruxelles : Boeck et lacier,1992.

- James D.Thompson « Organization management of conflict ». IN : Administrative science quarterly, March1960.

-Morton Deutche ,The résolution of conflict :constructive processes. New haven, conn :Yale university press , 1973.

- Perret Véronique, La gestion du changement organisationnel, conference international de management stratégique. Université de lille, 1996.

الحديث الى النفس حسب نظرية فيغوتسكي
لعلاج قصور الانتباه و تنشيط البناء المعرفي لدى بطيئي التعلم

فلاح أحمد جامعة مستغانم

الملخص:

ان التحدث إلى النفس سلوك صحي وتكيفي وأساسي، وأن بعض الأطفال أحوج من غيرهم إلى استخدامه ولمدة أطول. ومع ذلك، فمازال العديد من البالغين يعتبرونه غير ذي معنى وسلوكا مرفوضا اجتماعيا، بل أكثر من ذلك علامة على مرض عقلي. ونتيجة لذلك، فإنهم غالبا ما ينهون الأطفال عن التحدث إلى أنفسهم. وفي المنزل على الآباء أن يحسنوا الإصغاء لتحدث الطفل إلى نفسه ليكونوا أكثر دراية بخطط الطفل وأهدافه والمصاعب التي تواجهه. وعلى المعلمين كذلك أن يستوعبوا حقيقة أنه حينما يستخدم التلاميذ التحدث إلى النفس بقدر أكبر من القدر المناسب لعمرهم فإن ذلك يدل على حاجتهم إلى المزيد من الدعم والإرشاد.

Resumé :

Parler à soi- même est un comportement sain et auto-adaptatif et essentiel, et que certains enfants doivent l'utiliser dans une longue durée plus que les autres . Cependant, il ya encore plusieurs adultes le considère comme un comportement non significatif et socialement inacceptable, mais plus que cela un signe de maladie mentale. En conséquence, ils interdisent souvent les enfants à parler à eux-mêmes. À la maison, les parents doivent améliorer leur méthode d'écouter un enfant parler à lui-même pour être plus familier avec les plans et les objectifs de l'enfant et les difficultés qui le confronte. Il est indispensable que les enseignants sachent que les élèves lorsqu'ils parlent très souvent à eux-mêmes d'une façon plus que leur âge cela indique la nécessité de plus de soutien et d'orientation.

مقدمة :

ان المدرسة هي المؤسسة المختصة التي أنشاها المجتمع لتربية أفراده بعد ان كانت الأسرة في الماضي تقوم بهذه المهمة التربوية ، فالمدرسة تقوم بنقل التراث الثقافي والخبرات بشكل تدريجي يتلاءم وقابليات الافراد . وتقوم بتزويدهم بمعلومات عن البيئة الاجتماعية الخارجية بغية اعدادهم وضمان نموهم نموا سليماً (1)

ان وظيفتها اليوم لاتقتصر على تعليم الطفل وتلقينه المعلومات فقط ، بل العمل على تربيته وتكوين شخصيته ، فهي حلقة الوصل التي يمر بها الطفل اثناء مراحل نموه بين الاسرة والمجتمع ، ولذا فمن الضروري ان يتحقق للطفل في جو المدرسة كثير مما يتحقق له في جو الاسرة من حاجة الى العطف والتقدير والشعور بالانتماء والاطمئنان بالمسؤولية الاجتماعية وان تشبع حاجته للشعور بالنجاح والتقدير وتنمية الاحساس(2)

ان تكامل نمو الطفل بين الأسرة والمدرسة ومدى إشباع حاجته النفسية والاجتماعية والعضوية خلال عملية النمو يؤثر تأثيرا كبيرا في نمو شخصيته ومظاهر سلوكه ومن هنا تبرز اهمية الدور الذي تقوم به كل من المدرسة والأسرة في عملية تنشئة الطفل وضمان نموه في النواحي العقلية والنفسية والاجتماعية والصحية (3)

ان الأطفال نادرا ما مارسوا «الحديث المتمركز حول الذات» egocentric speechالذي أولاه بياجيه اهتمامه الخاص. فمعظم التعليقات التي نسمعها من الأطفال في تحدثهم إلى أنفسهم تكون إما لوصف أو لتوجيه ما يقومون به، وهذا ما يتفق مع فرضية أن توجيه الذات هو الوظيفة المحورية للتحدث إلى النفس. علاوة على ذلك، فالأطفال يكثرون من التحدث إلى أنفسهم عندما يواجهون مهمات كبيرة التحدي أثناء عملهم منفردين، وأيضا عندما لا تتاح لهم فرصة وجود معلم أو موجه للقيام بالمساعدة الفورية. وفي كلتا الحالتين يكون الأطفال مضطرين إلى الاعتماد على أنفسهم فيما يقومون به.

1- بطء التعلم :

من التعاريف التي تناولت بطيئي التعلم ما ياتي:

- بطيئوا التعلم هم الاطفال الذين يتخلفون لاسباب مختلفة في عملهم المدرسي ويحتاجون الى تعليم خاص. (4)

- اولئك التلاميذ الذين يفشلون في الوصول الى مستوى التحصيل للغالبية من التلاميذ في اعمارهم ذاتها.(5)

- هم التلاميذ الذين يحتاجون بسبب محدودية قابليتهم او ظروف اخرى تؤدي الى تاخر تعليمي يحتاجون الى نوع معين من التعليم المختص كليا او جزيئا تعويضا عن التعليم الاعتيادي الذي يقدم في المدارس الاعتيادية. (6)

- هو طفل اعتيادي في إطاره العام الا انه يجد صعوبة لسبب او لاخر في الوصول الى المستوى التعليمي الذي يصل اليه أقرانه الاسوياء في المعدل وهو لا يوصف ضمن المتخلفين عقلياً. (7)

تعريف بطيء التعلم:

إن مصطلح بطء التعلم يطلق علي الطفل الذي يكون غير قادر علي مجاراة الآخرين تعليميا أو تحصيلياً في موضوع دراسي ، وهذا يعود لأسباب ظاهرة أو كامنة بحاجة إلي عملية تشخيص.

- إن الطلاب الذين يتراوح ذكاءهم بين (90-70) يطلق عليهم اسم بطيئ التعلم ويتأخرون صفا أو صفين دراسيين عن المستوى أو الصف المتوقع لمن هو في عمرهم الزمني.(8)

- التعريف النفسي لبطء التعلم:

يرى بأن بطء التعلم ، يعزى للاضطرابات النفسية التي يواجهها الطفل في بيئته الاجتماعية التي ينتمي لها ، يتقبل ذلك بالخوف المرضي والقلق والخجل وتكون مفهوم الذات ، كل ذلك يمثل مجموعة من العوائق تجعل الطفل غير قادر علي مجارة الآخرين اجتماعيا و تحصيلياً. (9)

- التعريف العقلي لبطء التعلم:

يستند هذا التعريف في تفسير لبطء التعلم إلي تدني القدرات العقلية ، وهذا ما تقيه اختبارات الذكاء كاختبار وتلر وستانفورد بنيه وجان بياجيه حيث أن جميع التعريفات العقلية تؤكد بأن الأطفال بطيئ التعلم تتراوح قدراتهم العقلية ما بين70-90 نقطة،وأنه بواسطة البرامج التعويضية يمكن معالجة ذلك. (10)

- التعريف الاجتماعي لبطء التعلم:

يشير هذا التعريف بأن بطء التعلم عند الأطفال يستند لأسباب اجتماعية كالتفكك الأسري ، وعدم التوافق والانسجام للطفل مع طبيعة البيئة المدرسية التي ينتمي إليها. (11)

2- الانتباه :

يعتبر الانتباه من أهم العمليات العقلية التي تلعب دوراً هاماً في النمو المعرفي لدى الفرد حيث إنه يستطيع من خلاله أن ينتقي المنبهات الحسية المختلفة التي تساعده على اكتساب المهارات و تكوين العادات السلوكية الصحيحة بما يحقق له التكيف مع البيئة المحيطة به. (12)

تركيز الذهن تركيزا شعوريا علي شيء موضوعي أو فكرة تتصل بشيء موضوعي ، أو التركيز علي فكرة مجردة . فهو عملية عقلية تتصل باهتمام الجانب الشعوري بشيء معين علي نحو واضح. (13)

و يبين اريكسن ، بأن الانتباه هو التركيز الواعي للشعور على منبه واحد فقط وتجاهل المنبهات الأخرى التي توجد معه وهذا يطلق عليه الانتباه المركز أو الانتقائي، أو أنه توزيع الانتباه بين منبهين أو أكثر وهذا الأخير يطلق عليه الانتباه الموزع. (14)

- تعريف اضطراب أو صعوبات الانتباه مع فرط النشاط :

وفقاً للدليل التشخيصي الإحصائي للاضطرابات العقلية الطبعة الرابعة، 1994 بأنها: نمط دائم لعجز أو قصور أو صعوبة في الانتباه أو فرط النشاط-الاندفاعية، يوجد لدى بعض الأطفال ، يكون أكثر تكراراً، وتواتراً، وهذا الاضطراب يشكل جملة أعراض تعبر عن نفسها من خلال:

العجز عن تركيز الانتباه ومواصلته وتنظيمه ·

العجز عن كف الاستجابات الاندفاعية·

يظهر هذا الاضطراب في مدى عمري مبكر، قبل سن سبع سنوات يكون مصحوب بنوع من النشاط الزائد الذي

يتصف ب:العفوية، و العشوائية ، و الافتقار للهدف والتنظيم. (15)

أسباب الإصابة باضطراب نقص الانتباه:

أظهرت الأبحاث التي أجريت على الأفراد الذين يعانون من اضطراب نقص الانتباه والنشاط الحركي الزائد :

إلى اختلاف في الدماغ:- أظهرت الأبحاث التي أجريت أن هنالك عدم توازن في التحولات العصبية في الدماغ والكيميائية أو قلة نسبة التمثيل الغذائي في بعض أجزاء المخ.

الأسباب الجينية:أظهرت الدراسات التي أجريت على الأفراد وذوي نقص الانتباه والنشاط الحركي الزائد أن الوراثة قد تكون أحد العوامل للإصابة بهذا العرض.
الأسباب الأخرى: ومن هذه الأسباب التعرض للإصابة أثناء الحمل أو الولادة مما يؤثر على نمو الدماغ الطبيعي.
أسباب بيئية: وهي مثل أن يعيش الطفل ذو نقص الانتباه والنشاط الحركي الزائد في بيئة فوضوية مقابل بيئة منظمة أو أن يعيش في بيئة فيها إدارة سلوك فعال مقابل العكس كل هذا ممكن أن يسهم إيجابياً أو سلبياً على الطفل. أما فيما يتعلق بالنمط الغذائي فإن في معظم الدراسات والأبحاث لا تدعم القول أن نوعية الغذاء أو المواد الحافظة والسكر من مسببات اضطراب تشتت الانتباه والنشاط الزائد (استراتيجيات التدخل السلوكي للأطفال ذوي اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد. (16)
التدخل العلاجي لاضطراب الانتباه:

- التعديل المعرفي للسلوك (C.B.M) Cognitive Behavior Modification :

يعد التعديل المعرفي من بين أساليب المعالجة المستخدمة مع الأطفال ذوي اضطرابات الانتباه، كما لو كان قد صمم لهذه الفئة من الأطفال بالذات حيث يقوم التعديل المعرفي للسلوك على تدريب هؤلاء الأطفال على اكتساب مهارات : التخطيط ، حل المشكلات، ضبط الذات التي يفتقر إليها مجتمع هذه الفئة من الأطفال ، من منطلق أن الضبط أو التحكم اللفظي أو التعبير يعد واحدا من أكثر العوامل أهمية في ضبط السلوك خلال التطور النمائي له . (17)

Behavior Modification :- تعديل السلوك

يفضل علماء النفس تعديل السلوك باستخدام مبادئ التعلم المتكاملة عن طريق تقليل احتمالات التشتت، من خلال تهيئة المهام التعليمية بطريقة تضمن استمرارية انتباه الأطفال، بألا تكون البداية بعد فترات طويلة من الانتباه، مع ملء جو الفصل بالمؤثرات التي تمكننا من تنفيذ المهام التعليمية وكذا التعزيز المستمر الذي يؤدي إلى حده اضطراب الانتباه ، كما يقولون لأنفسهم قبل أن يبدءوا أية مهمة تعليمية : أنا سوف

أتوقف، استمع، أنظر، أفكر قبل أن أنجيب، ..... قد نتج عنه تحسن كبير في سلوك الأطفال، كما أن إعطاء مزيد من وقت التركيز، والاستجابة الأمرية الفورية تقدم تحسنا في علاج حالات اضطرابات الانتباه فرط النشاط .(18)

ويقوم العلاج السلوكي على نظرية أن السلوك الخاطئ يرجع إلى تعلم وتكيف خاطئين ، ومن ثم يهدف العلاج السلوكي إلى إزالة السلوك الخاطئ وإعادة التعلم والتكيف،

- العلاج النفسي Psychotherapy:

لابد أن يصاحب العلاج الطبي مساعدات نفسية لإعطاء الطفل مضطرب الانتباه مفرط النشاط فرصة ليكتشف معنى الدواء بالنسبة له، ويعرف أن الدواء مجرد مساعد حتى يقلل من قلقه.. ومن ثم يجب على الوالدين والمعلمين وضع نظام معين للثواب والعقاب لتعديل الجوانب المزاجية والانفعالية لدى الطفلو أن يواجهوا المستلزمات الطبيعية للنضج ، ويشبعوا الحاجات النفسية للأطفال ، لاكتساب القيم وتكوين أنا أعلى طبيعي قابل للتكيف بالإضافة إلى استخدام فنيات للتعامل مع المشكلات ضمن الخطة العلاجية.

3- نظرية فيغوتسكي :

نظرية فيجوتسكي وتطور المفاهيم:

يتضح من خلال القراءات المتوفرة عن نظرية الثقافة الاجتماعية، أن فيجوتسكـــــي له فكرته الخاصة في كيفية اكتساب المفاهيم وتعلمها عند الأفراد، وكذلك كيفية تعلم الأطفال المفاهيم ومراحل تطورها عندهم.

تتصل خارجياً بالانطباع لديهم عندما يبدأ الأطفال باكتساب الكلمات فهم يميلون إلى وضعها في سلسلة عناصر

عن تلك الكلمات، وهذا الانطباع لا يكون بنفس الصورة عند جميع الأطفال في الفئة العمرية نفسها، وقد يتزامن كلام الطفل مع كلام البالغ أحياناً، فهذا التقاطع هو الذي يؤسس للطفل تفاعلاً اجتماعياً من خلال تلك الكلمات التي لها معنى. وبالرغم من اختلاف معاني الطفل عن البالغ إلا أن الطفل عنده صورة توفيقية؛ وتعني أنه بطريقة ما أو بأخرى تجمعت هذه الصورة في مزيج واحد في فهم وتمثيل الطفل اللذان يتطابقان في هذه المرحلة مع) 19 (معنى الكلمة.

وخلال عملية المحاولة والخطأ؛ يبدأ الأطفال بتنقية الصورة التوفيقية ويستمر ذلك، ولكن ليس بتوجيـــــه من الارتباطات الموضوعية الموجودة في الأشياء نفسها، ولكن بالارتباطات الشخصية التي يستدعيها فهمهم الخاص".

جوهر النظرية الثقافية الاجتماعية لفيجوتسكي:

الموضوع الرئيس للإطار النظري لفيجوتسكي هو ذلك التفاعل الاجتماعي الذي يلعب دورا أساسيا في تطويـــر الإدراك. ويظهر مدى تطور الطفل الثقافي مرتين الأولى على المستوى الاجتماعي ولاحقاً على المستوى الفردي، (Intrapsychological).وبعد ذلك داخل الطفل (Interpsychological) فبداية يظهر بين الناس

على حد سواء على الانتباه الطوعي والذاكرة المنطقية وتشكيل المفاهيم، وكل الوظائف العليا التي تنشأ كعلاقات

فردية. والسمة الثانية لنظرية فيجوتسكي هي أن التطوير الإدراكي يعتمد على منطقة النمو القريبة المركزيـــــة فمستوى التطوير يتقدم عندما ينخرط الأطفال في السلوك الاجتماعي. فالتطوير يلزمه تفاعل اجتماعيZDP

كامل، ومدى المهارة التي تُنجز بتوجيه بالغ أو تعاون أقران تتجاوز ما يمكن أن ينجز لوحده.(20)

فالوعي لا يوجد في الدماغ بل في الممارسة اليومية؛ هذه الفرضية هي التي شكلت قاعدة عمل فيجوتسكي.(21)

ومما سبق يتضح أن التفاعل الاجتماعي يلعب دورا مهما في اكتساب الفرد للمعرفة، ومما يؤكد ذلـــك أن فيجوتسكي ركز من خلال السمة الثانية للنظرية على منطقة النمو القريبة المركزية والتي يمكن تنميتها بالتفاعل الاجتماعي مع شخص بالغ أو ، قرين أكثر خبرة، ولهذا يجب إلقاء الضوء على منطقة النمو القريبة المركزية كونها

هي ما يسعى فيجوتسكي إلى إيجاده وتحقيقه من خلال نظريته.

- منطقة النمو القريبة المركزية "Zone of Proximal Development" (ZPD) :

لأنها تحمل تطويراً، وليس كنقطة على مقيـــاس (Zone) كلمة المنطقة (vygotsky) اختار فيجوتسكي

وإنما استمرارية السلوك أو درجـات النضج. وكلمة الأدنـى أو القريبـة تعني بأن المنطقة تحدد بتلك السلوكيات

التي ستتطور في المستقبل القريب، فهي تعني أن السلوك أقرب إلى الظهور في أي وقت، فليس كل سلوك محتمـل يجب أن يظهر في النهاية. ويرى فيجوتسكي أن السلوك يحدث على مستويين تشكـــــلان حدود منطقة النمو القريبة . المستوى الأدنى وهو أداء الطفل المستقل الذي يعرفه الطفل ويعمل لوحده، ويمثل المستوى الأعلى الحد الأعلى الذي يمكن أن يصل إليـه الطفـــل بالمساعدة ويدعى أداء مساعد. ويرى فيجوتسكي أن مستوى الأداء المستقل مهم جداً للوقوف على مستوى التطوير ولكن معرفته ليس كفاية، أما مستوى الأداء المساعد فهو يتضمـــن المساعدة أو التفاعل مع شخص آخر سواء بالغ أو أقران، فقد تكون المساعدة إعطاء تلميحات وأفكار أو إعادة إجابة سؤال أو إعادة صياغة ما قيل أو سؤال الطفل ماذا يفهم؟ أو يكمل جزء من مهمة أو المهمة كاملة وهكذا.

وممكن أن تكون المساعدة غير مباشرة مثل تهيئة بيئة معينة تسهل أداء المهارات، والتفاعل مع الآخرين كأن يوضح الطفل شيء معين لأقرانه، فمستوى الأداء المساعد يصف أي تحسينات موجودة لنشاطات الطفل العقلية الناتجة (22) من التفاعل الاجتماعي.

بأنها المسافة بين مستوى التطوير الفعلي الذي ينشأ من حل المشكلة ويمكن تعريف منطقة النمو القريبة المركزية

بصورة مستقلة وبين مستوى التطور المحتمل حدوثه خلال حل المشكلة بتوجيه بالغ أو التعاون مع الأقـــران

أو هي ما ينجزه الطفل اليوم بمساعدة الآخرين و يفعله غداً بشكل مستقل.(23).

الركائز الأساسية لمنطقة النمو القريبة المركزية: -

في عملية التدريس والتعلم في الفصل المدرسي (ZPD) لمنطقة النمو القريبة المركزية مفتاح نظرية فيجوتسكي

على أربعة ركائز مهمة وهي:

.طبيعة التفاعل الاجتماعي للتعلم.

.دور الأدوات النفسية والفنية.

.دور التفاعلات الاجتماعية كوسيط لتفكير المتعلم والممارسة الثقافية.

(24)الدور المتبادل بين المفاهيم اليومية والعلمية. .

أولاً: طبيعة التفاعل الاجتماعي للتعلم

اهتماماً كبيراً للغة باعتبارها أداة تنقل الخبرة الاجتماعية إلى الأفراد وتشكل المناخ العام لبيئــة يولي فيجوتسكي

الفصل، وهي وسيط للفكر،ويتصور فيجوتسكي أن الكلام عند الطفل يكون اجتماعياً في البداية، ثم يليه الكلام المتمركز حول الذات، وبعده الكلام الداخلي (التفكير). كما أنه يقرر بصراحة أن تدفق التفكير لا يصاحبه ظهور متزامن للكلام فالعمليتان ليستا متماثلتين، ولا يوجد تطابق جامد بين وحدات التفكير ووحدات الكلام، فالتفكير له بناؤه الخاص فهو لا يتم التعبير عنه في كلمات ولكنه يأتي ليس(vygotsky) إلى الوجود من خلال هذه الكلمات، والكلام الداخلي بالنسبة لفيجوتسكي ليس مجرد النطق الصوتي للجمل كما يرى واطسن، بل هو صورة أو شكل خاص من أشكال الكلام يقع بين التفكير والكلام المنطوق، ولكن علاقة التفكير بالكلام تتغير بثبات فهي عملية مستمرة وديناميكية وهي عملية حياة، فالتفكير يولد بالكلمات والكلمة الخالية من التفكير تعتبر شيئاً ليس له معنى، والتفكير غير المدفون في الكلمات يعتبر سرابا.

في فصول العلوم تتم من خلال المناقشة الاجتماعية (vygotsky) وبذلك فبناء المعرفة وفقاً لنظرية فيجوتسكي

والتفاوض بين المعلم والطلاب وبين الطلاب وبعضهم كعملية ثقافية لتوجيه تفكير الطلاب وتكوين المعنى. (25)

ثانياً: دور الأدوات النفسية والفنية

الأدوات النفسية مثل (الكتابة– الرسم– الحوار الشفهي– الرموز- الإشارات الأفكار– المعتقدات– اللغة ..) بها

يتحدث المتعلم عن الظاهرة من خلال ما اكتسبه من مفاهيم يومية نتيجة للتفاعلات الاجتماعية والأنشطة النفسية الخارجية، وهذه المفاهيم غير موجودة بشكل علمي في الظاهرة، وتعتبر هي نقطة بداية تنبع من المتعلم كتحفيز داخلي وتهيئة له وتهيئة له للتعلم، وتوضح مدى فهم المتعلم للمفهوم، وهي أدوات وسيطة للرؤية والعمل والتحدث والتفكير تجاه المفهوم.

ثالثاً: دور التفاعلات الاجتماعية كوسيط لتفكير المتعلم والممارسة الثقافية

ان تعلم العلوم يتطلب جزءاً من مشاركة المتعلم الاجتماعية مع شخص أو أكثر معرفة، أو مع مصدر للمعرفة مثل: (الكتاب– المدرس– مجلة– كمبيوتر .....)، فمن خلال هذه التفاعلات يكتسب المتعلمون لغة الاتصال العلمي كطريقة للرؤية والتفكير في الظواهر. وبذلك يكون المعلم مدعماً وموجهاً وأداة وسيطة ومساعدة لعمل وصلة بين المفاهيم والمعرفة الخارجية اليومية للمتعلم وبين المفاهيم والعلمية، وذلك بالتركيز على النشاط للمستوى السيكولوجي الخارجي للفصل.

رابعاً : الدور المتبادل بين المفاهيم اليومية والمفاهيم العلمية

ولاكتساب المفهوم لابد أن نبدأ أولاً من المفهوم في حد ذاته ما صورته عند المتعلم من خلال (العلامات– اللغة...) ثم المفهوم للآخرين (اجتماعياً)، ثم تكوينه عند المتعلم ذاته والمعلم يحاول ايجاد التكامل بين المفاهيم اليومية والمفاهيم العلمية، ويمد المتعلم بالمساعدات للدخول إلى المفاهيم العلمية، ويستخدم المتعلم عمليات ما وراء "Meta Cognitive " المعرفة ويكامل ويعمم معرفته اليومية (المادة الخام الطبيعية) إلى نظام متماسك من المفاهيم العلمية فالمفاهيم اليومية التلقائية في نظر فيجوتسكي تنمى من المحسوس للمجرد أما المفاهيم العلمية تنمى في الاتجاه العكسي، فالمتعلم يلائم المفاهيم اليومية داخل النظام المفاهيمي الذي يعلم في المدرسة (المفاهيم العلمية)، وفي نفس الوقت لابد أن يفهم المفاهيم العلمية من خلال التطبيق بأمثلة محسوسة في ضوء خبراته فالاتجاه من المحسوس للمجرد ومن المجرد للمحسوس، فالحركة في الاتجاهين (ذهاباً وإياباً) ضروري للفهم.

4- الحديث الى الذات لعلاج قصور الانتباه و تنشيط البناء المعرفي :

كان العديد من علماء النفس قد انتهوا إلى أن تلاميذ المدرسة الابتدائية، ممن هم قليلو التركيز أو المندفعون (المتهورون) أو الذين لديهم عوائق تعليمية، يعانون عجزا في ممارسة التحدث إلى النفس، ولعلاجهم صمم الباحثون وطبَّقوا بصورة واسعة برامج تدريبية تهدف إلى إثارة هؤلاء الأطفال كي يتحدثوا إلى أنفسهم. ففي برنامج نموذجي كان يُطلب إلى الأطفال أن يقلدوا المعالِج وهو يدلي بحديث إلى نفسه بغرض توجيه الذات بينما ينجز مهمة لديه، ثم يقوم المعالج بتحريك شفتيه فقط (من غير صوت) ويطلب إلى التلاميذ أن يتلفظوا ما تمتم به المعالج بصوت غير مسموع.

لقد أفصح ڤيگوتسكي في مقالاته عن روابط قوية بين الخبرة الاجتماعية والتعلم. وطبقا لرأي هذا المربي الروسي فإن المفاهيم الواقعية التي يستطيع الطفل أن يستوعبها تقع ضمن ما أسماه منطقة النمو الوشيك (الكامن). ويقصد بذلك مجموعة الأعمال التي لا يستطيع الطفل إنجازها إلا بتوجيهٍ من شخص بالغ (راشد) أو طفل آخر أكثر مهارة. فعندما يعالج الطفل مع مرشده مهمة تتحداه، فإن ذلك المرشد أو الموجه يقدم للطفل تعليمات وخططا في قالب لغوي. ويدمج الطفل لغة تلك التعليمات في تحدثه إلى نفسه مستخدما ذلك في توجيه أعماله وجهوده المستقلة.

كتب ڤيگوتسكي يقول: «إن اللحظة الأكثر دلالة للنمو الفكري... تتم عند التقاء الكلام بالنشاط العملي، في حين كان هذان العاملان يعتبران فيما سبق خطين مستقلين تماما للنمو.» ويؤكد ڤيگوتسكي أن اتجاه النمو ليس ذلك الاتجاه الذي يحل في نهايته التواصل (التخاطب/ التفاهم) الاجتماعي محل التعبيرات المتمركزة حول الذات، كما كان بياجيه يدعي. بل على العكس، فإن ڤيگوتسكي يفترض أن التواصل الاجتماعي المبكر يعجل من استخدام الطفل للتحدث إلى النفس. ويصر على أن هذا التواصل الاجتماعي ينمي ويطور العمليات المعرفية (الإدراكية) العليا التي ينفرد بها الإنسان عن غيره من المخلوقات. فبالتخاطب والتواصل مع أفراد المجتمع من الراشدين (الناضجين)، يتعلم الأطفال إتقان النشاطات وكيفية التفكير بطرائق وأساليب ذات معنى في ثقافة بيئتهم .((26

4- الحديث الى النفس وفق نظرية فيغوتسكي :

والآن نتساءل كيف نستطيع بالتحدث إلى النفس أن نوجه تعليم الأطفال الأسوياء وأيضا الذين يعانون مشكلات تعليمية وسلوكية؟ تشير الأدلة ككل إلى أن التحدث إلى النفس هو أداة لحل المشكلات، التي تتوافر بصورة عامة لدى الأطفال الذين ينشؤون في بيئات غنية ومتفاعلة اجتماعيا. إن العديد من العوامل المتداخلة . كالمتطلبات التي تفرضها مهمة معينة، ومضمونها الاجتماعي، وخصائص (صفات) الطفل الفردية . تتحكم كلها في مقدار وسهولة استخدام الطفل للحديث الموجّه للذات والمساعد على ضبط سلوكه. إن التدخل الأكثر فائدة ليس في نظرتنا للتحدث إلى النفس على أنه مجرد مهارة يجب التدريب عليها وإنما هو في خلق الظروف التي تساعد الأطفال على استخدام التحدث إلى النفس بشكل فعال.

عندما يحاول الطفل القيام بأعمال جديدة فهو بحاجة إلى تدعيم حواري من قبل شخص بالغ (راشد) وصبور ومشجع، يقدم له القدر المناسب من المساعدة بعد درايته بمهارات الطفل الحالية. فعلى سبيل المثال، عندما لا يستوعب الطفل متطلبات نشاط معين، فإن بإمكان شخص بالغ أن يقدم توجهات واضحة وصريحة للطفل. وبمجرد إدراك الطفل لكيفية ارتباط هذه الأفعال بالهدف للعمل (المهمة) المطروح عندئذ على البالغ تقديم الخطط والأساليب للحل بدلا من المساعدة المباشرة، وبالتدريج يستطيع البالغون التوقُّف عن تقديم هذا الدعم عندما يصير الأطفال قادرين على توجيه مبادراتهم بأنفسهم. وغالبا ما يحرم الأطفال المندفعون وعديمو الانتباه من هذه المساعدة في التعلم بسبب السلوكيات المتوترة للعلاقة القائمة بين الشخص البالغ والطفل. فالأطفال كثيرا ما يتعرضون للأوامر والتأنيب والنقد مما يحول بينهم وبين تعلمهم كيفية السيطرة على أفعالهم.(27)

ان على الآباء والمعلمين أن يدركوا القيمة الوظيفية للتحدث إلى النفس. ونحن نعلم الآن أن التحدث إلى النفس سلوك صحي وتكيفي وأساسي، وأن بعض الأطفال أحوج من غيرهم إلى استخدامه ولمدة أطول. ومع ذلك، فمازال العديد من البالغين يعتبرونه غير ذي معنى وسلوكا مرفوضا اجتماعيا، بل أكثر من ذلك علامة على مرض عقلي. ونتيجة لذلك، فإنهم غالبا ما ينهون الأطفال عن التحدث إلى أنفسهم. وفي المنزل على الآباء أن يحسنوا الإصغاء لتحدث الطفل إلى نفسه ليكونوا أكثر دراية بخطط الطفل وأهدافه والمصاعب التي تواجهه. وعلى المعلمين كذلك أن يستوعبوا حقيقة أنه حينما يستخدم التلاميذ التحدث إلى النفس بقدر أكبر من القدر المناسب لعمرهم فإن ذلك يدل على حاجتهم إلى المزيد من الدعم والإرشاد. ومما لا شك فيه أنه مازال علينا أن نكشف المزيد عن كيفية حل الأطفال للمشكلات من خلال استخدامهم للحديث العفوي الخاص. وعلى كل حال فإن نظرية ڤيگوتسكي عمَّقت فهمنا لهذه الظاهرة إلى حد كبير، كما تساعدنا حاليا على تصميم أساليب تعليمية أكثر فاعلية لدى جميع الأطفال، وعلى معالجة الأطفال ذوي المشكلات التعليمية والسلوكية. ولا يستطيع المرء إلا أن يأسف للأجيال السابقة من علماء النفس والمربين وأولئك الذين كان بإمكانهم تقديم العون في هذا المضمار. لكن لم تُتَحْ لهم فرصة الاطلاع على آراء ڤيگوتسكي.(28)

المراجع

(1) : عبد الوهاب ، فائزة عبد الرحمن محمد ، دراسة بعض مشكلات الاطفال ، رسالة ماجستير غير منشورة ، وزارة التربية ، بغداد ، 1975 ، ص 12

(2): الفقي حامد عبد العزيز، التأخر الدراسي تشخيصه وعلاجه ط 3،علم الكتب.القاهرة1974 ، ص226

(3): الفقي،حامد عبد العزيز، التأخر الدراسي تشخيصه وعلاجه ط 3،علم الكتب.القاهرة1974 ، ص 226

(4): السيد فؤاد البهي ، علم النفس الاحصائي وقياس العقل البشري ، ط 3، القاهرة. دار الفكر العربي1979 ، ص 68

(5) Keller, Peter. A. and Edward J.Muvy. Imitative "Aggession with Adult Male And Female models in father Absent and father presentNegoBoys" Jornal of Genetic psycholohy 1973 p 122 .

(6): هول . و.ج.ليندزي ، نظريات الشخصية ، ترجمة فرح احمد واخرون ، القاهرة. ، الهيئة المصرية للنشر، 1971 ، ص68

(7): الجمهورية العراقية ، وزارة التربية ، اللجنة الوطنية العلمية للتربية الخاصة ، التقرير السنوي لاعمال اللجنة ، 1985، ص 05

(8): عبد الهادي نبيل نصر الله و عمر شقير سمير، بطء التعلم وصعوباته،الطبعة الأولى، الأردن ، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع، 2000

(9): عبد الهادي نبيل نصر الله و عمر شقير سمير، بطء التعلم وصعوباته،الطبعة الأولى، الأردن ، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع، 2000

(10): عبد الهادي نبيل نصر الله و عمر شقير سمير، بطء التعلم وصعوباته،الطبعة الأولى، الأردن ، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع ، 2000

(11): عبد الهادي نبيل نصر الله و عمر شقير سمير، بطء التعلم وصعوباته،الطبعة الأولى، الأردن ، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع ، 2000

(12): أحمد السيد علي و بدر فائقة الإدراك الحسي البصري والسمعي، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 2001

(13): مساد عمر حسن، سيكولوجية الإبداع ، الطبعة الأولى ، الأردن ، عمان ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، 2005 ، ص175

(14): أحمد السيد علي و بدر فائقة ، الإدراك الحسي البصري والسمعي، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 2001 ،ص 17

(15): الزيات فتحي، الأسس النظرية والتشخيصية والعلاجية لاضطراب العمليات المعرفية والقدرات ، 1998 ، ص5

(16):زهران حامد ، التوجيه والإرشاد النفسي، القاهرة، عالم الكتب ،1980

(17): الزيات فتحي، الأسس النظرية والتشخيصية والعلاجية لاضطراب العمليات المعرفية والقدرات ، الطبعة الأولى، مصر، القاهرة ، دار النشر للجامعات ، 1998 ، ص315

(18): عاشور أحمد حسن محمد و عبد الهادي نبيل نصر الله ، الانتباه والذاكرة العاملة لدى عينات مختلفة من ذوي صعوبات التعلم وذوي فرط النشاط الزائد و العاديين موقع أطفال الخليج ،2008 ، ص 51 - 52

(19) : Vygotsky, L. S. **Thinking and speech** (N. Minick, Trans.). InR. W. Rieber & A. S. Carton (Eds.), The collected works of L. S.Vygotsky: Vol. 1. 1987

(20): Kearsley, Greg: **Learning with Software**(Pedagogies and Practice Bock), from Social development theory (l. vygotsky), http://trp.Psychology. Org/ vygots;y. html. 1996

(21): Ryder, M.: The World Wide Web and The Dialectics of Consciousness. **International Society for Culture Research andActivity Theory,** Aarhus, Denmark, June, 7- 11. 1998

(22) : Leong, Deborah J. & Bodrova, Elena: Vygotsky's Zone of Proximal Development. **Of Primary Interest**, Published co-operativelyby the Colorado, Iowa, and Nebraska Departments of Education, Vol.2No. 4**.** 1995

(23) : Vygotsky, L. S.: **Thinking and speech** (N. Minick, Trans.). InR. W. Rieber & A. S. Carton (Eds.), The collected works of L. S.Vygotsky: Vol. 1. 1987

(24): Chaiklin, Seth: **The zone of proximal development in Vygotsky's analysis of learning and instruction**. University of Miami & Florida International University, from Chat Seminar. 2002

(25) : Shepardson, D.P: Learning Science in a First Grad Science Activity: AVygotskian Perspective**. Science Education,** Vol. 83, No. 5,621-638. 1999

(26): Nicaise, M & Barnes, D:The Union of TechnologyConstrutivism and Teacher Education.**Journal of Teacher Education**,Vol.47,No.3,205-212. 1996

(27):VYGOTSKY: THE MAN AND HIS CAUSE.Guillermo Blanck in Vygotsky and Education:Instructional Implications and Applications of Sociohistorical Psychology.Edited by Luis C. Moll.Cambridge University Press, 1990.

(28): A LONGITUDINAL STUDY OF THE DEVELOPMENT OF ELEMENTARY SCHOOL CHILDREN'S PRIVATE SPEECH. J. A. Bivens and L. E. Berk in Merrill-Palmer Quarterly, Vol. 36, No. 4, pages 443-463; October 1990.

مساهمة البنية العائلية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا (دراسة حالة)

أ. عمارة خيذر (جامعة بسكرة)

ملخص الدراسة:

إذا كانت الخصائص النفسية للفرد قد أخذت الحيّز الأكبر في دراسات مختلف الاختصاصيين حول دورها في سيرورة عمل الحداد بداية من **فرويد** (Freud) و**كارل أبرهام** (Karl Abraham) إلى **ميلاني كلاين** (Mélanie Klein)... وآخرين، فإن البحث في مساهمة العوامل الخارجية كالوسط الاجتماعي أو البنية العائلية مثلا في هذه السيرورة بقي محدودا جدا. لذلك سنحاول في هذا المقال عرض دراستنا التي تناولنا فيها مساهمة البنية العائلية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا. حيث طبقنا فيها منهج دراسة الحالة، ووظفنا ثلاث أدوات لجمع المعلومات، تمثلت في المقابلة العيادية نصف الموجهة، اختبار إسقاطي تحليلي هو اختبار تفهم الموضوع (TAT) واختبار إسقاطي نسقي هو اختبار إدراك العائلة (FAT).

Résumé :

La grande majorité des études des spécialistes s'est concentrée depuis Freud et Karl Abraham jusqu'à Mélanie Klein ...et autres, sur le rôle des caractéristiques psychiques individuelles dans le processus du travail de deuil, par contre, les recherches concernant les facteurs extérieurs (ex. le milieu social et la structure familiale) en relation avec le même processus restent toujours minimes. Pour cela, nous allons par le biais de cet article exposé les résultats de notre recherche intitulée : « La contribution de la structure familiale dans le processus de travail de deuil du retraité obligatoire ». Nous avons adopté dans cette recherche la méthode d'étude de cas et pour la collecte des données, trois outils ont été utilisé, en l'occurrence l'entretien clinique semi-directif, le test projectif psychanalytique TAT et le test projectif systémique FAT.

Abstract:

The contribution of the family structure in the process of mourning work in the compulsory retired

The vast majority of expert's studies focused since Freud and Karl Abraham to Klein on the role of individual psychological characteristics in the process of grieving, for cons, research on the factors external (eg. social environment and family structure) in relation to the same process remain minimal. For this, we will through this article present the results of our research entitled "The contribution of the family structure in the working process of mourning compulsory retired." We adopted in this research the case study methodology and data collection, three tools were used, in this case the semi-structured clinical interview, the psychoanalytic projective test TAT and FAT systemic projective test.

مقدمة

كان مفهوم الحداد في السابق مرتبطا ارتباطا وثيقا بالموت، حيث أنه كان يمثل مجموعة من الأفعال الاجتماعية أو الطقوس التي تصاحب وفاة شخص ما؛ إلا أن التعريف الذي قدمه **فرويد** عام 1915 للحداد معتبرا إياه ردّ فعل على فقدان شخص عزيز أو فقدان لشيء معنوي كالوطن، الحرية أو موضوع مثالي ما، جعل هذا المفهوم منذ ذلك الحين يتوسّع أكثر ويشمل ردّ فعل على أيّ موضوع مادي أو معنوي يتم فقدانه كليا أو جزئيا (Hanus, 2002).

ولقد بيّن **فرويد** جوهر عمل الحداد في كتابه "حداد ومنخوليا" (Deuil et mélancolie)، حيث أن حقيقة الواقع تجبر على الانفصال وعلى سحب الاستثمار من الموضوع المفقود. هذا العمل يتطلب وقتا؛ ويحدث شيئا فشيئا وتدريجيا. إن كل الذكريات والآمال المرتبطة بالموضوع المفقود يجب أن تعود إلى الوعي؛ وغالبا عدة مرات، من أجل أن توسم بختم الحقيقة المؤلمة – حقيقة فقدان الموضوع -. وفي كل مرة نتألم فيها يتم فيها انفصال الليبيدو. ومن خلال هذا الفعل المركزي تحدث سيرورتان أساسيتان لعمل الحداد، تتمثل السيرورة الأولى في إرصان التماهيات النكوصية (Elaboration des identifications régressives)، أما الثانية فهي إرصان الأحاسيس اللاشعورية بالذنب (Elaboration des sentiments inconscients de culpabilité) (Hanus, 2002).

ويمكن الحديث على أن هناك عمل حداد إذا ما مرّ بالمراحل التالية: فبعد فقدان الموضوع كالتوقف عن مزاولة عمل نتيجة الإحالة على التقاعد يكون ردّ الفعل الأولي للشخص هو الإنكار والرفض فتراه ينهض باكرا ويتوجه إلى مكان عمله السابق، ويتّخذ له مكانا في مقهى قريب ولا يعود إلى بيته إلا بعد نهاية دوام العمل، إنه يبحث عن الموضوع المفقود. ولما يتيقن بأن فقدانه لهذا الموضوع نهائي لا رجعة فيه يأتي الاعتراف والإقرار بهذا الفقدان، لم يعد موظفا أو مسؤولا في تلك المؤسسة، لم يعد هؤلاء الموظفين تحت مسؤوليته، لقد تغيرت حياته وعليه أن يتقبل هذا التغيير؛ وهذا ما يدخله في مرحلة اكتئاب، تتميز بفقدان الأمل في إيجاد الموضوع المفقود مرة أخرى، فالواقع يفرض عدم وجوده إطلاقا، إنها مرحلة الانفصال الحقيقية. تعتبر هذه المرحلة التي يتم فيها الانفصال الانفعالي (Désinvestissement) عن الموضوع من أطول

المراحل وأشدها ألما (Bacqué, 2000). في غضونها يقبل هذا الشخص تهدّم جزء من شخصيته على أمل إعادة بنائها حول موضوع جديد، لا تكاد تنتهي هذه المرحلة حتى تكون مرحلة جديدة قد باشرت عملها وتسمى بمرحلة إعادة التنظيم يتم خلالها التقبل النهائي لفقدان الموضوع وإعادة الاستثمار في مواضيع جديدة.

إلا أنه توجد حالات تحدث فيها تعقيدات أثناء عمل الحداد كأن تطول مرحلة الإنكار والرفض أو لا تظهر الأعراض الاكتئابية الخاصة بالحداد السوي مثل الحزن والأسى، فيبدو الفرد وكأنه متحكّم في انفعالاته إلا أنه في الحقيقة يعاني من اكتئاب مقنّع، أما إذا امتد الحداد لفترة طويلة مبالغ فيها من حياة الفرد وأصبحت هذه الحالة هي الميزة الأساسية لحياته تؤثر حتى على علاقاته مع الآخرين وتؤدي به إلى الانعزال؛ فنقول في كل هذه الحالات أنه لم يكن هناك عمل حداد.

من الخطأ القول بأن هناك حداد نموذجي يمكن اعتباره معيارا تقاس به حالات الحداد الأخرى، فكل حداد حالة قائمة بذاتها وكل توظيف نفسي مرتبط بالخصائص النفسية لذلك الفرد وبقصة حياته الفريدة من نوعها والتي لا تتشابه أبدا مع قصة حياة فرد آخر ولو كانا توأما. وحتى أن عمل الحداد لا يستلزم بالضرورة أن يكون الموضوع المفقود ذو قيمة كبيرة في الواقع، بل تحدد قيمته بالمكان الذي يحتله هذا الموضوع في الواقع النفسي للفرد أي بمدى استثمار الفرد لهذا الموضوع حتى وإن كان تافها ودون قيمة في الواقع الخارجي.

فوظيفة مدير مؤسسة أو رئيس مصلحة مثلا هي غير محببة عند البعض ولا يسعون وراءها، لكن عند البعض الآخر يعتبرونها الوسيلة التي مكنتهم من تحقيق ذواتهم واحتلال مكانة خاصة في المجتمع وربط علاقات مهنية واجتماعية متعددة؛ فاستمرار هذه المكانة مرتبط باستمرارهم في تلك الوظيفة؛ لذلك تجدهم متعلقين جدا بها ولا يتصورون حياتهم بدونها. فمن وجهة نظر هؤلاء أن كل هذه المزايا التي تحصلوا عليها خاصة المعنوية منها هي لكونهم يمارسون المسؤولية، إن لهذه الوظيفة مكانة كبيرة في واقعهم النفسي.

إذا كانت الإحالة على التقاعد هي توقف الفرد عن مزاولة وظيفة حققت له العديد من المزايا؛ والتخلي عن ذلك السلوك الذي دأب على القيام به طيلة عقود من الزمن، ألا يكون الانفصال عن هذه الوظيفة هو انفصال عن موضوع (أي فقدان

للموضوع)؟ مما يستوجب عملا نفسيا شاقا يتمثل في عمل الحداد، يسمح لهذا الفرد بإعادة التوازن النفسي لحياته والتكيّف مع التغيرات الجديدة، يكون أساسه سحب الاستثمار من الموضوع المفقود وإعادة استثمار مواضيع جديدة.

لقد بيّنت الدراسات أن للتوظيف النفسي للفرد دور واضح في سيرورة عمل الحداد؛ كأن يبقى مستحيلا في التوظيف الحدّي (Bergeret, 1996). إلاّ أن هذا لا ينفي وجود دور للعوامل الخارجية كالعائلة، جماعة الرفاق وثقافة المجتمع في ذلك؛ خاصة في المجتمعات التي مازالت العائلة تحافظ فيها على تماسك وتلاحم أفرادها، وتعطي للمسنين دورا بارزا في تسيير هذه العائلة. إن التحولات السريعة التي شهدتها مختلف المجتمعات في السنوات الأخيرة والتي مازالت مستمرة إلى حد الآن نتيجة التطور التكنولوجي الهائل، جعلت الباحثين يولون أهمية خاصة للبنية العائلية (La structure familiale)، غير أن الغالبية العظمى من هذه الدراسات أنجزت في المجتمعات الغربية (Faure-Pragier, 2011)، التي تختلف خصائصها كليا عن خصائص المجتمعات الإسلامية والعربية بصورة عامة والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص. لذلك لا يمكننا إسقاط نتائج تلك الدراسات على مجتمعنا، وهذا ما يجعلنا في أمس الحاجة إلى إنجاز دراسات خاصة بنا، نتوصل من خلالها إلى تحديد مدى مساهمة البنية العائلية الجزائرية في سيرورة الجوانب المختلفة من التوظيف النفسي لأحد أفرادها.

ومن خلال هذا البحث سنعمل على دراسة مساهمة البنية العائلية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا؛ وسيتم ذلك من خلال محاولة الإجابة على التساؤلين التاليين:

- ما هو نوع البنية العائلية الذي يساهم أكثر في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا؟

- كيف يساهم هذا النوع من البنية العائلية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا؟

صياغة الفرضيات:

- البنية العائلية الحاوية (La structure familiale contenante) هي التي تساهم أكثر في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا.

- تساهم البنية العائلية الحاوية في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا وذلك بمساعدته على تجاوز المرحلة الاكتئابية واستثمار مواضيع جديدة.

ويقصد هنا بالعائلة الحاوية هي تلك العائلة التي يتفاعل فيها أفرادها وفق الخصائص التالية:

- وجود تواصل دائم بين الأفراد؛
- الحضور والمشاركة في مختلف المناسبات (الأفراح والأحزان)؛
- تقديم المساعدة المادية والمعنوية عند الحاجة؛
- وضوح الحدود بين الأفراد؛
- وجود علاقات بين الآباء والأبناء؛ وبين الأبناء فيما بينهم.

2 – الطرائق:

نظرا لكون هذه الدراسة تهدف إلى البحث المعمق في الجانب النفسي لشخصية الفرد، من خلال دراسة إحدى السيرورات النفسية الداخلية (Processus intrapsychiques) للتوظيف النفسي والمتمثلة في عمل الحداد، وكذا نوع العلاقات النفسية بين هذا الفرد وباقي أفراد أسرته (Relations inter-psychiques) في مراحل مختلفة من حياته، فإن أنسب منهج لهذه الدراسة من وجهة نظر الباحث هو دراسة الحالة. أما من حيث الأدوات المستعملة لجمع البيانات فتمثلت في المقابلة العيادية نصف الموجهة، اختبار تفهم الموضوع *T.A.T* واختبار *الإدراك العائلي F.A.T*.

من بين الخصائص التي وجب توفرها في الحالة (المفحوص) التي تجرى عليها الدراسة هي أن تكون مارست وظيفة عليا في القطاع العمومي وأحيلت على التقاعد الإلزامي (بلوغ 60 سنة) منذ سنة على الأقل.

لقد تم إجراء المقابلة العيادية نصف الموجهة مع المفحوص في مكتب الباحث، فبعد تحديد الموعد مسبقا بعدة أيام يتم الاتصال به هاتفيا يوم قبل تاريخ المقابلة وذلك لتذكيره بالموعد؛ وكذلك لمعرفة إذا ما كان هناك طارئ يمنعه من الحضور.

بعد حضور المفحوص إلى المكتب يتم الترحيب به، ورغم أنه قد تم اطلاعه عن مضمون الدراسة بصورة عامة في اللقاء الأول، إلا أنه في هذا اللقاء يتم إخباره بنوع من التفصيل بموضوع الدراسة وبطريقة مشاركته فيها، خاصة عدد المرات التي سيحظر

فيها إلى المكتب التي لن تقل عن ثلاثة بحساب هذا اللقاء، اللقاءين الآخرين منفصلين سيخصصان لإجراء اختباري TAT وFAT. تم إخبار المفحوص أن هذا اللقاء خاص بإجراء مقابلة بستة محاور (تم اطلاعه على المحاور الستة)، وما سهّل التواصل بين الباحث والمفحوص هو المستوى العلمي العالي لهذا الأخير حيث جعله يستوعب كل ما يقال له بسهولة.

بعد الانتهاء من المقابلة العيادية، تم تحديد الموعد المقبل الخاص باختبار تفهم الموضوع، يجب الإشارة إلى أن المدة الفاصلة بين المقابلات الثلاث لكل مفحوص كانت أسبوعا واحدا على الأقل.

ويمكن تلخيص دليل المقابلة العيادية نصف الموجهة في الجدول التالي:

رقم المحور	محتوى المحور	الأهداف
01	بيانات شخصية	- جمع بيانات حول المفحوص
02	الحياة العائلية في مرحلة الطفولة	- معرفة تصورات المفحوص تجاه عائلته في مرحلة الطفولة - استخراج نمط تنظيم عائلة المفحوص في مرحلة الطفولة
03	الحياة العائلية الحالية	- استخراج تصورات المفحوص تجاه عائلته الحالية - استخراج نمط تنظيم عائلة المفحوص الحالية
04	المعاش النفسي قبل أكثر من سنة من التقاعد	- معرفة مدى استثمار المفحوص لوظيفته - معرفة تصور المفحوص للتقاعد
05	المعاش النفسي في السنة الأخيرة قبل التقاعد	- معرفة مدى تقبل المفحوص لفكرة التقاعد
06	المعاش النفسي بعد الإحالة على التقاعد	- تكوين فرضية حول قيام المفحوص بعمل الحداد

3 – النتائج:

بعد إجراء المقابلة العيادية واختباري T.A.T وF.A.T تم الحصول على النتائج التالية:

- تحليل المقابلة العيادية نصف الموجهة:

المحور الأول: بيانات شخصية / تقديم الحالة

يبلغ سعيد (اسم مستعار) 61 سنة، يعيش مع عائلته المتكونة من الزوجة وخمسة أبناء (ولدان و03 بنات)، له ولد واحد بالغ وما زال يسكن معه في البيت، كان يشغل منصب مدير مؤسسة عمومية قبل تقاعده. تقاعد بتاريخ 01 ديسمبر 2012 أي منذ سنة، ترتيبه الثالث بين إخوته (له أخوين).

من خلال تحليل البيانات المتحصل عليها من هذا المحور تبيّن أن عائلة سعيد هي من النمط النووي الموسع.

المحور الثاني: الحياة العائلية في مرحلة الطفولة

لقد قضى سعيد طفولة عادية لم تتخللها تجارب قاسية، كان يسكن مع والديه، إخوته وبعض أقاربه في نفس البيت، وهذا ما يجعل نمط عائلته في مرحلة الطفولة من النوع الموسع (عائلة تقليدية)، كما أن الأب رغم أن سعيد يقرّ بأنه قام بتربيتهم أحسن تربية ووفّر لهم كل ما يحتاجون إليه، إلا أن أب سعيد لم يشذّ عن خصائص الآباء التي كانت تميز العائلة الموسعة التقليدية في ذلك الوقت، حيث كان حازما وهو المرجع الوحيد لأخذ القرار في العائلة **"كان أبي حازما في قراراته إذا قال أحمر فأحمر وإذا قال أبيض فأبيض"**. كما كانت علاقة سعيد بوالديه، إخوته وأقاربه الذين يسكنون معه في البيت العائلي عادية.

المحور الثالث: الحياة العائلية الحالية

يسكن سعيد حاليا مع عائلته المتكونة من الزوجة، ولدين أحدهما بالغ وأعزب وثلاث بنات. لا يبدو أنه توجد مشاكل بين أفراد العائلة، فكل فرد يكن للآخر الحب والاحترام، حتى وإن كانت هناك بعض المناوشات بين الأطفال الصغار فإنها لا تعدو أن تكون عادية ويمكن أن نجدها في أي عائلة.

أما من حيث العلاقات داخل عائلة سعيد فيمكن أن نلاحظ وجود العلاقات الأفقية **"نعم أستشير زوجتي"** والعلاقات العمودية **"بصراحة الكبار فقط"** - والقصد هنا الأبناء الكبار فقط -، مع الحرص على وجود الحدود **"ولكن أذكرهم دائما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بأنني أنا الأب"**؛ لذلك يمكن اعتبار عائلة سعيد ذات بنية حاوية "une structure familiale contenante"، كما أنها من النمط النووي الموسع " Famille nucléaire élargie".

المحور الرابع: المعاش النفسي قبل أكثر من سنة من التقاعد

لقد كانت تحتل وظيفة مدير مكانا هاما في الواقع النفسي لسعيد مما يعتبر استثمارا لهذه الوظيفة كموضوع داخلي، كما كان باقي أفراد العائلة راضون عن هذه الترقية (كمدير مؤسسة)، كما كانت لسعيد علاقات جيدة مع المستخدمين في المؤسسة. أما بالنسبة للتقاعد فلم يكن لسعيد أفكار سلبية حوله، والدليل على ذلك أنه لم يكن ضد التقاعد المسبق، ولولا مشكل السكن لقدم طلبا للاستفادة من هذا الأخير، حيث أنه كان يقيم في مسكن وظيفي تابع لمؤسسة العمل، ولم يكن يملك مسكنا خاصا به خارج المؤسسة.

المحور الخامس: المعاش النفسي في السنة الأخيرة قبل التقاعد

مع اقتراب تاريخ التقاعد بدأ سعيد يشعر بالقلق **"عشتها مع نوع من التعب، كنت أشعر بالوهن"**، ربما يرجع ذلك إلى شعوره بالقلق الناتج عن قلق الانفصال عن الموضوع، بسبب الإحالة على التقاعد، رغم أن سعيد كان يشعر بالقلق مع اقتراب تقاعده إلا أن هذا لا يعتبر رفضا للتقاعد وإنما هو شعور طبيعي يحدث مع أي انفصال، لذلك يمكن اعتبار سعيد متقبلا لفكرة التقاعد وما يدعم ذلك هو ما أشرنا إليه في المحور السابق كونه لم يكن يرفض فكرة التقاعد المسبق لولا مشكل السكن.

المحور السادس: المعاش النفسي بعد الإحالة على التقاعد

إن النتائج المتوصل إليها من تحليل إجابات المفحوص في هذا المحور تدعم ما تم الوصول إليه في المحاور السابقة، حيث يبدو أن سعيد نجح في القيام بعمل الحداد، وما جعلنا نميل إلى هذه الفرضية هو استثماره لمواضيع جديدة (المشروع التجاري) وتفرغه لعائلته، إلا أن ذلك لا يعني أن نجاح عمل الحداد سمح بحدوث الانفصال عن الموضوع المستثمر المفقود دون أن يترك آثارا، بل بالعكس لقد ظهرت في إجابات سعيد بعض

المؤشرات توحي بأن هناك بعض الحنين إلى الوظيفة السابقة أو إلى المزايا المعنوية التي كانت توفرها **" تمنيت لو حضرت اليوم الأول من الدخول المدرسي"** و" **ما أحزنني بعد التقاعد هو التعامل الذي نلقاه من الآخرين وأقصد هنا الوصاية خاصة، حيث يعاملوننا بنوع من التجاهل والنكران**".

جدول يلخص نتائج المقابلة العيادية

رقم المحور	النتائج المتوصل إليها
01	- يبلغ سعيد 61 سنة - تقاعد منذ سنة
02	- نمط تنظيم عائلة سعيد في مرحلة الطفولة هو عائلة موسعة (تقليدية).
03	- بنية عائلة سعيد حاوية. - نمط تنظيم عائلة سعيد هو عائلة نووية موسعة.
04	- استثمار جيد لسعيد لوظيفته كمدير مؤسسة. - كانت لسعيد تصورات إيجابية حول التقاعد.
05	- لم يجد سعيد صعوبة في تقبل فكرة التقاعد.
06	- يمكن تقديم فرضية حول نجاح سيرورة عمل الحداد لدى سعيد، وما يدعم ذلك هو استثماره لمواضيع جديدة تمثلت في مشروعه التجاري والتفرغ أكثر لحل مشاكل أفراد عائلته. - ساهمت عائلة سعيد في إنجاح سيرورة عمل الحداد لديه باعتبارها كانت سببا لاستثماره موضوعا جديدا بعد التقاعد.

خلاصة تحليل المقابلة العيادية :

من خلال تحليل محاور المقابلة العيادية يمكن تقديم الفرضية التالية وهي أن "**سعيد**" نجح في القيام بعمل الحداد، ويمكن أن يكون لبنية عائلته الحاوية دور في ذلك.

بروتوكول T.A.T: (مدة المقابلة: 16′)

جدول يلخص تنقيط T.A.T لكل لوحة ومقروئيتها

رقم اللوحة	السياقات الدفاعية	المقروئية
1	B2.1 – CP3 – E4 – CF3 – CC2 – A2.17 – CF1 – A2.8 – A2.3 – A2.8	متوسطة
2	CP1 – CF1 – CP3 – CN1 – A1.3 – B2.3 - CP3	متوسطة
3BM	B2.1 – CP3 – E9 – E9 – CP2	متوسطة
4	B2.1 – B2.9 – CN3 – CP2	متوسطة
5	CP1 – CF1 – CN1 – B1.2 – E17 – A2.2	متوسطة
6BM	CP1 – CF1 – B2.3 – E9 – E15 - CP2	متوسطة
7BM	B2.1 – CP3 – B2.3 – A2.8 – CP2	متوسطة
8BM	CP1 – CC2 – E6 – CP3 – B2.5	متوسطة
10	CP1 – CP3 – E6 – E15 – A2.8 – CC2 – E6	سيئة
11	B2.1 – A2.11 – CP1 – A2.11 – CP6 – CP1 – A2.3 – CP1 – A2.8 – E6	سيئة
12BG	CP1 – CF1 – CP1 – CF1 – CC2 – A2.11 – CC2 – A2.8 – CP1 – A2.6 – A2.13	متوسطة
13B	B2.1 – E9 – CP1 – E9 – CP2	متوسطة
13MF	CP1 – E9 – CP1 – E8	متوسطة
19	CP1 – CC1 – E20 – A2.11	متوسطة
16	B2.1 – A1.2 – CP1 – CF3 – A2.8 – A2.8 – B2.7 – CC2 – B2.7	حسنة

خلاصة سياقات T.A.T

السياقات الأولية E	سياقات التجنب C	سياقات المرونة B	سياقات الرقابة A
	CP1 = 17	B1.2 = 01	A1.2 = 01
E4 = 01	CP2 = 05		A1.3 = 01
E6 = 04	CP3 = 07		
E8 = 01	CP6 = 01		
E9 = 06			
E15 = 02	**CP = 30**	**B1 = 01**	**A1 = 02**
E17 = 01	CN1 = 02	B2.1 = 07	A2.2 = 01
E20 = 01	CN3 = 01	B2.3 = 03	A2.3 = 02
		B2.5 = 01	A2.6 = 01
		B2.7 = 02	A2.8 = 08
E = 16	**CN = 03**	B2.9 = 01	A2.11 = 04
			A2.13 = 01
	CM = 00		A2.17 = 01
		B2 = 14	
			A2 = 18
	CC1 = 01		
	CC2 = 06		
	CC = 07	**B = 15**	**A = 20**
	CF1 = 06		
	CF3 = 02		
	CF = 08		
	C = 48		

تحليل السياقات:

أظهر المفحوص سياقات دفاعية تمثلت بالدرجة الأولى في سياقات الكف الرهابي (CP = 30)، ثم سياقات الرقابة (A2 = 17)، ثم السياقات الأولية (E = 16) التي شوهت التعبير ومنعته من الارتقاء لبلورة الصراع على مستوى التصورات والعواطف، لتتدخل بعد ذلك سياقات المرونة (B2 = 14) من أجل المساهمة في تخفيف صلابة وشدة الدفاعات، وبدرجة أقل السياقات العملية (CF = 08) والسلوكية (CC = 07) التي تتدخل لتساهم في تقوية الكف وتجنب الصراع.

- **سياقات الرقابة:** وتطغى عليها تلك التي تتعلق بالتكرار والاجترار (= A2.8 07).
- **سياقات تجنب الصراع:** وتتمثل في سياقات الكف الرهابي (CP = 30)، سياقات الكف الهوامي أو السياقات العملية (CF = 08) والسياقات السلوكية (CC = 07).

بالنسبة لسياقات الكف الرهابي (CP = 30) فنسجل فيها الحضور بقوة للتوقفات الكلامية الكثيرة (CP1 = 17) وذلك لكف وتجنب المواقف المقلقة.

أما بالنسبة للسياقات العملية (CF = 08) فهي حاضرة خاصة بالتعلق بالمحتوى الظاهري (CF1 = 06) وتتدخل لتساهم في تقوية الكف وتجنب الصراع، ولتبين أن استعمال الواقع اليومي إنما يكون لأغراض استنادية أكثر.

- **السياقات الأولية:** (E = 16) وهي حاضرة خاصة بالتعبير عن عواطف أو تصورات قوية مرتبطة بإشكالية الخوف، الموت والعجز (E9 = 06) وإدراك مواضيع مفككة أو منهارة (E6 = 04).
- **سياقات المرونة:** وهي متوسطة مقارنة بسياقات الكف الرهابي (B2 = 14) وهي ممثلة خاصة بالدخول المباشر في الموضوع (B2.1 = 07).

من خلال تحليل بروتوكول T.A.T نلاحظ أن **سعيد** لا يستطيع تحمل الديناميكية العلائقية التي تثيرها الصور، لذلك يلجأ في غالب الأحيان إلى تجنبها (اللوحة 11 واللوحة 19) ، أو إقامة حواجز تمنع انسياب أو سريان النزوات والهوامات بين الأشخاص بصفة متماسكة. لذلك فإن الصراع يتحول بفعل حدّته إلى تصورات وهوامات ضاغطة قد يُعبّر عنها إما في صراع داخلي غير مضطلع به جيدا من نمط رهابي

وسواسي لتغطية النقائص النرجسية، أو قد تجد لها منفذا في التعبير القوي عن النزوات العدوانية الطاغية على القطب الجنسي (اللوحة MF 13) .

يستعمل **سعيد** دفاعات قوية لمقاومة صراعات عميقة تناسلية وقبل تناسلية تتعلق بالعجز عن إرصان الصراع الأوديبي (اللوحة 2)، وذلك بسبب خلل في ربط العلاقة مع الموضوع الأول نتيجة صعوبات في مراحل الطفولة المبكرة نتج عنه التمسك الشديد بالمواضيع، الشيء الذي يفسح المجال لاستمرار المشاهد البدائية والتثبيت فيها من نمط العودة إلى بطن الأم للاحتماء من الفقدان والانهيار (اللوحة 11). رغم أن الدفاعات العصابية (A2, CP) تفرض نفسها إلا أنها غير متماسكة في التعامل مع الصراعات، وإذا ما لاحظنا عدد سياقات المرونة (B2 = 14) التي هي قريبة العدد من سياقات الرقابة مما يجعلها من النوع المرن.

خلاصة تحليل بروتوكول TAT:

نظرا للصعوبة المعتبرة في تحمل **سعيد** للوجدانات والدخول في علاقة مع الموضوع يمكن القول أن تنظيم شخصية **سعيد** من السجل العصابي الرهابي الوسواسي المرن؛ وله القدرة على القيام بعمل الحداد.

المقروئية العامة:

من خلال خلاصة سياقات T.A.T نلاحظ أن "**سعيد**" استعمل سياقات التجنب وبالخصوص التجنب الرهابي (CP = 30)، وسياقات الرقابة (A2 = 18) ، مع بروز نسبي للسياقات الأولية (E = 16)، وكان الخطاب في عدة لوحات قصير وغير واضح ، لذلك تعتبر المقروئية العامة: **متوسطة**.

- اختبار إدراك العائلة (FAT) (مدة المقابلة: 16′):

- ورقة تنقيط بروتوكول الـ FAT (أنظر الملحق)

- تحليل ومناقشة بروتوكول FAT:

بالاعتماد على الأسئلة الثمانية المعتمدة من قبل (Sotile et al., 1999) في تحليل بروتوكول FAT فإن تحليل ومناقشة بروتوكول سعيد يكون كالتالي:

1- هل البروتوكول طويل بما فيه الكفاية لكي يسمح بتكوين فرضيات صادقة؟

كان بروتوكول سعيد طويلا بما فيه الكفاية مما سمح لنا بإجراء التنقيط بسهولة، كما لم يتخلله أي حالة رفض حيث أجاب على كل اللوحات بعبارات واضحة أو إجابة غير اعتيادية.

2- إلى أي مدى هو صراع واضح؟

إن الدليل العام لسوء التوظيف يعادل (n = 37) وهي درجة مرتفعة، حيث سجلنا في الصراع الظاهر (37/13) منها (37/9) خاصة بالصراعات العائلية والزوجية، بينما درجة غياب الصراع كانت (37/9)، مما يوحي بوجود صراعات عائلية بين أفراد أسرة سعيد لم تجد طريقها إلى الحل بعد.

3- أين يظهر الصراع؟

يظهر بروتوكول سعيد مستوى منخفض جدا للصراعات الزوجية (n = 1) ومستوى مرتفع للصراعات العائلية (n = 8)، بينما مستوى الصراعات الأخرى خارج العائلة (extra-familial) كان متوسطا (n = 4)، هذه الملاحظات توحي بوجود صراعات عائلية لم تجد طريقها إلى الحل، وصعوبة هذه العائلة في التعامل بطريقة فعّالة مع وسط خارج العائلة. كما أن انخفاض مستوى الصراعات الزوجية يمكن أن يفسر بوجود علاقة تفاهم بين الزوجين، أو أن اهتمام الزوجين بالصراعات العائلية خاصة تلك التي هي بين الأبناء فيما بينهم جعلهما لا يوليان الاهتمام إلى بعضهما البعض مما جعلهما يبدوان وكأنه لا توجد صراعات بينهما.

4- ما هي خاصية التوظيف العائلي؟

إن تحليل مؤشرات التوظيف العائلي يوضح بعمق أكثر الطرائق العلائقية التي تعمل بها أفراد هذه العائلة. فرغم أن درجة الصراعات العائلية مرتفعة (n = 8)، إلا أنه توجد بعض الحلول الإيجابية لهذه الصراعات (n = 5)، غير أنها تبقى غير كافية للقضاء على كل الصراعات بطريقة إيجابية وذلك لكون درجة الحلول السلبية أو غياب الحلول هي (n = 7) وهي أعلى مقارنة بدرجة الحلول الإيجابية، وهذا ما أدى إلى استمرار الصراعات العائلية في عائلة سعيد. وعند ملاحظتنا لدرجات ضبط الحدود بين الأفراد نجد أنها (n = 2) بالنسبة للملائمة، وأيضا (n = 2) بالنسبة لغير الملائمة، وربما نظرا لتكافؤ تدخل الوالدين في طريقة حل الصراعات العائلية من حيث الملاءمة أو عدم الملاءمة هو ما أدى إلى عجز الوالدين في حل الصراعات العائلية. أما إذا تمعنا في درجة

انخراط الأبناء في الحلول المقترحة من قبل الوالدين فإننا نجد أن درجة الانخراط (n = 2)، أما درجة عدم الانخراط فهي (n = 1)، وما يستوجب الإشارة إليه هو أن الأبناء يوافقون على الانخراط بدرجة (n = 2) في الحلول غير الملائمة التي هي بدرجة (n = 2) وهذا ما يمكن تفسيره بأن الوالدين يتعاملان بنوع من التسلّط (فرض الرأي) مع الأبناء، وما يعزّز هذه الفرضية هو وجود مستوى مرتفع نسبيا من الالتحام (Fusion) (n = 3).

ونظرا لعدم وجود تكرارات غير وظيفية في بروتوكول سعيد (n = 0) يمكن القول أن عائلة سعيد رغم أنها تعاني من صراعات بين أفرادها وأن الوالدين يتعاملان بنوع من التسلط مع الأبناء، إلا أنه يبدو أن هذه الأسرة لا تبقى حبيسة ضمن طرائق ديناميكية غير وظيفية.

5- ما هي الفرضيات المحتملة حول طبيعة العلاقات الظاهرة في هذه العائلة؟

من خلال البروتوكول يظهر أن درجة الأم كحليفة هي (n = 3)، الأب كحليف (n = 2)، الأخ/الأخت كحليف (n = 3) والزوج/الزوجة كحليف (n = 2)، وبالتالي فإن مجموع العلاقات الإيجابية التي تعتبر باقي أفراد الأسرة كحلفاء هو (n = 10)، بينما العلاقات السلبية التي تعتبر باقي الأفراد كعامل ضاغط فهي حسب كل فرد كالتالي: الأم (n = 6)، الأب (n = 3)، الأخ/الأخت (n = 1) والزوج/الزوجة (n = 01) ومنه فإن مجموع العلاقات السلبية هو (n = 11)، ومن خلال هذه النتائج يتبين أن الأبناء يدركون بعضهم البعض كحلفاء أكثر منه كعوامل ضاغطة، بينما الوالدين فإنه يتم إدراكهما كعامل ضاغط (n = 9) أكثر منه كحليف (n = 5). والملفت للانتباه أن الأم تعتبر كعامل ضاغط بدرجة أكبر من الأب تصل إلى الضعف، وإذا عدنا إلى السؤال السابق (رقم 04) الذي تبين من خلاله أن الوالدين يتعاملان بنوع من التسلط مع أبنائهم لأمكننا القول أنه ربما نتيجة تعامل الأم وليس الأب بنوع من التسلط مع أبنائها هو الذي أدى إلى إدراكها كعامل ضغط بدرجة أكبر من الأب.

أما إذا حاولنا معرفة نوع الانفعالات الموجودة بين أفراد أسرة سعيد، فإنه من خلال البروتوكول يتبين أن الانفعالات السائدة هي الغضب والعداوة (n = 5)، الحزن والاكتئاب (n = 2)، الخوف والقلق (n = 2) وأنماط أخرى من الانفعالات تمثلت في التردد والاجبار (n = 2)، أما الانفعالات التي تعبر عن الراحة والطمأنينة فهي فقط السعادة

والرضا (n = 3)؛ وهذا ما يعزّز ما سبق ذكره على أن الوالدين – خاصة الأم - يتم إدراكهما كعامل مولّد للضغط أكثر منه كحليف.

6- ما هي الفرضيات المحتملة حول المظاهر النسقية للعلاقات داخل هذه العائلة؟

من خلال البروتوكول يظهر لنا أن درجة الصراعات الزوجية منخفضة جدا (n = 1)، وأن الزوج أو الزوجة يتم إدراكه كحليف (n = 2) أكثر منه كعامل ضاغط (n = 1)، وهذا ما يؤشر على وجود تحت بنية قليلة التمايز داخل هذه العائلة، وبالتالي فيمكن اقتراح أن هذه العائلة تعمل بطريقة التحامية نسبيا وما يعزّز ذلك أن درجة الالتحام (n = 3). كما أن الغياب الكلي لمؤشر التحالفات في هذا البروتوكول يدعم فكرة أن العلاقة بين سعيد وزوجته متجانسة وقليلة الصراعات.

7- هل توجد علامات لسوء تكيفي أعظمي؟

يحتوي هذا البروتوكول على إجابتين توحيان إلى المعاملة بقسوة (n = 2)، مع غياب كلي للإجابات غير المعتادة، ويمكن تفسير ذلك بكون الصراعات الموجودة داخل هذه الأسرة لم تتطور إلى الأسوأ، مما يجعل علامات لسوء تكيفي أعظمي غائبة عن عائلة سعيد.

8- هل توجد مواضيع ضمن هذا البروتوكول يمكنها أن تساهم في صياغة فرضيات عيادية مفيدة؟

إن تحليل العلامات المتحصل عليها في اختبار الإدراك العائلي (FAT) والتي بينت أن العلاقة بين "**سعيد**" وزوجته هادئة ومتجانسة، كما أن الأم يتم إدراكها من قبل الأبناء كعامل مولّد للضغط؛ ربما يعود هذا للحضور الدائم للأم مع أبنائها في البيت (ماكثة في البيت) بينما الأب يقضي أغلب يومه خارج البيت في المؤسسة العمومية التي يديرها.

خلاصة تحليل بروتوكول F.A.T:

من خلال تحليل بروتوكول اختبار الإدراك العائلي (FAT) لـ"**سعيد**" يمكن القول أن العلاقة بين الزوجين هادئة، ورغم وجود صراعات عائلية بين الأم وأبنائها وما يبين ذلك هو إدراك الأبناء لأمهم كعامل مولّد للضغط، إلا أن هذه الصراعات يمكن

اعتبارها عادية يمكن ملاحظتها في أي عائلة خاصة أنها لم تتطور إلى الأسوأ وبالتالي لم تظهر علامات لسوء تكيفي أعظمي على أفراد هذه الأسرة.

خلاصة عامة عن الحالة:

من خلال تحليل المقابلة العيادية، بروتوكول TAT وبروتوكول FAT توصلنا إلى أن تنظيم شخصية "**سعيد**" هو من السجل العصابي الرهابي الوسواسي المرن؛ ولقد قام بعمل الحداد، وما ساعده على ذلك هو عائلته ذات البنية الحاوية.

4 – المناقشة:

من خلال تحليل المقابلة العيادية نصف الموجهة، بروتوكول T.A.T وبروتوكول F.A.T لـ"**سعيد**" تبيّن أن عائلته من النمط النووي الموسّع، وأن العلاقات بين الآباء والأبناء أو بين الأبناء فيما بينهم منسجمة حيث لم تظهر علامات لسوء تكيفي أعظمي بين أفراد هذه الأسرة، وأن تنظيم شخصية "**سعيد**" هو من السجل العصابي الرهابي الوسواسي المرن، ممّا جعله قادرا على القيام بعمل الحداد، لذلك يمكن القول أن البنية العائلية الحاوية ساهمت في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا وهذا ما يتماشى مع الفرضية الأولى، أما من حيث كيفية مساهمة هذه البنية في سيرورة عمل الحداد فمن خلال النتائج المتحصل عليها دائما يمكن القول أن أبناء "**سعيد**" وخاصة عند بلوغ الابن الأكبر سن الرشد، كانوا هم السبب أو الدافع الذي جعله يقيم مشروعا تجاريا وذلك لتلبية حاجياتهم والمساعدة على تأمين مستقبلهم، وبالتالي فإن الموضوع الجديد المستثمر (المشروع التجاري) هو من أجل الأبناء، وهذا ما ذهب إليه جزء من الفرضية الثانية والمتمثل في مساعدة البنية العائلية الحاوية المتقاعد في استثمار مواضيع جديدة، أما الجزء الخاص بمساعدته على تجاوز المرحلة الاكتئابية فإن النتائج المتوصل إليها لم توضح بالفعل ذلك وهذا ما يستدعي دراسات إضافية مستقبلا للتحقق من ذلك.

وكخلاصة يمكن القول أنه بتحقق الفرضية الأولى وجزء من الفرضية الثانية أن البنية العائلية الحاوية تساهم في سيرورة عمل الحداد لدى الموظف المتقاعد إلزاميا، وذلك بمساعدته على استثمار مواضيع جديدة.

قائمة المراجع

1- Bacqué, M.F. (2000). Vivre un deuil à l'âge adulte. *in* P. Cornillot & M. Hanus (Ed.). *Parlons de la mort et du deuil* (3e éd. pp. 139-160). Paris : éditions Frison-Roche.

2- Bergeret, J. (1996). *La personnalité normale et pathologique, les structures mentales le caractère, les symptômes* (3 e éd.). Paris : Dunod.

3- Faure-Pragier, S. « Rester psychanalyste face au chaos des nouvelles filiations », *Revue française de psychanalyse* 4/2011 (Vol. 75), p. 1063-1080.

4- Hanus, M. (2002). Le travail de deuil. *In* N. Amar & C. Couvreur & M. Hanus (ED.). *Le deuil* (pp. 15-40). Alger : éditions SARP.

5- Shentoub, V. & al. (1990). *Manuel d'utilisation du T.A.T (Approche psychanalytique)*. Paris : DUNOD.

6- Sotile, W. M., Julian III, A., Henry, S. E. & Sotile, M. O. (1988). *Family apperception test manual. Los* Angeles : western psychological services.

7- Sotile, W. M., Julian III, A., Henry, S. E. & Sotile, M. O. (1999), *Manuel : Family Apperception Test*. Paris : Les Editions du Centre de Psychologie Appliquée, ecpa.

الملحق

ورقة تنقيط اختبار الإدراك العائلي

Feuille de cotation du FAT

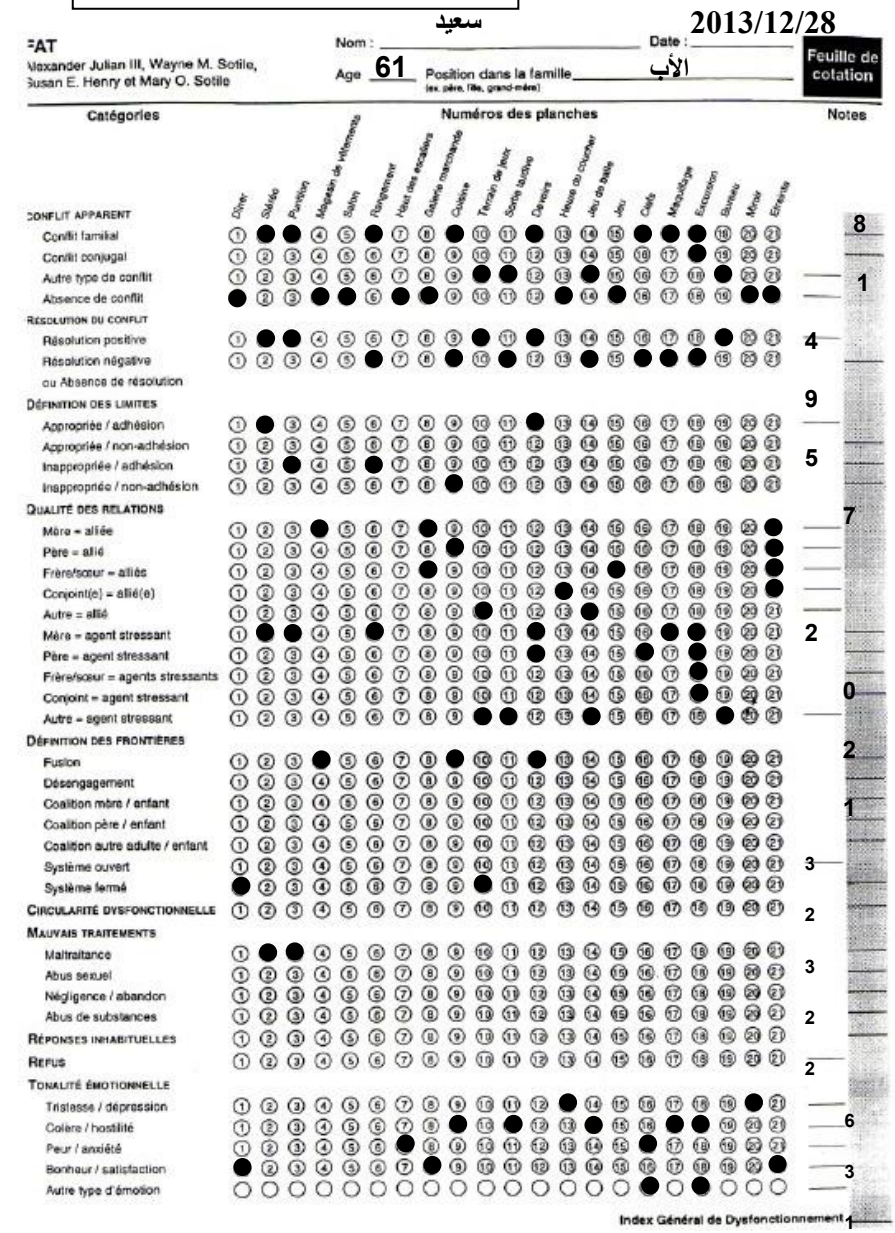

تعدد الزوجات بين الأمر الرباني والواقع الاجتماعي

جلول سعودي - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

الملخّص:

إنّ هذا المقال:" تعدّد الزوجات بين الأمر القرآني والواقع الاجتماعي" يعالج ضرورة ملحة وهي قضية " تعدد الزوجات" والتي لا يزال الكثير من الناس يعارضها بحجج واهية من أهمها ما يراه في المجتمع من ظلم بعض المعددين وسلوكاتهم السيئة تجاه الزوجة الأولى، فرددت في مقالي هذا على تلك الحجج، وبيّنت بالأدلة الساطعة أن الواقع الاجتماعي لا يقوى على معارضة النص الرباني الذي أباح التعدد وحدّد له ضوابطه: من العدل المتضمن للقسمة في المبيت والنفقة والقدرة على أعباء التعدد ونحو ذلك، مبينا الآثار السلبية الوخيمة من ترك التعدد والتي من أهمها العنوسة القاتلة والأمراض النفسية الفتاكة، ناهيك عن تعدد الخليلات، فلم يبق لنا إلا تطبيق مبدأ تعدد الزوجات والدعوة إليه لما له من إيجابيات كثيرة، ولكن وفق الضوابط الشرعية والشروط المرعية.

Résumé

Cet article « la polygamie (polygynie) entre le discours coranique et la réalité sociale » traite un besoin pressant qui est la question de « polygamie (polygynie) que la plupart des gens contestent, en avançant des preuves inconsistantes, parmi les quelles, l'injustice exercée par les polygames envers la première épouse. J'ai, alors, à travers cet article, répliqué à ces preuves chimériques, et j'ai, à la fois, montré, par des preuves brillantes, que la réalité sociale est incapable de contester ce que enjoint le texte coranique qui a autorisé la polygynie et en a institué des critères : l'équité du droit au partage du lit , à la cohabitation, aux dépenses et assumer pleinement les conséquences provenant de cet acte de polygynie, etc. et par cela, on pense qu'on je pourrai révéler les mauvais impacts résultant du délaissement de cette poly génie, dont on pourrait citer le célibat, les maladies psychiques accablantes ainsi que le pullulement des maitresses. Il ne nous reste donc qu'à appliquer le principe de la poly génie et en prêcher, pour ses fais positifs, selon des critères légaux

Abstract:

This article -polygamy between the koranic speech and social reality- adresses
a pressing need which is polygamy issue that most people challenge advancing
inconsistent evidence among.

The injustice exercised by polygamists to the first wife replied to these chimerical evidence and i showed by brilliant evidence that social reality is unable to challenge what the qur'an enjoins because the qur'an authorized polygamy and he institued critéria
first the right to bed sharing is fair second cohabitation and third spending .

I can reveal the bad impact resulting from the abondonment of polygamy for example spinsterhood psychic diseases overwhelming the mistresses swarm .

It therefore remains for us to apply the principle of polygamy and preach .for its positive facts as legal criteria.

المقدمة :

الحمد لله القائل في كتابه : " **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة..."** [1]، **وقال أيضا:" ..فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ....."** [2]، والصلاة والسلام على رسول الله الذي جعل الزواج من سنته ومن شرعته وأباح ذلك لأمته، ثم أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق الإنسان ذكرا وأنثى، ولا يمكن أن تستقر الحياة وتهدأ النفوس إلا إذا سارت على الفطرة الربانية التي أمر الله عز وجل بها وهي الزواج والتكاثر وإنجاب الذرية التي تصلح العالم وتُعمِّر الأرض.

وفي ظل الأوضاع العالمية الحديثة والتطورات الاجتماعية الحاصلة وفساد الأخلاق والذمم وكثرة الفواحش والموبقات نتيجة ضعف الإيمان ، وأيضا لقلة التحصين بالزواج وعدم تعظيم ميثاق الزواج، بل وتطاول البعض لإنكار التعدد وإباحة الخليلات، فإنه أصبح من الواجب والمحتم علينا أن نتكلم عن تعدد الزوجات لنعرف وبدقة هل الأصل هو التعدد أم هو الاكتفاء بالزوجة الواحدة؟ وهل بإمكان التعدد أن يقضي على كثير من الآفات الاجتماعية؟ ولماذا يرضى بعض المعارضين باتخاذ العشيقات وبالزنا والفواحش ولا يقبلون بالأمر الرباني الذي قال الله فيه:".. **فانكحوا ما طاب لكم من النساء ...."**

هل القضية قضية نفسية واجتماعية أم عدم فهم للأمر الرباني؟ أم هي قضية غيرة عند النساء؟ ثم ما هي فضائل التعدد؟ وهل له سلبيات؟ ثم ما هي السلبيات الناتجة عن إنكار التعدد ومحاربته؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه في مقالنا هذا، والذي سأتناوله في ستة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: توجيه العلماء للأمر الرباني بالتعدد وبيان حكم التعدد:

وندرس ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: - مشروعية تعدد الزوجات في الإسلام ووقفات مع آيات التعدد:

لقد ذكر الله عز وجل تشريع تعدد الزوجات في القرآن الكريم في آيتين من سورة النساء وهما:

الآية الأولى: قول الله عز وجل: **" فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ"**. (3)

الآية الثانية:" وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا" (4).

وإن أهم الأحكام التي استنبطها العلماء من هاتين الآيتين: إباحة تعدد الزوجات مشروطا بالقسط والعدل، وأن أعلى حد لذلك هو الأربع(5) .

وقد نقل ابن كثير وغيره إجماع السلف علي مشروعية التعدد، إلا من شذ من أهل البدع من الرافضة وغيرهم الذين أباحوا أكثر من أربعة(6).

سبب نزول هذه الآية : ما أخرجه البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة ، رضي الله عنها ، عن قول الله تعالى : **{وإن خفتم} إلى {ورباع}** فقالت يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن قال عروة قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : "**ويستفتونك في النساء**" إلى قوله "**وترغبون أن تنكحوهن**" والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها "**وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء**"(7) .

وهذه أقوال أهل التفسير في معنى الآية:

ذكر ابن جرير الطبري" (8)قال يونس بن يزيد قال ربيعة في قول الله:"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى"، قال يقول: اتركوهنّ، فقد أحللت لكم أربعًا".

وقد نقل القرطبي (9) في معنى قوله تعالى : " ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا": أي ذلك أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق وتجوروا ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، يقال : عال الرجل يعول إذا جار ومال...".

وملخص أقوال أهل العلم في معنى قوله تعالى " أدنى ألا تعولوا" قولان:
القول الأول : وهو قول الجمهور: أن معنى : " أَلاَّ تَعُولُواْ " أي : لا تجوروا ولا تظلموا ولا تميلوا، فإنه يقال : عال الرجل يعول عولا : إن مال وجار، **والقول الثاني : قول الشافعي** – رحمه الله . **وبعض أهل العلم** :أن المراد : "**ذَلِكَ أَدْنَى** " ألا تكثر عيالكم، **والقول الراجح** هو قول الجمهور لدلالة الآثار على ذلك كما ذكره ابن جرير الطبري والقرطبي [10].

المطلب الثاني: كلام العلماء في حكم التعدد:

اختلف أهل العلم في الأمر بالتعدد الوارد في فوله تعالى : **(وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا)** [11] على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه على الإباحة لأنها الأصل **وهو قول الجماهير من العلماء.**

فالآية نص في إباحة التعدد فقد أفادت الآية الكريمة إباحته ، فللرجل في شريعة الإسلام أن يتزوج واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، بأن يكون له في وقت واحد هذا العدد من الزوجات ، ولا يجوز له الزيادة على الأربع ، وبهذا قال المفسرون والفقهاء ، وأجمع عليه المسلمون ولا خلاف فيه[12].

القول الثاني: فيرى البعض أنه على الندب والاستحباب،، لأن الخطاب بلفظ الأمر وأقل أحواله الندب والاستحباب [13]**. وهذا منقول عن الإمام أحمد.**

قال الحافظ كما في فتح الباري في قوله تعالى :"فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء" :" ووجه الاستدلال أنها صيغة أمر تقتضي الطلب وأقل درجاته الندب فثبت الترغيب.." [14].

القول الثالث : أن التعدد تعتريه الأحكم التكليفية الخمسة [15] ، فقد يكون واجبا وقد يكون مستحبا وقد يكون مباحا وقد يكون حراما أو مكروها، وهذا تفصيل ذلك:.

أولا: قد يكون التعدد مباحا: وذلك لمن قوي علي ذلك وتوفرت فيه شروط التعدد ، لكنه لم يخف على نفسه الفتنة أو الوقوع في أسباب الشر.

ثانيا:وقد يكون التعدد واجبا : وذلك في حق من خاف علي نفسه الفتنة أو أن يقع في الحرام وكانت عنده القدرة البدنية والمالية ، فأراد أن يغض بصره ويحصن فرجه ، فحينئذ يكون واجبا عليه خوفا من الوقوع في أسباب الشر .

ثالثا: وقد يكون التعدد مستحبا:

إذا توافرت فيه شروط التعدد ، وأراد ذلك تكثير نسل المسلمون وتشجيع الأمة علي ذلك ليستغنوا بما أحل الله عما حرم الله. ،و كالإعانة في إنقاص عدد العوانس من المسلمات أو لرعاية أرامل المسلمين.

رابعا: وقد يكون التعدد حراما:

أ- إذا لم يعدل بين النساء.

ب- عدم القدرة المالية والجسمية وعدم الكفاءة.

جـ - إذا كان التعدد القصد منه الإضرار بالزوجة لقوله **تعالي : وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ** [16].

خامسا: قد يكون مكروها: إذا كان هناك مرض لا يرجى برؤه، أو أمراض أخرى كالعقم ، لأن النساء يردن الإنجاب كما يريده الرجال, ويكون أيضا التعدد مكروهاً إذا كان فعله يؤدِّي إلى مكروه، كطلاق الزوجة الأولى بسببه من غير سوء فيها يؤدِّي إلى طلاقها، أو إذا كان فعله سيشغله عن تحصيل فضائل الأمور كطلب العلم والعمل الخيري، أو أن يعدِّد مَن كان ضيِّق الصدر كثير الغضب، لأن التعدد يحتاج إلى حلم وسعة صدر للزوجات.

المبحث الثاني: شبهات منكري تعدد الزوجات والرد على ذلك:

حاول البعض التشغيب في مسألة تعدد الزوجات، بزعمهم أن فيه عيوبا ومساوئ، وأنه إهدار لكرامة المرأة وغير ذلك من الشبه التي لا تستند إلى دليل من المنقول ولا المعقول، وإنما هي اعتماد على بعض تصرفات بعض المعددين، فعمموها على الحكم الشرعي الذي يبيح التعدد، وها أنا ذا أشرع في بيان شبههم والرد عليها:

الشبهة الأولى: التعدد فيه إهدار لكرامة المرأة، واعتداء على شخصيتها، وظلم لها[17].

الجواب على الشبهة[18]: هذه دعوى باطلة، وفرية مزعومة، وإلا فالإسلام رفع مكانة المرأة، وبوأها أعلى مكانة، حصلت عليها في تاريخ البشرية، وأنقذها من الحضيض الذي كانت فيه على مدار التاريخ الطويل.

والتعدد حين شرعه الإسلام حفّه بضوابط تحفظ للمرأة حقوقها، وتضمن لها حياة هانئة مطمئنة.

وهل الحياة بدون زوج حياة آمنة، مستقرة؟ إن المرأة تعاني في هذه الفترة من الهموم والهواجس ما تعجز عنه الجبال، لكنها متى انتقلت إلى العيش في ظل الزوج الجديد دبّ إليها الأمل في أن تحيا حياة كريمة، تشعر فيه بالمكانة التي تبوأتها في ظل التشريع الإسلامي الخالد، وسواء كانت وحيدة مع زوجها، أو تشاركها غيرها في هذه الحياة الجديدة.

الشبهة الثانية: إباحة الدين الإسلامي للرجل أن يعدد زوجاته وتحريم ذلك على المرأة[19].

الرد على هذه الشبهة : وهي إباحته للرجل دون المرأة:

أقول: أن الإسلام أباح للرجل أن يعدد زوجاته وحرم ذلك على المرأة فنقول: إن المساواة بين الرجل والمرأة في نظام الزواج لا ينبغي أن تكون مساواة مطلقة لاختلاف طبيعة كل من الرجل والمرأة، والمساواة بين مختلفين تعني ظلم أحدهما، فالمرأة خلق الله تعالى لها رحماً واحدة، وهي تحمل في وقت واحد ومرة واحدة في السنة ويكون لها تبعاً لذلك مولود واحد من رجل واحد. أما الرجل فغير ذلك[20].

من الممكن أن يكون له عدة أولاد من عدة زوجات، ينتسبون إليه ويتحمل مسئولية تربيتهم والإنفاق عليهم، وتعليمهم وعلاجهم وكل ما يتعلق بهم وبأمهاتهم من أمور، أما المرأة فعندما تتزوج بثلاثة أو أربعة رجال، فمن من هؤلاء الرجال يتحمل مسئولية الحياة الزوجية ؟ أيتحملها الزوج الأول ؟ أو الزوج الثاني؟ أم يتحملها الأزواج الثلاثة أو الأربعة؟ ثم لمن ينتسب أولاد هذه المرأة متعددة الأزواج؟ أينتسبون لواحد من الأزواج؟ أم ينتسبون لهم جميعاً؟ أم تختار الزوجة أحد أزواجها فتلحق أولادها به؟[21] .

وهكذا فإنه ليس من العدالة في شيء أن يباح للمرأة أن تعدد أزواجها بحجة مساواتها بالرجل وليس عدلاً كذلك أن يحرم الرجل من صلاحيته في أن يعدد زوجاته بدعوى مساواته بالمرأة في حق الزواج، وسنرى في الصفحات القليلة لهذا البحث أن الله

- سبحانه وتعالى - قد أعطى الرجل صلاحية تعدد الزوجات لخير المرأة ومن أجل إسعادها، وزيادة فرص الزواج أمامها.

الشبهة الثالثة : أن التعدد يؤدي إلى إهمال الأطفال والنشء:

قالوا : إن كثرة الأولاد مع وجود التعدد سبب لتشرد الأولاد وانحرافهم لأن الوالد سيكون مشغولا عنهم، ولا يستطيع القيام بأعباء تربيتهم وتنشئتهم.

الرد على الشبهة الثالثة: وهو أن التعدد سبب في إهمال النشء:

فأقول: إن الإهمال لا ينجم عن التعدد وحده كما يظن الظان بل إن له أسباباً كثيرة منها[22]:

1 . عدم مبالاة الأب بتربية أولاده أو انحرافه عن جادة الصواب بشرب الخمر أو تعاطي المخدرات أو لعب القمار أو مصاحبة رفقاء السوء وغير ذلك.

2 . وقد يكون الإهمال نتيجة لاختلاف وقع بين الزوجين حول أمر من الأمور المتعلقة بشئون الأسرة.

3 . كما أن فقد الأطفال لمن يعولهم ويتعهدهم بالرعاية والتوجيه يعد سبباً من الأسباب التي تحول دون تربيتهم تربية سليمة.

وهناك شبه أخرى أثارها مانعوا التعدد ومنكروه والتي منها استحالة العدل بين الزوجات، وصعوبة القيام بأعباء ونفقات التعدد، وغير ذلك مما دندنوا حوله، وكل هذه من الشبهات الباطلة التي ردها كثير من أهل العلم وبينوا بطلانها، ويطول المقام بسردها في مقالنا هذا.

المبحث الثالث: مبررات وإيجابيات تعدد الزوجات .

المطلب الأول: مبررات تعدد الزوجات:

البند الأول: تحقيق الاقتداء بالنبي . في هذه السنة:

فقد عدد النبي . في زواجه ولم يتقصر على واحدة، بل توفي وفي عصمته تسع زوجات، ورسول الله - ، وهو خير أسوة وقدوة للمسلم في كل شيء إلا ما خص به من أمور. قال تعالى:{ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** }[23]ومن هذا المنطلق يجب على كل مسلم ومسلمة الاعتقاد بإباحة التعدد سمعاً وطاعة لله ولرسوله، لأن إنكار هذه الإباحة يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله.[24]

البند الثاني: الحاجة إلى زيادة النسل لأن الأولى قليلة الإنجاب أو عقيم:

قد يكون لدى الرجل رغبة قوية في الإكثار من النسل، وأولاد زوجته الأولى قليلون، فيتزوج الرجل عند ذلك بأخرى من أجل تحقيق هذه الرغبة النبيلة التي دعاها إليها الرسول - ﷺ- في قوله: (**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة**)[25].

وقد تكون الزوجة عقيمة أو لا تفي بحاجة الزوج أو لا يمكن معاشرتها لمرضها ، والزوج يتطلع إلى الذرية وهو تطلع مشروع ، ويريد ممارسة الحياة الزوجية الجنسية وهو شيء مباح ، ولا سبيل إلا بالزواج بأخرى ، فمن العدل والإنصاف والخير للزوجة نفسها أن ترضى بالبقاء زوجة ، وأن يسمح للرجل بالزواج بأخرى[26].

البند الثالث : المساهمة في تخفيف بعض المشاكل الإنسانية:

كما أن نظام تعدد الزوجات يعالج بعض المشكلات الإنسانية، ويسهم في حلها إسهاماً ومنها[27]:

أ- امرأة توفي زوجها وعندها أطفال، ففي هذه الحالة الإسلام يحث الرجل على الزواج منها لسببين هامين، أولهما: إعفاف المرأة وصون كرامتها في بيت تجد فيه الراحة والاطمئنان، وكل ما تحتاج إليه من متطلبات الحياة. وثانيهما: كفالة أطفالها الأيتام ورعايتهم، وقد قال رسول الله - ﷺ- في ذلك: (**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**) وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا[28] .

ب- امرأة تلد وجمالها بسيط أو يكون بها عاهة، وهي بطبيعة الحال ليس لها دخل في خلقها، فهل يجوز لنا أن نحرمها من متعة الحياة الزوجية وإنجاب الأطفال ؟ والجواب لا يجوز لنا ذلك، والإسلام يشحذ همم المؤمنين ويشجعهم على الزواج بأمثال هذه المرأة، وإدخال الفرحة والسرور إلى قلبها.

ج- امرأة بقيت لظروف معينة بدون زوج، حتى وصلت سن اليأس وهي راغبة في الزواج، فالأفضل لها طبعاً أن تتزوج رجلاً متزوجاً بأخرى فيملأ عليها حياتها، ويؤنس وحدتها بدلاً من أن تظل بقية حياتها عزباء.

د- قد يتوفى أحد أخوان الرجل أو أحد أقاربه، ويترك زوجته وأولاده فيخشى عليهم الرجل من الضياع والتشرد، فيتزوج عند ذلك بدافع إنساني محض بأرملة أخيه أو قريبه ليرعاها ويرعى أولادها، ويحميهم من العوز والضياع[29] .

هـ- قد يكون للرجل المتزوج قريبة لا يأويها أحد غيره، ويكون لديها أولاد لا يمكن أن يؤمن لهم الزوج الغريب الرعاية الكافية، فإذا تزوجها قريبها المتزوج أصلاً، وأصبحت في عصمته، فقد كفل لها بذلك ولأولادها الأيتام العطف والحنان والرعاية والحماية من شرور الحياة[30]

البند الرابع: المبرر الثالث: الأرقام المخيفة عن الفواحش والأبناء غير الشرعيين نتيجة إباحة الخليلات وترك تعدد الزوجات[31]:

والأخذ بنظام تعدد الزوجات جنب المجتمعات الإسلامي شرورا ومصائب لا حصر لها .. وتكفى مقارنة بسيطة بين المجتمع العربي المحافظ مثلا - الذي تندر فيه الجرائم الخلقية مثل الاغتصاب والدعارة - وبين المجتمع الأمريكي الذي تكاد نسبة العشيقات فيه تزيد على نسبة الزوجات .. كما تبلغ نسبة الأطفال غير الشرعيين فيه أكثر من 45 % من نسبة المواليد سنويا !! وتقول الإحصاءات الرسمية الأمريكية إن عدد الأطفال غير الشرعيين كان 88 ألف مولود سنة 1938 ، ثم ارتفع إلى 202 ألف عام 1957 ، ووصل إلى ربع مليون مولود من الزنا عام 1958 .. ثم قفز الرقم إلى الملايين من ثمرات الزنا في التسعينيات !! والأرقام الحقيقية تكون عادة أضعاف الأرقام الرسمية التي تذكرها الحكومات .. وما خفي كان أعظم !! [32].

وتقول إحصائية رسمية أمريكية : إنه يولد سنويا في مدينة نيويورك طفل غير شرعي من كل ستة أطفال يولدون هناك (صحيفة الأخبار المصرية، عدد بتاريخ 2/ 7 / 1968) ، ولا شك أن العدد على مستوى الولايات المتحدة يبلغ الملايين من مواليد السفاح سنويا[33].

لكل هذا تساءل الكاتب **الشهير الفرنسي آتيين دينيه** : ((هل حظر تعدد الزوجات له فائدة أخلاقية ؟! **ويجيب بنفسه** : إن هذا
الأمر مشكوك فيه .. لأن الدعارة النادرة في أكثر الأقطار الإسلامية سوف تتفشى بآثارها المخربة، وكذلك سوف تنتشر عزوبة النساء بآثارها المفسدة، على غرار البلاد التي تحظر التعدد "[34].

البند الخامس: المبرر الرابع: أن النساء حقيقة أكثر من الرجال في الواقع بنسب متفاوتة[35]:

تبين من خلال الإحصائيات أن عدد النساء أكثر من الرجال، فلو أن كل رجل تزوج امرأةً واحدة فهذا يعني أن من النساء من ستبقى بلا زوج ، مما يعود بالضرر عليها وعلى المجتمع :

وتدل الإحصائيات التي جرت وتجري في بلاد العالم المختلفة دلالة واضحة على أن عدد الإناث أكثر من عدد الذكور، وذلك نتيجة لكثرة ولادة البنات،ولأن موت الرجال بمشيئة الله تعالى وقدرته أكثر من موت النساء.[36].

وتظهر في أغلب التقديرات زيادة عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج بنسبة (4) إلى (1) وهذا بطبيعة الحال اختلال يجب معالجته لتكرر وقوعه بنسب مختلفة ونجد أمامنا في هذه الحالة ثلاثة حلول هي[37]:

1- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة صالحة للزواج ثم يبقي عدد من النساء دون زواج.

2- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة واحدة فقط زواجاً شرعياً ثم يعاشر حراماً في الظلام واحدة أو أكثر من النساء اللواتي ليس لهن مقابل من الرجال في المجتمع.

3- أن يتزوج الصالحون للزواج - كلهم أو بعضهم - أكثر من امرأة واحدة زواجاً شرعياً في وضح النهار بدلاً من العشيقة أو البغيّ التي يعاشرها حراماً بعيداً عن أعين الناس.

ولمناقشة هذه الحلول واختيار الحل الأفضل منها نرى أن الحل الأول وهو أن تبقى المرأة بلا زوج أمر غير طبيعي، وضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها فالمرأة لا يمكن أن تستغني عن الرجل، والعمل والكسب لن يعوضا المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية، سواءً في ذلك مطالب الجسد والغريزة أو مطالب الروح والعقل من السكن والأنس بالعشير.

أما الحل الثاني فهو ضد الشريعة الإسلامية، ولا يتناسب مع أخلاق المجتمع الإسلامي العفيف، كما أنه ضد كرامة المرأة وإنسانيتها، ويؤدي بالتالي إلى شيوع الفاحشة في المجتمع.

ويكون الحل الثالث - بلا شك - هو الحل الأمثل الملائم الذي يختاره الإسلام لمواجهة الواقع الذي يعيشه الناس[38].

وخصوصا في آخر الزمان فإنه يقل الرجال ويكثر النساء كما أخبر النبي - ﷺ- بقوله: "... **وَيَقِلَّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ**"[39].

فمن لكثير من النساء؟ إذا لم نرتض التعدد حلا من الحلول الناجحة في معالجة هذه المشكلة ؟

المطلب الثاني: إيجابيات تعدد الزوجات:

إن التعدد له إيجابياته التي لا يمكن أن ينكرها المنكرون، والتي تساهم حقيقة في حل كثير من المشاكل الاجتماعية، وأهم إيجابياته ندرسها في البنود الآتية:

البند الأول: التخفيف من ظاهرة العنوسة[40] :

لقد قامت إذاعة هولندية برصد إحصائيات لعام 2013 [41]عن نسب العنوسة في الوطن العربي، حيث أظهرت الإحصاءات أن أعلى نسبة عنوسة سجلت في لبنان بنسبة 85% تليها سوريا، حيث بلغت نسبة العنوسة 70% وهي نسبة مرشحة للارتفاع بسبب ظروف الحرب، بينما شكلت فلسطين الاستثناء في العالم العربي لتسجيلها 7% فقط من العنوسة لتسجل أقل نسبة عنوسة على الإطلاق.

في الوقت نفسه، تقاربت نسب العنوسة في دول المغرب العربي، حيث سجلت تونس نسبة 62% تلتها الجزائر بنسبة 51.%،

أما في مصر فبلغ عدد العوانس 8 ملايين أي 40% من مجموع الفتيات، ويشكل 55% منهن من حاملات الماجستير والدكتوراه في مصر عوانس [42]

وفي دول الخليج وصلت نسبة العوانس أرقاما كبيرة، حيث تصدرت دولة الإمارات بنسبة 75% بينما 45% في السعودية .

وفي السعودية أكَّدت إحصائية صادرة من وزارة التخطيط أن ظاهرة العنوسة امتدت لتشمل حوالي ثلث عدد الفتيات السعوديات اللاتي في سن الزواج، ووفقا لدراسة نُشرت في الإمارات فإن عدد العوانس قد وصل إلى 68% ممن هن في سن الزواج؛ فأصبح كل بيت إماراتي به فتاة عانسً [43] .

إن هذه الأرقام في دول العالم العربي والإسلامي بالخصوص كلها تنذر بأن هناك مشكلة قائمة حقيقية ينبغي البحث لها عن حلول، ولعل من أنسب الحلول" تعدد الزوجات"، وتخفيف المهور وغير ذلك من الحلول.

وقد أظهرت أيضا أرقام نشرها المعهد الوطني للإحصاء في الجزائر[44] إلى وجود ارتفاع مهول في العنوسة لدى النساء الجزائريات بسبب عزوف الشباب المتواصل عن الزواج نتيجة تردي الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد.

ولفت المعهد الجزائري إلى وجود ما يقارب 11 مليون فتاة جزائرية عانس وهو رقم مرتفع جدا بالنظر لعدد سكان الجزائر البالغ 35,7 مليون نسمة حسب نتائج إحصائيات يناير 2009، فيما تدخل " سوق " العنوسة 200 ألف فتاة جزائرية كل عام.، في حين أن العدد في بداية التسعين كان لا يجاوز ستة ملايين فتاة.

وأشار التقرير إلى أن ضمن الـ 11 مليون فناة جزائرية عانس تجاوزت ال 5 ملايين منهن الـ35 سنة، مما يقلل بشكل كبير من حظوظهن في إيجاد زوج لتقدمهن في العمر.

و أطلق بعض المتابعين لهذه الظاهرة اسم " دولة العوانس " على هذا العدد الكبير منهن، إذا ما تمت مقارنة مستوى العنوسة في الجزائر بنظيراتها في بعض البلدان العربية ، حيث يفوق عوانس الجزائر وحدهن عدد سكان ليبيا ويفوق أيضا عدد سكان 5 دول خليجية مجتمعة.

والسبب الذي يطرح نفسه وبقوة أمام هذه الظاهرة ما هو السبب يا ترى؟ وهل بقي هناك جدال في أن التعدد هو حل على الأقل من بين الحلول لتفادي هذه الظاهرة الاجتماعية التي ربما تكون سببا في ظواهر اجتماعية فيها من الآفات ما لا يعلمه إلا الله عز وجل

وهكذا نرى أن العنوسة التي ضربت أطنابها في العالم العربي وكل العالم لم يعد لها إلا الإقرار بالأمر الرباني والشريعة الإلهية التي نصت على إباحة التعدد بل وصرح العلماء باستحبابه ووجوبه في بعض الحالات.

البند الثاني: أن التعدد يقي من أمراض خطيرة :

يُقرر الطب أن حرمان المرأة من العواطف أشد خطورة من حرمانها الجنسي .. فمتعة الإشباع الجنسي بدون عواطف ليس لها أي تأثير لديها.. بينما الكلمة الرقيقة واللمسة الحانية تثيرها أكثر بكثير ، وتجعلها تنعم بالإشباع، هذا ما يؤكده الدكتور سعيد عبد العظيم – أستاذ الأمراض النفسية و العصبية بطب القاهرة – ويضيف أن الحرمان العاطفي عند المرأة هو الطريق السريع إلى الانحراف أو البرود الجنسي، بالإضافة إلى العديد من الأمراض الجسدية والنفسية وغيرها[45] .

بينما الدكتور محمد هلال الرفاعى أخصائي أمراض النساء والتوليد يؤكد أن انعدام الزواج أو تأخيره يعرّض المرأة لأمراض الثدي وسرطان الرحم والأورام الليفية أكثر من المتزوجة..... وقد سأل كثيرا من المترددات على العيادة : هل تفضّلين عدم الزواج أم الاشتراك مع أخرى في زوج واحد ؟ وكانت إجابة أغلبهن هي قبول الزواج من رجل متزوج بأخرى على الوحدة الكئيبة ، و بعضهن فضّلت أن تكون زوجة ثالثة أو رابعة على البقاء في أسر العنوسة[46].

ومما لا شك فيه أن نظام تعدد الزوجات - كما رأينا - يحفظ المجتمعات الإنسانية من الفساد الخلقي الذي يؤدي إلى انتشار البغاء وكثرة اللقطاء ويحمي الناس من الإصابات بالأمراض التناسلية التي تنتشر الآن على نطاق واسع ومنها الزهري ومرض انعدام المناعة ((الإيدز)) [47].

والمجال يضيق هنا عن عرض أبحاث ودراسات كثيرة تؤكد هذا بجلاء ووضوح ، مما يحتم القبول بتعدد الزوجات.

البند الثالث: التعدد نظام أخلاقي إنساني :

إن نظام التعدد - كما شرعه الإسلام - نظام أخلاقي إنساني[48]، أما أنه أخلاقي .. فلأنه لا يسمح للرجل أن يتصل بأي امرأة شاء ، وفي أي وقت شاء . إنه لا يجوز له أن يتصل بأكثر من ثلاث نساء زيادة عن زوجته . ولا يجوز له أن يتصل بواحدة منهن سراً ، بل لا بد من إجراء العقد وإعلانه ولو بين نفر محدود ، ولا بد من أن يعلم أولياء المرأة بهذا الاتصال المشروع ، ويوافقوا عليه ، أو أن لا يبدوا عليه اعتراضا ، ولا بد من تسجيله - بحسب التنظيم الحديث - في محكمة مخصصة لعقود الزواج، ولأنه لا يخلي

بين المرأة التي اتصل بها وبين متاعب الحمل وأعبائه، تحتمله وحدها بل يتحمل قسطاً من ذلك بما ينفقه عليها أثناء حملها وولادتها .

ولأنه يعترف بالأولاد الذين أنجبهم هذا الاتصال الجنسي ، ويقدمهم للمجتمع ثمرة من ثمرات الحب الشريف الكريم ، يعتز هو بهم، وتعتز أمته في المستقبل بهم .

المبحث الخامس: شروط وضوابط التعدد الإيجابي وضرورته للمجتمع.

إن تعدد الزوجات أصبح في الوقت الحاضر ضرورة ملحة، بل إنه في بعض الحالات قد يكون وجبا متحتما نتيجة الآفات العظيمات التي أدت إلى ترك الحلال المباح والإقبال على الرذيلة واتخاذ الاخدان، إلا أن هذا لا يعني أبدا الإخلال بما دل عليه الشرع الحنيف من القيام بالشروط والضوابط التي تحقق لنا تعددا ناجحا يكون إيجابيا وسببا في القضاء على كثير من المشاكل، وأدرس تلك الشروط في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الشرط الأول: العدل بين الزوجات :

وأما الشرط الذي اشترطه الإسلام لتعدد الزوجات ، فهو ثقة المسلم في نفسه ، أن يعدل بين زوجتيه ، في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمبيت والنفقة ، فمن لم يثق في نفسه في القدرة على هذه الحقوق ، بالعدل والتسوية ، حرم عليه أن يتزوج بأكثر من واحدة، قال **تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة)** [49]، وهذا لا حلاف فيه [50].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطا أو مائلا[51] .

والميل الذي حذر منه هذا الحديث ، هو الجور على حقوقها، لا مجرد الميل القلبي ، فإن هذا داخل في العدل الذي لا يستطاع ، والذي عفا الله عنه وسامح في شأنه، قال سبحانه وتعالى : (**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل)** [52]، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : « **اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك** »[53].

يقول الإمام القرطبي : (أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب. فوصف الله تعالى حالة البشر وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض، ولهذا كان عليه السلام

يقول: (اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك). ثم نهى فقال: (فلا تميلوا كل الميل). قال مجاهد: لا تتعمدوا الإساءة بل الزموا التسوية في القسم والنفقة، لان هذا مما يستطاع) [54] .

والمقصود هنا الذي لا يعدل في النفقة والمبيت وليس في الحب وهوى القلب ، فلا أحد يملك القلوب سوى رب القلوب.

وبهذا نعلم أن أئمة العلم متفقون على جواز التعدد، بل بعضهم استحبه، فلا عبرة بمن يخالف ذلك ويؤل التأويلات الخاطئة، فالعبرة بهم المتخصصين في علم الشريعة لا بكل من هب ودب.

والعدل المراد به في التعدد ما يلي:

1 . **القسمة العادلة في النفقة**: فتجب التسوية بينهن في النفقة وتشمل المأكل والمشرب والملبس والمسكن لأن عدم المساواة من شأنه أن يتسبب في الخلافات و الأحقاد والعداوات بين الزوجات، ثم بين أولادهن ، وهم أولاد رجل واحد.

وأهم شروط النفقه عدم النشوز وهو العصيان والخروج عن طاعة زوجها، فلا حق للمرأة الناشز في النفقة[55] .

2 . **القسمة في المبيت والجماع**[56]: فلا يجوز مطلقا ترك إحدى الزوجات بغير جماع عمدا بحجة عدم الحب لها ، لأن هذا يؤدى إلى تعريضها للفتنة و الفساد ، وأقرب الأقوال إلى العدل أن يحدد حق كل زوجة في المبيت عندها بليلة كل أربع ليال على اعتبار أنه يحق له الزواج من أربع ..

ج . وجوب توفير المسكن:

بحيث تستقل كل زوجة بمسكنها اللائق بها بلوازمه ومرافقه الضرورية، إلا أن رضين أن يشتركن في مسكن واحد بمرافقه الضرورية المشتركة [57].

المطلب الثاني: الشروط الثاني: عدم الزيادة على أربع.

ودل علي ذلك قوله تعالي : { **فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ** }[58] .

وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وخالف فيه من لا يعتد بخلافه في المسألة[59]، وهذه أدلته:

1 . حديث الحارث بن قيس .– قال :أسلمت وعندي ثمان نسوة ، فذكرت ذلك للنبي فقال : **اختر منهن أربعا**[60].

2 . أن النبي قال لغيلان بن أميه الثقفي – وقد أسلم وتحته عشر نسوة " **اختر منهن أربعا وفارق سائرهن**[61]."

قال الشافعي :وقد دلت سنة رسول الله المبينة عن الله . عز وجل – أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة [62]، نقله عنه ابن كثير – رحمه الله – وقال : وهذا الذي قاله الشافعي . رحمه الله . مجمع عليه بين العلماء [63].

المطلب الثالث: الشرط الثالث: القدرة على أعباء التعدد والإنفاق على زوجاته وأولادهن[64]:

فقد قال سبحانه :" **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**" [65] .

فقد أخرج الإمام مسلم أن النبي قال في حجة الوداع ":...**ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا فأما حقكم على نسائكم فلا يطئن فراشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن** [66]".

وفي الحديث أن النبي قال ": **كفى بالمرء إثما أن يُضيّع من يقوت** [67]".

وذلك لأن زواج الثانية أو الثالثة أو الرابعة هو مثل زواج الأولى ، فيشترط فيه الاستطاعة المالية والصحية والنفسية ، فإذا انتفى شرط القدرة أو الاستطاعة فلا يجوز التعدد، وذلك بديهي ، لأن من لا يستطيع الإنفاق على بيتين يجب عليه الاقتصار على واحدة ، وهكذا.

المبحث السادس: الواقع الاجتماعي للتعدد:

مقدمة: إن الأرقام الإحصائية تشير إلى أن ظاهرة الزواج المتعدد ليست واسعة الانتشار في البلدان العربية، وطبقاً للإحصائيات المتاحة فإن النسبة في مصر هي 4% من حالات الزواج، وتزيد قليلاً لتصل إلى حوالي 5% في سوريا والعراق بينما تصل في دول الخليج إلى نحو 8% [68]. وفي الجزائر تكاد لا تتجاوز 2 بالمئة.

ويتراوح الاتجاه الاجتماعي لتعدد الزوجات في المجتمعات العربية بين التسامح مع الظاهرة وقبولها في دول الخليج إلى القبول الجزئي في أماكن أخرى مثل المجتمع المصري، أو الرفض التام والمنع بموجب قوانين مثل ما يحدث في تونس، ولكن في بلد آخر هو السودان هناك دعوة رسمية وتشجيع لتعدد الزوجات،

وبالنظر إلى واقع الحياة الاجتماعية للعالم الإسلام والعربي بصفة خاصة، فإننا نرى رفض الغالبية من النساء خصوصا لمبدأ " **تعدد الزوجات**"، والقلة القليلة التي ترى به، وقد حاولت في هذا المبحث أن أتطرق إلى أسباب إنكار هذا الأمر مع عظم ما أتاه المنكرون كما سبق وأن بيناه في حكم إنكار تعدد الزوجات، فيا ترى ما هي الأسباب التي دعتهم إلى إنكاره؟ كما أشير إلى الواقع الإيجابي من قبل بعض الفئات النسوية خصوصا التي قبلت هذا الأمر ، مع بيان الآفات الاجتماعية المنجرة عن هذا الواقع الأليم بسبب رفض هذا الأمر الرباني، واقتراح الحلول المثلى للحد من هذه الآفات، وأدرس ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: أسباب إنكار تعدد الزوجات:

البند الأول: السبب الأول: رفض التعدد لضعف الوازع الديني وغلبة الأفكار الغربية:

تبين إحدى الأستاذات الجامعيات بعض أسباب رفض التعدد لدى المجتمع النسوي فتقول:" إن النساء في مجتمعاتنا الآن أصبحن يرفضن التعدد : متعلمات وغير متعلمات ، غنيات وفقيرات ، متمدنات وريفيات ، متدينات وغير متدينات ، والسبب في ذلك هو تأصل الأعراف الفاسدة ، وضعف الوازع الديني وغلبة الأفكار الغربية ، فالعرف الآن في مجتمعنا يرفض التعدد ، ويعتبره ظلما للمرأة ، والشرع يقول إن العرف الذي يصطدم مع الدين هو عرف فاسد ، كما أن ضعف الوازع الديني هو الذي يجعل المرأة لا تطيق التعدد، ولو كانت مسلمة تعرف دينها لأيقنت أن زوجها طالما كان قائما بحقوقها فلا تملك أن تمنعه من الزواج ، لكن تعليم المرأة ، وسيادة الأفكار العلمانية وما يسمى تحرير المرأة اعتبر أن التعدد فيه إهدار لكرامة المرأة ، هذا خطأ كبير" [(69)] .

إذن فالجهل الفظيع بالدين لدى طبقة كثير من النساء مع ضعف الإيمان الذي يحرك النفوس للقبول بالأمر الرباني هو من أهم الأسباب التي جعلت البعض يتطاول ويرفض التعدد وينكره، ولا ينظر إلا إلى سلبيات مطبيقه.

البند الثاني : السبب الثاني: رفض التعدد لأنه في نظرهم انتهاك لحقوق المرأة وكرامتها:

تقول إحدى أستاذات علم النفس: "إن تناسينا جراح المرأة و ألمها حين ارتباط زوجها بثلاث غيرها و إهانة كرامتها كإنسان وامتهانها كجسد للتمتع لا كشريك متساو في الحقوق و الواجبات أمام الله، برزت أمامنا مشكلة ثمرة الزواج إلا و هم الأطفال، حيث أن زواج الرجل بأخرى و شعور المرأة بالقهر و الإذلال يتسبب في استخدامها للعنف و الزجر و الضرب بقسوة في تعاملها مع فلذات كبدها كوسائل لا شعورية للانتقام من الزوج"[70].

وكلام هاته الأستاذة لا شك أنه نابع من واقع اجتماعي في تطبيق أمر التعدد، وإلا فقد أشرنا عند إيرادنا لشبهات منكري التعدد أنه ليس في التعدد أدنى إهانة للمرأة التي هي معززة مكرمة بما فرض الله لها من الحقوق كأية زوجة، وجعل العدل أساسا للتعدد.

وتصرح إحدى الأستاذات المنكرات للتعدد فتقول:" أن التعدد ليس حلا للعنوسة أن أي امرأة سواء بالغريزة قبل الثقافة لا يمكن أن تقبل فكرة التعدد؛ وأشارت إلى أن تعدد الزوجات مجرد رغبة من الرجل في الامتلاك مثلما يمتلك أي شيء بأمواله، ولدى بعض الرجال حب امتلاك النساء سواء بعلاقة مقننة أو غير مقننة، وأكدت أن هذا شكل مهين للمرأة ويعود بالحياة الإنسانية إلى الوراء"[71].

وفي نظري أن كل هذا إنما هو نظر إلى الواقع الموجود في حال هذا الزواج، وهي في الحقيقة مبررات وأسباب غير منطقية بالنظر إلى الفوائد والإيجابيات التي ذكرناها في فضل التعدد.

البند الثالث: السبب الثالث: رفض التعدد لأن هدفه جنسي بحت:

يرى البعض أن الواقع الاجتماعي يبين أن الذين يقومون بالتعدد هم في الغالب الفئة الغنية الميسورة الحال وهذه الفئة هدفها من الزواج الثاني أو الثالث أو حتى الرابع ليس الإنقاص من نسبة العنوسة و إنما هدف جنسي بحت فأحدهم يبتعد عن زوجته عندما تبلغ سن الأربعين أو الخمسين و يريد أن يعيش حياته مع شابة فيعطيها مالا و تعطيه جسداً[72] .

وطبعا هذا السبب في رفض التعدد مبناه على قلة الوعي بإيجابيات هذا الأمر والنظر إليه بنظرة سوداوية نتيجة الواقع السلبي الذي لا ينظر إلى التعدد إلا من زاوية الهروب من الزوجة الأولى ومشاكلها.

البند الرابع: السبب الرابع : الخطأ في التنفيذ من قبل المعددين.

ترى إحدى أستاذات علم الاجتماع[73]؛ أن التعدد وإن كان مقبولاً شرعاً إلا أن المنفذ لأمر التعدد لا يراعي الضوابط التي وضعها الشرع حين شرع التعدد، حيث يصير للرجل الأمر المطلق والحرية الكاملة في الاستفادة من الرخصة الشرعية دون مراعاة لحق الزوجة الأولي أو دون مراعاة لشرط العدل، وهو ما يخلق نوعاً من الصراع والشعور بالإحباط بين نساء المجتمع، فلم يعد الزواج الثاني يتم إلا بغرض إشباع النزوات فقط، دون النظر إلى كونه وسيلة من وسائل إصلاح خلل ما في المجتمع كارتفاع نسبة العنوسة وما إلى ذلك.

وهكذا نرى أن هذه الأسباب التي تطرح في المجتمع إنما هي كلها أسباب ناتجة إما عن واقع اجتماعي لم يع فيه بعد المعددون بحقيقة التعدد وضوابطه وأنه ينبغي التعدد، أو أنه نابع عن الغيرة الغريزية في النساء أو هو مجرد تطاول على امر رباني من قبل البعض ممن ضعف إيمانهم، أما باقي الأسباب فهي لا ترقى إلى أن تكون أسباب حقيقية لمنع التعدد.

المطلب الثاني: واقع الرفض والسلبية للفئات الاجتماعية لتعدد الزوجات:

تصرح إحدى النساء الجزائريات . رافضة التعدد رفضا مطلقا :وتؤكد أنها تطلب الطلاق من زوجها لو قرر الزواج بأخرى، لأنه من وجهة نظرها تقليل من قيمتها في المجتمع وفي العائلة بالخصوص وإهانة لشخصها، فكيف يعقل أنه بعد كل السنوات التي قضيتها مع زوجي أجد نفسي أتقاسمه مع امرأة أخرى.[74]

وتصرح إحدى الطالبات قائلة : بأن زواجها من رجل متزوج له حياته وأسرته أمر صعب على النفس ولا يمكن أن تتقبله، وتقول: إنني بذلك أهدم كل ما بناه هو وأسرته، كذلك لو قبلت الزواج من رجل متزوج، فهذا يعني أن أقبل بزواجه عليّ من امرأة أخرى بعد ذلك، وهو أمر لا أرضاه لنفسي، وبالتالي لا أرضاه لامرأة غيري.[75]

وتصرح إحدى اللواتي عددن مع زوج آخر : أنا ضد موضوع تعدد الزوجات تماماً، يكفي أنني فقدت الاستقرار في حياتي بعدما تزوج زوجي ولم أعد أجده بجواري. (76)

وهكذا نرى إصرار فئات نسائية كثيرة على رفض التعدد وهذا لا شك له ما يبرره في الواقع الاجتماعي: فالغيرة المغروزة في المرأة تجعلها بلا شك ترفض فكرة التعدد، وهو لا يعني بحال من الأحوال نفي التعدد، ألا نرى أن الطفل يغير من أخيه الثاني فهل هذا يعني ترك الإنجاب.

ثم الواقع الأليم والمر الذي للأسف نتمنى أن ينتبه له المعددون وهو عدم العدل بين الزوجات وإهمال الزوجة الثانية، وهذا ربما له دواعيه وهو أن التعدد خصوصا في بلادنا لا يكون إلا بعد مرض الأولى أو اشتداد الخلافات الزوجية والنفور وهذا يعمق الأزمة .

ومع هذا كله فإنه يبقى التعدد سنة من سنن المصطفى . صلى الله عليه وسلم . باقية إلى يوم الدين ولو كره الكارهون، ولكن وفق الضوابط الشرعية.

المطلب الثالث: واقع القبول والإيجابية لبعض الفئات الاجتماعية النسوية لتعدد الزوجات:

وكما رفض البعض من النساء مبدأ تعدد الزوجات واعتبروه إجحافا في حقهن فإنه في المقابل هناك فتيات ونساء اعتبرن ذلك إيجابية وفرصة سانحة للظفر بزوج بدل العنوسة والوحدة القاتلة، وإن كان هؤلاء يعتبرن فئة قليلة بالمقارنة مع الفئة الرافضة.

وفي هذا تقول إحدى الفتيات القابلات بالتعدد كزوجة ثانية بعد أن رزقت بأطفال (77):"... أن زوجها متميز بالرفاهية وقد أنقذها من لقب "عانس " حيث أنها تعدت الخامسة والثلاثين عاما ولم تتزوج إلا أن جاء هذا الزوج المتزوج" .

ولم يقف القبول الإيجابي عند أفراد من النساء بل تعداه إلى أن وصل إلى بعض التيارات التي تقودها فئات نسوية، وفي هذا تؤكد رئيسة **حزب العدل والبيان في** الجزائر (78)عن دعمها لتعدد الزوجات مبينة بأن هذا الأمر هو الحل للمشاكل الأخلاقية ومشاكل العنوسة التي يعاني منها المجتمع الجزائر مستندة في ذلك إلى رأي الشرع الإسلامي الذي يحلل أربع زوجات للرجل الواحد دون قيد.

ومن أقوى الحجج التي قدمتها **رئيسة هذا الحزب قولها** " أن الضرة (الزوجة الثانية) خير من الخليلة".

وهناك حالات كثيرة قبلت فيها مسلمات جدد الاقتران بمسلم متزوّج بالفعل[79]، بعد أن تأكّدن من أنَ هذا هو أفضل وأكرم الحلول لهن . والطريف أن كثيرا من النساء الأمريكيات اللاتي أسلمن قمن- مؤخرا- بتأسيس جمعية تدعو إلى تطبيق ونشر ثقافة تعدد الزوجات في أمريكا ، وبلغ عدد عضوات الجمعية حتى الآن -2010 م- أكثر من 900 امرأة!!

وكذلك وعت بعض النساء الصالحات العاقلات في وطننا العربي المصالح العظمى التي يحققها نظام التعدد الشرعي للملايين من بنات جنسهن الوحيدات في كل مكان ، فقمن بتبني الدعوة إلى تطبيق تعدد الزوجات على نطاق واسع.

ومثال ذلك جمعية أسستها في مصر إعلامية مصرية - وهى متزوّجة - واختارت لها شعارًا طريفًا يقول:"**امرأة واحدة لا تكفى!**".لاحظ أن الجمعية أسستها امرأة ، وأن معظم أعضائها من النساء!! وأكَّدت هذه السيدة ضرورة تطبيق نظام تعدد الزوجات كما جاء به الإسلام للقضاء على مشكلة العنوسة في المجتمعات العربية التي تهدد عشرات الملايين من الفتيات بفقدان الفرصة في تكوين أسرة والحرمان من الأمومة إلى الأبد.

وعلى ضوء ما تقدم نقول لرافضي التعدد هاهم شاهدات من النساء على عظمة الإسلام في تشريع التعدد رحمة بهن وحلاً لمشاكلهن ، ومَن لا يعجبه ما نقول فليتوجّه إليهن وليجادلهن ما شاء ، وأظن أنه لن يكسب المعركة بأي حال .

لقد أنقذ الأخذ بنظام تعدد الزوجات المجتمعات الإسلامية من شرور ومصائب كثيرة، ويكفي لنعرف إيجابيته وفضله مقارنة بين واقع بعض الدول التي تقبل التعدد وقلة الجرائم الأخلاقية فيها وبين المجتمع الأمريكي الذي تزيد نسبة العشيقات فيه على نسبة الزوجات ، وتبلغ معدلات جرائم الاغتصاب والتحرش الجنسي باعتراف المصادر الغربية أضعاف مثيلاتها في البلاد الإسلامية.

الخاتمــة:

بعد أن استعرضت موضوع **تعدد الزوجات بين الأمر الرباني والواقع الاجتماعي** فإنه تبين لي ما يلي:

أولا: يعتبر الأمر الرباني بالتعدد للزوجات أمرا مباحا وإرشادا من الله عز وجل للمسلم ليحقق بعض المقاصد المشروع من خلال هذا الزواج والتي من أهمها التحصين من الوقوع في ما حرم الله عز وجل أو اتخاذ الخليلات.

ثانيا: إن إنكار مسألة التعدد ومحاربتها من البعض ما هو إلا نتيجة الجهل بالإيجابيات الناتجة عن هذا الأمر والفضائل العظيمة من وراء ذلك، وقد بينت ذلك وأوضحت أن التعدد يقضي على كثير من الآفات والتي من بينها شيوع الفواحش ووجود الأبناء غير الشرعيين وانتشار ظاهرة العنوسة في المجتمع إلى جانب كثير من الإيجابيات الأخرى.

ثالثا: حاول بعض المشكّكين الطعن في دين الله عز وجل ، وفي رسوله . . من خلال مسألة التعدد وأقول لهؤلاء إنكم كمن ينطح الجبال الراسيات، إن سيرة النبي . . كلها فضائل، إن أمهات المؤمنين ما ارتفع شأنهم وعلا ذكرهم في الدنيا في إلا بزواجهم من الحبيب . . ،. والدارس لسيرته يعلم حسن معاملته ومعاشرته لهن بالمعروف كما أمره ربه . عز وجل .، وقد رددت في مقالي هذا على شبهاتهم وبينت بطلانها.

رابعا: إن الخلل الذي يتكلم عليه البعض في أمر التعدد ليس للتعدد في ذاته وإنما هو لما يقوم به بعض المعددين من التصرفات السيئة اتجاه الزوجة الأولى، وأيضا لجهلهم بضوابط التعدد وشروطه والتي من أهمها: الحرص على العدل في المبيت والمأكل والمشرب، وفي المسكن، وفي النفقات كلها، ورعاية أولاد كل واحدة منهن ونحو ذلك.

خامسا: يعتبر التعدد حلا لكثير من المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع اليوم، فأكثر النساء اليوم عوانس فمن لهن؟ إما : أن يكون الحلال بتطبيق الأمر الرباني وهو إباحة التعدد، وإما الصبر الذي قد ينفذ أحيانا من كثير منهن مما يؤدي إلى التخبط في وحل الفواحش والموبقات والزنا والعياذ بالله .

سادسا: تشير الإحصائيات إلى أن التعدد في الأمة العربية والإسلامية ضعيف جدا، بل وفي العالم كله، بينما تشير الإحصائيات على العكس من ذلك إلى انتشار الزنا بشكل

فاحش وفظيع:" **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**"، فكيف يترك الحلال الطيب الذي هو التعدد بضوابطه الشرعية من العدل والنفقة، ونلجأ إلى حلول الغرب التي فيها الدمار لأسرنا ومجتمعاتنا؟ والله المستعان.

الهوامش

[1]. سورة الروم، الآية 21.

[2]. سورة النساء، الآية 3.

[3]. السورة السابقة نفسها والآية نفسها.

[4]. سورة النساء ، الآية رقم 129.

[5]. تعدد الزوجات في الإسلام، د.محمد بن مسفر بن حسين الطويل، طبعة: إدارة الدعوة والإعلام بجماعة أنصار السنة المحمدية دار أم القرى للطباعة، ج7/1.

[6]. تفسير ابن كثير، ج425/2.

[7]. رواه البخاري في صحيحه، باب شركة اليتيم وأهل الميراث، برقم، 2494، ج182/3.

[8]. تفسير ابن جرير الطبري، ج532/7.

[9]. تفسير القرطبي، ج20/5.

[10]. تفسير ابن جرير الطبري، ج 376/6، تفسير القرطبي، ج20/5-21.

[11]. سورة النساء، الآية3.

[12]. من موقع اسلام islamqa.com الشيخ صالح المنجد، الاثنين 27 ربيع الآخر 1436 - 16 فبراير 2015.

[13]. من كتاب الشيخ ندا أبو احمد" تعدد الزوجات بين المعارضة والتأييد"،مأخوذ من موقع انترنت : ww.saaid.net/book.

[14]. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، ج9 / 104.

[15]. من كتاب الشيخ ندا أبو احمد" تعدد الزوجات بين المعارضة والتأييد"،مأخوذ من موقع انترت : ww.saaid.net/book ، انظر أيضا: مسائل حول التعدد من موقع اسلام ويب ،الأربعاء 5 صفر 1426 - 16-3-2005 رقم الفتوى: 59995. من موقع: سلسلة الريان ،بيروت كتاب" سؤالات في تعدد الزوجات "للداعية السعودي في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف محمد بن سعد الشهراني، وقد قدّم لكتابه الشيخ ابن جبرين وقرّظ له الشيخ خالد الهويسين.

[16]. سورة الطلاق، الآية6.

[17]. المصدر نفسه، ج16/1.

[18]. المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

[19]. المصدر نفسه ، 63/1.

[20]. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[21]. الجنس الناعم في ظل الإسلام، أ. سعيد جندول:، بيروت 1399 هـ، ص73-74.

[22]. تعدد الزوجات في الإسلام، د.محمد بن مسفر بن حسين الطويل، 73/1.

[23]. سورة الأحزاب، الآية21.

[24]. تعدد الزوجات في الإسلام، د.محمد بن مسفر بن حسين الطويل، 45/1.

[25] رواه أبوداود في سننه، باب النَّهْيِ عَنْ تَزْوِيجِ مِنْ لَمْ يَلِدْ مِنَ النِّسَاءِ، برقم 2052، ج175/2، ورواه أحمد في مسنده، برقم 12634، ج158/3، وقد صححه الشيخ الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، للألباني، برقم1789، ج291/6، الجامع الصغير وزيادته، برقم 5251، ج526/1.

[26] . محاسن تعدد الزوجات، أ.أبي أسامة عادل بن محمد السياغي، ج11/1 الناشر : دار الحديث بدماج، اليمن.

[27] . تعدد الزوجات في الإسلام، د.محمد بن مسفر بن حسين الطويل، 59/1-60.

[28] . صحيح البخاري ،كتاب بدء الوحي، برقم : 5304 ، ج68/7.

[29] . المرأة المسلمة، الشيخ: وهبي سليمان غاوجي، ص163.

[30] . المرأة في القرآن، أ. عباس محمود العقاد ، ص108.

[31] . زوجات لا عشيقات " التعدد الشرعي ضرورة العصر" ،تأليف: حمدي شفيق، ج32/1-33.

[32] . المصدر نفسه، 33/1.

[33] . المصدر نفسه، ج28/1.

[34] . المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[35] . محاسن تعدد الزوجات، أ. أبي أسامة عادل بن محمد السياغي، الناشر : دار الحديث بدماج، 8/1.

[36] . تعدد الزوجات في الإسلام، د. محمد بن مسفر بن حسين الطويل، 45/1.

[37] . المصدر نفسه، 48/1.

[38] . في ظلال القرآن،أ. سيد قطب،1 /579-580.

[39] . صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، ج135/7، برقم 5577.

[40] . المصدر نفسه.

[41] . انظر: موقع الشروق أون لاين: http://www.echoroukonline.com/ara/articles/189636.html 2013/12/27، وجريدة آخر ساعة، مقال بعنوان الجزائر بحاجة إلى تعدد الزوجات ، بتاريخ2014/09/23.

[42] .https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/index.html.

[43] . انظر: موقع إسلام واي:ttp://ar.islamway.net/article/42443

[44] . من موقع: http://www.eshamel.net/vb/t31669.html، مقال بعنوان: أسباب العنوسة في الجزائر.

[45] . من موقع: http://kalimataldoah.net/play-5438.html من مقال : إباحة تعدد الزوجات، بتاريخ201/03/10.

[46] . المصدر نفسه.

[47] . تعدد الزوجات في الإسلام، د. محمد بن مسفر بن حسين الطويل، ج62/1.

[48] . من موقع:http://www.qaradawi.net/ كتبة القرضاوي، تعدد الزوجات

[49] . سورة النساء، الآية.03.

[50] . المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لابن قدامة، ج50/16.

[51] . انظر : مسند الإمام أحمد برقم 7923، ج295/2، ورواه النسائي في سننه، ميل الرجل إلى بعض نسائه ، برقم 3942، ج63/7، ورواه أبو داود قريبا من هذا اللفظ، سنن أبي داود، باب في القسم بين النساء، برقم 2135، ج208/2

[52] . سورة النساء، الآية129.

[53] . سنن أبي داود، باب في القسم بين النساء، برقم 2136، ج208/2، ورواه الحاكم في مستدركه في كتاب النكاح، برقم 2761، ج204/2.

[54] . تفسير القرطبي، ج407/5

[55] . الشرح الممتع على زاد المستقنع، للعثيمين، ج128433.

[56] . الذخيرة، للقرافي، ج455/4،

[57] . الفواكه الدواني، للنفراوي، ج986/3.

[58] . سورة النساء، الآية 3.

[59] . فقه السنة ، سيد سابق، ج 95/2. وخالف في ذلك الرافضة والظاهرية، ولا اعتداد بخلافهم.

[60] . رواه ابن ماجه، في كتاب النكاح، برقم 1952، ج 129/3 .

[61] . رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب مَنْ يُسْلِمُ وَعِنْدَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ، برقم 14426، ج182/7.

[62] . من موقع: http://kalimataldoah.net/.

[63] . من موقع: http://kalimataldoah.net/.

[64] . المفصل في أحكام المرأة المسلمة، أ. عبد الكريم زيدان ، ج6 ص286.

[65] . سورة النور، الآية 33.

[66] . الحديث أخرجه الترمذي في سننه، حق المرأة على زوجها، 1163، ج467/3، وفي سنن النسائي، باب كيف الضرب، برقم 9124، ج264/8، وحسنه الشيخ الألباني.

[67] . الحديث أخرجه أبو داود في سننه، باب في صلة الرحم، برقم : 1694ب، ج59/2، وأحمد في مسنده برقم 6495، ج160/2، وهو حديث صحيح، ورواه مسلم بلفظ:"...أن يحبس عمن يملك قوته" برقم2359، ج78/3.

[68] . من موقع: http://www.islamtoday.net/files/Da3sh/ ، مقال: تعدد الزوجات مشكلة أم حل للمشكلات؟ !الاحد 12 ذو القعدة 1424 الموافق 04 يناير 2004، إعداد: عواطف عبد الحميد.

[69] . هي الدكتورة نادية هاشم – أستاذ الفقه بجامعة الأزهر ، انظر: جريدة ((المسلمون)) العدد الصادر بتاريخ: 6 / 6 / 1997 م..

[70] . المصدر نفسه.

[71] . من موقع:http://ar.islamway.net/article/42443 ، مقال منشور بمجلة الحوار.

[72] . من موقع: http://zineghe.arablog.org/2014/11/23/

[73] . هي الدكتورة عزة كريم – أستاذ علم الاجتماع بالمركز القومي للبحوث– من موقع: http://www.islamtoday.net/files/Da3sh/، تعدد الزوجات مشكلة أم حل للمشكلات؟!الاحد 12 ذو القعدة 1424 الموافق 04 يناير 2004تحقيق: عواطف عبد الحميد.

[74] . مقال بعنوان: تعدد الزوجات بين مؤيد وراف، إعداد: أمينة بعزيز، منشور في جريدة أخبار اليوم ، يوم 13 – 11 – 2012.

[75] . المصدر السابق نفسه.

[76] . المصدر السابق نفسه.

[77] . مقال بعنوان : حكمة الله في تعدد الزوجات مأخوذ من الموقع: http://www.elitihadonline.com/societe/32960، بتاريخ:28/01/2014 ، بقلم: ي.مغراوي.

[78] . وهي الأستاذة نعيمة صالحي،انظر الموقع::http://zineghe.arablog.org/2014/11/23/ .

[79] . من http://kalimataldoah.net/play-5438.html من انظر: مقال ضوابط تعدد الزوجات بتاريخ: 2010 .01:23.

إسلامية المعرفة عند اسماعيل راجي الفاروقي

فطوم موقاري جامعة الجزائر

الملخص:

يعد مشروع إسلامية المعرفة مشروع تجديدي اجتهادي. وقد عرف مصطلح إسلامية المعرفة بعدة أسماء منها: أسلمة المعرفة، التأصيل الإسلامي أو التوجيه الإسلامي . إذ الهدف من هذا المشروع هو: تمحيص الأسس الفلسفية التي تأسست عليها المعرفة الغربية ومقارنتها بالأسس الإسلامية ليخلص واضعوه من خلال المقارنة إلى أن هناك اختلافات لا مجال لإنكارها تجعل من التسليم المطلق للمعرفة الغربية أمرا مُتعذراً، وهذه الاختلافات هي: إنكار الغيب كمصدر للمعرفة، وأن العلم هو ما يتعلق فقط بالحقائق الموضوعية التي ترصدها الحواس، وأنه يخلو من أي موجهات أخلاقية او قيمية، وأن غايته القصوى إشباع الحاجات المادية لبني البشر.

يعتبر الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي من بين رواد منهجية إسلامية المعرفة حيث أمضى حياته العلمية النظامية من البكالوريوس إلى الدكتوراه متخصصا في دراسة الفلسفة الغربية مع التركيز في مرحلة الدكتوراه على نظرية المعرفة ونظرية القيم، وبعدها اتجه إلى القيام بدراسات ما بعد الدكتوراه في الأزهر الشريف لمدة أربع سنوات منغمسا في دراسة جادة للعلوم الشرعية مما أهله للتبحر والتبصر في كل من الأنماط الفكرية الغربية والإسلامية، فكانت إسهاماته العلمية لإصلاح الفكر والخلاص من الفصام بين العلوم الحديثة وخاصة العلوم الاجتماعية من جانب والعلوم الشرعية من جانب آخر. أولت خطة إسلامية المعرفة اهتماما ملحوظا بالتعليم الأوليّ حين دعت إلى إعادة تأسيس النظام التعليمي الراهن على نحو يكفل القضاء على الازدواجية التي تقسمه إلى نظامين أحدهما إسلامي والآخر علماني بسبب مخلفات السيطرة الاستعمارية التي عزلت الأمة عن المنهج الإسلامي الصحيح في التربية وشتى مجالات الفكر، ثم عملت على بث المناهج العلمانية المادية السائدة في العالم غير الإسلامي . والمخرج حسب رأيه هو إعادة صياغة الأمة وصبغها بصبغة الإسلام ، روحا وفكرا ومنهجا، وهذا لن يكون إلا بإعادة صياغة العلوم جميعها صياغة إسلامية أصيلة تقضي على الثنائية أو الازدواجية القائمة في مناهج التعليم ومعاهده، لهذا لابد من الوعي بأبعاد المشكلة والالتزام بالعمل على علاجها، وتقسيم أبواب الدراسة إلى أبواب وقواعد ومناهج ومسائل ومواضيع بشكل مواكب للعصر، وصف شامل لمكونات كل فرع دراسي يستوعب تاريخه وتطوره ومنهجه وأحدث ما وصل إليه في الغرب و تحديد ما لتراثنا الإسلامي من مساهمات في كل من تلك التخصصات.

الكلمات المفتاحية:

المعرفة، أسلمة، إسلامية، تأصيل العلوم الاجتماعية والإنسانية، صياغة، منهجية، مصادر المعرفة، التراث الإسلامي، المعرفة الغربية والإسلامية.

Abstract:

An Islamic knowledge at Ismail El-Farouki

The project of Islamization of knowledge is a renovational and judgmental project. The term of Islamization of knowledge included different names: the Islamization of knowledge, Islamic rooting or Islamic guidance. The goal of this project is: Scrutiny philosophical foundations and where Western knowledge and comparing the Islamic foundations were founded to tell the authors through the comparison that there are undeniable differences makes Western knowledge impassable, These differences are: Denial of the unseen as the source of knowledge, and that science is just about the objective facts, which is monitored by the senses, and it is devoid of any victors morality or values. Thus, its maximum achievement is satisfying material needs of humans.

Dr. Ismail Radji El-Farouqi was among the pioneers who drew up a methodology for the Islamization of knowledge, where he spent his regular scientific life from his first higher education(Baccalaureate) to the doctorate in studying the Western philosophy, where he concentrating in the phase of doctorate on the theory of sciences of knowledge and the theory of values. After that ,he was directed towards the post doctoral studies in El Azhare Ech- Charif mosque for four years to deepen in serious studies of Islamic sciences (Ouloumes Echchariaa) this period enabled him to have very vast vision in different models of knowledge: Western and Islamic too. His scientific contributions for reforming thought and leaving separation between modern sciences especially sociology in one hand, and Islamic sciences Islamic in the other. Islamic knowledge plan has given a significant interest in elementary education, while calling for Re-establishing the current educational system in a manner that ensures the elimination of duplication, which divides it into two systems, one Muslim and the other secular, because of the remnants of colonial domination, which isolated the nation from the correct Islamic approach in various spheres of Thought and Education too. Then, it worked in broadcasting a secular material methods prevailing in the non-Muslim world. The solution - in his opinion - is a reformulation of the nation and stained it with Islamic current, in spirit, thought and approach, and this will only be by the reformulation of authentic Islamic science which

eliminate bilateral or duplication existing in the education methods and within its departments, this has to be awareness of the dimensions of the problem and the commitment about its treatment, split levels of the study to rules ,methods ,issues and topics in the processions of the era, comprehensive description of the components of each academic branch in the manner that allows him to absorb his history his evolution

Key words: Knowledge, Islamization, originalisation of social and human sciences, formalization, methodology, sources of knowledge, the Islamic heritage, Western and Islamic knowledge.

تمهيد

لقد أدى طغيان الكنيسة ورجالها في القرون الوسطى إلى ردود فعل أسقط فيها الغرب الدين من حسابه، فتكونت عندهم جراء الفصل بين العلم والدين نظريات للعلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب مبنية على رؤية ووجهات نظر مادية للإنسان ونفسيته، ومحاكمة طبيعته وتصرفاته وميولاته وتقويمها من خلال مقاييس المادة وحدها.

وزاد الخطب حين أحكم الغرب قبضته على مقاليد العالم، حيث عمل على تهميش الثقافات القائمة ببلدان العالم التي استعمرها، معتبرا ثقافته المحور والمقياس لكل فكر ومعرفة، وبالتالي أساسا لكل خطاب. وعلى إثر هذا التحدي ظهر مصطلح أسلمة المعرفة الغربية على ألسنة بعض العلماء المسلمين ومن بينهم الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي، الذي يرى أن التعامل مع أيّ جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، يكون من منطلق العامل الأكبر في وجودها والقاعدة الأساس في إبداعاتها، وهو القرآن الكريم. فالثقافة الإسلامية في الحقيقة هي ثقافة قرآنية؛ ما لها أن تكون إلا بالاستمداد من الوحي الإلهي المنزّل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي بدونه ما كان يمكن أن يكون ثَمَّة دين إسلامي، ولا فلسفة إسلامية، ولا شريعة إسلامية، ولا مجتمع إسلامي، ولا مؤسسة إسلامية.

قام الفاروقي بنقد الأسس الفلسفية والعقدية للنظام المعرفي الغربي، ثم انتقل إلى الكشف عن النموذج المعرفي الإسلامي، مع التركيز على مفهوم التوحيد، مرتكزاً أساساً في البناء الفكري الإسلامي، فكان حضور مفهوم التكامل المعرفي في تنظيراته وممارساته وبرامجه، لا سيما المتصلة بالتعليم الجامعي بارزا ، خاصة من خلال إسهاماته في تجديد الفكر الإسلامي ووضع مشروع إسلامية المعرفة.

إن الأمم الحية فقط هي التي تعتني بحياة عظمائها وكبارها، وتستقي من علمهم وعملهم وسيرهم النور الذي يقودهم في ظلمات وأنفاق الجهل والتخلف والغلو والأمية، ومن هؤلاء الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي الباحث والمفكر الفلسطيني المتخصص في الأديان المقارنة، فهو من أوائل من نظروا لمشروع إسلامية المعرفة أو أسلمة المعرفة، لكل عالم نقاط تحول وتطور تؤثر في حياته تصقل شخصيته وتكون له دافعا للمضي إلى الأمام. لهذا سنعرض مقتطفات من حياة الشهيد الفاروقي حتى تتضح

معالم شخصيته ومشروعه، ولد في يافا بفلسطين في الأول من يناير 1921 م [1] لإحدى الأسر الفلسطينية العريقة والثرية. تلقى تعليمه الأولي بالمنزل على يدي والده الذي كان قاضيا شرعيا، ثم التحق بمدرسة كاثوليكية فرنسية، هي "كلية الفرير" (القديس يوسف) في فلسطين التي حصل منها على الشهادة الثانوية عام 1936م. وتبع ذلك خمس سنوات أمضاها في كلية "الآداب والعلوم" بالجامعة الأمريكية في بيروت، حصل فيها على بكالوريوس الفلسفة في عام 1941، والتحق إثرها بالخدمة الحكومية. وعام 1945 وفي سن الرابعة والعشرين، أصبح حاكماً لمنطقة الجليل.

النقطة التي حولت وغيرت حياة الفاروقي اندلاع القتال في فلسطين عام 1948م، حيث شارك في بعض عمليات المقاومة إلا أنه بعد الهزيمة انتقل وعائلته إلى لبنان مع عشرات الآلاف من الفلسطينيين، وبعدها الولايات المتحدة الأمريكية حيث نال شهادتي ماجستير من جامعتي "إنديانا" و"هارفارد". ثم حصل في عام 1952 على الدكتوراه في الفلسفة من "جامعة إنديانا" عام 1952م عن رسالته المعنونة "نظرية الخير: الجوانب الميتافيزيقية والإبستمولوجية للقيم [2].

استشعر الفاروقي نقصا في تكوينه المعرفي رغم حصوله على أعلى الشهادات والدرجات العلمية من أرقى جامعات العالم فقد اقتصرت دراساته – حتى ذلك الحين – على دراسة الفكر والفلسفة الغربية، فأحس أنه بحاجة للاطلاع والتعمق في الثقافة والفكر الإسلامي؛ لذا توجه إلى مصر وتفرغ لمدة أربع سنوات (1954-1958) لدراسة العلوم الشرعية في الأزهر الشريف، هذه الأربع سنوات كان لها التأثير الكبير في فكر الفاروقي، يظهر من خلال تصريحه: "عندما حققت ما سعيت إليه، ثبت لي أني قادر على تحقيق نجاحي، ووجودي في الغرب، لكن عندما حققت ذلك، أصبح بلا معنى .حينها سألت نفسي :من أكون ؟ فلسطيني ؟ فيلسوف ؟ إنسان متحرر؟ إجابتي كانت: أنا مسلم" [3]

([1])- اسماعيل راجي الفاروقي: صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية . المعرفة- 5- 1409هـ - 1989م، ص 3.

(2)- عمار طسطاس : التوحيد كرؤية معرفية في فكر الفاروقي، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، العدد الأول، سنة 2005م، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة(الجزائر) ص17 -http://www ismailfaruqi.com/biography: (16-12-2009)

(3)- .http://en.wikipedia.org/wiki/Ismail_al-Faruqi,(13-03-2008)

قرر الفاروقي بعد تجربته الأزهرية العودة إلى كندا، اهتم بدراسة مقارنة الأديان والحضارات الأخرى[1] ما أهله لاستيعاب التوراة والإنجيل بعمق منقطع النظير من علماء معتنقيها. كل هذه النجاحات التي امتدت قرابة الثلاثين عاما، أهلته أن يؤلف ويترجم ويشرف على تحرير خمسة وعشرين كتابا ونشر أكثر من مائة مقال، كما عمل أستاذا زائرا لدى أكثر من ثلاث وعشرين جامعة في إفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط، وجنوب آسيا وجنوب شرقها، كما عمل ضمن هيئات تحرير سبع صحف كبرى.

قتل الفاروقي هو وزوجته في بيتهما ببنسلفانيا، مساء يوم التاسع عشر من شهر رمضان 1406 هـ الموافق للسابع والعشرين من شهر ماي 1986 م[2] ، منهم من يرجع سبب اغتياله دفاعه عن القضية الفلسطينية وتبنيه مشروع ضخم كرس حياته لتحقيقه، وهو إسلامية المعرفة ، الذي كان يصبو من خلاله إيجاد منهجية تتجاوز تبعية العالم الإسلامي للغرب.

مفهوم إسلامية المعرفة:

لقد مر مصطلح إسلامية المعرفة بمراحل، ليستقر في الأخير على مضمون معين، فهذا المشروع مكمل لجهود فكرية إسلامية معاصرة كبديل للمناهج والعلوم الحديثة ذات النشأة الغربية السائدة في الساحة الإسلامية، لهذا كان"الهدف هو إحلال مفهوم الإسلامية محل مفهوم التغريب وإبراز مفاهيم التحديث والمعاصرة لمفاهيم الثقافة الإسلامية الشاملة ليستوعب المفهوم طاقات العصر وقدراته تجسيدا للغايات والقيم الإسلامية الإصلاحية الإعمارية السامية"[3]

إذا أردنا أن نفهم هذا المصطلح لابد أن نرجع أولا للجهة التي نادت لهذا المشروع وأبدعت له هذا المصطلح وخططت له ثم شرعت في إنجازه ، وهي المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي أخذ على عاتقه تجسيد هذا المشروع.

---

(1)- الفاروقي: إسلامية المعرفة، ص 62.

(2)- عبد الله عقيل، المفكر الإسلامي المغترب مجلة المجتمع، 2006/11/15

http://www.almujtamaamag.com/Detail.asp?InSectionID=2218&InNewsItemID=200114

(3)- الوجيز في إسلامية المعرفة، سلسلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار البشير، دار الهدى، دط، دت، ص30.

ورد في كتيب الوجيز في إسلامية المعرفة: "المعرفة الإسلامية أو إسلامية المعرفة تعني منهجية إسلامية قويمة شاملة تلتزم توجيه الوحي ولا تعطل دور العقل بل تتمثل مقاصد الحي وقيمه وغاياته وتدرس وتدرك وتتمثل موضوع اهتمام الوحي وإرشاده وهو الفرد والمجتمع

الإنساني والبناء والإعمار الحضاري وما أودع الله في هذه الكائنات والعلاقات من فطرة ومن طبع، وكيف توجه تلك الطبائع وتتفاعل وكيف تطوع وتستخدم وكل ذلك من أجل تفهم هذه الكائنات وعلاقاتها حتى يمكن تسخيرها لتوجيه الإسلام وغاياته"[1]

ما يمكن فهمه من هذا التعريف ما يلي:

هدف هذا المشروع رسم التصور العام لمجال تحرك هذا الفكر، أي أن الاساس الذي يقوم عليه المشروع وينضبط به هو كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، إذ قال تعالى " **اقرا باسم ربك الذي خلق**" فالقراءة في الاسلام مشروطة ومقيدة بأن تكون باسم ربك، وهنا يفترق العلم في صورته الإسلامية عن العلم في صورته الغربية. أي وضع المصطلح في إطاره العقدي الذي ينبثق منه فكر المسلم وسلوكه عموما.

إلى جانب التعريف المذكور سابقا يشير محمد عمارة: إلى أن " المذهب القائل بوجود علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية هو المذهب الذي يقيم المعرفة الإنسانية على ساقين اثنين (الوحي)وعلومه و(الكون) وعلومه، وليس على ساق واحدة هي (الوجود) ولذلك كان تميز هذا المذهب في المعرفة، أيضا باعتماد كل أدوات وسبل المعرفة المناسبة لإدراك حقائق ومعارف كل من المصدرين، وليس فقط اعتماد الحواس وتجاربها لأنها إن نهضت بمهام الإدراك لحقائق (الوجود) و(عالم الشهادة) فلن تفي بإدراك حقائق وتصورات كتاب الوحي وعالم الغيب"[2]

فهذا التعريف مكمل للتعريف الأول حيث لكل فكر مصطلحاته وأدوات بنائه الفكري، في حالة ما إذا استخدمنا وطبقنا المصطلحات الفكرية الغربية على العقل المسلم نجعله يعيش حالة اغتراب فكري ونفسي وبالتالي:

---

(1)- نفس المرجع، ص74 .

(2)- محمد عمارة : إسلامية المعرفة ماذا تعني..؟، في التنوير الإسلامي -48، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 ، 2007م، ص10.

- تغييب الهوية الحضارية للأمة.
- انحراف الفكر والحياة عموما عن أهداف الوحي، وانفلاتها عن الضوابط الشرعية ومقتضيات العقيدة.

فأسلمة المعرفة هي الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي والسنة النبوية قراءة صحيحة جامعة شاملة كاملة للكون والوجود والإنسان فيؤدي من خلالها الإنسان وظيفته الأساسية في خلافة الله في الأرض بعمارتها وتطبيق أوامره واجتناب نواهيه وتسخير السموات والأرض، أي الوصول بالعقل المسلم المعاصر إلى مرحلة الإبداع والمبادرة وفقا للتصور الإسلامي وبالتالي تقديم البدائل في جميع مجالات الفكر والمعرفة. بسبب الضغط والممارسات الاستعمارية بعث الله رجالا قدموا حلولا للخروج من التبعية الفكرية، ووضعوا منهجا لكيفية التعامل الصحيح مع كل ما ليس إسلاميا، من بينهم بديع الزمان سعيد النورسي (1877م- 1960م)، الذي سبق الفاروقي في طرحه للمشروع وإن اختلفت المسميات إلا أن الهدف واحد بقوله: "ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة فتتربى همة الطالب، وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى، والحيل والشبهات في الثانية"[1] كما أنه أول من فكر ببناء جامعة إسلامية سماها جامعة الزهراء، تجمع بين تدريس العلوم الدينية والعلوم العصرية وذلك لأن العلم بدون دين يولد الإلحاد أو الشبهات، والدين بدون علم يولد التعصب، هذا ما عرف لاحقا بإسلامية المعرفة.

تجسيد مشروع إسلامية المعرفة:

مر مشروع اسلامية المعرفة بمرحلتين ليتجسد على أرض الواقع، حيث في الأول حاول المنادون إليه ومن بينهم الدكتور الفاروقي وضع تصور نظري مبدئي غير متكامل يعتمد على التمكن وتحصيل التراث الإسلامي و المعارف الإنسانية المعاصرة المبنية عليه لينتهي الأمر بإقامة العلاقة بينهما وتوجيه الفكر الإسلامي:

(1)- بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور، صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم - المناظرات- ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، 2002 م، ط 3، مج8، ص428 .

المرحلة الأولى:

طرحت إسلامية المعرفة تصورا عمليا مفترضة أن إنتاج معرفة إسلامية يقتضي أمرين الأول: اطلاع الباحث المسلم الواسع بالمنتج المعرفي الغربي، ومنهجيات البحث العلمي، والانتقادات الموجهة إليه من جانب المفكرين الغربيين ومعرفة ما الإضافات التي يمكن تقديمها إليه. والثاني: أن يكون الباحث متمكنا من التراث، ومن هنا نبتت فكرة الدعوة إلى تيسير التراث وقد اقترح الفاروقي إجراءات عملية في سبيل تيسيره من قبيل القيام بتبويبه وتصنيفه وفقا لتقسيمات العلوم الاجتماعية وأقسامها، والتعريف بمصطلحاته بلغة يسيرة ومفهومة، ونشر بعض الكتب التراثية الهامة مع تقديم شروح لها. غاية الفاروقي من وراء الاهتمام بالتراث أن يصبح بمقدور الباحث المسلم أن يجيب على أسئلة ثلاث: ما هي مساهمة التراث الإسلامي في القضايا التي تثيرها العلوم الاجتماعية والإنسانية، وأين يتفق ويختلف معها، وكيف يمكن أن يُسهم في تصحيح وتقويم مسار المعرفة الإنسانية والاجتماعية المعاصرة.

هذه النقاط السابقة تطرق إليها عبد الواحد ابراهيم رجب وتوسع فيها نوجزها في: " استيعاب والتمكن من أنظمة العلوم الانسانية والاجتماعية بتحليل واقعها بطريقة نقدية، المعرفة الجيدة للتراث الاسلامي المبني على مصدريه المعصومين القرآن والسنة في مختلف العصور في مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية المعاصرة، إقامة العلاقة السليمة المتناسقة بين معطيات التراث الإسلامي وبين نتائج العلوم العصرية، وبالتالي إعادة توجيه الفكر الإسلامي الوجهة الصحيحة [1]

المرحلة الثانية:

أولا: ما يمكن أن نلاحظه على هذه المرحلة هي أنها تبتدئ أولا بجمع وحصر جميع النتائج المتعلقة بأي موضوع وأي علم وبعدها تصفيتها مما يخالف التصور الإسلامي والإبقاء على ما يتوافق معه، يليه حصر المعارف والبصائر التي يتضمنها كل من التراث الإسلامي، سواء آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، وكذا النتائج التي توصل إليها علماء

(1)- عبد الواحد إبراهيم رجب: المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات النفسية الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، مج 26 ، ع4 ، شتاء 1998 ، ص6 .

المسلمين متقدمين أو متأخرين المتصلة بالموضوع المطروح، يليها خلق الإطار التصوري الذي يجمع بين الخبرة والنتائج الإنسانية المحققة وبصائر الوحي من خلال:

أ- حصر الإسهامات المتصلة بموضوع أي علم من العلوم الإنسانية أو الاجتماعية وذلك عن طريق:

- حصر النظريات والقضايا والتعميمات والمفاهيم المتصلة بالموضوع في الكتابات العلمية.

- إلقاء نظرة نقدية فاحصة على تلك الإسهامات في ضوء التصور الإسلامي للكون والإنسان.

- استبقاء المفاهيم والتعميمات والأطر النظرية التي صمدت للنقد واستبعاد المفاهيم المبنية على أسس خاطئة.[1]

ب- حصر البصائر التي تتضمنها معارف الوحي والتراث الإسلامي ذات الصلة بالموضوع وذلك من خلال:

- استقصاء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بالموضوع.

- حصر إسهامات علماء المسلمين من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين بما يرتبط بالموضوع.

- استخلاص المختارات التراثية في كل مجالات العلوم والفنون والقضايا الحياتية المعاصرة وتيسير هذه المختارات وتحليلها ليتمكن الباحثون من إدراك وفهم أفضل لرؤية السلف الإسلامية. [2]

ج- بلورة الإطار التصوري الجامع بين بصائر الوحي وما صح من ثمار الخبرة الإنسانية من خلال:

-إعادة ترتيب المشاهدات المحققة التي توصل إليها علماء العلوم الإنسانية والاجتماعية وإعادة تفسيرها في ضوء الأطر النظرية المستمدة من معارف الوحي.

-صياغة الإطار التصوري المتكامل الجامع بين بصائر الوحي وما صح من ثمار الخبرة الإنسانية.[1]

---

(1)- إسماعيل راجي الفاروقي، إسلامية المعرفة المبادئ العامة، خطة العمل والإنجازات، قضايا إسلامية معاصرة،، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ- 2001 م ، ص 173.

(2)- المصدر نفسه، ص 174 .

بعد الانتهاء من المرحلة النظرية، قام مجموعة من العلماء ببعض الدراسات من بينها: "مدارسة الشيخ محمد الغزالي مع الأستاذ عمر عبيد حسنة" كيف نتعامل مع القرآن "، "أزمة العقل المسلم "للأستاذ د.محمد أبو سليمان و"مدخل لإسلامية المعرفة "للأستاذ د . عماد الدين خليل، و"تراثنا الفكري بين النقل والعقل "للشيخ محمد الغزالي و"معالم المنهج الإسلامي "للدكتور محمد عمارة، "الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الوجود " و"إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم "للدكتور طه جابر العلواني.

ثانيا: مرحلة البحوث والممارسة المنضبطة لاختيار الإطار التصوري المتكامل وتطويره، وتتضمن:

- استنباط فروض مستمدة من الإطار التصوري (النظري) المتكامل الذي تم التوصل إليه في نهاية المرحلة الأولى.

-إذا لم تثبت صحة الفروض أو عجزت مبادئ الممارسة المهنية عن تحقيق الإصلاح المتوقع في الأفراد والمجتمعات تتم مراجعة الإجراءات المنهجية. ويستمر إجراء البحوث والممارسات المهنية على هذا المنوال ويتم نشرها في الدوريات العلمية.[2]

في هذه المرحلة يوجه الخطاب إلى الفئة المهتمة بقضية إصلاح الفكر وإصلاح المنهج، هم الجامعيون و الأفراد العلميون والباحثون في مختلف التخصصات سواء في نطاق العلوم الحديثة أو العلوم الشرعية وغيرها، تعتبر فرض عين يختص بأمانته مجتمع الأكاديميين وحدهم، دون الخلط مع مراعاة عدم الخلط بين مهام الاكاديمي المختص في مشروع إسلامية المعرفة والداعي أو المصلح، فإذا كان من الممكن القول أن المشاركة في جهود إصلاح الأمة بالمعنى العام تعتبر واجبا على الكافة فإن المشاركة في جهود إصلاح الفكر وإصلاح المنهج فرض عين، فجهود كل واحد منهما تهدف للحفاظ

(1)- ملخصا عن عبد الواحد إبراهيم رجب، المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات النفسية الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، مج 26 ، ع4 ، شتاء 1998 ، ص 67-68.

(2)- إبراهيم عبد الرحمن رجب: تشخيص المشكلات النفسية/الاجتماعية وعلاجها، محاولة جزئية لتطبيق منهجية التكامل بين العلوم الاجتماعية و العلوم الشرعية، بحث قدم إلى الحلقة الدراسية الثانية التي نظمتها كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية وموضوعها "نحو برنامج تكاملي لمناهج البحث العلمي بين معارف الوحي والعلوم الإنسانية" ، سبتمبر 1997 ، http://www.ibrahimragab.com

على المكتسبات الدينية والحفاظ على الهوية الاسلامية وبالتالي تحقيق خلافة الله على الأرض.

إلا أن مشروع إسلامية المعرفة كان كغيره من المواضيع والمشاريع التي تطرح على الساحة العلمية بين مؤيد و معارض. أول ما واجهه من نقد كان على مستوى المصطلح، فقد تنكر له الكثير لما يمتاز به من محاولة إضفاء الصبغة الإسلامية، فالمصطلح بهذه الصيغة يحاول الربط بين المعرفة بميادينها المختلفة والإسلام من حيث أنه رؤية توحيدية، منهم من نظر للمصطلح على أنه محاولة سحب بساط الشرعية على الموضوع، مما استدعى الأمر إلى استعمال مصطلحات أخرى أقل حرجا منها: التأصيل الإسلامي، والتوجيه الإسلامي، والصياغة الإسلامية .

ويعتبر الدكتور طه جابر العلواني من بين الشخصيات المهمة في المشروع، الذي تقلد رئاسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، اختار شخصية ابن تيمية في كتابه" ابن تيمية وإسلامية المعرفة " كأنموذج لمن نادوا بالأسلمة، وقد يقول قائل ما لشيخ الإسلام وأسلمة المعرفة؟" ابن تيمية رجل سلفي من علماء القرن الثامن الهجري كذلك جل تلامذته وناشري علمه .أهي محاولة لإضفاء المشروعية القديمة على المحاولة الحديثة؟ أم هي محاولة لسحب الرداء السلفي على هذه القضية ؟ أم هي محاولة لربط الجديد المستغرب بالقديم المألوف بهدف إزالة الوحشة عن مستقبله؟[1] " الإسلام دين عالمي جاء للناس كافة وصالح لكل زمان ومكان وأنه رحمة للعالمين .فالحاجة تزول لاستعمال هذا المصطلح فقط عندما تصطبغ جميع المؤسسات بالصبغة الإسلامية ويقضى على التبعية الغربية بسبب مخلفات الاستعمار من خلال تغييب الهوية الإسلامية وإزالة الثنائية الموجودة في النظام التعليمي، فما تعاني منه علومنا اليوم هو القطيعة أو الشرخ الذي وقع بين ما اصطلح على تسميته بالعلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية. فبلور كل علم لنفسه مناهج ومفاهيم تميزه عن الآخر بالرغم من أن إسلامية المعرفة معنية بإصلاح كل المعارف التي تندرج في نطاق العلوم الطبيعية أو الاجتماعية إلا أن دلالتها بالنسبة للعلوم الطبيعية تختلف

(1)- محمد همام: خطاب التأصيل لإشكالية المنهج في الفكر الإسلامي المعاصر(2 /1)، نموذج طه عبد الرحمن وطه جابر العلواني ، 1 377 =http://www.chihab.net/modules.php?name=News&file=article&sid2007/04/30.

عن العلوم الاجتماعية، فالأولى تنصرف إلى إصلاح الأطر التصورية وتوجيه التكنولوجيا، أما بالنسبة للعلوم الاجتماعية تذهب إلى إصلاح المنهج وإعادة النظر في مواضيع الدراسة وتنظيمها تحت لواء التوحيد.

شهد العالم الإسلامي ظهور العديد من المفكرين والمصلحين والمدارس الإصلاحية، أمثال الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومحمد رشيد رضا وابن عاشور، إلخ، الذين حاولوا تشخيص الأزمة التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وقد تنوعت تشخيصاتهم وخطاباتهم وأدواتهم

ومناهجهم الإصلاحية؛ إذ ركزت بعض الحركات الإصلاحية على الجانب التربوي، وبعضها على الجانب السياسي، وأخرى على الجانب العقدي، إلخ .

أما مدرسةُ إسلامية المعرفة، فقد استهدفت بناء الرؤية الإسلامية القرآنية، وتفعيل النظام المعرفي الإسلامي، وحققت إنجازات مقدرة. ويُعد إسماعيل الفاروقي من أبرز شخصيات الإصلاح الفكري الإسلامي وجهود النهوض الحضاري للأمة، والعَلَم الأبرز في مدرسة إسلامية المعرفة؛ حتى غدا إنتاجه الفكري، وتنظيراته في مجال تأصيل العلوم، وتأسيساته المعرفية، مرجعاً مهمّا في أدبيات الأديان المقارنة والتأصيل الإسلامي للمعرفة، والتكامل المعرفي، ومنهجية التعامل مع التراث الإسلامي والفكر الغربي بمختلف تجلياته.

لكن رغم اغتيال الفاروقي قبل أن يكمل مشروعه، فإن كل من عرفه وسار على دربه واصل النضال فكانت النتيجة المرتقبة لجهود إسلامية المعرفة هي إنتاج كتب جامعية يمكن استخدامها فورا في جامعات العالم الإسلامي، كتب تستبعد فيها المخالفات الصارخة للعقيدة الإسلامية وللتصور الإسلامي للكون والإنسان. ويسمو مشروع إسلامية المعرفة إلى إنتاج نظريات منطلقة من التصور الإسلامي للكون والإنسان، والوصول إلى مشاهدات وتعميمات علمية. أما على المدى البعيد، فإن المأمول أن تسفر الجهود إلى اقتراب كبير بين المناهج والمفاهيم والحقائق والنظريات التي تم التوصل إليها في نطاق إسلامية العلوم الاجتماعية وبين قريناتها في نطاق جهود تطوير مناهج ومفاهيم العلوم الشرعية اقترابا يجعل الفصل بينهما أمرا تعسفيا.

المصادر:

1- إسماعيل راجي الفاروقي: صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، مجلة المسلم المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة (5)، 1409 هـ 1989 م.

2- إسماعيل راجي الفاروقي: إسلامية المعرفة المبادئ العامة، خطة العمل والإنجازات، قضايا إسلامية معاصرة، 1421 .هـ 2001 م، دار الهادي بيروت، ط1.

3- إسماعيل راجي الفاروقي: أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل، ترجمة عبد الوارث سعيد جامعة .الكويت، دار البحوث العلمية بالكويت 1983- 1421هـ.

المراجع:

4- إبراهيم عبد الرحمن رجب: تشخيص المشكلات النفسية/الاجتماعية وعلاجها، محاولة جزئية لتطبيق منهجية التكامل بين العلوم الاجتماعية و العلوم الشرعية، بحث قدم إلى الحلقة الدراسية الثانية التي نظمتها كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية وموضوعها "، نحو برنامج تكاملي لمناهج البحث العلمي بين معارف الوحي والعلوم الإنسانية" ، سبتمبر 1997 . http://www.ibrahimragab.com

5- الوجيز في إسلامية المعرفة، كتاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة، دار الهدى، دار البشير، دط، دت.

6- سعيد النورسي: كليات رسائل النور، صيقل الإسلام، المناظرات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، 2002م، ط3، مج8.

7- طسطاس عمار: التوحيد كرؤية معرفية في فكر الفاروقي، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، العدد الأول، سنة2005 م، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة(الجزائر).

8- عبد الواحد إبراهيم رجب: المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات النفسية الاجتماعية، مجلة العلو م الاجتماعية، .جامعة الكويت، مج 26 ، ع4 ، شتاء1998

9- محمد عمارة : إسلامية المعرفة ماذا تعني..؟، في التنوير الإسلامي -48، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 ، 2007م .

10- مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، ملخصا عن عبد الواحد إبراهيم رجب، المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات النفسية الاجتماعية، ، مج 26 ، ع4 ، شتاء 1998.

11- خطاب التأصيل لإشكالية المنهج في الفكر الإسلامي المعاصر(2 /1) نموذج طه عبد الرحمن وطه جابر العلواني بقلم :محمد همام،2007/04/30.

http://www.chihab.net/modules.php?name=News&file=article&sid= 1 377

12- عبد الله العقيل: المفكر الإسلامي المغترب إسماعيل راجي الفاروقي

http://www.alaqeelabumostafa.com/CharDetails.asp?CharID=12490

Les dispositifs numériques au sein des entreprises de presse en Algérie : Emergence de nouvelles formes de médiation.

Ardjouni Samir

Résumé

Cet article cherche à rendre visible les différentes représentations sociotechniques du secteur de la presse en Algérie. Il examine les modalités d'insertion des nouvelles technologies d'information et de communication (NTIC)[1] dans les organisations de presse algériennes. Notre étude nous a conduits à analyser le processus d'insertion technologique, en s'appuyant, notamment, sur l'observation participante et les entretiens compréhensifs. Nous avons suivi un plan de recherche adapté, qui répond à la structuration de l'évolution de la presse en ligne, en tentant de démêler le rapport existant entre les techniques et les usages. L'idée de ce travail est de permettre au lecteur de juger objectivement le plan organisationnel de la presse algérienne sous ses deux versions, sa cohérence, sa logique, ses différentes étapes de déploiement, sa structuration, ses points forts et ses imperfections.

D'une façon générale, nous traiterons dans cette communication

[1] A partir de cette note de bas de page, NTIC.

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة الى توضيح مختلف العروض الاجتماعية التقنية المتعلقة بالصحافة، ومعالجة مختلف طرق وتقنيات ادراج التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال في مختلف وسائل الاعلام الجزائرية. وقادتنا هذه الدراسة الى تحليل مسار ادراج هذه التكنولوجيات بالاعتماد على الملاحظة والمقابلات الشاملة. وقد اتبعنا خطة بحث مكيفة تتماشى مع التحولات والتطورات التي عرفتها الصحافة الالكترونية لمحاولة توضيح العلاقة الموجودة بين التقنيات والاستخدامات. وتدور الفكرة العامة لهذا العمل حول تمكين القارئ من اصدار حكم موضوعي على المستوى التنظيمي للصحافة الجزائرية في صيغتيها، تماسكها، ومنطقها، ومختلف المراحل التي مرت بها، بالإضافة الى تسليط الضوء على هيكلتها ونقاط قوتها وكذا عيوبها.

المصطلحات الرئيسية: الصحافة الإلكترونية، التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال، الوسائل الرقمية، أنترنت، الصحافيون.

Abstract

This research aims at making visible the various social and technical representations of the online press sector in Algeria. It thoroughly examines how new information and communication technologies are integrated with Algerian press companies, their components and their intended aims. We have followed an adapted research plan that fits the structuring and the development the online press. We have tried through the study to make clear the link between the techniques and usages. The core idea behind this work, is to allow the reader objectively assess the organizational plan of the Algerian press, its coherence, its logic, the sequence of the different steps deployment, its strengths and weaknesses, and the different approaches that are involved in this organizational system that is changing.

KeyWords: Online Press, Algeria, ICT (information and communication technologies), digital devices, Internet, Journalist**.**

la réalité des transformations du processus de la production et de la diffusion de l'information dans les entreprises de presse en Algérie à travers une recherche doctorale en sciences de la communication[2]

Mots Clés : Presse en ligne, Algérie, NTIC (Nouvelles technologies d'information et de communication), dispositifs numériques, Internet, Journalistes.

[2] ARDJOUN Samir, *Les modalités d'insertion des nouvelles technologies de l'information et de la communication dans les organisations de presse en Algérie*, Thése de doctorat en science de l'information et de la communication, PELISSIER Nicolas (dir.), Université de Nice Sophia Antipolis, Novembre 2014, 1 volume, 699 Pages.

Introduction

L'objectif de cette contribution est de dresser un portrait général sur l'insertion des NTIC dans les entreprises de presse en Algérie. Pour essayer de présenter une cartographie globale de cette numérisation, il convient plutôt de chercher à travers les différentes stratégies mises en place par les organisations médiatiques l'impact d'adoption d'internet, afin de nous efforcer de bien déchiffrer cette nouvelle reconfiguration médiatique. La question du rapport et de l'usage des techniques d'information et de communication est donc largement posée dans les sciences de l'information et de la communication[1], cela va nous permettre d'approfondir notre recherche sur cette transformation qu'a subie la presse traditionnelle algérienne depuis l'apparition d'Internet grand public.

L'essor de ces nouvelles techniques induit différents enjeux et ajustements qui sont liés à leurs caractéristiques d'usages. En effet, nous estimons que toute introduction d'un élément technique et tout changement de processus dans un organisme créé des moments de doute et de critiques. Devant la rapidité du progrès technique, et pour faire face aux nouveaux défis, les entreprises de presse algérienne, objet de notre recherche, font appel aux NTIC pour réaliser leurs objectifs, améliorer leur rendement et, et obtenir ensuite de meilleurs résultats.*« Par ailleurs, Internet n'est pas qu'un simple support d'information. En tant que technique générique, Internet pénètre en effet*

[1] A partir de cette note de bas de page, SIC.

toutes les sphères de l'activité humaine et favorise l'émergence de nouvelles pratiques sociales de communication. Dès la fin des années 1990, Internet s'intégrait à l'environnement du travail du journaliste, tous supports confondus devenant, en quelques années, un outil indispensable à l'exercice de son métier. Mais peut-on pour autant dire qu'Internet a révolutionné le journalisme ?»[1]. Le projet d'insertion technologique, les différentes mutations techniques, les modifications de certaines pratiques et la nouvelle réorganisation de l'activité médiatique constitueront les principaux points d'approfondissement de notre travail de recherche.

1- Etat des lieux de la presse écrite algérienne

La presse écrite algérienne nous offre un champ d'études très vaste, caractérisé par sa qualité d'ensemble et sa mosaïque de titres. Nous allons essayer, dans la description de ce moyen d'information, de cerner ses différentes compositions, tout en accordant une importance particulière à l'introduction évolutive des NTIC. Traiter un sujet portant sur la numérisation de la presse en Algérie nécessite, avant tout, de connaître l'état actuel dans lequel celui-ci évolue. En effet, la presse écrite traverse une situation très animée, marquée par une concurrence acharnée et entre ses différentes composantes. Il est important de signaler ici que notre recherche n'étudiera pas la presse écrite en Algérie sous toutes ses facettes comme l'exigerait, par exemple, une étude portant sur la presse écrite algérienne. Il s'agira de

[1] ESTIENNE Yannick, *Le journalisme après Internet*, Paris, Edition L'Harmattan, coll. Communication et civilisation, 2007, p. 14.

cadrer notre étude sur les modalités d'insertion des NTIC dans les entreprises de presse en Algérie, tout en réalisant un travail de compréhension sur ce dispositif.

A- Aperçu historique sur la presse algérienne

Un retour en arrière s'impose pour espérer avancer des jugements et d'éclaircissements sur les spécificités actuelles de la presse écrite en Algérie. Comme partout en Afrique et au Maghreb, la presse algérienne est née dans un environnement chargé de tensions et d'émotions. Jean-François Bayart, chercheur et expert en politique africaine, estime que : *« La problématique de la presse en Afrique ne peut être comprise qu'en termes historiques, ne serait-ce que parce qu'elle est perçue de la sorte par les Africains eux-mêmes et que sa mise en œuvre effective est conditionné »*[1].

Dans la société traditionnelle (rurale) algérienne, la communication de proximité avait une place considérable par rapport à l'information sur ce qui se passait à l'extérieur de la communauté. Evoquer le sujet de l'histoire de la presse algérienne nous amène à remonter jusqu'au lendemain de l'invasion de l'Algérie par l'armée française en 1830. Dans un environnement très sélective, les algériens étaient éloignés et écartés de l'activité jusqu'au début des années 1900, l'ensemble des journaux de cette époque sont restés sous la main mise et l'influence de la communauté européenne installée en

[1] BAYART Jean-François, « La problématique de la démocratie en Afrique noire : la bulle ecclésiale », *La politique africaine*, n° 35, 1991, p. 6.

Algérie. Au début des années 1900, on trouvait déjà en Algérie une vingtaine de journaux sous formes de nouvelles de guerre, utilisés notamment pour glorifier la mission des Français en Algérie. Cependant, les quelques essais et expériences lancés par des algériens ont été très vite bloqués par l'administration coloniale.

La période allant de 1900 à 1954 est considérée comme précurseur et charnière dans l'histoire de la presse algérienne, une centaine de journaux et de périodiques s'éditent, en arabe et le français, déjà en cette époque. « La presse nationaliste, venue un siècle après le début de la colonisation, pouvait difficilement faire contrepoids au rouleau compresseur de la presse coloniale mise en place depuis 1830. Il y avait eu plusieurs périodiques créés depuis cette date jusqu'à la veille du déclenchement de la guerre de libération nationale en 1954. Leur existence fut éphémère, du fait des pressions et des interdictions exercées par l'administration coloniale. Certains disparurent au bout de quelques numéros seulement »[1].

L'épreuve subie par la presse algérienne durant la première moitié du 20ème siècle forge une presse plus expérimentée et plus sensible aux vrais attentes des algériens. Après la guerre d'Algérie, un nouvel air vient souffler sur le champ médiatique ; plusieurs journaux, magazines, périodiques sont créés en temps très réduit. Cependant, d'après Zahir Ihaddaden : *« En 1962, la plupart des journalistes*

[1] AREZKI HIMEUR Mohamed, *Histoire de la presse en Algérie : du bras écrit de la colonisation à facebook et twitter*, NTIC magazine, Alger, mai 2011, p. 55.

formés pendant l'époque coloniale et la guerre de libération nationale se sont orientés vers d'autres secteurs de l'activité nationale, particulièrement l'administration et la diplomatie vidant ainsi le secteur de l'information de sa substance ; il fallait donc tout recommencer. Le recrutement de nouveaux journalistes s'était fait d'une façon désordonnée, très souvent sans l'exigence de la qualité »[1].

B- La démocratisation de la presse Algérienne

Le changement des règlementations et des dispositions du secteur de la presse entraîne un réaménagement fondamental dans l'activité. Trente ans après l'indépendance, le processus d'ouverture politique du pays s'est accéléré avec l'apparition notamment de nouvelles idéologies nationales et internationale. Le secteur médiatique n'a pas échappé à cette restructuration, il est considéré, d'ailleurs, comme avant-gardiste. En effet, un nombre important de journaux, encore présents aujourd'hui comme *El Watan, Libérté, Al Khabar, Le Soir d'Algérie, La Tribune*, ont tenté l'aventure au début des années 1990. Pour la première fois, les Algériens ont pu exprimer leurs inquiétudes et leurs espoirs. Les journaux naissaient par centaines ce qui aurait constitué une chose impensable quelques mois seulement auparavant. Des rédacteurs pouvaient désormais critiquer,

[1] IHADDADEN Zahir, *La presse écrite algérienne de 1965 à 1982*, Alger, Editions Ihaddaden, 1983, p. 101.

railler et faire douter les responsables ; la liberté d'expression était alors devenue réelle.

La suite de cette libéralisation est tragique ; la décennie noire vécue par l'Algérie voit plusieurs journalistes et responsables du secteur assassinés. Après une période très difficile, le secteur médiatique découvre un nouveau vocabulaire de liberté et de démocratie, désormais la transformation politico-sociale gagne davantage en maturité. Les autorités algériennes tentent, ces dernières années, de rétablir le calme et la sérénité au sein de la société, en offrant plus de libertés et moins de laxisme. La presse algérienne, témoin resté neutre durant les années de terrorisme, se trouve aujourd'hui, encore une fois, comme la source d'information la plus fiable et le premier dispositif du débat démocratique.

C- Le paysage de la presse écrite

Née dans un environnement antagonique, la presse algérienne se démarque par une formidable liberté et une propagation qu'on ne retrouve pas ailleurs. Belkacem Ahcene-Djaballah, professeur à l'école supérieur de journalisme a Alger, **recense 99 quotidiens diffusés, dont** les six **quotidiens du 7ème jour** qui paraissent le vendredi avec un titre différent ou sous la formule habituelle. Sa plate-

forme sur le web (Al Manach.com)[1], offre une idée précise de l'évolution de la presse écrite en Algérie :

- 6 propriétés publiques et 93 de statut privé, dont 55 en arabe et 44 en langue française,
- 7 édités à Constantine, 1 à Bejaia, 1 à Sétif, 1 à El Oued, 3 à Annaba, 1 à Mostaganem, 16 à Oran et 69 (siège) à Alger,
- 5 économiques,
- 9 sports,
- 84 d'informations générales.

Notre interlocuteur précise que six quotidiens sont dirigés par des femmes dont trois sont propriétaires de leur journal. *A noter que 77 titres sont imprimés et diffusés à Alger, les autres sont diffusés localement ou régionalement dans les départements proches du siège social.* L'espace médiatique algérien se consolide au début des années 2000 par un nouveau dynamisme ; l'arrivée d'Internet et son expansion à travers le territoire algérien donnent une alternative de revivification aux organes de presse.

[1] almanach-dz.com, Journaux-Quotidiens 2012, disponible sur Internet,http://www.almanach-dz.com/index.php?op=fiche&fiche=2775, Dernière consultation : le 28/04/2012.

2- Emergence de la culture numérique dans la presse Algérienne

Eric Scherer estime que : *« Les veilles méthodes de production de l'information ont vécu. Le journalisme à l'ancienne est mort. Vive le nouveau journalisme. Les médias d'informations ont perdu leur magistère et sont confrontés à de nouveaux acteurs »*[1]. L'introduction des NTIC bouscule les codifications socio-économiques, particulièrement dans le domaine de l'information et des médias. Cette technologie parvient à changer les habitudes des individus, qui deviennent des usagers à part entière. En ce sens, Jean Michel Corniou souligne que : *« Toute innovation réussie engendre très vite des usages que n'avaient pas prévus ses concepteurs* »[2].

Le développement de la presse algérienne du papier vers la numérique remonte à la fin des années 90. Ces nouveaux moyens de communication, qui permettent une meilleure fluidité dans la diffusion de l'information, redéfinissent les formes médiatiques classiques. Il existe un consensus général sur le rôle capital des nouvelles technologies à modifier le fonctionnement classique ; les NTIC offrent aux entreprises une nouvelle dynamique et une adaptation constante à la modernité. Ainsi, l'association technologique devient une tendance

[1] SCHERER Eric, *A-t-on encore besoin de journalistes ? Manifeste pour un journalisme augmenté*. Paris, Edition PUF, P. 156.

[2] CORNIOU Jean-Michel, *Le web 15 ans déjà…et après ?*, Paris, Edition Dunod, coll. Micro Informati, 2009, p. 83.

pour les entreprises modernes, un panorama qui ne remet pas en cause les fondements traditionnels. Désormais, la clé du succès réside dans d'exploitation des NTIC, les entreprises de presse écrite sont ainsi confrontées à de nouveaux agencements dans la production, le traitement, et la diffusion de l'information. Les nouveaux réseaux de communication constituent un véritable défi pour le journalisme, créent de nouveaux supports et mettent en place des produits multimédia alternatifs.

A- L'ouverture de la presse algérienne sur le web

« Devant de la spirale du silence imposée par les médias étatiques et paraétatiques étouffant les voix discordantes au secours officiel, beaucoup d'Algériens ont recouru aux journaux en ligne comme source d'informations et espace de discussion de l'actualité nationale. Si pour les sociétés ouvertes, ces nouveaux dispositifs incarnent l'offre idéale en information, garantissant son extension en éléments d'explication et sa diversité en visions confrontées, en Algérie, ou le contrôle de l'espace médiatique est assumé, les journaux en ligne représentent des sources alternatives pour s'informer de l'actualité nationale »[1].

[1] MERAH Aissa, « Discours de changement dans les discussions en ligne. Analyse socio-discursive », In : *le changment entre stratégies médiatiques et pratiques communicatives citoyennes*, (dir.) Farid Toumi, Fathallah Daghmani, Abderrahmane Amsidder, *Acte de la deuxième édition du colloque d'Agadir 2014*, p193.

Il faut signaler que la première étape dans l'histoire de ce média remonte au décret ministériel numéro 256-98[1], qui accorde aux entreprises le droit de créer leurs interfaces sur Internet. Cette disposition permet aux entreprises d'augmenter leurs capacités de diffusion et de franchir les limites géographiques algériennes en profitant des avantages alloués par la numérisation. Ce décret ministériel rompt avec la politique du monopole de l'Etat sur le secteur des nouvelles technologies, et attribue aux entreprises privées la possibilité d'investir dans l'offre d'Internet et de devenir des fournisseurs d'accès aux réseaux. Ce bouleversement fondamental dans l'environnement technologique procure à la presse écrite une nouvelle dimension à travers ces différents canaux de diffusion. Désormais, le domaine est ouvert aux investissements privés et à toute personne ayant la nationalité algérienne, en demandant une autorisation auprès du ministère de la Poste et des Technologies de l'Information et de la Communication. A partir de 1998, la majorité des entreprises algériennes font leurs premiers pas sur le net, la presse écrite n'échappe pas à ce mouvement, elle sera considérée comme précurseur du mouvement.

L'arrivée d'Internet a fortement influencé la presse, lui donnant aussitôt une nouvelle dimension et transformant de façon significative les modes de fonctionnement des salles de rédaction. Le secteur de l'information en Algérie, que ce soit dans les médias

[1] Ouverture du secteur d'internet aux privés, Décret ministériel numéro 256-98, Gouvernement algérien, Alger, 1998.

audiovisuels (télévision – radio) ou à travers la presse écrite, réalise enfin l'importance qu'offre les technologies d'Internet. Après un début timide, lent et divergent, ces médias finissent par mettre les moyens nécessaires pour élargir leur secteur d'activité à travers le web. Pierre Polome qualifie ce moyen technologique de paradoxe indispensable *: « Internet bouscule l'ordre fragile des médias… A défaut de vivre déjà cette vision futuriste, il est incontestable que l'idée même d'information est profondément remise en question par l'évolution numérique…en quinze ans, Internet a évolué de façon extrêmement rapide, passant d'un simple espace de consultation à un réseau de réseau où dominent l'interactivité et la participation »*[1].

L'essor de la relation entre la presse écrite et les NTIC, signe la naissance d'une nouvelle ère de la presse en Algérie. Un événement qualifié d'objet valise par Patrice Flichy[2]. Cette insertion technologique induit le début d'une période d'expérimentation et d'apprentissage des journalistes ; les témoignages interviewés donnent l'impression d'une adhésion complète à ce prolongement technologique. Cette phase d'observations des pratiques fondamentales s'étale sur plusieurs années, période exploitée par les journalistes pour édifier un modèle de presse en ligne reflétant les particularités individuelles et collectives de la société algérienne.

[1] POLOME Pierre, *Les médias sur Internet*, Toulouse, Edition Milan, coll. Les essentiels Milan, 2009 , p 4.

[2] FLICHY Patrice, « Multimédia, objet valise ou objet frontière », *Futuribles*, n° 191, *Les enjeux du multimédia*, Paris, 1994. Pp. 5-10.

Ainsi, la presse en ligne ne semble plus être un objet expérimental et instable comme à ses premières années. Plusieurs améliorations sont à signaler entre 1997 et 2002, en matière de développements techniques. Ce moment transitoire, repérable notamment aux multiples incertitudes qui l'accompagnent, cède ensuite le terrain à la phase d'objet frontière[1], qui correspond à l'étape de mise en marche de la véritable presse électronique algérienne.

B- **Les démonstrations du choix d'expansion sur le web**

Le secteur de la presse écrite algérienne enregistre un retard technique considérable en comparaison aux voisins Tunisiens et Marocains, alors que l'Algérie était désignée pour devenir un pays pivot et précurseur en matière technologique sur la Rive Sud de la Méditerranée. Les multiples interventions de différentes parties ont été capitales dans le choix des éditeurs d'investir sur la Toile pour échapper à la censure régulière appliquée à la presse écrite. L'universitaire Aissa Merah explique cet aboutissement : *« Devant l'échec des médias publics à répondre aux besoins des citoyens en information, la profusion pléthorique des titres de presse quotidienne et le monopole de l'audiovisuel, les journaux électroniques dédiés à l'information sur l'Algérie nouvellement créés ont présentés l'une des*

[1] FLICHY Patrice, *Multimédia, objet valise ou objet frontière*, *opus cité*, p. 68.

sources principales d'information et fournissent des espaces d'expression et de discussion politiques de prédilection »[1].

Désormais, l'ensemble des stratégies médiatiques est lié aux potentiels culturels et économiques que renferme ce compartiment, le public se tourne majoritairement vers les plateformes et les sites web des journaux dans l'objectif de s'informer mieux. Naima Abasse souligne que : *« Nous canalisons nos efforts sur la version électronique, notre but est de toucher plus de lecteurs à travers le monde. Nous estimons que ce secteur explose plus professionnellement, notamment, en associant le potentiel de nos sept millions d'immigrés à celui des générations montantes dans le pays »*[2].

Le marché de l'information écrite souffre d'un blocage multilatéral causé par un manque d'initiative et d'ambition, ajouté à une défaillance de la recherche scientifique en la matière. L'université algérienne est en décalage avec la réalité de cette activité, une situation qui confirme le choix des professionnels de chercher leurs modèles en dehors des frontières du pays afin de sauvegarder le métier, de survivre et d'affronter la concurrence des médias étrangers. Une nécessité abordée par Nicolas Pélissier, qui fait le constat en

[1] MERAH Aissa, « Discours de changement dans les discussions en ligne. Analyse socio-discursive », opus cité, p 194.

[2] ABASSE Naima, Directrice du journal *EL moujahid*, Entretien réalisé le : 2302/ 2012, Alger.

matière d'avancements de la recherche sur les nouveaux médias dans le bassin méditerranéen :

« Etant donné les enjeux liés au développement des médias et de la société de l'information dans certaines zones géopolitiques riches en promesses mais aussi en menaces potentielles, la recherche sur le journalisme pourrait être l'un des axes majeurs du développement et de coopération scientifiques et académiques entre universités… N'oublions pas que c'est à partir d'une école reconnue de journalisme qu'a été lancé ce réseau international »[1]. La presse en ligne tend aujourd'hui à s'imposer dans l'environnement médiatique algérien, désormais le nombre d'accès aux interfaces d'informations enregistre une accélération de plus en plus notable.

C- **La numérisation des salles de rédaction**

Née de l'élan des années 90 et ayant survécu à une terrible guerre civile, la presse écrite est le symbole d'une Algérie moderne et ouverte aux nouvelles tendances. Cette animation trouve en internet un nouveau refuge, plusieurs journaux pénètrent le web et adoptent de nouveaux concepts dans des circonstances de contraintes sociotechniques. De plus en plus de journalistes quittent la version papier et trouvent un lieu d'expression originale sur la toile ; plusieurs habitudes disparaissent, d'autres méthodes apparaissent. Les études sur la relation entre le support écrit et le support numérique montrent que les éléments graphiques de la page numérique renforcent les

[1] CORNU Lucienne, HASSANALY Parina, PELISSIER Nicolas (dir.), *Information et nouvelles technologies en Méditerranée : vingt ans de coopération en réseau*, Paris, Edition L'Harmattan, 2010, p. 87.

éléments connus du papier[1], une complémentarité qui pousse les éditeurs à transposer le contenu intégral des journaux sur le web. La visibilité internationale, la marque du journal et le repérage sur Internet sont les trois éléments qui bousculent l'emplacement de la presse écrite sur le web. Les premiers sites d'information algériens tentent alors, de mettre en considération les tendances socioculturelles des lecteurs-usagers

D'après l'expérimentation de notre terrain de recherche, nous avons constaté une admission technologique accomplie d'une manière arbitraire, bureaucratique, et sans négociations préalables entre les professionnels. Dès 1995, l'ensemble des titres de la presse écrite tente de se reconvertir techniquement en utilisant l'informatique comme l'outil favori de travail. Hafidh Daamache, témoigne qu' : *« A partir de la mi-90, la presse algérienne adopte une nouvelle tendance technologique, la généralisation de l'utilisation de l'outil informatique donne aux titres une nouvelle dimension pratique et une efficacité fonctionnelle. Les journaux francophones seront les précurseurs dans l'utilisation de l'informatique, une stratégie qui porte ses fruits rapidement, puisque le temps de la réalisation d'un journal est rétréci parallèlement au montage et à l'impression »*[2].

[1] TOUBOUL Annelise, « Le journal quotidien sur le web l'identité éditoriale au risque du formatage », Premier colloque franco-mexicain en Sic, Mexico, 8-10 avril 2002.

[2] DAAMECHE Hafid, Journaliste correspondant de l'*AFP* au bureau d'Alger, Entretien réalisé le : 04/10/ 2012, Alger.

En effet, le centre névralgique de cette stratégie d'insertion est l'adoption de l'outil informatique comme matière première de base. Ce cadre de transposition d'une ère traditionnelle fondée sur le papier à une condition modernisée engage d'une manière évidente la dimension informatique. Yannick Estienne expose l'augmentation de l'efficacité de ce travail : *« La numérisation de la production a permis de transférer progressivement sur support informatique l'intégralité des articles publiés sur le support papier. Au delà des changements dans l'organisation du travail et l'équilibre des métiers de la presse, l'informatisation des rédactions fut le préalable à l'émergence d'une véritable presse électronique. La numérisation des contenus a ainsi permis de constituer une mémoire électronique du journal capable de pallier la dimension éphémère de l'information de la presse. Elle a offert, par ailleurs, de vastes perspectives quant à la valorisation des archives du journal »*[1].

Les choix de l'outil informatique permettent aux journaux algériens en cette époque, de créer des banques de données et de concevoir des stocks importants d'archives virtuelles. L'insertion du multimédia, selon Jacques Gaudin, *« Consiste à découper ces données sous formes d'information élémentaire et à coder chaque élément obtenu sous forme de nombres entiers »*[2]. La perception du son,

[1] ESTIENNE Yannick, *Le journalisme après Internet, opus cité*, p. 60.

[2] GAUDIN Jacques, « Qu'est-ce qu'une image numérique ? », in : Daniel Bougnoux, Daniel Dayan, Serge Tisseron, Guillaume Soulez (dir.), in : *Médiamorphoses*, n°6, Paris : Puf, Col, INA, 2002, p. 100.

l'image et l'écrit qu'offre l'informatique, permettent aux journalistes de réaliser leurs tâches quotidiennes avec précision et ponctualité et dans des délais très brefs. L'utilisation de logiciels numériques de traitement des images et les différentes applications technologiques offrent aux journaux algériens un nouvel envol.

En Algérie, l'émergence de la presse électronique s'étend sur une période d'expérimentation qui a durée plusieurs années. En effet, les premières interfaces d'informations étaient très superficielles, par la suite, plusieurs modifications apparaissent et tentent de rendre homogène et cohérent ce nouveau média. L'absence d'une vraie politique de développement pour le secteur caractérise l'essor de l'information en ligne au pays, une condition qui conduit la presse électronique à n'être, dans un premier temps, qu'un produit dérivé de la version écrite.

Le quotidien *El Watan* est le premier journal à avoir créé une version électronique en novembre 1997, en transposant intégralement le contenu papier en version électronique, même si les stratégies étaient encore non définies et les équipes non constituées. Cette première tentative fait l'objet d'une mise à jour parallèle à celle du support écrit. En revanche, pour la presse arabophone, les choses sont un peu plus compliquées, le vocabulaire arabe, ses éléments graphiques et son lexique inadaptés à l'outil informatique empêchent certains journaux d'investir tôt dans les rédactions en ligne. Le journal *El Khaber*, est le premier titre arabophone à se reproduire sur le web

en avril 1998, un déclic qui engendre une multitude de raccordements web chez la majorité des organisations médiatiques.

Dans le tableau suivant, nous retraçons la chronologie du nomadisme des principaux journaux algériens sur Internet :

Tableau 1: Classement chronologique de l'apparition des sites en ligne de la presse écrite en Algérie

Journal	Date de la création du site	Appartenance
EL WATAN	Novembre 1997	Privé
EL KHABER	Avril 1998	Privé
LIBERTE	Janvier 1998	Privé
ECHAAB	Mars 1998	Public
HORIZONS	Juin 1998	Public
EL YOUM	Avril 1998	Privé
LE QUOTIDIEN D'ORAN	Février 1999	Privé
AKHER ESSAA	Avril 1998	Privé
OUEST TRIBUNE	Avril 1998	Privé
EL MOUJAHED	Juillet 1998	Public
LE JEUNE INDEPENDANT	Juin 1998	Privé

ENNASR	Juillet 1998	Public
EL JAZAIR NEW'S	Octobre 1998	Privé
LE MATIN	Octobre 1998	Privé
ECHOUROUK	Novembre 1998	Privé
LE SOIR D'ALGERIE	Novembre 1998	Privé
EL AHDATH	Mars 2000	Privé
LA NOUVELLE REBUBLIQUE	Mars 2000	Privé
EL BILAD	Mars 2000	Privé
L'AUTHENTIQUE	Mars 2000	Privé
EL MASSAA	Juin 2000	Public
EL HADDEF	Juin 2000	Privé
EL ASSIL	Juin 2000	Privé
EL KHABER AL OUSBOUI	Juin 2000	Privé
EL MOUSTAKBEL	Juin 2000	Privé
EL FEJR	Octobre 2000	Privé
L'EXPRESSION	Décembre 2000	Privé

3- Portrait des salles de rédaction multimédia

Comme nous l'avons vu précédemment, la politique d'insertion des NTIC dans les entreprises de presse en Algérie est surtout l'œuvre d'initiatives distinctives. Au milieu d'un paysage médiatique en pleine mutation, la presse écrite tente de se renouveler en évoluent vers un prototype établi en grande partie sur la technicité et l'informatique.

A- L'essor informatique dans les salles de rédaction

« L'informatisation des rédactions s'inscrit dans un large mouvement de réorganisation de la fabrication et de la production du journal. C'est l'ensemble de la chaîne des métiers de la presse qui se trouve alors directement affectée par ces changements. Dominé par la corporation des travailleurs du live, le secteur de la fabrication a sans nul doute connu les bouleversements les plus importants. Avec l'introduction des procédés modernes de fabrication et avec l'informatisation des rédactions, certains métiers se sont rapprochés et ont parfois fini par fusionner. D'autres ont tout simplement disparu »[1].

D'après notre enquête, il semble que les premières tentatives de numérisation des entreprises de presse algériennes semblent avoir être une tache très difficiles à réalisée. En dépit d'un environnement hostile à cette presse, une minorité de professionnels s'est décidée à

[1] ESTIENNE Yannick, *Le journalisme après Internet*, *opus cité*, p. 58.

mobiliser les maigres moyens existants pour passer à une nouvelle phase. L'objectif souhaité était d'insérer de nouvelles solutions techniques afin de renforcer et de consolider le rôle de la presse écrite algérienne sur le plan national et régional. Dans le même ordre d'idée, une vague de numérisation sans précédent est menée par la majorité des titres privés. Ces dispositifs technologiques représentaient, à l'époque, un investissement conséquent pour les journaux, compte tenu des prix prohibitifs des prestations et du matériel informatique. Les titres de la presse publique adoptent progressivement la nouvelle stratégie organisationnelle. Il faut rappeler que, durant les premières années de pratiques, la politique mise en place dans l'ensemble des journaux s'est orientée vers une manipulation manuelle, en l'absence d'outils informatiques et de ressources d'exploitation à forte valeur ajoutée.

Nabil Meghiref, journaliste ayant vécu cette transition au sein du quotidien *Le Soir d'Algérie*, témoigne : *« Cette complémentarité et cette implication de l'informatique dans notre travail participent à la création d'une nouvelle dynamique dans le journalisme algérien. Nous avons assuré avec succès cette transition obligatoire, en dépit d'une résistance active d'une poignée de professionnels opposée à cette ligne de développement. L'adaptation n'a pas tardé à se former autour de ces machines ; la vitesse de rédaction, une nouvelle identité,*

une information paramétrable seront les atouts majeurs de cette injection technique »[1].

Les premières tentatives de numérisation sont un non-événement pour la plupart des titres, la perte de l'identité professionnelle figure comme l'inconvénient principal de cette modernisation. Les dirigeants du secteur s'y opposent catégoriquement, en estimant que cette démarche allée renverser l'ensemble des pratiques traditionnelles. Le journaliste Nadir Kerri retrace les conjonctures de l'époque *: « En 1998, l'ère de la modernisation souffle sur la presse écrite en Algérie, il s'agit d'une époque historique dans le processus de modernisation des pratiques journalistiques. Nous sommes passés de l'époque du stylo et du papier à la dimension du multimédia, une transition difficile vue l'objection d'une tranche importante de professionnels et responsables »*[2].

B- Les apparences de la presse en ligne algérienne

Pour Gérard Goggin: *« Comme la rhétorique du journalisme citoyen, il est difficile de voir jusqu'où s'étend le journalisme mobile,*

[1] MEGHIREF Nabil, Directeur et rédacteur en chef de *DZAutos.com*, Entretien réalisé le : 1212/2011, Alger.

[2] KERRI Nadir, Journaliste au quotidien *El Watan*, Entretien réalisé le 23/12/ 2012, Alger.

et quelle signification il aura » [1]. La presse en ligne algérienne puise ses sources d'information et humaines auprès de la presse écrite, plusieurs particularités caractérisent ce paysage se manifestent après la transposition vers le web. En pleine mutation technologique, il est rare de voir un site web mobiliser à plein temps un journaliste. Bien au contraire, l'intérêt du site est de disposer d'un journaliste *« freelance »* rémunéré à la prestation et qui vit dans une rédaction classique, l'intérêt est double : informationnel et économique. La définition préalable de la presse en ligne dégage trois formes d'usage, tout en remarquant que le support électronique ne change pas sur le plan informationnel. Cette pratique journalistique bénéficie d'une proportion importante dans la lecture journalistique vu le repérage facile, l'accessibilité immédiate aux informations web, et une structuration hypertextuelle suffisamment claire.

Ingrid Alice Ngounou, certifie sur l'apport du numérique à la presse écrite en Afrique : *« Le contenu publié sur les sites est celui diffusé dans les éditions imprimées. La valeur ajoutée de ces sites, ou mieux de ce qui fait la singularité de ces sites, c'est la présence des rubriques qui émanent de l'offre de communication : sondage, livres d'or, forums de discussion, lettre d'information »*[2]. En Algérie, les

[1] GOGGIN Gerard.« The Intimate Turn of Mobile News », in G. Meikle, G. Redden (eds.), *News Online : Transformations and Continuities*, London, Macmillan, 2013, pp. 99-114.

[2] NGOUNOU Ingrid Alice, *Internet et la presse en ligne au Cameroun : naissance, évolution et usages*, Paris, Edition L'Harmattan, 2010, p. 102.

journaux en ligne constituent de très bonnes alternatives à la version papier, cependant, le processus d'adoption demeure très lent, il est entaché d'un cadre d'usage lacunaire et d'une stratégie organisationnelle très bordée. Cette contribution médiatique se compose généralement de trois grandes formes d'expansion :

- **Les sites de la presse écrite :** ils sont les prolongements des journaux papiers sous formes digitale et numérique. Dans l'ensemble, les journaux algériens continuent à privilégier le support imprimé et les sites web ne reprennent que les articles déjà rédigés et restent, de ce fait, figés ou presque durant toute la journée alors que l'actualité se poursuit. C'est finalement une mise en ligne pure du journal écrit. Cette sorte d'acculturation technique et de familiarisation avec l'outil informatique semble être la forme qui domine l'environnement médiatique en ligne en Algérie actuellement. Par ailleurs, dès l'entame de cette expérience, les journaux algériens favorisent le format PDF.
- **Les sites indépendants** : par le terme indépendants ou *« freelance »*, on désigne les journalistes citoyens ou des individus qui sont plus dans une démarche de presse citoyenne engendrée par la mondialisation des moyens technologiques. Cet espace d'information apparaît postérieurement à la généralisation de l'accès à Internet en Algérie et suite à la volonté d'une tranche de citoyens désireux de créer un espace d'information. En revanche, on ne trouve jamais, dans ce

prototype, d'articles signés, de comptes rendus de couvertures d'événements, de conférences de presse, de révélations, de scoops et d'interviews obtenus par les administrateurs de ces sites.

- **Les sites spécialisés** : au milieu des années 2000, le traitement informationnel en Algérie autorise l'émergence de quelques sites spécialisés. Ce sont des sites qui ont accompagné le boom de certains secteurs économiques dans les services à l'exemple de la téléphonie mobile, l'audiovisuel ou de la concession automobile. Ces sites tiennent leur crédibilité du fait que leurs fondateurs sont généralement d'anciens journalistes qui disposent déjà d'une expérience et d'un minimum de réseau leur permettant de se faire inviter dans les espaces d'échanges d'information, à savoir d'exercer le métier au même titre que le support papier. Il faut rappeler que le lieu principal de ce genre d'activité est le domicile, ces interfaces sont présentées comme des lieux de publicité intensive et, dans la grande majorité, persistent grâce aux contributions des entreprises économiques. En revanche, ce mouvement très actif en ses débuts s'est ralenti ces dernières années à cause des formules superficielles, centralisée sur des sujets uniques.

Conclusion

On observant la masse d'information grandissante et l'ensemble des métamorphoses signalées dans l'univers médiatique algérien, nous ne pouvons qu'affirmer le rôle mobilisateur joué par Internet dans la construction d'une nouvelle société orchestrée par l''information, permettant ainsi, un partage des connaissances et des savoir-faire sur un périmètre très élargi. Si à son décollage, l'expérience n'était qu'une tentative singulière destinée à une partie de privilégiés, ses potentiels techniques et l'engouement dont il a fait l'objet, ont rapidement suscité l'intérêt des médias traditionnels

A travers un ensemble d'outils de recherche regroupant le qualitatif et le quantitatif, nous avons tenté d'examiner un domaine encore en mode exploratoire et d'apporter, ainsi, les éléments de conception afin de mieux comprendre le fonctionnement de ces nouvelles plateformes d'information web. A travers notre épreuve d'étudier le mode de fonctionnement de la presse en ligne en Algérie, nous espérons contribuer, relativement, à l'enrichissement de la recherche scientifique et académique du sujet traité.

Au-delà des enjeux organisationnels, la révolution de la presse en ligne algérienne entraîne un véritable changement des paradigmes informationnels. La nouvelle offre technologique constitue, aujourd'hui, un défi pour l'ensemble des acteurs médiatiques. Les professionnels ne se contentent plus de mettre une simple version en ligne ; désormais, ils travaillent plus à la création et au renforcement

des nouveaux dispositifs à travers le web. Le déploiement des journaux algériens sur internet répond à la demande croissante des utilisateurs, ils sont d'ailleurs de plus en plus nombreux à choisir cette nouvelle catégorie médiatique.

Aujourd'hui, forte de son expérience et de sa qualité professionnelle, la presse choisit d'intégrer l'ensemble des dispositifs requis pour mener à bien ce projet d'insertion. En quinze années de pratique, des progrès marquants ont été signalés, la presse en ligne réussit à prendre une place significative dans la société sans pour autant faire disparaître les autres mécanismes existants. Dans cette course à l'insertion technologique, les médias algériens doivent se doter des moyens nécessaires à l'amélioration de l'aspect socioprofessionnel. La philosophie de la numérisation des médias exige une rigueur dans le traitement de l'information, or le risque de dérapage médiatique augmente de plus en plus dans un environnement très vulnérable.

Références bibliographiques

almanach-dz.com, *Journaux-Quotidiens 2012*, disponible sur Internet,http://www.almanach-dz.com/index.php?op=fiche&fiche=2775, Dernière consultation : le 28/04/2012.

ARDJOUN Samir, *Les modalités d'insertion des nouvelles technologies de l'information et de la communication dans les organisations de presse en Algérie*, Thèse de doctorat en science de l'information et de la communication, PELISSIER Nicolas (dir.), Université de Nice Sophia Antipolis, Novembre 2014, 1 volume, 699 Pages.

AREZKI HIMEUR Mohamed, *Histoire de la presse en Algérie : du bras écrit de la colonisation à facebook et twitter*, NTIC magazine, Alger, mai 2011.

BAYART Jean-François, « La problématique de la démocratie en Afrique noire : la bulle ecclésiale », *La politique africaine*, n° 35, 1991.

CORNU Lucienne, HASSANALY Parina, PELISSIER Nicolas (dir.), *Information et nouvelles technologies en Méditerranée : vingt ans de coopération en réseau*, Paris, Edition L'Harmattan, coll. Communication et civilisation, 2010, 162 pages.

ESTIENNE Yannick, *Le journalisme après Internet*, Paris, Edition L'Harmattan, coll. Communication et civilisation, 2007, 320 pages.

FLICHY Patrice, « Multimédia, objet valise ou objet frontière », *Futuribles*, n° 191, *Les enjeux du multimédia*, Paris, 1994.

IHADDADEN Zahir, *La presse écrite algérienne de 1965 à 1982*, Alger, Editions Ihaddaden, 1983, 410 pages.

GAUDIN Jacques, « Qu'est-ce qu'une image numérique ? », in : Daniel Bougnoux, Daniel Dayan, Serge Tisseron, Guillaume Soulez (dir.), in : *Médiamorphoses*, n°6, Paris : Puf, Col, INA, 2002.

GOGGIN Gerard.« The Intimate Turn of Mobile News », in G. Meikle, G. Redden (eds.), *News Online : Transformations and Continuities*, London, Macmillan, 2013.

MERAH Aissa, « Discours de changement dans les discussions en ligne. Analyse socio-discursive », In : *le changment entre stratégies médiatiques et pratiques communicatives citoyennes*, (dir.) Farid Toumi, Fathallah Daghmani, Abderrahmane Amsidder, *Acte de la deuxième édition du colloque d'Agadir 2014*.

NGOUNOU Ingrid Alice, *Internet et la presse en ligne au Cameroun : naissance, évolution et usages*, Paris, Edition l'Harmattan, 2010, 208 pages.

Ouverture du secteur d'internet aux privés, Décret ministériel numéro 256-98, Gouvernement algérien, Alger, 1998.

POLOME Pierre, *Les médias sur Internet*, Toulouse, Edition Milan, coll. Les essentiels Milan, 2009, 63 pages.

TOUBOUL Annelise, « Le journal quotidien sur le web l'identité éditoriale au risque du formatage », Premier colloque franco-mexicain en Sic, Mexico, 8-10 avril 2002.

Entretien :

ABASSE Naima, Directrice du journal *EL moujahid*, Entretien réalisé le : 2302/ 2012, Alger.

DAAMECHE Hafid, Journaliste correspondant de l'*AFP* au bureau d'Alger, Entretien réalisé le : 04/10/ 2012, Alger

KERRI Nadir, Journaliste au quotidien *El Watan*, Entretien réalisé le 23/12/ 2012, Alger.

MEGHIREF Nabil, Directeur et rédacteur en chef de *DZAutos.com*, Entretien réalisé le : 1212/2011, Alger